المثل السائر

في أدب الكاتب والشاعر

تحقيق

محمد محيي الدين عبد الحميد

الجزء الأول

مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

المثل السائر

فى أدب الكاتب والشاعر

تأليف

أبى الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم
المعروف بابن الأثير، الموصلى، المتوفى فى عام ٦٣٧ من الهجرة

بتحقيق

محمد محيى الدين عبد الحميد

المدرس فى قسم التخصص بكلية اللغة العربية
بالجامع الأزهر

الجزء الأول

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه

أما بعد ؛ فإنَّ بى من حُبِّ العربيّة والشَّغَف بها مايَدْفعُنى إلى احتمال المصاعب ، والرِّضا بركوب المخاطر والأهوال ، وبَذْل النَّفيسين الْوَقْتِ وَالراحةِ . وإنى لأَجِد من السرور بهذا مالا يبلغ معشارَهُ غريبٌ ألقى بين أهله عصا الترحال ، أو مُحِبٌّ لقى حبيبه بعد طول افتراق ، وواصله بعد طول تَجَنٍّ وصُدود .

وقد أخذت على عاتقى أن أقوم لهذه اللغة بما يَسَعُه جهدى من خدمة ، فلم أجد أنبلَ مَقْصِداً ، ولا أَسْمى غَرَضاً ، ولا أقرب عند الله قبولا ؛ من أن أتوَفَّر على كُتُب أسلافنا من علماء هذه اللغة ، فأحققها وأحاول ردَّها إلى الصورة التى خرجت عليها من أيدى مؤلِّفيها قبل أن يُصيبها تحريفُ النسَّاخ وتصحيف الناشرين ، أو مَسْخُهُم .

وأردت أن أجمع بذلك بين خلال أربع :

أولاها : أن أبتعد عن الغرور بالنفس والتفاخر بالتأليف .

وثانيتها : أن أظهر شباب هذه الأمة على تراثنا الذى ورثناه عن آباء لنا كانوا قادةَ العالم وأهل الرأى فيه يوم كان الناسُ كلهم يتيهون فى بَيْدَاوات الجهالة ويعيشون عيش السائمة والأنعام ، وأنا أعلم أنْ شبابنا اليوم ليس لهم الصبر والجلد على قراءة هذه الذخائر فى منظرها الذى يختاره لهم الورّاقون وتجار الكتب ، وأن من حسن الرأى أن نضع بين أيديهم كتباً بهيجة المنظر بديعة الرُّوَاء ؛ ليقبلوا عليها ، وينتفعوا بما فيها من علم .

وثالثتها : أن أثبت لهؤلاء الذين ينتقصون من قدر آبائنا وينالون منهم أنَّ لأولئك الآباء من المجد والمنزلة ما يفاخر به الأبناء ؛ وليس يضير الغادة الهيفاء

ضَنَانَةُ أهلها وبخلهم ولؤم أنفسهم ، ولا يغضّ من جمالها أن تظهر فى أطمار مهلهلة ولكنّ على مَنْ تكون من نصيبه أن ينفض عنها غبار الإهمال ، ويَجْلُوَها فى فاخر الديباج ؛ ليظهر له بَديعُ ماأودعها الله من فتنة وجمال .

ورابعتها : أن أنفى عن نفسى تُهمة التقصير فى وقت نحن أحوجُ مانكون إلى التساند والتضافر على إعادة رُسُومنا الدارسة إلى ما كانت عليه يوم كنا قادَةَ الشعوب وسادَةَ هذا العالم ؛ وليس للبلاد العربية كلها من بُدٍّ أن تسلك لوحدتها طريقَ الاتحاد فى المشاعر والمعارف ، وأقربُ مايصل بنا إلى هذه الغاية معاودةُ معارفنا القديمة مع اختيار أقربها إلى أنفسنا وقلوبنا فى فروع العلم كلها .

ولا يسعنى فى هذا المقام إلا أن أُنَبِّهك إلى حقيقة قد تُغفلها أو تتشكك فيها إذا عرضت لك ؛ أحبُّ أن تعلم أن الجهد الذى يبذله مَنْ يحقق كتاباً من كتب أسلافنا لايقل عن الجهد الذى يبذله مؤلف كتاب حديث ، بل أنا أجاهر بأن جهد الأول فوق جهد الثانى ، وفَرْق بين منْ يعمد إلى المعارف فيختار منها مايشاء ويدع منها مايشاء ، ثم يعبر عما اختاره بالأسلوب الذى يرضاه ، وبين آخر لايسعه إلا إثبات مابين يديه بالأسلوب الذى اختاره صاحبه منذ مئات السنين ، وهو بين عبارات شوّهها التحريف وغير الكثير منها تعاقب أيدى الكتاب والصفافين ، وأكثرهم ممن لايتصل بالعلم من قريب أو بعيد .

والكتاب الذى أضعه اليوم بين يديك هو كتاب « المثل السائر ، فى أدب الكاتب والشاعر » الذى صنفه فى عـــلم البلاغة الأديبُ الكاتبُ أبو الفتح نصرُالله ضياء الدين بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبدالواحد الشيبانى ، المعروف بابن الأثير ؛ وهو كتاب « جَمَعَ فيه فأوعى ، ولم يترك شيئاً يتعلق بفن الكتابة إلا ذكره[1] » ؛ وهو كتاب امرئ :

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان (٣ — ٦٦ الوطن بمصر) .

أَطاعَتْهُ أَنوَاعُ البَلاَغَةِ فاَهْتَدَى ... إِلَى الشِّعْرِ مِنْ نَهْجٍ إِلَيْهِ قَوِيمِ (١)

وستقف على رأينا فى هذا الكتاب عند الكلام على ترجمة المؤلف ، ولكنا نذكر لك ههنا عملنا فى هذا الكتاب لتدرك مقدار الجهد المضنى الذى بذلناه فى إخراجه على هذه الصورة التى نتمنى أن تخرج عليها كتب العربية ، بل كتب الثقافة الإسلامية عامة ؛ لتنقطع ألسنة الأفاكين الذين يتهمون آباءنا بقلة الإنتاج الصحيح ، و إذا اعترف أحدهم لهم ذكر فى جانب اعترافه هذا أن الإنتاج محدود لا أثر فيه لشخصية المنتج ، ولا برهان فيه على الاستقلال والحرية الفكرية ، فى الوقت يسطو هو على إنتاجهم وعصارة أذهانهم فينتحلها و ينسبها لنفسه ، وهو بمأمن من أن يعرف ذلك سواد الناس ودهاؤهم ؛ لأنهم لا يقرءون هذه الكتب .

لم يكن من رأيى أن أعمل على نشر هذا الكتاب الآن ؛ فقد كنت أرى أنّ غيره من كتب العربية أحق بالتقديم وأكثر عائدة ؛ ذلك لأن الكتاب قد طبع من قبل مراراً فى بولاق وفى غير بولاق ، ولأن الذين ينتفعون به عدد قليل من قراء العربية ، وهم ـ أو أكثرهم ـ مستطيعون أن ينتفعوا منه على حاله التى كان عليها . ولكن بعض الإخوان رجانى أن يكون هذا الكتاب فى مقدمة ما أخرجه من كتب العربية ، وذكر لى أنه وكثيراً من المشتغلين بتحصيل العلم يجدون العنت والمشقة فى تقويم عبارته التى عدت عليها عوادى المسخ والتشويه ؛ فوعدته بأن أفعل ؛ وكنت أظن الأمر هيناً حين قطعت على نفسى ذلك العهد ؛ ولكنى حينما شرعت فى مراجعة أصول الكتاب وجدت العجب العاجب ؛ فمن عبارات مشوهة ؛ إلى أعلام محرّفة تحريفًا أبعدها كثيراً عن أصلها ؛ إلى نصوص من الحديث النبوىّ والشعر العربىّ قد بدّلتها الأيدى التى تناولت الكتاب ، إلى غير ذلك مما ستراه فى أثناء قراءتك ؛ فلما رأيت ذلك هالنى الأمر وترددت

(١) هذا بيت من كلام ابن الأثير صاحب الترجمة يقوله عن نفسه .

كثيراً فى المضى فيه ، ولكنى لم أشأ أن أنقض ما قطعته من عهد ، أو لم أشأ أن تضعف عزيمتى عن إتمام ماشرعت فيه .

الكتاب إذاً كثير التحريف برغم أنه طبع مراراً ، فما من بُدٍّ لى من مراجعة أصوله على عدة نسخ ، وما من بُدٍّ لى من مراجعة جميع ماورد فيه من النصوص على مصادرها الأولى ، ثم ما من بدٍّ لى من الأناة والروية فى تفهم عبارات المؤلف والوقوف عند كل جملة منها ؛ وذلك أمر شاق يورث الضنى والكلال ، ولكنه ــ مع ذلك ــ ميسور لمن لا يبالى بما يجد فى هذا السبيل ؛ ولما لم يكن بد من ذلك كله أقدمت عليه ، وثابرت فيه مثابرة الحريص على إدراك الغاية والوصول إلى النتيجة ؛ وأعتقد أننى أدركت ــ بمعونة الله وتوفيقه ــ ما أردت ، وبلغت ما أملت .

فى دار الكتب المصرية جزء من نسخة خطية كتبها أبو المكارم بن منصور الباوشناى الموصلى ، وفرغ من كتابته فى يوم السبت الحادى والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة (٦٢٢) أثنتين وعشرين وستمائة من الهجرة ، وفى أول هذا الجزء إجازة بخط المؤلف كتبها بالموصل فى شهر شعبان من عام كتابته أجاز بها الشيخ أبامحمد المظفر عضد الدين بن محمد بن على بن جعفر بن زهير الدمشقى . وفى الدار نسخة كاملة مكتوبة بقلم معتاد ، ولم أعرف عن زمن كتابتها ولا عن قيمتها الأثرية شيئاً ؛ فراجعت نسختى على هاتين النسختين ، وهما المرموز لهما فى الحواشى بحرف د

وعند صديقى الأستاذ الفاضل الشيخ أحمد محمد شاكر القاضى الشرعى نسخة خطية تمت كتابتها فى نهار الأربعاء الموافق اليوم الخامس والعشرين من شهر جمادى الثانية فى عام (١٠٩٣) ثلاث وتسعين بعد الألف ، وكاتبها محيى الدين ابن ناصر الدين الصفورى ، وهذه النسخة منقولة عن نسخة كتبها أحمد بن على ابن محمد بن على بن محمد بن على بن مهران القويسنى وفرغ من كتابتها فى مستهل

جمادى الأولى من سنة سبع وعشرين وستمائة ، ويقول محيي الدين بن ناصرالدين الصفورى فى شأن النسخة التى نقل عنها نسختة : « وهى نسخة صحيحة ، رحم الله مؤلفها وكاتبها رحمة واسعة ، وهي على هذا التاريخ مكتوبة قبل موت المؤلف بعشر سنين أو مايقرب منها » اهـ، ثم كتب على حاشية آخر ورقة « بلغ مقابلة على أصله الذى كتب منه والله الموفق » اهـ . وقد تفضل الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر - حين علم قيامى على تحقيق الكتاب - فأعارنى هذه النسخة فراجعت عليها نسختى هذه ، وهى المرموز إليها فى حواشى الكتاب بحرف ا .

والكتاب مطبوع بمطبعة بولاق عام (١٢٨٢) اثنين وثمانين ومائتين وألف من الهجرة، بتصحيح الشيخ محمدالصباغ ، وهذه النسخة هىالمرموز إليها فى حواشى الكتاب بحرف ب .

والنسخالمطبوعة - عدا نسخةبولاق - هىالمرموز إليها فىالحواشى بحرف ج .

راجعت نسختى على هذه النسخ كلها ، وراجعت جميع النصوص التىاشتمل عليها الكتاب فى مظانها الأولى، فراجعت الحديث على أمهات كتب الحديث ، وراجعت الشعر على دواوين الشعراء وكتب التراجم والشعر ، مثل كتاب « الأغانى » وكتاب « ديوان الحماسة » وشرحه الذى صنفه أبو زكرياء يحيى بن على الخطيب التبريزى ، وكتاب طبقات الشعراء لابن قتيبة ، وكتاب « وفيات الأعيان » لابن خلكان وغيرها ، ودللتك فى أكثر الأحوال على مكان النص لترجع إليه إن شئت ، و بينت لك اختلاف النسخ فى الكثير الغالب مع بيان النسخة التى اعتمدتها فى إثبات العبارة التى أثبتها فى صلب الكتاب .

وضبطت جميع النصوص ، وهى كثيرة جدا ، وفسرت غريبها تفسيراً بقدر ماتمس له الحاجة .

ولم أشأ أن أناقش المؤلف فىآرائه ، كما لم أشأ أن أترجمللأعلام التىذكرها المؤلف ؛ لأن ذلك يخرج بنا عن الغرض الأصلى من تحقيق الكتاب و إخراج

صورة صحيحة منه بقدر ماوسعه الجهد ، ثم إن الأعلام التي وردت فيه ليست مما يعسر على المتأدبين معرفتها والوصول إلى تراجمها إن كانت بهم حاجة إلى معرفة ذلك

ولا أدعى أننى بلغت بالكتاب درجة الكمال التى تتوق إليها نفسى ، ولكنى أدعى غير متحرّج أنى بذلت فيه جهداً ليس بالقليل ، وأدعى — مع ذلك — أنّ هذه المطبوعة أدَقّ مايتداوله الناس من نسخ الكتاب ، وأقر بها إلى الصورة التى أرادها المؤلف منه ، وأصحُّ مايعوّل عليه أهل العلم .

فإن حاز عملى هذا قبول إخواننا فى الأقطار العربية فذلك من نعمة الله تعالى وتوفيقه وفضله ، وإن كانت الأخرى فمعذرتى أنى بذلت المستطاع ، ولم أترك جهدا كان من الممكن أن أبذله ؛ وبحَسْبِ المرء من عمله أن تحسُنَ نيته ، وأن يقوم فيه بالأسباب التى تبلّغ القصدَ عادةً ، وليس عليه أن يُدْرِك النجح أو تتم له المطالب .

ربِّ إنى أبرأ من الحول إلا بك ، وأسألك أن تَبْلُغَ بى من خير الدنيا والآخرة مالا سلطان عليه إلا لك ، ربِّ اغفر لى ولوالدىّ ، ولمن دخل بيتى مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبَارا ؟

كتبه المعتز بالله تعالى
أبو رجاء
محمد محيي الدين عبد الحميد

القاهرة { ٢٦ من رجب الفرد ١٣٥٨
١٠ من سبتمبر ١٩٣٩

ترجمة ابن الأثير

صاحب كتاب

المثل السائر، فى أدب الكاتب والشاعر

(٥٥٨ – ٦٣٧ هـ)

نسبه :

هوأبوالفتح نصرُ الله ضياء الدين بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عبد الواحد الشَّيْبَانى ، المعروف بابن الأثير ، الْجَزَرِىّ ، الْمَوْصِلِىّ .

مولده :

وُلد نصرُ الله بن الأثير فى يوم الخميس العشرين من شعبان عام ثمان وخمسين وخمسمائة ؛ بجزيرة ابن عمر .

وجزيرة ابن عمر – على مايقول ياقوت الحموى معاصرُ أبناء الأثير الثلاثة –: « بلدة فوق الموصل ، بينهما ثلاثة أيام ، ولها رُسْتَاق مخصب واسع الخيرات ، وأحسب أن أول مَنْ عَمَرَها الحسن بن عمر بن خطاب التغلبى ، وكانت له إمرة بالجزيرة وذكر ، قرابة سنة ٢٥٠ ، وهذه الجزيرة تحيط بها دجلة إلا من ناحية واحدة شبه الهلال ؛ ثم عمل هناك خندق أجرى فيه الماء ، ونصبت عليه رَحًى فأحاط بها الماء من جميع جوانبها بهذا الخندق[1] » ويقول ابن خلكان[2] : « أكثر الناس يقولون إنها جزيرة ابن عمر ، ولا أدرى مَنِ ابنُ عمر ، وقيل :

(١) انظر معجم البلدان (٣ – ١٠٢ مصر) .
(٢) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان (٢ – ٣٦ الوطن بمصر) .

إنها منسوبة إلى يوسف بن عمر الثقفى أمير العراقين ؛ ثم إنى ظفرت بالصواب فى ذلك ، وهو أن رجلا من أهل برقعيد من أعمال الموصل بناها ، وهو عبد العزيز ابن عمر ، فأضيفت إليه ، ورأيت فى بعض التواريخ أنها جزيرة ابنى عمر أوْسٍ وكاملٍ ، ولا أدرى أيضاً مَن هُمَا ، ثم رأيت فى تاريخ ابن المستوفى فى ترجمة أبى السعادات المبارك بن محمد (هو أخو نصر الله بن الأثير الذى نترجمه) أنه من جزيرة أوس وكامل ابنى عمر بن أوس الثعلبى » .

فالجزرىُّ فى نسب ابن الأثير نسبة إلى جزيرة ابن عمر هذه .

نشأته وحياته :

نشأ أبو الفتح نصر الله بن الأثير بجزيرة ابن عمر ، ثم انتقل مع والده إلى المَوْصِل ، وبها اشتغل بحفظ القرآن الكريم وتحصيل العلوم ، فحفظ القرآن ، وكثيراً من الأحاديث النبوية ، وطرفا صالحا من النحو واللغة وعلم البيان ، وشيئاً كثيراً من الشعر قديمه وحديثه .

ولما كملت له الأدوات قصد فى شهر ربيع الأول من عام سبع وثمانين وخمسمائة جَنَابَ السلطان الملك الناصر أبى المظفر صَلاَح الدين يُوسُفَ ابن الأمير نجم الدين أيُّوبَ بن شَادِى بن مَرْوان ؛ فاستعان بالقاضى الفاضل أبى على عبدِ الرحيم بن على ابن محمد بن حسن اللخمىّ البيسانىّ[1] ، وهو يومئذ آثر الناس عند صلاح الدين ؛ فوصله القاضى بخدمة صلاح الدين فى جمادى الآخرة من العام نفسه ، ولم تطل به الإقامة فى خدمة صلاح الدين ، حتى أرسل الملكُ الأفضلُ نور الدين على بن صلاح الدين يوسف بن أيوب ، إلى أبيه صلاح الدين ، يطلب أن يرسل إليه ابن الأثير ، فخيره صلاحُ الدين بين أن يقيم فى خدمته وأن ينتقل إلى خدمة ولده نور الدين ؛ فاختار أن ينتقل إلى خدمة نور الدين ، فمضى إليه فى شوال من العام نفسه ، وهو

(١) توفى القاضى الفاضل فى عام ٥٩٦ من الهجرة .

يومئذ شاب لم يكمل العقد الثالث من عمره ؛ فاستوزره الملك الأفضل ، وحسنت حالته عنده .

ولما خلص للملك الأفضل مُلْكُ دمشق بعد وفاة أبيه « استقلّ ضياء الدين ابن الأثير بالوزارة ، ورُدَّت أمورُ الناس إليه ، وصار الاعتماد فى جميع الأحوال عليه[1] » فأساء ضياء الدين السيرة و يقول ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة[2] إنه « شغف قلوبَ الجند إلى مصر حتى ساروا إليها فلقيهم الملك العزيز عماد الدين عثمان بن صلاح الدين ، وأكرم مثواهم » ؛ « ولما انفصل الجند عن دمشق فوض الملك الأفضل أمر الدولة إلى وزيره ابن الأثير وحاجبه الجمال محاسن ابن العجمى ، ولم يكن أحدهما أحسن سياسة من الآخر ، فأفسدا عليه الأحوال وكانا سببا فى زوال دولتِهِ[3] » ، ويقال[4] : « إن أهل البلاد حينما خرج الأفضلُ هموا بقتل ضياء الدين بن الأثير ، وإن الحاجب ابن العجمى أخرجه مستخفيا فى صندوق مقفل عليه ، ثم صار إليه وصحبه إلى مصر » ؛ ويقال : « إن الملك الأفضل حينما عاد إلى البلاد الشرقية طلب إلى ضياء الدين أن يخرج معه ليعود إلى خدمته ، فلم يقبل ذلك لأنه خاف على نفسه من جماعة كانوا يقصدونه» ولما استقر الملك الأفضل فى سميساط عاد إلى خدمته ، ولكنه لم يطل مقامه عنده ، وما عتم أن فارقه ، واتصل بخدمة الملك الظاهر غازى صاحب حلب ، وهو أخو الملك الأفضل ، ولم يطل مقامه عنده أيضاً ، ولا انتظم أمره ، فعاد إلى الموصل ، فلم يستقم حاله أيضاً ، فترك الموصل إلى إربل ، ثم فارقها إلى سنجار ،

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان : ٣ ـ ٦٥ .
(٢) ص ١٢٠ ج ٦ .
(٣) النجوم الزاهرة : ٦ ـ ١٢٢ .
(٤) وفيات الأعيان : ٣ ـ ٦٥ .

ثم عاد إلى الموصل واتخذها دار إقامته وكتب الإنشاء لصاحبها ناصر الدين محمود ابن الملك القاهر عزّ الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه . ويقول تقيّ الدين أحمد بن على المقريزى فى كتاب السلوك[1] : « واستوزر الأفضلُ الوزيرَ ضياء الدين نصر الله بن محمد ابن الأثير ، وفوض إليه أموره كلها ؛ فحسّن له طرد أمراء أبيه وأكابر أصحابه ، وأن يستجدّ أمراء غيرهم ؛ ففارقه جماعة منهم الأمير فخر الدين جَهَارَكْس ، وفارس الدين ميمون القصرى ، وشمس الدين سنقر الكبير ، وكانوا عظماء الدولة . فصاروا إلى الملك العزيز بالقاهرة فأكرمهم ، وولى فخر الدين أُسْتاَ داره وفوض إليه أمره ؛ وجعل فارس الدين وشمس الدين على صيداء وأعمالها ، وكان ذلك لهما ، وزادهما نابلس و بلادها ؛ وسار القاضى الفاضل أيضاً من دمشق ولحق بالقاهرة ، فخرج العزيز إلى لقائه ، وأجلّ قدومه وأكرمه ، فشرع القومُ فى تقرير قواعد ملك العزيز ، والأفضلُ فى شغل عنهم » ، ويقول أيضاً : إنه فى سنة ٥٩٠ تسعين وخمسمائة قويت الوحشة بين العزيز وأخيه الأفضل ، وتنافرت القلوب ، واضطربت أحوال الأفضل ، وخرج العزيز من القاهرة بعساكر مصر يريد الشام لينتزعها من أخيه الأفضل ، « وهمّ الأفضل بمراسلة أخيه العزيز واستعطافه ؛ فمنعه من ذلك وزيره ابن الأثير وعدة من أصحابه ، وحسنوا له محاربته[2] » ويقول أيضاً[3] : « وفى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة وصل الملك الأفضل إلى دمشق ، وتفرقت العساكر إلى بلادها ، ولزم الأفضل الزهد ، وأقبل على العبادة . وصارت أمور الدولة بأسرها مفوضة إلى وزيره ضياء الدين ابن الأثير ، فاختلت به الأحوال غاية الاختلال ، وكثر شاكوه » .

(١) القسم الأول ص ١١٥ .
(٢) القسم الأول ص ١١٦ .
(٣) القسم الأول ص ١٢٩ .

ومؤرخو هذا العصر مجمعون على أن ضياء الدين ابن الأثير كان فى وزارته سيىء السيرة مع رجال الدولة ، وأن أحوال السلطنة كانت تسوء بسببه ، ونحن نأخذ عليه أمرين : أحدهما : أنه كان يحاول الإيقاع بين الملك الأفضل وأخيه العزيز صاحب مصر . وكلما هم الأفضل بالاتفاق مع أخيه وإعادة الصفاء بينهما اجتهد ضياء الدين فى تنفيره وإبقاء الجفاء ، مع ما كانت تتطلبه حال المسلمين فى ذلك الوقت من اتحاد الكلمة واجتماع الشمل ؛ إذ كان الصليبيون فى نزاع دائم معهم وكانوا يهتبلون فرصة انقسامهم واختلافهم ليغيروا على البلاد وينتقصوها من أطرافها ؛ والأمر الثانى : أنه كان سببا فى إغضاب القاضى الفاضل وخروجه من دمشق إلى مصر ، مع أن القاضى الفاضل هو الذى قرّبه من الملوك وفتح له باب الاتصال بصلاح الدين على ماسبق بيانه .

ولسنا ندرى أكان ذلك راجعا إلى المحيط الذى كان يعيش فيه ضياء الدين، وهو محيط مضطرب دائم الاصطخاب كثير المنازعات والمشاكل ، أم كان يرجع إلى خلق فيه ؛ فإنا نلمح فى كتابته آثار الكبرياء والصلف والاعتداد بالنفس ، وهذا خلق ينأى بصاحبه كثيرا عن الحكمة والاتزان والنظر إلى الأمور بعين الإنصاف ووزنها بميزان الروية والعقل .

مؤلفات ابن الأثير :

ذكر ابن خلكان لابن الأثير عدة مؤلفات ، وصدّر كلامه عليها بقوله[1] : « ولضياء الدين من التصانيف الدالة على غزارة فضله وتحقيق نبله » .

ونحن نذكر لك ماذكره ابن خلكان وغيره من مصنفاته ؛ فنقول :

(١) أشهر هذه المؤلفات هو كتاب « المثل السائر ، فى أدب الكاتب والشاعر » ، وهو كتابنا هذا الذى نقدمه الآن ؛ ويقول عنه ابن خلكان[1] :

---

(١) وفيات الأعيان (٣ ــ ٦٦ الوطن بمصر) .

« وهو فى مجلدين جمع فيه فأوعى ، ولم يترك شيئاً يتعلق بفن الكتابة إلا ذكره »

(٢) ومن مؤلفاته كتاب « الوَشْى المرقوم ، فى حل المنظوم » ، ويقول عنه ابن خلكان[1] : « وهو مع وجازته فى غاية الحسن والإفادة » ، وقد طبع هذا الكتاب فى عام ١٢٩٨ من الهجرة بمطبعة ثمرات الفنون بمدينة بيروت ؛ ويقول المؤلف فى أوله : « ولما ألفت كتاب المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر قَصَرْت فصلا منه على ذكر هذه الطريقة[2] وأتيت فيها بالمعانى الجليلة التى تفتقر إلى الفهم الدقيق ، غير أنى أحلت فى مواضع منه على هذا الكتاب ؛ وجعلت لذلك رمز الاختصار ولهذا مكاشفة الإسهاب . . وبنيته على مقدمة وثلاثة فصول : الفصل الأول ، فى حل الشعر ؛ الفصل الثانى ، فى حل آيات القرآن ؛ الفصل الثالث ، فى حل الأخبار النبوية » اه .

(٣) ومن مؤلفاته كتاب « المعانى المخترعة ، فى صناعة الإنشاء » يقول عنه ابن خلكان[1] : « وهو أيضاً نهاية فى بابه » .

(٤) ومن مؤلفاته مجموع اختار فيه شعر أبى تمام والبحترى وديك الجن والمتنبى ؛ ويقول عنه ابن خلكان : وهو فى مجلد واحد كبير ، وحفظه مفيد ؛ وقال أبو البركات ابن المستوفى فى تاريخ إربل : نقلت من خطه فى آخر كتابه المختار ما مثاله :

تَمَتَّعْ بِهِ عِلْقاً نَفِيساً فإنَّهُ اخْـــتِيَارُ بَصِيرٍ بالأُمورِ حَكِيمِ
أَطَاعَتْهُ أَنْوَاعُ الْبَلَاغَةِ فَاهْتَدَى إِلَى الشِّعْرِ مِنْ نَهْجٍ إِلَيْهِ قَوِيمِ

(٥) ومن مؤلفاته « ديوان ترسل » ويقول عنه ابن خلكان : وهو فى

---

(١) وفيات الأعيان (٣ ـ ٦٦ الوطن بمصر) .

(٢) يشير إلى الباب العاشر من مقدمة الكتاب وهو فى الطريق إلى تعلم الكتابة وهو فى الجزء الأول (٧٦ ـ ١٤١) من هذه المطبوعة .

عدة مجلدات ؛ وذكر المؤلف نفسه فى كتاب المثل السائر أن رسائله تبلغ كثيراً من المجلدات .

(٦) ومن مؤلفاته « المختار من ديوان الترسُّل» و يقول عنه ابن خلكان : « وهو فى مجلد واحد » .

هذا ما ذكره ابن خلكان من مؤلفاته ، وابن خلكان معاصر لابن الأثير ، و إن لم يقابله ، وهو يقول فى شأنه[1] : « ولقد ترددت إلى الموصل من إربل أكثر من عشر مرات ، وهو مقيم بها ، وكنت أود الاجتماع به لآخذ عنه شيئاً لما كان بينه و بين الوالد رحمه الله تعالى من المودة الأكيدة ، فلم يتفق ذلك ، ثم فارقت بلاد المشرق ، وانتقلت إلى الشام ، وأقمت به مقدار عشر سنين ، ثم انتقلت إلى الديار المصرية ، وهو فى قيد الحياة ، ثم بلغنى بعد ذلك خبر وفاته وأنا بالقاهرة» اه .

ومن مؤلفاته التى لم يذكرها ابن خلكان ، ووقفنا عليها ما نذكره لك :

(٧) منها كتاب« الجامع الكبير ، فى صناعة المنظوم والمنثور » وهو يقول فى مفتتحه : « أما بعد فلما كان تأليف الكلام مما لا يوقف على غَوْره ، ولا يُعْرَف كنه أمره ، إلا بالاطلاع على علم البيان ، الذى هو لهذه الصناعة بمنزلة الميزان ؛ احْتَجْتُ حين شَدَوْتُ نبذة من الكلام المنثور ، إلى معرفة هذا العلم المذكور ، فشرعت عند ذلك فى تطلبه ، والبحث عن تصانيفه وكتبه ، فلم أترك فى تحصيله سبيلاإلا نهجته ، ولا غادرت فى إدراكه باباًإلا ولجته ، حتى اتضح عندى باديه وخافيه ، وانكشفت لى أقوال الأئمة المشهورين فيه ؛ كأبى الحسن على بن عيسى الرمانى ، وأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى ، وأبى عثمان الجاحظ ، وقدامة بن جعفر الكاتب ، وأبى هلال العسكرى ، وأبى العلاء محمد بن غانم

---

(١) وفيات الأعيان (٣ ــ ٦٥ الوطن بمصر) .

المعروف بالغانمى ، وأبى محمد عبد الله بن سنان الخفاجي ، وغيرهم ممن له كتاب يشار إليه ، وقول تعقد الخناصر عليه ؛ ثم لما مضى على ذلك مَلاَوَة من الدهر ، وانقضى دونه برهة من العمر ؛ لحت فى أثناء القرآن الكريم من هذا النحو أشياء ظريفة ، ووجدت فى مَطَاويه من هذا النوع نكتاً دقيقة لطيفة ، فعرضتها عند ذلك على الأقسام التى ذكرها هؤلاء العلماء وشرحوها ، والأصناف التى بينوها فى تصانيفهم وأوضحوها ؛ فألفيتهم قد غفلوا عنها ، ولم ينبهوا على شيء منها ، فكان ذلك باعثاً لى على تصفح آيات القرآن العزيز والكشف عن سره المكنون ؛ فاستخرجت منه حينئذ ثلاثين ضربا من علم البيان ، لم يأت بها أحد من أولئك العلماء الأعيان ، وكان ماظفرت به أصل هذا الفن وعمدته ، وخلاصة هذا العلم وزبدته » .

وفى دار الكتب المصرية نسختان خطيتان من هذا الكتاب : إحداهما مكتوبة فى عام ١٣١٤ من الهجرة ، وهى تحت رقم (٢٧٠ بلاغة) ، والثانية مكتوبة فى عام ١٢٠٥ من الهجرة ، وهي تحت رقم (١٦٦ مجاميع م) ؛ وفى مكتبتى الخاصة قطعة من هذا الكتاب .

وفى دار الكتب نسخة من كتاب «البديع» منسوبة إلى المبارك أبى السعادات مجد الدين بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى الجزرى ؛ وهو أخو ضياء الدين نصر الله بن الأثير صاحب المثل السائر ؛ وأبو السعادات المبارك هو مؤلف كتاب « النهاية ، فى غريب الحديث والأثر » ومؤلف كتاب « جامع الأصول ، فى أحاديث الرسول » ولم يعرف عنه أن له فى البلاغة كتاباً ، فإذا صح أن هذا الكتاب لأحد أبناء الأثير فالغالب أنه لضياء الدين نصر الله الذى نترجمه .

نقد المثل السائر وشروحه :

ولم يكد كتاب « المثل السائر ، فى أدب الكاتب والشاعر » يظهر حتى تداوله الناس وكتبوه ، وأخذوا فى التقريظ له ، والانتفاع به ، وذاع أمره فى البلاد ، حتى نقله الناس إلى بغداد ، وفيها الفقيه الأديب الشيخ عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبةالله بن محمد بن الحسين ، المعروف بابن أبى الحديد ، وهو شديد الاتصال بالوزير مؤيد الدين محمد أبى طالب بن أحمد بن محمد العلقمى ، فلما رأى تقريظ الناس للكتاب واشتغالهم بدراسته وتهافتهم على انتساخه تصدّى لمؤاخذته والرد عليه ، وعنته ، وجمع هذه المؤاخذات فى كتاب سماه : « الفلك الدائر ، على المثل السائر » ، وهو يقول فى مفتتح هذا الكتاب : « و بعد ؛ فقد وقفت على كتاب نصر الدين[1] بن محمد الموصلى المعروف بابن الأثير الجزرى المسمى كتاب المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ؛ فوجدت فيه المحمود والمقبول ، والمردود والمرذول ؛ أما المحمود منه فإنشاؤه وصناعته ، فإنه لا بأس بذلك ، إلا فى الأقل النادر ، وأما المردود منه فنظره وجدله واحتجاجه واعتراضه؛ فإنه لم يأت فى ذلك فى الأكثر الأغلب بما يلتفت إليه ، ولا بما يعتمد عليه ؛ فحدانى على تتبعه ومناقضته فى هذه المواضع النظرية أمور: منها إزراؤه[2] على الفضلاء ، وغضه منهم ، وعيبه لهم ، وطعنه عليهم ؛ فإن فى ذلك مايدعو إلى الغيرة عليهم ، والانتصار لهم؛ ومنها إفراطه فى الإعجاب بنفسه ، والتبجح برأيه ، والتقريظ لمعرفته وصناعته ، وهذا عيب قبيح يُحْبِطُ عمل الإنسان ، ويوجب المقت من الله والعباد ؛ ومنها أنه قد أومأ مراراً فى كتابه إلى عتاب دهره ، إذ لم يعطه على قدر استحقاقه ،

(١) كذا ، وابن الاثير هو نصر الله ، وليس هو نصر الدين ، كما عرفت فى نسبه الذى ذكرناه فى أول الترجمة ، وما نشك أنه تحريف .

(٢) لقد سلق ابن الأثير كثيرا من علماء هذه الأمة : منهم أبو الفتح بن جنى ، ومنهم أبو العلاء المعرى ، ومنهم أبو حامد الغزالى؛ فجزاه الله بتسليط ابن أبى الحديد عليه .

فأردنا أن نعرّفه أن الأرزاق ليست على مقادير الاستحقاق ، وأن الرزق مقسوم لايجلبه الفضل ، ولا يرده النقص ومنها أن جماعة من أكابر الموصل قد حسن ظنهم فى هذا الكتاب جدا ، وتعصبوا له حتى فضلوه على أكثر الكتب المصنفة فى هذا الفن ، وأوصلوا منه نسخاً معدودة إلى مدينة السلام (بغداد) وأشاعوه ، وتداوله كثير من أهلها؛ فاعترضت عليه بهذا الكتاب ، وتقربت به إلى الخزانة الشريفة المقدسة النبوية الإمامية المستنصرية ، عمر الله تعالى بعمارتها أندية الفضل ورِبَاعه وأطال بطول بقاء مالكها يدَ العلم وبَاعَه ، وجعل ملائكة السماء أنصاره وأشياعه ، كما جعل ملوك الأرض أعوانه وأتباعه ؛ وكان أكثر قصدى فى ذلك أن يعلم مصنفُ هذا الكتاب ورؤساء بلدته أن من أصاغر خدم هذه الدولة الشريفة ــ ولا أعنى نفسى فالعجب مُبير ، ولا أبيُّ عنى فثلى كثير (ثم أخذ فى مديح رجال مملكته بما يطول) ــ وهذا الكتاب وقع إلىّ فى غرة ذى الحجة من سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ؛ فتصفحته أوّلا أولا فى ضمن الأشغال الديوانية التى أنا بصَدَدها ، وعلقت هذا الكتاب فى أثناء تصفحه على المواضع المستدركة فيه إلى نصف الشهر المذكور فكان مجموع مطالعتى له واعتراضى عليه خمسة عشر يوما ، ولم أعاود النظر فيه دفعة ثانية ، وربما يسنح لى عند المعاودة نكت أخرى ، وإن وقع ذلك ألحقتها ، وقد سميت هذا الكتاب «الفلك الدائر ، على المثل السائر »؛ لأنه شاع فى كلامهم وكثر فى استعمالهم أن يقولوا لما باد ودثر : قد دار عليه الفَلَكُ ، كأنهم يريدون أنه قد طحنه ومحا صورته ، ومن ذلك قول أبى العتاهية :

إن كنت تَنْشدهم فإنّهُمُ ... همَدُوا وَدَار عَليْهمُ الفَلَكُ

وأنا أسأل الله المعونة والتوفيق ، وأستمنحه الهداية إلى سواء الطريق ؛ بمنه وكرمه » اهـ كلامه بحروفه .

ولا أحبُّ أن أعلق على هذا الكلام ، ولكنى أقول : إنى لما قرأت الكتاب ــ وكنت أفكر فى نشره بأسفل صفحات هذا الكتاب عند مواطن النقد ــ لم أجد فيه مايبعث على تحقيقه وبذل الجهد فيه ؛

ولم يكتف ابن أبي الحديد بهذا الكتاب ، بل هو ينتهز الفرصة في شرحه على نهج البلاغة ؛ فينقل كلام ابن الأثير و يعترض عليه ، اسمع إليه يقول فيه (١ - ٤٤١) : « وأنا أحكي ههنا كلام نصر الله بن محمد بن الأثير الجزري في كتابه المسمى بالمثل السائر في الكناية والتعريض ، وأذكر ماعندي فيه » اه ، ثم هو ينقل كلامًا طويلاً يقع في نسخة المثل السائر التي نقدمها لك اليوم في الجزء الثاني (من ١٩١ إلى ٢١٥) ثم يأخذ بعد ذلك في نقد كلامه نقداً يرجع إلى العبارة و إلى طريق عرضها ، ولا يرجع إلى لبابها وحقيقتها ، مثل أن يقول : « إنه (يعني ابن الأثير) اختار حد الكناية ، وشرع يبرهن على التحديد ، والحدود لا يبرهن عليها ، ولاهي من باب الدعاوى التي تحتاج إلى الأدلة ؛ لأن مَنْ وَضَعَ لفظ الكناية لمفهوم مخصوص لايحتاج إلى دليل ، كمن وضع لفظ الجدار للحائط لايحتاج إلى دليل » اه ، وأنت - أيها القارئ - لو رجعت إلى كلام ابن الأثير وجدت كلامه يتلخص في أن القوم الذين صنفوا في علم البيان من قبله قد عرّفوا الكناية بتعريف ، وأنه لا يرتضي هذا التعريف ، وهو يرى تعريفها بتعريف آخر ، و يرى تعريفه خيراً من تعريف السابقين ؛ وهو يبين أولاً ماينطبق عليه تعريف السابقين ، وما ينطبق عليه تعريفه هو؛ ثم يبرهن في أثناء ذلك على دعواه أن تعريفه خير من تعريف غيره ؛ فهذا البرهان - إن صحّ أن يكون برهاناً بالمعنى المعروف في علم الجدل - ليس على الحد كما زعم ابن أبي الحديد ، ولكنه على دعوى ادّعاها ، إنْ صَرَاحَةً و إنْ ضِمْناً ، وهي أن ماارتضاه من التعريف خير مما ذكره المتقدمون ؛ والواقع أن كتاب «الفلك الدائر» يبدو لمن يتصفحه وهو منصف أن روح التحامل هي التي أملته على مؤلفه ، وأنه كُتب مع رَغْبة مُلِحَّةٍ في النَّيْل من ابن الأثير والغَضّ من عمله . وليس معنى هذا الكلام أن ابن الأثير قد أصاب في الكتاب كله ، وأنه لا مطعن عليه ، ولكن الذي نريد أن نقرره في طمأنينة هو أن ابن أبي الحديد قد تعرض في الغالب لما لاينبغي أن يتعرض له أديب يؤثر اللباب على القشور ،

وترك أشياء هى أولى بالنظر والرعاية ، وعُذْرُه أنه قرأ الكتاب وكتب نقده عليه فى خمسة عشر يوما هو مشتغل فى أثنائها بعمله فى الدولة ؛ فهو ـ فيما نرى اليوم ـ أشبه بتقرير من تقريرات حضرات « الموظفين » فى أمر من الأمور التى يكلفون مباشرة تنفيذها ؛ إذ يتبونه وهم يعلمون أنه لن يقرأ ، وإن قرئ فلن يعمل بما فيه ؛ ومن قرأ كتاب « الفلك الدائر » ثم قرأ عشرة أوراق من شرح ابن أبى الحديد على نهج البلاغة فى مكان أى مكان منه يتبين له الفرق بين الكتابين ، ويدرك تمام الإدراك قيمة رأينا هذا فى هذا الكتاب

قال صاحب كشف الظنون (٢ ـ ٢٢٢ بولاق مصر) : « وشرحه أبو منصور موهوب بن أبى طاهر الجواليقى[١] المتوفى فى عام .... هـ ، وصنف بعضهم كتابا سماه « الروض الزاهر ، فى محاسن المثل السائر » وصنف عز الدين ابن أبى الحديد كتابا سماه «الفلك الدائر ، على المثل السائر » وصنف أبو القاسم محمود بن الحسين الركن السنجارى المتوفى فى عام ٦٤٠ هـ كتابا يرد فيه عليه وسماه « نشر المثل السائر ، وطى الفلك الدائر » وصنف صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى المتوفى فى عام ٧٦٤ هـ كتابا سماه « نصرة الثائر ، على المثل السائر » ، وصنف عبد العزيز بن عيسى كتابا سماه « قطع الدابر ، عن الفلك الدائر » اهـ .

رب اجعلنى من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ؛

رب ولا تُخْزِنى يوم القيامة ؛ واجعلنى عندك من المقبولين ؛ آمين ؟

كتبه المعتز بالله تعالى

أبو رجاء

محمد محيي الدين عبد الحميد

(١) كذا قال صاحب كشف الظنون ، وهو غير معقول ؛ لأن أبا منصور الجواليقى توفى فى عام تسعة وثلاثين وخمسمائة ، والمثل السائر صنف بعد الستمائة ، بل مولد مؤلفه بعد وفاة الجواليقى بعشرين عاما ؛ وإنما شرح الجواليقى أدب الكاتب لابن قتيبة فاعرف ذلك .

فهرس الأبواب

الواردة فى الجزء الأول من كتاب

« المثل السائر ، فى أدب الكاتب والشاعر »

المثل السائر

في أدب الكاتب والشاعر

بسم الله الرحمن الرحيم

نسأل الله رَبَّنَا أن يَبْلغَ بنا من الحمد ماهو أهْلُه ، وأن يُعَلِّمنا من البيان مايَقْصُر عنه مزيَّةُ الفضل[1] وأصْلُه ، وحِكمة الخطاب وفَصْله ؛ ونَرْغَبُ إليه أن يوفقنا للصلاة على نبينا ومولانا محمد رسوله الذى هو أفصح من نطق بالضاد ، ونَسَخَ هَدْيه شريعة كل هاد ، وعلى آله وصحبه الذين منهم من سَبَق وبَدَر ، ومنهم من صابر وصَبَر ، ومنهم من آوى ونَصر[2] .

و بعد ؛ فإن علم البيان لتأليف النظم والنثر بمنزلة أصول الفقه للأحكام وأدلّة الأحكام ؛ وقد ألف الناس فيه كتباً ، وجَلَبُوا ذَهَباً وحَطَبا ، وما مِنْ تأليف إلا وقد تَصَفَّحْتُ شينه وسينه[3] ، وعلمت غَثَّه وسَمِينه ؛ فلم أجد ماينتفع

---

(١) هكذا فى جميع نسخ الأصل ، وهو أصوب الوجهين ، وذلك لأن الفاعل لما كان مضافا إلى مذكرا كتسب منه التذكير ، ولما كان معطوفا على المذكر آثره بالاعتبار ، لاجرم أنه أتى بالفعل مذكرا لهذين الوجهين .

(٢) بدر : سبق ، ومثله بادر فى نحو قولك : بادرت الأمر ، وبادرت إليه ، تريد أنك سبقت الناس إلى فعله ، و «آوى ونصر» أراد به أهل المدينة من أنصار النبي صلى الله عليه وسلم ، ويشير إلى قوله تعالى فى سورة الأنفال «آية ٧٤» : (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) .

(٣) يريد جيده ورديئه ، وعبر بالشين عن شريف القول وجيده ، وعبر بالسين المهملة عن ساقط الكلام وسخيفه ؛ فأخذ من كل واحد من اللفظين حرفا ، وذلك

به فى ذلك إلا كتاب المُوَازَنة لأبى القاسم الحسن بن بِشْرٍ الآمدىّ ، وكتاب سر الفصاحة لأبى محمد عبد الله بن سِنَانٍ الْخَفَاجِىّ ، غير أن كتاب الموازنة أجمع أصولا ، وأجدى محصولا ، وكتاب سر الفصاحة ـ وإن نَبَّه فيه على نكت منيرة ـ فإنه قد أكثر ، مما قَلّ به مقدار كتابه ، مِنْ ذكر الأصوات والحروف والكلام عليها ، ومن الكلام على اللفظة المفردة وصفاتها مما لاحاجة إلى أكثره ، ومن الكلام فى مواضع شذَّ عنه الصوابُ فيها ، وسيرد بيان ذلك كله فى مواضع من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى . على أن كِلاَ الكتابين قد أهملا[1] من هذا العلم أبوابا ، ولربما ذكرا فى بعض المواضع قشورا وتركا لُبَابا ، وكنت عَثَرْتُ على ضروب كثيرة منه فى غضون القرآن الكريم ، ولم أجد أحدا ممن تَقَدَّمنى تعرّض لذكر شىء منها ، وهى إذا عُدَّتْ كانت فى هذا العلم بمقدار شَطْره ، وإذا نُظِر إلى فوائدها وُجِدت محتوية عليه بأسْرِه ، وقد أوردتها ههنا ، وشفعتها بضروب أخر مُدَوَّنة فى الكتب المتقدمة ، بعد أن حذفت منها ماحذفته ، وأضفت إليها ما أضفته ، وهدانى الله لابتداع أشياء لم تكن من قبلى مُبْتَدَعة ، ومنحنى درجة الاجتهاد التى لا تكون أقوالها تابعة وإنما هى مُتَّبَعَة ، وكل ذلك يظهر عند الوقوف على كتابى هذا وعلى غيره من الكتب .

من عادة العرب فى كلامهم ، وإن كانوا لايجرون فى ذلك على قياس متلئب ، انظر إلى قول الراجز :

قُلْنَا لَهَا قِفِى فَقَالَتْ قافْ ... لاَ تَحْسَبِى أَنَّا نَسِينَا الْإِيجَافْ

(١) هذا استعمال قليل ، والأكثر فى الضمير الذى يعود على كلا وكلتا أن يكون مفردا ؛ نظرا إلى لفظ كلا ، ومن الأكثر قوله تعالى فى سورة الكهف « آية ٣٣» (كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا) وقد جاء فى كلام العرب تثنية الضمير العائد إليها نحو قول الفرزدق :

كِلاَهُمَا حِينَ جَدَّ الجَرْىُ بَيْنَهُمَا ... قَدْ أَقْلَعَا وَكِلاَ أَنْفَيْهِمَا رَابِى

وقد بنيته على مقدمة ومَقَالَتَيْن ؛

فالمقدمة تشتمل على أصول علم البيان ؛

والمقالتان تشتملان على فروعه ؛ فالأولى فى الصناعة اللفظية ، والثانية فى الصناعة المعنوية .

ولا أدعى فيما ألفته من ذلك فضيلة الإحسان ، ولا السلامة من سلق(١) اللسان ؛ فإن الفاضل من تُعَدّ سَقَطاته ، وتحصى غَلَطَاته

ويُسِيء بالْإِحْسَانِ ظَنًّا ، لا كَمَنْ هُوَ بِابْنِهِ وَبِشِعْرِهِ مَفْتُونُ(٢)

وإذا تركت الهوى قلت : إن هذا الكتاب بديع فى إغرابه ، وليس له صاحب فى الكتب فيقال إنه من أخدانه أو من أتْرَابه ، مُفْرَد بين أصحابه ، ومع هذا فإنى أتيت بظاهر هذا العلم دون خافيه ، وحُمْتُ حول حماه ولم أقع فيه ؛ إذ الغرض إنما هو الحصول على تعليم الكلم التى بها تُنْظَم العقود وتُرَصَّع ، وتخلَب العقول فتُخْدَع ، وذلك شيء تحيل عليه الخواطر ، لاتنطق به الدفاتر .

واعلم — أيها الناظر فى كتابى — أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم ، الذى هو أنفع من ذوق التعليم ، وهذا الكتاب — وإن كان فيما يلقيه إليك أستاذا ، وإذا سألت عما ينتفع به فى فنه قيل لك هذا — فإن الدربة والإدمان أجدى عليك نَفْعاً ، وأهدى بصرا وسمعا ، وهما يُرِيَانِكَ الخبر عيانا ، ويجعلان

---

(١) سلق اللسان : حدته .

(٢) هذا بيت من الشعر لأبى تمام حبيب بن أوس الطائى من قصيدة له يمدح فيها الواثق بالله ، وأولها :

وَأَبِى الْمَنَازِلُ إِنَّهَا لَشُجُونُ وَعَلَى الْعُجُومَةِ إِنَّهَا لَتُبِينُ

وقد وقع هذا البيت فى جميع النسخ المطبوعة كأنه كلام منثور لايتميز مما قبله ولا مما بعده .

عندك من القول إمكانا ، وكلّ جارحة منك قلبا ولسانا ؛ فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك ، واستنبط بإدمانك ما أخطاك ، وما مثلى فيما مَهّدته لك من هذه الطريق إلا كَمَنْ طَبَعَ سيفا ووضعه فى يمينك لتقاتل به ، وليس عليه أن يخلق لك قلبا ، فإن حمل النصال ، غَيْرُ مباشرة القتال .

وَإِنَّمَا يَبْلُغُ الْإِنْسَانُ غَايَتَهُ مَا كُلُّ مَاشِيَةٍ بِالرَّحْلِ شِمْلَالُ(١)

ولنرجع إلى ما نحن بصدده ، فنقول : أما مقدمة الكتاب ، فإنها تشتمل على عشرة فصول :

الفصل الأول

فى موضوع علم البيان

موضوع كل علم : هو الشىء الذى يُسْأل فيه عن أحواله التى تعرض لذاته ؛ فموضوع الفقه هو أفعال المكلفين ، والفقيه يسأل عن أحوالها التى تعرض لها : من الْفَرْض والنَّفْل والحلال والحرام والندب والمباح ، وغير ذلك ، وموضوع

---

(١) هذا البيت لأبى الطيب المتنبى ، من قصيدته التى يمدح فيها أبا شجاع فاتكا ، والتى أولها :

لَاخَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلَا مَالُ فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إِنْ لَمْ تُسْعِدِ الحَالُ

والشملال ــ بكسر الشين وسكون الميم ــ الناقة القوية السريعة ، وفى نسخ الديوان « وإنما يبلغ الإنسان طاقته » و « بالرحل » هو بفتح الراء المهملة بعدها حاء مهملة أيضا ، وهذا موافق لما فى نسخ الديوان ، إلا التى شرح عليها العكبرى ، فإن فيها « بالرجل » بكسر الراء ، وبالجيم ــ وعبارة العكبرى تدل على أنه كذلك قرأها

الطبِّ هو بدن الإنسان ، والطبيب يسأل عن أحواله التى تعرض له من صحته وسقمه ، وموضوع الحساب هو الأعداد ، والحاسب يُسْأل عن أحوالها التى تعرض لها من الضرب والقسمة والنسبة ، وغير ذلك ، وموضوع النحو هو الألفاظ والمعانى ، والنحوى يسأل عن أحوالهما فى الدلالة من جهة الأوضاع اللغوية ، وكذلك يجرى الحكم فى كل علم من العلوم ، وبهذا الضابط انفرد كل علم برأسه ، ولم يختلط بغيره ، وعلى هـــذا فموضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة ، وصاحبه يسأل عن أحوالهما اللفظية والمعنوية ، وهو والنحوى يشتركان فى أن النحوىّ ينظر فى دلالة الألفاظ على المعانى من جهة الوضع اللغوى ، وتلك دلالة عامة ، وصاحب علم البيان ينظر فى فضيلة تلك الدلالة ، وهى دلالة خاصة ، والمراد بها أن يكون على هيئة مخصوصة من الحسن ، وذلك أمر وراء النحو والإعراب ، ألا ترى أن النحوى يفهم معنى الــكلام المنظوم والمنثور و يعلم مواقع إعرابه ، ومع ذلك فإنه لايفهم مافيه من الفصاحة والبلاغة ، ومن هُهُنَا غلط مُفَسِّرو الأشعار فى اقتصارهم على شرح المعنى وما فيها من الــكلمات اللغوية ، وتبيين مواضع الإعراب منها ، دون شرح ماتضمنته من أسرار الفصاحة والبلاغة .

الفصل الثانى

فى آلات علم البيان وأدواته

اعلم أن صناعة تأليف الــكلام من المنظوم والمنثور تفتقر إلى آلات كثيرة ، وقد قيل : ينبغى للكاتب أن يتعلق بكل علم ، حتى قيل : كلُّ ذى علم يَسُوغ له أن يَنْسُبَ نفسَه إليه فيقول : فلان النحوى ، وفلان الفقيه ، وفلان المتكلم ،

ولا يسوغ له أن ينسب نفسه إلى الكتابة فيقول : فلان الكاتب ، وذلك لما يفتقر إليه من الخوض فى كل فَنٍّ .

ومِلاكُ هذا كلّه الطبعُ[١] ؛ فإنه إذا لم يكن ثَمّ طبع فإنه لا تغنى تلك الآلات شيئاً ؛ ومثال ذلك كمثل النار الكامنة فى الزناد والحديدة التى يقدح بها ؛ ألا ترى أنه إذا لم يكن فى الزناد نار لا تفيد تلك الحديدة شيئاً ؟ .

وكثيراً ما رأينا وسمعنا من غرائب الطباع فى تعلّم العلوم ، حتى إن بعض الناس يكون له نَفَاذ فى تعلم علم مُشْكل المَسْلَك صَعْب المأخذ ، فإذا كُلِّفَ تعلّمَ ماهو دونه مِنْ سَهْل العلوم نَكَص على عَقِبَيْه ، ولم يكن له فيه نَفَاذ .

وأغرب من ذلك أن صاحب الطبع فى المنظوم يُجِيدُ فى المديح دون الهجاء ، أو فى الهجاء دون المديح ، أو يجيد فى المراثى دون التهانى ، أو فى التهانى دون المراثى ، وكذلك صاحب الطبع فى المنثور ؛ هذا ابْنُ الحريرى صاحب المقامات ؛ قد كان ـ على ماظَهَرَ عنه من تَنْمِيق المقامات ـ واحداً فى فَنّه ، فلما حَضَرَ ببغداد ووقف على مقاماته قيل : هذا يستصلح لكتابة الإنشاء فى ديوان الخلافة ، ويَحْسُن أثره فيه ، فأُحضر ، وكُلِّف كتابة كتاب ، فأُفْحِم ، ولم يجر لسانه فى طويلة ولا قصيرة ، فقال فيه بعضهم :

شَيْخٌ لَنَا مِنْ رَبِيعَةِ الْفَرَسِ ... يَنْتِفُ عُثْنُونَهُ مِنَ الْهَوَسِ
أَنْطَقَهُ اللهُ بِالمشانِ وَقَدْ ... أَلْجَمَهُ فى بَغْدَادَ بِالْخَرَسِ

وهذا مما يُعْجَبُ منه .

وسُئِلْتُ عن ذلك فقلت : لاعجب ؛ لأن المقامات مدارها جميعها على حكاية تخرج إلى مخلص . وأما المكاتبات فإنها بحر لاساحل له ؛ لأن المعانى تتجدَّد فيها

---

(١) ملاك الشىء ـ بكسر الميم بزنة كتاب ، وبفتح الميم أيضا بزنة سحاب ـ : هو مايقوم به الشىء ، ومن هذا قولهم : القلب ملاك الجسد .

بتجدُّد حوادث الأيام ، وهى متجددة على عدد الأنفاس ، ألا ترى أنه إذا خطب الكاتبُ المُفْلِق عن دولة من الدُّوَل الواسعة التى يكون لسلطانها سيف مشهور ، وسعى مذكور ، ومَكَثَ على ذلك بُرْهة يسيرة لا تبلغ عشر سنين ، فإنه يدَوّن عنه من المكاتبات مايزيد على عشرة أجزاء ، كل جزء منها أكبر من مقامات الحريرى حجما ؛ لأنه إذا كتب فى كل يوم كتابا واحدا اجتمع من كتبه أكثر من هذه العدة المشار إليها ، وإذا نُخِلت وغُرْبلت واختير الأجود منها إذ تكون كلها جيدة فيخلص منها النصف ، وهو خمسة أجزاء ، والله يعلم ما اشتملت عليه من الغرائب والعجائب ، وما حصل فى ضمنها من المعانى المبتدعة ، على أن الحريرى قد كتب فى أثناء مقاماته رِقَاعًا فى مواضع عدة ، فجاء بها مُنْحَطّة عن كلامه فى حكاية المقامات ، لا ، بل جاء بالغثّ البارد الذى لانسبة له إلى باقى كلامه فيها ، وله أيضا كتابة أشياء خارجة عن المقامات ، وإذا وقف عليها أقسم أن قائل هذه ليس قائل هذه ؛ لما بينهما من التفاوت البعيد .

وبلغنى عن الشيخ أبى محمد [عبد الله بن أحمد] بن الخشاب النحوى رحمه الله أنه كان يقول : ابن الحريرىّ رجلُ مقاماتٍ : أى أنه لم يحسن من الكلام المنثور سواها ، وإن أتى بغيرها لايقول شيئا .

فانظر أيها المتأمل إلى هذا التفاوت فى الصناعة الواحدة من الكلام المنثور ؛ ومن أجل ذلك قيل : شيئان لانهاية لهما : البيان ، والجمال .

وعلى هذا فإذا ركب الله تعالى فى الإنسان طبعا قابلا لهذا الفن فيفتقر حينئذ إلى ثمانية أنواع من الآلات .

النوع الأول : معرفة علم العربية من النحو والتصريف .

النوع الثانى : معرفة مايحتاج إليه من اللغة ، وهو المتداول المألوف استعماله فى فصيح الكلام غير الوَحْشِىِّ الغريب ولا المستكره المَعِيب .

النوع الثالث : معرفة أمثال العرب وأيامهم ، ومعرفة الوقائع التى جاءت فى حوادث خاصة بأقوام ؛ فإن ذلك جرى مجرى الأمثال أيضاً .

النوع الرابع : الاطلاع على تأليفات من تقدمه من أرباب هذه الصناعة المنظومة منه والمنثورة ، والتحفظ للكثير منه .

النوع الخامس : معرفة الأحكام السلطانية : الإمامة ، والإمارة ، والقضاء ، والحِسْبة ، وغير ذلك .

النوع السادس : حفظ القرآن الكريم ، والتدرُّب باستعماله و إدراجه فى مَطاوى كلامه .

النوع السابع : حفظ ما يحتاج إليه من الأخبار الواردة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، والسلوك بها مَسْلَكَ القرآن الكريم فى الاستعمال .

النوع الثامن : وهو مختص بالناظم دون الناثر ـ وذلك علم العروض والقوافى الذى يقام به ميزان الشعر .

ولنذكر بعد ذلك فائدة كل نوع من هذه الأنواع ؛ ليعلم أن معرفته مما تَمَسُّ الحاجة إليه ، فنقول :

أما علم النحو فإنه فى علم البيان من المنظوم والمنثور بمنزلة أبجد فى تعليم الخط وهو أول ما ينبغى إتقان معرفته لكل أحد ينطق باللسان العربى ، ليأمن مَعَرَّةَ اللحن ، ومع هذا فإنه ، و إن احتيج إليه فى بعض الكلام دون بعض لضرورة الإفهام ، فإن الواضع لم يخص منه شيئاً بالوضع ، بل جعل الوضع عاما ، و إلا فإذا نظرنا إلى ضرورته وأقسامه المدوَّنة وجدنا أكثرها غير محتاج إليه فى إفهام المعانى ، ألا ترى أنك لو أمرت رجلا بالقيام فقلت له : قُومْ ، بإثبات الواو ولم تجزم ، لَمَا اختل من فهم ذلك شىء ، وكذلك الشرط لو قلت : إنْ تَقُوم أقُوم ، ولم تجزم ، لكان المعنى مفهوماً ، والفضلات كلها تجرى هـــذا المجرى ، كالحال والتمييز

والاستثناء ، فإذا قلت : جاء زيدٌ راكبْ ، وما فى السماء قَدْرُ راحةٍ سحابْ ، وقام القوم إلا زيْد ، فلزمت السكون فى ذلك كله ، ولم تبين إعرابا ؛ لما توقّف الفهم على نصب الراكب والسحاب ، ولا على نصب زيد ، وهكذا يقال فى المجرورات ، وفى المفعول فيه ، والمفعول له ، والمفعول معه ، وفى المبتدإ والخبر ، وغير ذلك من أقسام أخر لاحاجة إلى ذكرها .

لكن قد خرج عن هذه الأمثلة ما لا يفهم إلا بقيود تُقَيّده ، وإنما يقع ذلك فى الذى تدل صيغته الواحدة على معانٍ مختلفة ، ولنضرب لذلك مثالا يوضحه فنقول :

اعلم أن من أقسام الفاعل والمفعول ما لايفهم إلا بعلامة كتقديم المفعول على الفاعل ؛ فإنه إذا لم يكن ثم علامة تبين أحدهما من الآخر وإلا أشكل الأمر كقولك : ضَرَبَ زيْد عَمْرو ، ويكون زيد هو المضروب ؛ فإنك إذا لم تنصب زيداً وترفع عمراً ، وإلا لايفهم ما أردت ؛ وعلى هذا ورد قوله تعالى : (إنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) .

وكذلك لو قال قائل : ما أحْسَن زيْد ، ولم يبين الإعراب فى ذلك ، لما علمنا غرضه منه ؛ إذ يحتمل أن يريد به التعجب من حسنه ، أو يريد به الاستفهام عن أى شيء منه أحسن ، ويحتمل أن يريد به الاخبار بنفى الإحسان عنه ، ولو بين الإعراب فى ذلك فقال : ما أَحْسَنَ زَيْداً ، وَما أَحْسَنُ زَيْدٍ ، وما أحْسَنَ زَيْدٌ ؛ علمنا غرضه ، وفهمنا مَغْزَى كلامه ؛ لانفراد كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة بما يعرف به من الإعراب ؛ فوجب حينئذ بذلك معرفةُ النحو ؛ إذ كان ضابطاً لمعانى الكلام ، حافظاً لها من الاختلاف .

وأول من تكلم فى النحو أبو الأسود الدُّؤلى ، وسبب ذلك أنه دخل على ابنة له بالبصرة فقالت له : يا أبتِ مَا أَشَدُّ الحر ، متعجبة ، ورفعت أشدّ ، فظنها

مستفهمة ، فقال : شَهْرُ ناجر ؛ فقالت : يا أبتِ إنما أخبرتك ولم أسألك ! فأتى عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ذهبت لغة العرب ، ويوشك إنْ تطَاوَلَ عليها زمان أن تَضْمَحِلَّ ، فقال له : وما ذاك ؟ فأخبره خبر ابنته ، فقال : هَلُمَّ صحيفةً ، ثم أملى عليه «الكلام لايخرج عن اسم وفعل وحرف جاء لمعنى» ثم رسم له رسوما فنقلها النحويون فى كتبهم ،

وقيل : إن أبا الأسود دخل على زياد ابن أبيه بالبصرة فقال : إنى أرى العرب قد خالطت العجم ، وتغيرت ألسنتها ، أفتأذن لى أن أصنع مايُقيمُونَ به كلامهم ؟ فقال : لا ، فقام من عنده ، ودخل عليه رجل فقال : أيها الأمير ، مات أَبَانَا ، وَخلَّف بَنون ، فقال زياد : مات أبانا وخلف بنون !! مَهْ ، رُدُّوا علىّ أبا الأسود ، فردُّوه ، فقال له : اصنع ما كنتُ نَهَيْتُكَ عنه ، فوضع شيئاً .

ثم جاء بعده مَيْمُونٌ الأقرن فزاد عليه ، ثم جاء بعده عَنْبَسَة بن مَعْدَان المهرى ، فزاد عليه ، ثم جاء بعده عَبْدُ الله بن أبى إسحق الْحَضْرَمى ، وأبو عَمْرو ابن العلاء ، فزادا عليه ، ثم جاء بعدهما الخليل بن أحمد الأزْدِىّ ، وتتابع الناس ، واختلف البصريون والكوفيون فى بعض ذلك

فهذا مابلغنى من أمر النحو فى أول وضعه ، وكذلك العلوم كلها : يوضع منها فى مبادى أمرها شىء يسير ، ثم يزاد بالتدريج إلى أن يستكمل آخرا .

فإن قيل : أما علم النحو فمسلَّم إليك أنه تجب معرفته ، لكن التصريف لاحاجة إليه ؛ لأن التصريف إنما هو معرفة أصل الكلمة وزيادتها وحذفها وإبدالها ، وهذا لايضرُّ جهله ، ولا تنفع معرفته ، ولنضرب لذلك مثالا كيف اتفق ، فنقول : إذا قال القائل : رأيت سِرْدَاحًا[1] ، لا يلزمه أن يعرف الألف

(١) السرداح ــ بكسر السين المهملة وسكون الراء ــ الناقة الطويلة ، والضخم من كل شىء ، والأسد القوى الشديد ، والألف التى قبل آخره مزيدة للإلحاق بقرطاس وللصرفيين فيها كلام طويل لايسعنا أن نذكره فى هذه العجالة (انظر الجزء الأول من شرح شافية ابن الحاجب : ص ٥٧) .

فى هذه الكلمة زائدة هى أم أصلية ؛ لأن العرب لم تنطق بها إلا كذلك ، ولو قالت سِرْدَحاً ، بغير ألف ، لما جاز لأحد أن يزيد الألف فيها من عنده فيقول سرداحا ، فعلم بهذا أنه إنما ينطق بالألفاظ كما سمعت عن العرب ، من غير زيادةٍ فيها ولا نقص ، وليس يلزم بعد ذلك أن يعلم أصلها ولا زيادتها ؛ لأن ذلك أمر خارج تقتضيه صناعة تأليف الكلام .

فالجواب عن ذلك أنّا نقول : اعلم أنا لم نجعل معرفة التصريف كمعرفة النحو ؛ لأن الكاتب أو الشاعر إذا كان عارفا بالمعانى ، مختاراً لها ، قادراً على الألفاظ ، مُجِيداً فيها ، ولم يكن عارفاً بعلم النحو ؛ فإنه يفسد مايصوغه من الكلام ويَخْتَلّ عليه ما يقصده من المعانى ، كما أرَيْنَاكَ فى ذلك المثال المتقدم ، وأما التصريف فإنه إذا لم يكن عارفا به لم تَفْسُدْ عليه معانى كلامه ، وإنما تفسد عليه الأوضاع ، وإن كانت المعانى صحيحة ، وسيأتى بيان ذلك فى تحرير الجواب ، فنقول : أما قولك إن التصريف لاحاجة إليه ، واستدلالك بما ذكرته من المثال المضروب ؛ فإن ذلك لا يستمرُّ لك الكلامُ فيه ، ألا ترى أنك مَثَّلْتَ كلامك فى لفظة سِرْدَاحٍ ، وقلت : إنه لايحتاج إلى معرفة الألف زائدة هى أم أصلية لأنها إنما نقلت عن العرب على ماهى عليه من غير زيادة ولا نقص ، وهذا لايطرد إلا فيما هذا سبيله من نقل الألفاظ على هيئتها من غير تصرف فيها بحال، فأما إذا أريد تصغيرها أو جمعها والنسبة إليها فإنه إذا لم يعرف الأصل فى حروف الكلمة وزيادتها وحذفها وإبدالها يَضِلّ حينئذ عن السبيل ، وينشأ من ذلك مَجَالٌ للعائب والطاعن ، ألا ترى أنه إذا قيل للنحوى وكان جاهلا بعلم التصريف كيف تصغير لفظة اضْطراب فإنه يقول : ضُطَيْرِب ، ولا يلام على جهله بذلك ، لأن الذى تقتضيه صناعة النحو قد أتى به ، وذلك أن النحاة يقولون : إذا كانت الكلمة على خمسة أحرف وفيها حرف زائد أو لم يكن حذفته[(١)] نحو قولهم

(١) هذه عبارة لاتؤدى مقصود النحاة تماما ، والعبارة المستقيمة أن تقول : إذا

فى منطلق : مطيلق ، وفى جَحْمَرِش : جُحَيْمِر ؛ فلفظة منطلق على خمسة أحرف ، وفيها حرفان زائدان هما الميم والنون إلا أن الميم زيدت فيها لمعنى ؛ فلذلك لم تحذف ، وحذفت النون، وأما لفظة جَحْمَرِش فخماسية لازيادة فيها وحذف منها حرف أيضا ، ولم يعلم النحوى أن علماء النحو إنما قالوا ذلك مهملا اتكالا منهم على تحقيقه من علم الصرف ؛ لأنه لا يلزمهم أن يقولوا فى كتب النحو أكثر مما قالوا ، وليس عليهم أن يذكروا فى باب من أبواب النحو شيئا من التصريف ؛ لأن كلا من النحو والتصريف علم منفرد برأسه ، غير أن أحدهما مرتبط بالآخر ، ومحتاج إليه .

وإنما قلت : إن النحوى إذا سئل عن تصغير لفظة اضطراب يقول : ضطيرب ؛ لأنه لايخلو إما أن يحذف من لفظة اضطراب الألف أو الضاد أو الطاء أو الراء أو الباء ، وهذه الحروف المذكورة غير الألف ليست من حروف الزيادة ؛ فلا تحذف ، بل الأولى أن يحذف الحرف الزائد ويترك الحرف الذى ليس بزائد ؛ فلذلك قلنا : إن النحوى يصغر لفظة اضطراب على ضطيرب ؛ فيحذف الألف التى هى حرف زائد ، دون غيرها مما ليس من حروف الزيادة ، وأما أن يعلم أن الطاء

كانت الكلمة المراد تصغيرها على خمسة أحرف نظرت ؛ فإن كان فيها حرف زائد حذفته ، وإن لم يكن فيها حرف زائد حذفت الحرف الخامس ، هذا ، ويستثنى من قولنا «إن كان فيها حرف زائد حذفته» الحرف الزائد إذا كان مدا قبل الآخر ، سواء أكان ألفا نحو قرطاس وشملال وسرداح ، أم ياء نحو قنديل وكبريت وإبريق؛ أم واوا نحو عصفور وسبروت وأملود ؛ فإن هذا الحرف لايحذف ، بل يقلب ياء إن كان واوا أو ألفا ، ويبقى بحاله إن كان ياء . وإن كان الاسم الذى على خمسة أحرف يشتمل على حرفين زائدين نحو منطلق ؛ فإن الميم والنون زائدان ؛ نظرت ؛ فإن كان لأحد الزائدين مزية على الآخر كالميم فى منطلق فإن لها مزية وهى دلالتها على معنى الفاعل ؛ أبقيت الحرف ذا المزية وحذفت الآخر .

فى اضطراب مبدلة من تاء ، وأنه إذا أريد تصغيرها تُعَاد إلى الأصل الذى كانت عليه ، وهو التاء ، فيقال : ضُتَيْرِب ؛ فإن هذا لا يعلمه إلا التصريفى ، وتكليف النحوى الجاهل بعلم التصريف معرفة ذلك كتكليفه علم مالا يعلمه ؛ فثبت بما ذكرناه أنه يحتاج إلى علم التصريف ؛ لئلا يغلط فى مثل هذا .

ومن العجب أن يقال : إنه لا يحتاج إلى معرفة التصريف ، ألم تعلم أن نافع ابن أبى نعيم ، وهو من أكبر القراء السبعة قَدْراً ، وأفخمهم شأنا ، قال فى مَعَايِشَ : مَعَائِشَ ، بالهمز[1] ، ولم يعلم الأصل فى ذلك ؛ فأُوخِذ عليه ، وعِيبَ من أجله ، ومن جملة من عابه أبو عثمان المازنى ؛ فقال فى كتابه فى التصريف : إن نافعا لم يَدْرِ مَا الْعَرَبِيَّة ، وكثيراً مايقع أولو العلم فى مثل هذه المواضع ، فكيف الجهال الذين لامعرفة لهم بها ولا اطلاع لهم عليها ؟ وإذا علم حقيقة الأمر فى ذلك لم يغلط فيما يوجب قدحًا ولا طعنا ، وهذه لفظة معايش لا يجوز همزها باجماع من علماء العربية ، لأن الياء فيها ليست مبدلة من همزة ، وإنما الياء التى تبدل من الهمزة فى هذا الموضع تكون بعد ألف الجمع المانع من الصرف[1] ، ويكون بعدها حرف واحد ، ولا تكون عينا ، نحو سَفَائِن ، وفى هذا الموضع غلط نافع رحمة الله عليه ، لأنه لاشك اعتقد أن مَعِيشة بوزن فَعِيلة وجمعُ فَعِيلة هو على فَعَائل ، ولم ينظر إلى أن الأصل فى مَعِيشة مَعْيِشَة على وزن مَفْعِلة ، وذلك لأن أصل هذه

(١) معايش : جمع معيشة ، وهذه الياء هى عين الكلمة ، وليست زائدة ؛ وذلك لأن الميم فى أول الكلمة حرف زائد ، والياء إذا كانت مدّة ثالثة فى المفرد ينظر فيها ؛ فإن كانت زائدة كالياء فى نحو صحيفة وكتيبة قلبت همزة فى الجمع ؛ فتقول : صحائف وكتائب ؛ وإن كانت أصلية كالياء فى معيشة ومسيل ومصيبة ، لم تقلب همزة فى الجمع ، بل تبقى على حالها أو تردّ إلى أصلها إن كان أصلها الواو كما فى مصيبة ؛ وقدقالوا : معائش،بالهمز ؛ فعاملوا الياء الأصلية معاملة الياء الزائدة ، وهذا شاذ فى القياس ، ونحن لانوافق المؤلف وأبا عثمان المازنى على مارميا به نافعا من الجهالة ؛ بل نقرر أن العرب قد اعتادوا أن يعاملوا الشىء معاملة الشىء إذا أشبهه فى الصورة ، ولهذا نظائر كثيرة فى العربية .

الـكلمة من عاش التى أصلها عَيَشَ على وزن فَعَلَ ، ويلزم مضارع فَعَلَ المعتل العين يَفْعِلُ لتصح الياء ، نحو يَعْيِشُ ، ثم تنقل حركة العين إلى الفاء فتصير يَعِيش ، ثم يبنى من يَعِيش مفعول فيقال : مَعْيُوش به ، كما يقال : مَسْيُورٌ به ، ثم يخفف ذلك بحذف الواو ؛ فيقال : مَعِيش به ، كما يقال : مَسِير به ، ثم تؤنث هذه اللفظة فتصير مَعِيشة .

ومع هذا فلا ينبغى لصاحب هذه الصناعة من النظم والنثر أن يهمل من علم العربية مايخفى عليه بإهماله اللحن الخفى ؛ فإن اللحن الظاهر قد كثرت مفاوضات الناس فيه حتى صار يعلمه غير النحوى ، ولا شك أن قلة المُبَالَاة بالأمر واستشعار القدرة عليه توقع صاحبه فيما لايشعر أنه وقع فيه ؛ فيجهل بما يكون عالماً به ، ألا ترى أن أبا نُوَاسٍ كان معدودا فى طبقات العلماء مع تقدمه فى طبقات الشعراء ، وقد غلط فيما لايغلط مثله فيه ، فقال فى صفة الخمر :

كَأَنَّ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ فَوَاقِعِها حَصْبَاءُ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

وهذا لا يخفى على مثل أبى نواس ؛ فإنه من ظواهر علم العربية ، وليس من غوامضه فى شىء ؛ لأنه أمر نقلىّ يحمل ناقله فيه على النقل من غير تصرف ، وقول أبى نواس « صُغْرَى وكُبْرَى » غيْرُ جائز ، فإن فُعْلَى أفعل لايجوز حذف الألف واللام منها ، وإنما يجوز حذفهما من فُعْلَى التى لاأفعل لها ، نحوحُبْلَى ؛ إلا أن تكون فُعْلَى أفعل مُضَافَةً ، وههنا قد عريت عن الإضافة وعن الألف واللام ، فانظر كيف وقع أبو نواس فى مثل هذا الموضع مع قربه وسهولته ؟ .

وقد غلط أبو تمام فى قوله :

بِالْقَائِمِ الثَّامِنِ الْمُسْتَخْلَفِ اطَّأَدَتْ قَوَاعِدُ الْمُلْكِ مُمْتَدًّا لَهَا الطُّولُ

ألا ترى أنه قال : اطَّأَدَتْ ، والصواب اتَّطَدَتْ ؛ لأن التاء تبدل من الواو فى موضعين : أحدهما مَقِيس عليه ، كهذا الموضع ، لأنك إذا بنيت افْتَعَلَ من الوَعْد

قلت : اتَّمَدَ ، ومثله ماورد فى هذا البيت ؛ فإنه من وَطَد يَطِد ، كما يقال : وعد يعد ؛ فإذا بنى منه افتعل قيل : اتَّطَدَ ، ولا يقال اطّأد ، وأما غير المقيس فقولهم فى وجاه : تُجاه ، وقالوا : تُكْلَان ، وأصله الواو ؛ لأنه من وَكَلَ يَكِل ؛ فأبدلت الواو تاء للاستحسان ، فهذه الأمثلة قد أشَرْتُ إليها ليعلم مكان الفائدة فى أمثالها وتُتَوَقّى .

على أنى لم أجد أحداً من الشعراء المفلقين سلم من مثل ذلك ؛ فإما أن يكون لحن لحنا يدل على جهله مواقع الإعراب ، وإما أن يكون أخطأ فى تصريف الكلمة ، ولا أعنى بالشعراء من هو قريب عهد بزماننا ، بل أعنى بالشعراء من تقدم زمانه ، كالمتنبى (١) ، ومن كان قبله ، كالبحترى (٢) ، ومن تقدمه ، كأبى تمام (٣) ، ومن سبقه ، كأبى نواس ، والمعصوم من عَصَمَه الله تعالى .

على أن المخطئ فى التصريف أنْدَرُ (٤) وقوعا من المخطئ فى النحو ؛ لأنه قلما يقع له كلمة يحتاج فى استعمالها إلى الإبدال والنقل فى حروفها ، وأما النحو فإنه

---

(١) قد أخذ العلماء على المتنبي كثيرا من المآخذ ، وبعض هذه المآخذ مما أخطأ فيه المتنبي ، وبعضها — وهو الغالب — مما لايعدّ خطأ عند المنصفين ، والمكتبة العربية زاخرة بهذا المبحث ، والرجوع إلى شروح ديوانه كاف لإدراك هذه البغية

(٢) صنف أبو العلاء المعرى رسالة أسماها « عبث الوليد » وقد نشرت منذ عامين ، وفيها شيء ليس بالقليل مما أخذه على أبى عبادة البحترى .

(٣) ليس أبو تمام بأسعد حظا من أخويه ، فقد أخذ عليه العلماء شيئا كثيرا ، وارجع إلى الموازنة بين أبى تمام والبحترى ، ثم ارجع إلى الموشح للمرزبانى (ص ٣٠٣ وما بعدها) .

(٤) فى بعض النسخ « أنزر » والنزر (بفتح فسكون) كالنادر ، كلاهما بمعنى القليل .

يقع الخطأ فيه كثيرا حتى إنه ليشذ فى ظاهره فى بعض الأحوال، فكيف خافيه ؟ كقول أبى نواس فى الأمين[1] محمد رحمه الله :

يَاخَيْرَ مَنْ كَانَ وَمَنْ يَكُونُ ... إِلاَّ النَّبِيُّ الطَّاهِرُ المَيْمُونُ

فرفع فى الاستثناء من الموجب ، وهذا من ظواهر النحو ، وليس من خافيه فى شىء ، وكذلك قال أبو الطيب المتنبى :

أَرَأَيْتَ هِمَّـــةَ نَاقَتِي فِي نَاقَةٍ ... نَقَلَتْ يَداً سُرُحاً وَخُفًّا مُجْمَرَا[2]

تَرَكَتْ دُخَانَ الرِّمْثِ فِي أَوْطَانِهَا ... طَلَباً لِقَوْمٍ يُوقِدُونَ الْعَنْبَرَا[3]

وَتَكَرَّمَتْ رُكَبَاتُهَا عَنْ مَبْرَكٍ ... تَقَعَانِ فِيهِ وَلَيْسَ مِسْكاً أَذْفَرَا[4]

فجمع فى حال التثنية ؛ لأن الناقة ليس لها إلا ركبتان ، فقال : رُكَبَات ، وهذا من أظهر ظواهر النحو ، وقد خفى على مثل المتنبى .

ومع هذا فينبغى لك أن تعلم أن الجهل بالنحو لايقدح فى فصاحة ولابلاغة ، ولكنه يقدح فى الجاهل به نفسه ؛ لأنه رُسُومُ قومٍ تَوَاضَعُوا عليه ، وهم الناطقون

---

(١) هـذا مما أخذ على أبى نواس من قديم ، وقد ذكره قدامة فى نقد الشعر (ص ٧٣) وذكره المرزبانى فى الموشح (ص ٢٦٦ و ص ٢٧٢) وفى الموشح شىء من مآخذ العلماء على أبى نواس (من ص ٢٦٣ – ٢٨٩) .

(٢) هـذه الأبيات من قصيدة للمتنبي يمدح فيها أبا الفضل محمد بن العميد ، وأولها قوله :

بَادٍ هَوَاكَ صَبَرْتَ أَمْ لَمْ تَصْبِرَا ... وَبُكَاكَ إِنْ لَمْ يَجْرِ دَمْعُكَ أَوْ جَرَى

والسرح – بضم السين والراء – : السهلة السير، والخف المجمر : الشديد الصلب الذى نكبته الحجارة وليس بواسع ولا ضيق .

(٣) الرمث : نبت يوقد به ، وهو من مراعى الإبل ، والمراد أنه ترك الأعراب الذين يوقدون هذا النبات ، وانتجع قوما وقودهم العنبر .

(٤) الأذفر : الشديد الرائحة .

باللغة ، فوجب اتّباعهم ؛ والدليل على ذلك أن الشاعر لم ينظم شعره وغَرَضُه منه رفع الفاعل ونصب المفعول أو ماجرى مجراهما ، وإنمـا غرضه إيرادُ المعنى الْحَسَن فى اللفظ الحسن المتَّصِفَيْن بصفة الفصاحة والبلاغة ، ولهذا لم يكن اللحن قادِحًا فى حسن الكلام ؛ لأنه إذا قيل : جاء زيد راكب ، إن لم يكن حسنا إلا بأن يقال : جاء راكبا ــ بالنصب ــ لـكان النحو شرطا فى حسن الكلام ، وليس كذلك .

فتبين بهذا أنه ليس الغرض من نظم الشعر إقامة إعراب كلماته ، وإنمـا الغرض أمْرٌ وراء ذلك ، وهكذا يجرى الحـكم فى الخطب والرسائل من الـكلام المنثور .

وأما الإدغام فلا حاجة إليه لـكاتب ، لـكن الشاعر ربمـا احتاج إليه ؛ لأنه قد يضطر فى بعض الأحوال إلى إدغام حرف ، وإلى فك إدغام ؛ من أجل إقامة الميزان الشعرى .

النوع الثانى : وهو قولنا « إنه يحتاج إلى معرفة اللغة مما تداول استعماله » فسيرد بيانه عند ذكر اللفظة الواحدة ، والـكلام على جيدها ورديئها فى المقالة المختصة بالصناعة اللفظية .

ويفتقر أيضا مؤلِّفُ الـكلام إلى معرفة عدة أسماء لمـا يقع استعماله فى النظم والنثر ؛ ليجد إذا ضاق به موضع فى كلامه بإيراد بعض الألفاظ [سَعَةً فى] العدول عنه إلى غيره ، ممـا هو فى معناه ، وهذه الأسماء تسمى المترادفة ، وهى اتحاد المسمَّى واختلاف أسمائه ، كقولنا : الخمر ، والراح ، والمدام ؛ فإن المسمَّى بهذه الأسماء شىء واحد ، وأسماؤه كثيرة .

وكذلك يحتاج إلى معرفة الأسماء المشتركة ليستعين بها على استعمال التجنيس فى كلامه ، وهى اتحاد الاسم واختلاف المسميات ، كالعين ؛ فإنها تطلق على العين الناظرة ، وعلى ينْبُوع المـاء ، وعلى المطر ، وغيره ، إلا أن المشتركة تفتقر فى

الاستعمال إلى قرينة تخصِّصُها ؛ كى لا تكون مبهمة ، لأنا إذا قلنا : عين ، ثم سكتنا ، وقع ذلك على محتملات كثيرة من العين الناظرة والعين النابعة والمطر وغيره مما هو موضوع بإزاء هذا الاسم ، وإذا قرَنَّا إليه قرينةً تخصه زال ذلك الإبهام ؛ بأن نقول : عين حسناء ، أو عين نَضَّاخة[١] ، أو مُلِثَّة[٢] ، أوغيرذلك.

وهذا موضع للعلماء فيه مجاذبات جدلية :

فمنهم مَنْ ينكر أن يكون اللفظ المشترك حقيقةً فى المعنيين جميعاً ، ويقول : إن ذلك يُخِلُّ بفائدة وضع اللغة ؛ لأن اللغة إنما هى وضع الألفاظ فى دِلَالَتها[٣] على المعانى : أى وضع الأسماء على المسميات لتكون مُنْبِئَةً عنها عند إطلاق اللفظ ، والاشتراكُ لا بَيَانَ فيه ، وإنما هو ضدُّ البيان ، لكن طريق البيان أن يجعل أحد المعنيين فى اللفظ المشترك حقيقةً والآخَر مجازاً ؛ فإذا قلنا « هذه كلمة » ، وأطلقنا القول ؛ فهم منه اللفظة الواحدة ، وإذا قيدنا اللفظ فقلنا « هذه كلمة شاعرة » فهم منه القصيدة المقصدة من الشعر ، وهى مجموع كلمات كثيرة ، ولو أطلقنا من غير تقييد وأردنا القصيدة من الشعر لما فهم مرادنا ألبتة .

هذا خلاصة ماذهب إليه مَنْ ينكر وقوعَ اللفظ المشترك فى المعنيين حقيقةً ، وفى ذلك مافيه ، وسأبين ما يدخله من الخلل ؛ فأقول فى الجواب عن ذلك ما استخرجته بفكرى ، ولم يكن لأحد فيه قول من قبلى .

وهو أمّا قولك « إن فائدة وضع اللغة إنما هو البيان عند إطلاق اللفظ ، واللفظُ المشترك يخل بهذه الفائدة » فهذا غير مُسَلَّم ، بل فائدة وضع اللغة هو البيان والتحسين .

(١) عين نضاخة : كثيرة الماء أو فوّارة ، وفى القرآن الكريم : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ .

(٢) عين ملثة : دائمة الانسكاب ، والمراد المطر .

(٣) الأحسن أن يقول « لدلالتها » .

أما البيان فقد وفى [به] الأسماء المتباينة التى هى كل اسم واحد دلّ على مسمى واحد ، فإذا أطلق اللفظ فى هذه الأسماء كان بيناً مفهوما لايحتاج إلى قرينة ، ولو لم يَضَع الواضع من الأسماء شيئاً غيرها لكان كافياً فى البيان .

وأما التحسين فإن الواضع لهذه اللغة العربية التى هى أحسن اللغات نظر إلى مايحتاج إليه أرباب الفصاحة والبلاغة فيما يَصُوغونه من نظم ونثر ، ورأى أنّ من مهمات ذلك التَّجْنِيسَ ، ولا يقوم به إلا الأسماء المشتركة التى هى كل اسم واحد دل على مسميين فصاعدا ، فوضعها من أجل ذلك ، وهذا الموضع يتجاذبه جانبان يترجح أحدهما على الآخر ، وبيانه أن التحسين يقضى بوضع الأسماء المشتركة ، ووضْعُها يذهب بفائدة البيان عند إطلاق اللفظ ، وعلى هذا فإن وضعها الواضع ذهب بفائدة البيان ، وإن لم يضع ذهب بفائدة التحسين ، لكنه إن وضع اسْتَدْرَكَ ماذهب من فائدة البيان بالقرينة ، وإن لم يضع لم يستدرك ماذهب من فائدة التحسين ، فترجّح حينئذ جانب الوضع ؛ فوضع .

فإن قيل: فلم لاتنسب الأسماء المشتركة إلى اختلاف القبائل لا إلى واضع واحد ؟

قلت فى الجواب(١) : هـذا تعسف لاحاجة إليه ، وهو مدفوع من وجهين : أحدهما ماقدمت القول فيه من الترجيح الذى سَوّغ للواضع أن يضع . الآخر : أنّا نرى أنه قد ورد من الجموع ما يقع على مُسَمَّيَيْن اثنين ، كقولهم كِعَاب ، جمع كَعب الذى هو كعب الرجل ، وجمع كَعْبَة وهى الْبَنِيَّة المعروفة ، وإذا أطلقنا اللفظ فقلنا « كعاب » من غير قرينة لايُدْرَى ما المراد بذلك: أ كعب الرجل أم الْبَنِيَّة المعروفة ؟ وكذلك وَرَد واحدٌ وجمعٌ على وزن واحد ، كقولهم :

---

(١) نحن لانوافق المؤلف على هذا الرأى ، ولا نرى هذه الأدلة التى ذكرها ناهضة للدلالة على ماذهب إليه ، وعندنا أن أهم العوامل على وجود الترادف فى اللغة العربية هو اختلاف القبائل مع تنائى ديارهم وقلة ارتباطهم ، وليس هـذا موضع الإفاضة والاستدلال .

رَاح، اسم للخمر، وراح جمع راحة وهى الكف ؛ وكقولهم : عِقَاب ، وهو الجزاء على الذنب، وجمع عَقَبَة أيضا؛ وفى اللغة من هذا شىء كثير، وهو بالإجماع من علماء العربية أنه لم يَجْرِ فيه خلاف بين القبائل ، فاتضح بهذا أن الأسماء المشتركة من واضع واحد .

فإن قلت : إن الواضع إنما وضع المفرد من الألفاظ والجمع وضعه غيره .

قلت فى الجواب: إن الذى وضع المفرد هو الذى وضع الجمع؛ لأن من قواعد وضع اللغة أن يوضع المفرد ، والجمع ، والمذكر ، والمؤنث ، والمصغر ، والمكبر ، والمصادر، وأسماء الفاعلين، وما جرى هذا المجرى ، وإذا أخلَّ بشىء من ذلك كان قد أخلَّ بقاعدة من قواعد وضع اللغة ، ثم لو سلمت إليك أن واضع الجمع غير واضع المفرد لكان ذلك قَدْحًا فى الواضع الثانى ؛ إذ جاء بالإبهام عند إطلاق اللفظ ، لأنه جَمَعَ كعبة التى هى الْبَنِيَّة وكعب الرجل، على كِعَاب ؛ وهذا لفظ مشترك مبهم عند الإطلاق ، ولا فرق بين أن يضعه الواضع الأول أو واضع ثان ؛ فإن الإبهام حاصل منه .

وكان فاوضنى بعضُ الفقهاءِ فى قوله تعالى فى سورة البقرة (صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ) وقال : إن لون البقرة كان أسود ، والأصفر هو الأسود ، فأنكرت عليه هذا القول ، فأخذ يجادل مجادلة غير عارف ، ويَعْزُو ذلك إلى تفسير النقاش ، وتفسير الْبَلاذُرِى ، فقلت له : اعلم أن هذا الاسم الذى هو الأصفر لايخلو فى دلالته على الأسود من وجهين : إما أنه من الأسماء المتباينة التى يدل كل اسم منها على مُسَمًّى واحد كالإنسان والأسد والفرس وغير ذلك ، وإما أنه من الأسماء المشتركة التى يدل الاسم منها على مُسَمَّيَيْن فصاعدا ، ولا يجوز أن يكون من الأسماء المتباينة ؛ لأنا نراه متجاذبا بين لَوْنَين : أحدهما هذا اللون الزعفرانى الشكل ، والآخر اللون المظلم الشكل ، وعلى هذا فإنه يكون من الأسماء

المشتركة ، وإذا كان من الأسماء المشتركة فلا بُدّ له من قرينة تخصصه باللون الزعفرانى دون اللون المظلم ؛ لأن الله تعالى قال (صَفْرَاء فَاقِعٌ لَوْنُهَا) والفاقع من صفات اللون الزعفرانى خاصة ؛ لأنه قد ورد للألوان صفات متعددة لكل لون منها صفة ، فقيل : أبيض يَقَق ، وأسود حَالِك ، وأحْمَرُ قَانٍ ، وأصفر فاقع ، ولم يُقَلْ أسود فاقع ، ولا أصفر حالك ، فعلم حينئذ أن لون البقرة لم يكن أسود ، وإنما كان أصفر ، فلما تحقَّقَ عند ذلك الفقيهُ ما أشرت إليه أذعن بالتسليم .

وأما النوع الثالث فهو معرفة أمثال العرب وأيامهم ، ومعرفة الوقائع التى وردت فى حوادث خاصة بأقوام، وقولى هذا لا يقتضى كل الأمثال الواردة عنهم؛ فإنَّ منها ما لا يحسن استعماله ، كما أن من ألفاظهم أيضاً مالا يحسن استعماله ، وكنت جردت من كتاب الأمثال للميدانى أوراقا خفيفة تشتمل على الْحَسَن من الأمثال الذى يدخل فى باب الاستعمال ؛ وسبيل الْمُتَصَدِّى لهذا الفن أن يَسْلُكَ ماسلكته ، وليعلم أن الحاجة إليها شديدة ، وذلك أن العرب لم تضع الأمثال إلا لأسباب أوجبتها ، وحوادث اقْتَضَتْهَا ، فصار المثل المضروب لأمر من الأمور عندهم كالعلامة التى يعرف بها الشىء ، وليس فى كلامهم أوجز منها ، ولا أشد اختصارا .

وسبب ذلك ما أذكره لك لتكون من معرفته على يقين ، فأقول : قد جاء عن العرب من جملة أمثالهم « إِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لاَ يَبْغِ عَلَيْكَ الْقَمَر » وهو مثل يضرب للامر الظاهر المشهور، والأصل فيه كما قال المفضل بن محمد(١) أنه بلغنا أن بنى ثعلبة بن سعد بن ضَبَّة فى الجاهلية تراهَنُوا على الشمس والقمر ليلة أربع عشرة من الشهر؛ فقالت طائفة : تطلع الشمس والقمر يرى ، وقالت طائفة : يغيب القمر قبل أن تطلع الشمس ، فتراضوا برجل جعلوه حكما ، فقال واحد منهم : إن قومى يَبْغُونَ على ، فقال الحكم : إن يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لاَ يَبْغِ عَلَيْكَ القمر .

(١) هو المفضل الضبيّ ، وله كتاب « أمثال العرب » .

فذهبت مثلا ، ومن المعلوم أن قول القائل « إن يَبْغِ عليك قومك لا يبغ عليك القمر» إذا أخذ على حقيقته من غير نظر إلى القرائن المنوطة به والأسباب التى قيل من أجلها لا يعطى من المعنى ما قد أعطاه المثل ، وذلك أن المثل له مقدمات وأسباب قد عرفت ، وصارت مشهورة بين الناس معلومة عندهم ، وحيث كان الأمر كذلك جاز إيراد هذه اللفظات فى التعبير عن المعنى المراد ، ولولا تلك المقدمات المعلومة والأسباب المعروفة ، لما فهم من قول القائل « إنْ يَبْغِ عليك قومك لا يبغ عليك القمر » ما ذكرناه من المعنى المقصود ، بل ما كان يفهم من هذا القول معنى مفيد ، لأن البغى هو الظلم ، والقمر ليس من شأنه أن يظلم أحداً ، فكان يصير معنى المثل : إن كان يظلمك قومك لا يظلمك القمر ، وهذا كلام مختل المعنى ، ليس بمستقيم ، فلما كانت الأمثال كالرموز والإشارات التى يُلَوَّح بها على المعانى تلويحاً صارت من أوجز الكلام ، وأكثره اختصارا ، ومن أجل ذلك قيل فى حَدِّ المثل : إنه القول الوجيز المُرْسَل ليعمل عليه ، وحيث هى بهذه المثابة فلا ينبغى الإخلال بمعرفتها .

وأما أيام العرب فإنها تَتَنَوَّع وتتشعب ، فمنها أيام فَخَار ، ومنها أيام مُحَاربة ، ومنها أيام منافرة ، ومنها غير ذلك ، ولا يخلو الناظم والناثر من الانتصاب لوصْفِ يوم يمر به فى بعض الأحوال شبيها بيوم من تلك الأيام ، ومماثلا له ؛ فإذا جاء بذكر بعض تلك الأيام المناسبة لمراده الموافقة له ، وقاس عليه يومه ؛ فإنه يكون فى غاية الحسن والرَّوْنَق ؛ هذا لا خفاء به .

وأما الوقائع التى وردت فى حوادث خاصة بأقوام ، فإنها كالأمثال فى الاستشهاد بها ، وسأبين لك نبذة منها حتى تعلم مقدار الفائدة بها :

فمن ذلك أنه وردَ عن النبى صلى الله عليه وسلم حديث بَيْعَة الْحُدَيْبِيَة تحت الشَّجَرة ، وكان أرسل عثمان رضى الله عنه إلى مكة فى حاجة عَرَضَتْ له ، ولم

يحضر البيعة ، فضرب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بيده الشمالِ على اليمين وقال « هٰذِهِ عَنْ عُثْمَانَ ، وشِمَالِي خَيْرٌ مِنْ يَمِينِهِ » .

وقد استعملت أنا هذا فى جملة كتاب فقلت : ولا يُعَدُّ البر برًّا حتى يلحق الغيث بالحصور ، و يصل من لم يصله بجزاء ولا شكور ؛ فزنة الغائب بالشاهد من كرم الإحسان ، ولهذا نابت شِمَالُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يمين عثمان.

ومن ذلك أنه ورد عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه استدعى أبا موسى الأشعرى ومن يَلِيه من الْعُمّال ، وكان منهم الرَّبيع بن زياد الحارثى ، فمضى إلى يَرْفَأَ مَوْلَى عمر[1] ، وسأله عما يَرُوجُ عنده ، وينفق عليه ، فأشار إلى خشونة العيش ، فمضى ولبس جبة صوف ، وعمامة دسماء ، وخفا مطابقا ، وحضر بين يديه فى جملة العمال ، فصَوَّبَ عمر نظره وصَعَّدَه ، فلم يقع إلا عليه ، فأدناه وسأله عن حاله ، ثم أوصى أبا موسى الأشعرى به .

وقد استعملت أنا هذا فى جملة تقليد لبعض الملوك من ديوان الخلافة ، فقلت :

و إذا اسْتَعَنْتَ بأحدٍ على عملك فاضرب عليه بالأرصاد ، ولا تَرْضَ بما عرفته من مبدأ حاله؛ فإن الأحوال تتنقل تَنَقُّلَ الأجساد، و إياك أن تخدع بصلاح الظاهر كما خدع عمر بن الخطاب بالربيع بن زياد .

فانظر كيف فعلت فى هاتين القِصَّتَيْنِ ؟ وكيف أوردتهما فى الغرض الذى قصدته ؟ وامْضِ أنت على هذا النَّهْج ، فإنه من محاسن هذه الصنعة .

وعرض عليّ كتابٌ كتبه عبد الرحيم بن على البيسانى[2] رحمه الله عن الملك صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله إلى ديوان الخلافة ببغداد فى سنة

---

(١) قال السيد المرتضى فى شرح القاموس : « ويرفأ كيمنع : مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يقال : إنه أدرك الجاهلية ؛ وحج مع عمر فى خلافة أبى بكر رضى الله عنهما ، وله ذكر فى الصحيحين ، وكان حاجبا على بابه » اه .

(٢) فى نسخة « الشيبانى » .

إحدى وسبعين وخمسمائة، وَضَمَّنه ما أبلاه فى خدمة الدولة من فتح الديار المصرية، ومحو الدولة العلوية، و إقامة الدعوى العباسية، وشَرَحَ فيه ما قاساه فى الفتح من الأهوال، ولما تأملته وجدته كتابا حَسَناً قد وفَى فيه الخطابة حَقَّهَا؛ إلا أنه أخل بشىء واحد، وهو أن مصر لم تفتح إلا بعد أن قصدت من الشام ثلاث مرات، وكان الفتح فى المرة الثالثة، وهذا له نظير فى فتح النبى صلى الله عليه وسلم مكة، فإنه قصدها عام الحديبية، ثم سار إليها فى عُمْرَةِ القضاء، ثم سار إليها عام الفتح ففتحها.

وقد سألنى بعض الإخوان أن أنشئ فى ذلك كتابا إلى ديوان الخلافة معارضا للكتاب الذى أنشأه عبد الرحيم بن على رحمه الله، فأجبته إلى سؤاله، وعددت مساعى صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله، فقلت:

ومن جملتها مافعله الخادم فى الدولة المصرية وقد قام بها مِنْبَر وسَرِير، وقالت منا أمير ومنكم أمير، فرد الدعوة العباسية إلى مَعَادها، وأذكر المنابر ما نسيته بها من زَهْو أعْوَادِها، وكانت أخرجت منها إخراج النبى صلى الله عليه وسلم من قَرْيَتِهِ، وقذف الشيطان على حقها بباطله وعلى صدقها بغويته[1]، ثم طوتها الليالى طىَّ السجل للكتاب، وكثر عليها مرور الدهر حتى نسى لها عدد السنين والحساب، ولم يعدها إلى وطنها حتى تغربت لها الأرواح عن أوطانها، وسَهِرَت لها أجفان السيوف سَهَرَ العيون عن أجفانها، وتطاردت الآراء فى تسهيل أمرها قبل مطاردة أقرانها، وحتى تقدمتها غُرُبَات ثلاث كلها ذوات غُرُوب[2]، وكل خطب من خطوبها ذو خطوب، إلى أن تمخض ليلها عن صبحه، وأصبحت فى الإسلام كعام حُدَيْبِيَتِهِ وعُمْرَة قضائه وعام فَتْحِهِ، وفى ذكر أخبارها ما يطبع

(١) كذا؛ ولعله «بِغَيِّتِهِ».

(٢) غروب: جمع غرب ــ بفتح فسكون ــ وغرب كل شىء: حده.

الأسِنَّة فى رءوس الأقلام ، ويرهب سامعها ، ولم ينله شىء من مكروهها سوى الكلام ، ويومها للدولة هو اليوم الذى أرّخَ فيه مَعَاد(١) نصرها ، وميعاد بشرها، فإذا عُدَّت لياليها السالفة كانت كسائر الليالى وهذه ليلة قدرها .

فهذا فصل من فصول الكتاب ؛ فانظر كيف ما ثلت بين الفتح المصرى وفتح مكة ؟ وذكرت أيضاً حديث الْحُبَابِ بن الْمُنْذر الأنصارى حيث قال بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم : مِنَّا أمِيرٌ ومنكم أمير ؛ وذلك لما حضر أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنهم فى سقيفة بنى ساعدة ، والقصة مشهورة ، فقال الحباب بن المنذر : منا أمير ومنكم أمير ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : بل نحن الأمراء وأنتم الوزراء ، وهذا الذى ذكرته هو نكتة هذا الفتح التى عليها المعول ، ومركزه الذى عليه يدور ، وعجبت من عبد الرحيم بن على البيسانى ــ مع تقدمه فى فن الكتابة ــ كيف فاته أن يأتى به فى الكتاب الذى كتبه .

وكذلك وجدت لابن زياد البغدادى كتابا كتبه إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف المقدم ذكره فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وضمنه فصولا تشتمل على أمور أنكرت عليه من ديوان الخلافة ، فمن تلك الأمور التى أنكرت عليه أنه تلقب بالملك الناصر ، وذلك اللقب هو لأمير المؤمنين خاصة ، فإنه الإمام الناصر لدين الله ، فلما وقفت على ذلك الكتاب وجدته كتابا حسنا قد أجاد فيه كل الإجادة ، ولم أجد فيه مغمزا إلا فى هذا الفصل الذى يتضمن حديث اللقب ، فإنه لم يأت بكلام يناسب باقى الفصول المذكورة ، بل أتى فيه بكلام فيه غَثَاثة ، كقوله : ما يستصلحه المولى فهو على عبده حرام ، وشيئاً من هذا

---

(١) معاد : مصدر بمعنى الرجوع ، مثل العود .

النَّسَق ، وكان الأليق والأحسن أن يحتجّ بحجة فيها روح ، ويذكر كلاما فيه ذلاقة ورشاقة .

وحضر عندى فى بعض الأيام بعض إخوانى ، وجَرَى حديث ذلك ، فسألنى عما كان ينبغى أن يكتب فى هذا الفصل ، فذكرت ماعندى ، وهو : قد علم أن للانبياء والخلفاء خَصَائص يختصون بها على حكم الانفراد ، وليس لأَحد من الناس أن يشاركهم فيها مشاركة الأنداد ، وقد أجرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فى أشياء نَصَّ عليها بحكمه ، ومن جملتها أنه نهى غيره أن يجمع بين كنيته و بين اسمه ، وهذا مسوغ لأمير المؤمنين أن يختص بأمر يكون به مشهورا ، وعلى غيره محظورا ، وقد وَسَمَ نفسه بِسِمَةٍ نزلت عليه من السماء ، وتميزت به من بين المسميات والأسماء ، ثم استمرت عليها الأيام حتى خوطب بها من الحاضر والباد ، ورفعها الخطباء على المنابر فى أيام الجمع ومواسم الأعياد ، وقد شاركته أنت فيهـا غير مراقب لمزية التعظيم ، ولا فارق بين فُسْحَة التحليل(١) وحَرَج التحريم(٢) ، والشرع والأدب يحكمان عليك بأن تلقى مافرط منك بالْمَتَاب ، ولا تحوج فيه إلى التقريع الذى هو أشد العتاب ، ومثلك من عرف الحق فأمسكه بيده ، ونسخ إغفال أمسه باستئناف التيقظ فى غده ، والله قد رفع المؤاخذة عمن أتى الشىء خطأ لاعمدا ، وقبل التوبة ممن أخذ على نفسه بالإخلاص عهدا .

فانظر أيها المتأمل كيف جئت بالخبر النبوى ، وجعلته شاهدا على هـذا

---

(١) الفسحة ــ بضم الفاء وسكون السين ــ السعة ، وتقول : لك فى هذا الأمر فسحة ، وفسحة التحليل : السعة التى يقتضيها ، ومراده سائر الألقاب سوى لقب أمير المؤمنين ، وهى كثيرة .

(٢) الحرج ــ بفتح الحاء والراء ــ الضيق والمشقة .

الموضع ؟ ولا يمكن أن يحتج فى مثل ذلك إلا بمثل هذا الاحتجاج ، وما أعلم كيف شذ عن ابن زياد أن يأتى به مع أنه كان كاتبا مفلقا أرتضى كتابته ، ولم أجد فى متأخرى العراقيين من يماثله فى هذا الفن .

وأما النوع الرابع ـ وهو الاطلاع على كلام المتقدمين من المنظوم والمنثور ـ فإن فى ذلك فوائد جمة ؛ لأنه يعلم منه أغراض الناس ، ونتائج أفكارهم ، ويعرف به مقاصد كل فريق منهم ، وإلى أين ترامت به صنعته فى ذلك ، فإن هذه الأشياء مما تَشْحَذ القريحة ، وتُذْكى الفطنة ، وإذا كان صاحب هذه الصناعة عارفا بها تصير المعانى التى ذكرت وتعب فى استخراجها كالشىء الْمُلْقَى بين يديه يأخذ منه ما أراد ويترك ما أراد ، وأيضاً فإنه إذا كان مطلعاً على المعانى المسبوق إليها قد ينقدح له من بينها معنى غريب لم يسبق إليه ، ومن المعلوم أن خواطر الناس وإن كانت متفاوتة فى الجودة والرداءة فإن بعضها لا يكون عالياً على بعض أو منحطاً عنه إلا بشىء يسير ، وكثيرا ما تتساوى القرائح والأفكار فى الإتيان بالمعانى ، حتى إن بعض الناس قد يأتى بمعنى موضوع بلفظ ، ثم يأتى الآخر بعده بذلك المعنى واللفظ بعينهما من غير علم منه بما جاء به الأول ، وهذا الذى يسميه أرباب هذه الصناعة وقوع الحافر على الحافر ، وسيأتى لذلك باب مفرد فى آخر كتابنا هذا ؛ إن شاء الله تعالى .

وأما النوع الخامس ـ وهو معرفة الأحكام السلطانية من الإمامة والإمارة والقضاء والحسبة وغير ذلك ـ فإنما أوجبنا معرفتها والإحاطة بها لما يحتاج إليه الكاتب فى تقليدات الملوك والأمراء والقضاة والمحتسبين ومن يجرى مجراهم ، وأيضاً فإنه قد يحدث فى الإمامة حادث فى بعض الأوقات : بأن يموت الإمام القائم بأمر المسلمين ، ثم يتولى من بعده من لم تكمل فيه شرائط الإمامة ، أو يكون كامل الشرائط غير أن الإمام الذى كان قبله عهد بها إلى آخر غيره وهو ناقص الشرائط ،

أو يكون قد تنازع الإمامة اثنان ، أو يكون أرباب الحل والعقد قد اختاروا إماما وهم غير كاملى الشرائط التى تجب أن توجد فيهم ، أو يكون أمر غير ماذكرناه ، فتختلف الأطراف فى ذلك ، وينتصب ملك من الملوك له عناية بالإمام الذى قد قام للمسلمين ، فيأمر كاتبه أن يكتب كتابا فى أمره إلى الأطراف المخالفة له ، وإذا لم يكن الكاتب عند ذلك عارفا بالحكم فى هذه الحوادث ، واختلاف أقوال العلماء فيها ، وما هو رخصة فى ذلك وما ليس برخصة ؛ لا يكتب كتابا ينتفع به ، ولسنا نعنى بهذا القول أن يكون الكتاب مقصوراً على فقه مَحْضٍ فقط ؛ لأنا لو أردنا ذلك لما كنا نحتاج فيه إلى كَتْبِ كتاب بلاغى ، بل كنا نقتصر على إرسال مصنف من مصنفات الفقه عوضاً عن الكتاب ، وإنما قصدنا أن يكون الكتاب الذى يكتب فى هذا المعنى مشتملا على الترغيب والترهيب ، والمسامحة فى موضع والمحاقة(١) فى موضع ، مشحوناً ذلك بالنكت الشرعية المبرزة فى قوالب البلاغة والفصاحة ، كما فعل الكاتب الصابى فى الكتاب الذى كتبه عن عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه إلى الإمام الطائع لما خلع المطيع ؛ فإنه من محاسن الكتب التى تكتب فى هذا الفن .

وأما النوع السادس ــ وهو حفظ القرآن الكريم ــ فإن صاحب هذه الصناعة ينبغى له أن يكون عارفا بذلك ؛ لأن فيه فوائد كثيرة ، منها أنه يُضَمِّن كلامه بالآيات فى أماكنها اللائقة بها ومواضعها المناسبة لها ، ولا شبهة فيما يصير للكلام بذلك من الفخامة والجزالة والرَّوْنَق ؛ ومنها أنه إذا عرف مواقع البلاغة وأسرار الفصاحة المُودَعَة فى تأليف القرآن اتّخذه بَحْراً يستخرج منه الدرر

(١) المحاقة : المخاصمة ، وتقول : حاققت فلانا ، إذا خاصمته وناظرته ، وادعى كل واحد منكما الحق قبل الآخر ، فان غلب أحدكما قال : حققتك ، وفى ب ، ج «المحاققة» باظهار التضعيف ؛ وليس بشىء .

والجواهر ويودعها مَطَاوى كلامه ، كما فعلته أنا فيما أنشأته من المكاتبات ، وكفى بالقرآن الكريم وحده آلة وأداة فى استعمال أفانين الكلام ؛ فعليك أيها المتوشح لهذه الصناعة بحفظه والفحص عن سره وغامض رموزه وإشاراته ؛ فإنه تجارة لن تبور ، ومنبع لا يغور ، وكنز يرجع إليه ، وذخر يُعَوَّل عليه .

وأما النوع السابع ـ وهو حفظ الأخبار النبوية مما يحتاج إلى استعماله ـ فإن الأمر فى ذلك يجرى مجرى القرآن الكريم ، وقد تقدم القول عليه ، فاعرفه.

وأما النوع الثامن ـ وهو ما يختص بالناظم دون الناثر ، وذلك معرفة العروض وما يجوز فيه من الزحاف ومالا يجوز ـ فإن الشاعر محتاج إليه ، ولسنا نوجب عليه المعرفة بذلك لينظم بعلمه ؛ فإن النظم مبنى على الذوق ، ولو نظم بتقطيع الأفاعيل لجاء شعره متكلفا غير مرضى ، وإنما أريد للشاعر معرفة العروض لأن الذوق قد ينبو عن بعض الزحافات ، ويكون ذلك جائزاً فى العروض ، وقد ورد للعرب مثله ، فإذا كان الشاعر غير عالم به لم يفرق بين ما يجوز من ذلك وما لا يجوز ، وكذلك أيضاً يحتاج الشاعر إلى العلم بالقوافى والحركات ؛ ليعلم الروى والردف وما يصح من ذلك وما لا يصح .

فإذا أكمل صاحب هذه الصناعة معرفة هذه الآلات ، وكان ذا طبع مجيب وقريحة مُوَاتية ، فعليه بالنظر فى كتابنا هذا ، والتصفح لما أودعناه من حقائق علم البيان ، ونبهنا عليه من أصول ذلك وفروعه ، على أن الذى ذكرناه من هذه الآلات الثمان هو كالأصل لما يحتاج إليه الخطيب والشاعر ، ومعرفته ضرورية لابد منها ، وههنا أشياء أخر هى كالتوابع والروادف .

وبالجملة فإن صاحب هذه الصناعة يحتاج إلى التشبث بكل فن من الفنون ؛ حتى إنه يحتاج إلى معرفة ماتقوله النادبة بين النساء ، والماشطة عند جَلْوَة العروس ، وإلى مايقوله المنادى فى السوق على السلعة ، فما ظنك بما فوق هذا ، والسبب فى ذلك أنه مؤهل لأن يهيم فى كل واد ؛ فيحتاج أن يتعلق بكل فن .

الفصل الثالث

فى الحكم على المعانى

وفائدة هذا الفصل الإحاطة بأساليب المعانى على اختلافها وتباينها ، وصاحب هذه الصناعة مفتقر إلى هذا الفصل والذى يليه ، بخلاف غيرهما من هذه الفصول المذكورة ، لاسيما مفسرى الأشعار ؛ فإنهم به أَعْنَى .

واعلم أن الأصـــل فى المعنى أن يحمل على ظاهر لفظه ، ومن يذهب إلى التأويل يفتقر إلى دليل ، كقوله تعالى : (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) فالظاهر من لفظ الثياب هو مايلبس ، ومن تأول ذهب إلى أن المراد هو القلب ، لاالملبوس ، وهذا لابد له من دليل ؛ لأنه عدول عن ظاهر اللفظ ، وكذلك ورد عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه قال : إذا أردت أن تصلى فادخل بيتك وأغلق بابك ، فالظاهر من هذا هو البيت والباب ، ومن تأول ذهب إلى أنه أراد أنك تجمع عليك هَمَّ قلبك وتمنع أن يخطر به سوى أمر الصلاة ، فعبر عن القلب بالبيت ، وعن منع الخواطر التى تخطر له بإغلاق الباب ، وهذا يحتاج إلى دليل ؛ لأنه عدول عن ظاهر اللفظ ؛ فالمعنى المحمول على ظاهره لا يقع فى تفسيره خلاف ، والمعنى المعدول عن ظاهره إلى التأويل يقع فيه الخلاف ؛ إذ باب التأويل غير محصور ، والعلماء متفاوتون فى هذا ، فإنه قد يأخذ بعضهم وجهاً ضعيفاً من التأويل فيكسوه بعبارته قوة تميزه على غيره من الوجوه القوية ؛ فإن السيف بضاربه :

إِنَّ السُّيُوفَ مَعَ الَّذِينَ قُلُوبُهُمْ ... كَقُلُوبِهِنَّ إِذَا الْتَقَى الْجَمْعَانِ

تَلْقَى الْحُسَامَ عَلَى جَرَاءَةِ حَدِّهِ ... مِثْلَ الْجَبَانِ بِكَفِّ كُلِّ جَبَانِ

وذهب بعضهم فى الفرق بين التفسير والتأويل إلى شيء غير مرضيّ ، فقال :

التفسير : بيان وضع اللفظ حقيقة ، كتفسير الصراط بالطريق ، والتأويل : إظهار باطن اللفظ ، كقوله تعالى : (إنّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) فتفسيره من الرَّصَد ، يقال : رصدته ، إذا رَقَبْته ، وتأويله تحذير العباد من تَعَدّى حدود الله ومخالفة أوامره ، والذى عندى فى ذلك أنه أصاب فى الآخر ، ولم يصب فى الأول ؛ لأن قوله : « التفسير بيان وضع اللفظ حقيقة » لامستند لجوازه ، بل التفسير يطلق على بيان وضع اللفظ حقيقة ومجازا ؛ لأنه من الفَسْر ، وهو الكَشْف ، كتفسير الرصد فى الآية المشار إليها بالرِّقْبة وتفسيره بالتحذير من تعدّى حدود الله ومخالفة أوامره .

وأما التأويل فإنه أحد قسمى التفسير ، وذلك أنه رجوع عن ظاهر اللفظ ، وهو مشتق من الأَوْلِ ، وهو الرجوع ، يقال : آل يئُول ، إذا رجع ، وعلى هذا فإن التأويل خاص والتفسير عام ؛ فكل تأويل تفسير ، وليس كل تفسير تأويلا ، ولهذا يقال : تفسير القرآن ، ومن تفسيره ظاهر وباطن ، وهذا الفصل الذى نحن بصدد ذكره ههنا يرجع أكثره إلى التأويل ؛ لأنه أدق .

ولا يخلو تأويل المعنى من ثلاثة أقسام : إما أن يفهم منه شىء واحد لايحتمل غيره ، وإما أن يفهم منه الشىء وغيره ،وتلك الغيرية : إما أن تكون ضداً ، أو لا تكون ضداً ، وليس لنا قسم رابع .

فالأوّل يقع عليه أكثر الأشعار ، ولا يجرى فى الدقة واللطافة مجرى القسمين الآخرين .

وأما القسم الثانى : فإنه قليل الوقوع جداً ، وهو من أظرف التأويلات المعنوية ؛ لأن دلالة اللفظ على المعنى وضده أغرب من دلالته على المعنى وغيره مما ليس بضده ، فمما جاء منه قول النبى صلى الله عليه وسلم «صَلَاةٌ فِى مَسْجِدِى هٰذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِى غَيْرِهِ مِنَ الْمَسَاجِدِ إلاَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَام » ؛ فهذا

الحديث يستخرج منه معنيان ضدان : أحدهما أن المسجد الحرام أفضل من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والآخر أن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من المسجد الحرام : أى أن صلاة واحدة فيه لا تفضل ألف صلاة فى المسجد الحرام ، بل تفضل مادونها ، بخلاف المساجد الباقية فإن ألف صلاة فيها تقصر عن صلاة واحدة فيه .

وكذلك جاء قول النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً « من كَلَامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَاشِئْتَ » وهذا يشتمل على معنيين ضدين : أحدهما أن المراد به إذا لم تفعل فعلا تَسْتَحى منه فافعل ماشئت ، والآخر أن المراد به إذا لم يكن لك حياء يَزَعُك[1] عن فعل مايُسْتَحَى منه فافعل ماشئت ، وهذان معنيان ضدان أحدهما مدح والآخر ذم .

ومثله ورد فى الحديث النبوى أيضاً ، وذلك أنه ذكر شُرَيْح الحضرمى عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « لا يَتَوَسَّدُ الْقُرْآن » وهذا يحتمل مدحا وذما ؛ أما المدح فالمراد به أنه لاينام الليل عن القرآن فيكون القرآن متوسداً معه لم يتهجد به ، وأما الذم فالمراد به أنه لايحفظ من القرآن شيئاً ، فإذا نام لم يتوسد معه القرآن ، وهذان التأويلان من الأضداد .

وكثيراً مايرد أمثال ذلك فى الأحاديث النبوية .

ويجرى على هذا النهج من الشعر قول أبى الطيب فى قصيدة يمدح بها كافورا

وأَظْلَمُ أَهْلِ الظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِدًا ... لِمَنْ بَاتَ فِي نَعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ

وهذا البيت يستخرج منه معنيان ضدان : أحدهما أن المنعَم عليه يحسُدُ المنعِمَ ، والآخر أن المنعِمَ يحسد المنعَمَ عليه .

---

(١) يزعك : يكفك ويزجرك وينهاك .

وكذلك ورد قوله أيضاً من قصيدة يمدحه :

فإِنْ نِلْتُ مَاأَمَّلْتُ مِنْكَ فَرُبَّمَا شَرِبْتُ بِمَاءٍ يُعْجِزُ الطَّيْرَ وِرْدُهُ

فإن هذا البيت يحتمل مدحا وذما ، وإذا أخذ بمفرده من غير نظر إلى ماقبله فإنه يكون بالذم أولى منه بالمدح ؛ لأنه يتضمن وصف نواله بالبعد والشذوذ ، وصدر البيت مفتتح بإن الشرطية ، وقد أجيب بلفظة رب التى معناها التقليل : أى لست من نوالك على يقين ، فإن نلته فربما وصلت إلى مَوْرِدٍ لايصل إليه الطير لبعده ، وإذا نظر إلى ماقبل هذا البيت دل على المدح خاصة ؛ لارتباطه بالمعنى الذى قبله .

وكثيرا ما كان يقصد المتنبى هذا القسم فى شعره ، كقوله من قصيدة أولها :

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانٍ وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْدَائِكَ الْقَمَرَانِ

وَلِلّٰهِ سِرٌّ فِى عُلَاكَ وَإِنَّمَا كَلَامُ الْعِدَا ضَرْبٌ مِنَ الْهَذَيَانِ

ثم قال :

فَمَالَكَ تُعْنَى بِالْأَسِنَّةِ وَالقَنَا وَجَدُّكَ طَعَّانٌ بِغَيْرِ سِنَانٍ ! ؟

فإن هذا بالذم أشبه منه بالمدح ؛ لأنه يقول : لم تبلغ مابلغته بسعيك واهتمامك ، بل بجَدٍّ وسعادة ، وهذا لا فضل فيه ؛ لأن السعادة تنال الخامل والجاهد ، ومن لايستحقها ، وأكثر ما كان المتنبى يستعمل هذا القسم فى قصائده الكافوريات .

وحكى أبو الفتح بن جنى قال : قرأت على أبى الطيب ديوانه ، إلى أن وصلت إلى قصيدته التى أولها :

* أُغَالِبُ فِيكَ الشَّوْقَ وَالشَّوْقُ أَغْلَبُ *

فأتيت منها على هذا البيت ، وهو :

وَمَا طَرَبِى لَمَّا رَأَيْتُكَ بِدْعَةٌ لَقَدْ كُنْتُ أَرْجُوأَنْ أَرَاكَ فَأَطْرَبُ

فقلت له : يا أبا الطيب ، لم تزد على أن جعلته أبا رنة ، فضحك لقولى .

وهذا القسم من الكلام يسمى الموجّه : أى له وجهان ، وهو مما يدل على براعة الشاعر وحسن تأتّيه .

وأما القسم الثالث فإنه يكون أكثر وقوعا من القسم الثانى ، وهو واسطة بين طرفين ؛ لأن القسم الأول كثير الوقوع ، والقسم الثانى قليل الوقوع ، وهذا القسم الثالث وسط بينهما .

فمما جاء منه قوله تعالى : (وَلاَ تَقْتُلُوا أنْفُسَكُم) فإن هذا له وجهان من التأويل : أحدهما القتل الحقيقى الذى هو معروف ، والآخر هو القتل المجازى ، وهو الإكباب على المعاصى ، فإن الإنسان إذا أكَبَّ على المعاصى قتل نفسه فى الآخرة .

ومن ذلك ماورد فى قصة إبراهيم وذبح ولده عليهما السلام ، فقال الله تعالى حكاية عنه : (وَقالَ إنِّى ذَاهِبٌ إلَى رَبِّى سَيَهْدِينِ. رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ. فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ. فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قالَ يَابُنَىَّ إنِّى أرَى فى المَنامِ أنِّى أذْبَحُكَ فانْظُرْ مَاذَا تَرَى قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ مَاتُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ. فَلَمَّا أسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ. وَنَادَيْنَاهُ أنْ يَاإبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ. إنَّ هٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ. وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ. وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى إبْرَاهِيمَ. كَذٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ. إنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ. وَبَشَّرْنَاهُ بِإسْحٰقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ) فقوله تعالى : (وَبَشَّرْنَاهُ بِإسْحٰقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ) قد يكون بشارة بنبوته بعد البشارة بميلاده ، وقد يكون استئنافا بذكره بعد ذكر إسمعيل عليه السلام وذبحه ، والتأويل متجاذب بين هذين الأمرين ، ولا دليل على الاختصاص بأحدهما ، ولم يرد فى القرآن مايدل على أن الذبيح إسمعيل ولا إسحق عليهما السلام ، وكذلك لم يرد فى الأخبار التى صَحَّتْ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما مايروى عنه أنه قال « أنَا ابْنُ الذَّبِيحَيْنِ » فخارج عن الأخبار الصحيحة ، وفى التوراة أن إسْحٰق عليه السلام هو الذبيح .

ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم لأزواجه « أَطْوَلُكُنَّ يَداً أَسْرَعُكُنَّ لُحُوقًا بِى » فلما مات صلوات الله عليه جعلن يطاولن بين أيديهن حتى ينظرن أيتهن أطول يدا ، ثم كانت زينب أسرعهن لحوقا به ، وكانت كثيرة الصدقة ، فعلمن حينئذ أنه لم يرد الجارحة ، وإنما أراد الصدقة ؛ فهذا القول يدل على المعنيين المشار إليهما .

ومن ذلك ماروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عَشْرَ سنين فلم يقل لشىء فعلتهُ لِمَ فَعَلْتَهُ ولا لشىء لم أفعله لِمَ لافَعَلْتَهُ ، وهذا القول يحتمل وجهين من التأويل : أحدهما وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصبر على خلق من يصحبه ، والآخر أنه وصف نفسه بالفطنة والذكاء فيما يقصده من الأعمال ، كأنه متفطن لما فى نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فيفعله من غير حاجة إلى استئذانه .

ومن ذلك ماورد فى الأدعية النبوية ؛ فإنه صلى الله عليه وسلم دعا على رجل من المشركين فقال : «اللَّهُمَّ اقْطَعْ أَثَرَهُ » وهذا يحتمل ثلاثة أوجه من التأويل: الأول أنه دعا عليه بالزمانة ، لأنه إذا زمن لايستطيع أن يمشى على الأرض ، فينقطع حينئذ أثره ؛ الوجه الثانى : أنه دعا عليه بأن لا يكون له نسل من بعده ولا عقب ؛ الوجه الثالث : أنه دعا عليه بأن لا يكون له أثر من الآثار مطلقاً وهو أن لايفعل فعلا يبقى أثره من بعده كائناً ما كان من عقب أو بناء أو غِرَاس أو غير ذلك .

وظَفِرَتِ الْحَرُورِيَّةُ برجل فقالوا له : ابْرَأْ من على وعثمان ، فقال : أنا من على ومن عثمان أبرأ ، فهذا يدل على معنيين : أحدهما أنه برىء من عثمان وحده ، والآخر أنه برىء منهما جميعاً ، والرجل لم يرد إلا الوجه الأول .

ومن ذلك مايحكى عن عبد المسيح بن بُقَيْلَةَ لما نزل بهم خالد بن الوليد على الحيرة ، وذلك أنه خرج إليه عبد المسيح بن بُقَيلة ، فلما مثل بين يديه قال : أَنْعِمْ صباحا أيها الملك ، فقال له خالد : قد أغنانا الله عن تحيتك هذه بسلام عليكم ، ثم قال له : من أين أقصى أثرك ؟ قال : من ظهر أبى ، قال : فمن أين خرجت ؟ قال : من بطن أمى ، قال : فعلام أنت ؟ قال : على الأرض ، قال : ففيم أنت ؟ قال : فى ثيابى ، قال : ابن كم أنت ؟ قال : ابن رجل واحد ، قال خالد : مارأيت كاليوم قط ، أنا أسأله عن الشيء وهو ينحو فى غيره ، وهذا من توجيه الكلام على نمط حسن ، وهو يصلح أن يكون جوابا لخالد عما سأل ، ويصلح أن يكون جوابا لغيره مما ذكره عبد المسيح بن بُقَيْلة .

وقد ورد فى التوراة أن لايؤكل الجدى بلبن أمه ، وهذا يحتمل التحريم فى وجهين : أحدهما ما دل عليه ظاهر لفظه ، وهو تحريم لحم الجدى بلبن أمه خاصة ، وإذا أكل بلبن غير لبن أمه جاز ذلك ، ولم يكن حراما ، وهذا لايأخذ به أحد من اليهود ، والوجه الآخر - وهو الذى يؤخذ به عند اليهود جميعهم - أن أكل اللحم باللبن حرام ، كائنا ما كان من اللحوم ، إلا طائفة منهم يسمون القرائين ؛ فإنهم تأولوا فأكلوا لحم الطير باللبن ، وقالوا : إنما حرم اللحم باللبن من اللحوم ذوات الألبان ، والطير من ذوات البيض لامن ذوات الألبان .

ومما يجرى على هذا النهج مايحكى عن أفلاطون أنه قال : ترك الدواء دواء ؛ فذهب بعض الأطباء أنه أراد : إنْ لطف المزاج ، وانتهى إلى غاية لايحتمل الدواء ، فتركه حينئذ والإضراب عنه دواء ، وذهب آخرون إلى أنه أراد بالترك الوضع : أى وضع الدواء على الداء دواء ، يشير بذلك إلى حذق الطبيب فى أوقات علاجه .

ومثله فى الشعر قول الفرزدق :

إِذَا جَعْفَرٌ مَرَّتْ عَلَى هَضْبَةِ الْحِمَى ... فَقَدْ أَخْزَتِ الْأَحْيَاءَ مِنْهَا قُبُورُهَا

وهذا يدل على معنيين : أحدهما ذم الأحياء ، والآخر ذم الأموات ؛ أما ذم الأحياء فهو أنهم خذلوا الأموات ، يريد أنهم تلاقوا فى قتالهم وقوما آخرين ففر الأحياء عنهم وأسلموهم ، أو أنهم استنجدوهم فلم يُنْجِدوهم ، وأما ذم الأموات فهو أن لهم مخازى وفضائح توجب عاراً وشنارا ، فهم يعيرون بها الأحياء ويلصقونها بهم .

وعلى هذا ورد قول أبى تمام :

بِالشِّعْرِ طُولٌ إِذَا اصْطَكَّتْ قَصَائِدُهُ ... فِي مَعْشَرٍ ، وَبِهِ عَنْ مَعْشَرٍ قِصَرُ

فهذا البيت يحتمل تأويلين : أحدهما أن الشعر يتسع مجاله بمدحك ويضيق بمدح غيرك ، يريد بذلك أن مآثره كثيرة ، ومآثر غيره قليلة ؛ والآخر أنّ الشعر يكون ذا فخر ونباهة بمدحك ، وذا خمول بمدح غيرك ، فلفظة الطول يفهم منها ضد القصر ، ويفهم منها الفخر ، من قولنا : « طال فلان على فلان » أى فخر عليه .

ومما ينتظم بهذا السلك قول أبى كبير الهذلى :

عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ... فَلَمَّا انْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ

وهذا يحتمل وجهين من التأويل : أحدهما أنه أراد بسعى الدهر سرعة تقضّى الأوقات مُدَّةَ الوصال ، فلما انقضى الوصل عاد الدهر إلى حالته فى السكون والبطء ؛ والآخر أنه أراد بسعى الدهر سعي أهل الدهر بالنمائم والوشايات ، فلما انقضى ما كان بينهما من الوصل سكنوا وتركوا السعاية ، وهذا من باب وضع المضاف إليه مكان المضاف ، كقوله تعالى : (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ) أى أهل القرية

ومن الدقيق المعنى فى هذا الباب قول أبى الطيب المتنبى فى عضد الدولة من جملة قصيدته التى أولها :

* أَوْهِ بَدِيلٌ مِنْ قَوْلَتِي وَاهَا *

فقال :

لَوْ فَطِنَتْ خَيْلُهُ لِنَائِلِهِ   لَمْ يُرْضِهَا أَنْ تَرَاهُ يَرْضَاهَا

وهذا يستنبط منه معنيان غيران : أحدهما أن خيله لو علمت مقدار عطاياه النفيسة لما رضيت له بأن تكون من جملة عطاياه ؛ لأن عطاياه أنفس منها ، والآخر أن خيله لو علمت أنه يهبها من جملة عطاياه لما رضيت ذلك ؛ إذ تكره خروجها عن ملكه ، وهذان الوجهان أنا ذكرتهما وإنما المذكور منهما أحدهما .

وهذا الذى أشرت إليه من الكلام على المعانى وتأويلاتها كافٍ لمن عنده ذوق وله قوة على حملها على أشباهها ونظائرها .

الفصل الرابع

فى الترجيح بين المعانى

وهذا الفصل هو ميزان الخواطر الذى يوزن به نقد درهمها ودينارها ، بل المِحَكّ الذى يعلم منه مقدار عيارها ، ولا يَزِن به إلا ذو فكرة مُتّقدة ، ولمحة منتقدة ، فليس كل من حمل ميزاناً سمى صَرّافا ، ولا كل من وزن به سمى عَرّافا ، والفرق بين هذا الترجيح والترجيح الفقهى أن هناك يرجّح بين دليلى الخصمين فى حكم شرعى ، وهٰهنا يرجح بين جانبى فصاحة وبلاغة فى ألفاظ ومعان خطابية ؛ وبيان ذلك أن صاحب الترجيح الفقهى يرجح بين خبر التواتر مثلا وبين خبر الآحاد ، أو بين المسند والمرسل ، أو ماجرى هذا المجرى ، وهذا لايعرض إليه صاحب علم البيان ؛ لأنه ليس من شأنه ، ولكن الذى هو من شأنه أن يرجح بين حقيقة ومجاز ، أو بين حقيقتين ، أو بين مجازين ، ويكون ناظراً فى ذلك

كله إلى الصناعة الخطابية ، ولربما اتفق هو وصاحب الترجيح الفقهى فى بعض المواضع ؛ كالترجيح بين عام وخاص ، أو ماشابه ذلك .

وكنا قد قدمنا القول فى الحكم على المعانى وانقسامها ، ولنبين فى هذا الفصل مواضع الترجيح بين وجوه تأويلاتها ؛ فنقول :

أما القسم الأول من المعانى فلا تعلق للترجيح به ، إذ مادل عليه ظاهر لفظه ولا يحتمل إلا وجها واحداً فليس من هذا الباب فى شىء ، والترجيح إنما يقع بين معنيين يدل عليهما لفظ واحد .

ولا يخلو الترجيح بينهما من ثلاثة أقسام : إما أن يكون اللفظ حقيقة فى أحدهما مجازاً فى الآخر ، أو حقيقة فيهما جميعا ، أومجازاً فيهما جميعا ، وليس لنا قسم رابع ، والترجيح بين الحقيقتين أو بين المجازين يحتاج إلى نظر، وأما الترجيح بين الحقيقة والمجاز ، فإنه يعلم ببديهة النظر ؛ لمكان الاختلاف بينهما ، والشيئان المختلفان يظهر الفرق بينهما ، بخلاف مايظهر بين الشيئين المشتبهين .

فمثال الحقيقة والمجاز قوله تعالى : (وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا مَاجَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فالجلود ههنا تفسّر حقيقة ومجازاً : أما الحقيقة فيراد بها الجلود مطلقا ، وأما المجاز فيراد بها الفروج خاصة ، وهذا هو الجانب البلاغى الذى يرجح جانب المجاز على الحقيقة ؛ لما فيه من لطف الكناية عن المكنى عنه ، وقد يسأل ههنا فى الترجيح بين الحقيقة والمجاز عن غير الجانب البلاغى ، ويقال : مابيان هذا الترجيح ؟ فيقال : طريقه لفظ الجلود عام فلا يخلو إما أن يراد به الجلود مطلقا أو يراد به الجوارح التى هى أدوات الأعمال خاصة ، ولا يجوز أن يراد به الجلود على الإطلاق ؛ لأن شهادة غير الجوارح التى هى الفاعلة شهادة باطلة ؛ إذ هى شهادة غير شاهد ، والشهادة هنا يراد بها الإقرار ، فتقول اليد : أنا فعلت كذا وكذا ، وتقول الرِّجْلُ : أنا مشيت إلى كذا وكذا ،

وكذلك الجوارح الباقية تنطق مُقِرّةً بأعمالها ، فترجح بهذا أن يكون المراد به شهادة الجوارح ، وإذا أريد به الجوارح فلا يخلو إما أن يراد به الكل أو البعض ؛ فإن أريد به الكل دخل تحته السمع والبصر ، ولم يكن لتخصيصهما بالذكر فائدة ، وإن أريد به البعض فهو بالفرج أخص منه بغيره من الجوارح ؛ لأمرين : أحدهما أن الجوارح كلها قد ذكرت فى القرآن الكريم شاهدة على صاحبها بالمعصية ماعدا الفرج ، فكان حمل الجلد عليه أولى ؛ ليستكمل ذكر الجميع ؛ الآخر أنه ليس فى الجوارح ما يكره التصريح بذكره إلا الفرج ، فكنى عنه بالجلد ؛ لأنه موضع يكره التصريح فيه بالمسمى على حقيقته .

فإن قيل : إن تخصيص السمع والبصر بالذكر من باب التفضيل ، كقوله تعالى : (فاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ) والنخل والرمان من الفاكهة .

قلت فى الجواب : هذا القول عليك لا لك ؛ لأن النخل والرمان إنما ذكر التفضيل لهما فى الشكل أو فى الطعم ، والفضيلة ههنا فى ذكر الشهادة إنما هى تعظيم لأمر المعصية ، وغير السمع والبصر أعظم فى المعصية ؛ لأن معصية السمع إنما تكون فى سماع غيبة ، أو فى سماع صوت مزمار أو وتر ، أو ماجرى هذا المجرى ، ومعصية البصر إنما تكون فى النظر إلى محرم ، وكلتا المعصيتين لا حَدَّ فيهما ، وأما المعاصى التى توجد من غير السمع والبصر فأعظم ؛ لأن معصية اليد توجب القطع ، ومعصية الفرج توجب جلد مائة أو الرجم ، وهذا أعظم ، فكان ينبغى أن تخصّ بالذكر دون السمع والبصر ، وإذا ثبت فساد ماذهبت إليه فلم يكن المراد بالجلود إلا الفروج خاصة .

وأما مثال المعنيين إذا كانا حقيقيين فقول النبى صلى الله عليه وسلم: «الْتَمِسُوا الرِّزْقَ فِي خَبَايَا الْأَرْضِ» والخبايا :جمع خَبِيئة ، وهو كل مايخبأ كائنا ما كان ، وهذا يدل على معنيين حقيقيين : أحدهما الكنوز المخبوأة فى بطون الأرض ،

والآخر الْحَرْثُ والغِرَاس ؛ وجانب الحرث والغراس أرجح ؛ لأن مواضع الكنوز لا تعلم حتى تلتمس ، والنبى صلى الله عليه وسلم لايأمر بذلك ؛ لأنه شىء مجهول غير معلوم ، فبقى المراد بخبايا الأرض مايحرث و يغرس .

وكذلك ورد قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا ابْتَلّتِ النِّعَالُ فَالصَّلاَةُ فِى الرِّحَال » وهذا الحديث مرخِّص فى ترك صلاة الجماعة بسبب المطر ، وله تأويلان : أحدهما أنه أراد نعال الأرض ، وهو ماغلظ منها ، والآخر أنه أراد الأحذية ، والوجه هو الثانى ؛ لظهوره فى الدلالة على المعنى ، وأكثر العلماء عليه ، ولو كان المراد به ما غلظ من الأرض لخرج عن هذا الحكم كل بلد تكون أرضه سهلة لاغلظ فيها .

وأما مثال المعنيين المجازيين فقول أبى تمام :

قَدْ بَلَوْنَا أَبَا سَعِيدٍ حَدِيثاً ... وَبَلَوْنَا أَبَا سَعِيدٍ قَدِيمَا
وَوَرَدْنَاهُ سَاحِلاً وَقَلِيباً ... وَرَعَيْنَاهُ بَارِضاً وَجَمِيمَا(١)
فَعَلِمْنَا أَنْ لَيْسَ إلاَّ بِشِقِّ النَّفْسِ صَارَ الْكَرِيمُ يُدْعَى كَرِيمَا

فالساحل والقليب يستخرج منهما تأويلان مجازيان : أحدهما أنه أراد بهما الكثير والقليل بالنسبة إلى الساحل والقليب ، والآخر أنه أراد بهما السبب وغير السبب ؛ فإن الساحل لايحتاج فى ورده إلى سبب ، والقليب يحتاج فى ورده إلى سبب ، وكلا هذين المعنيين مجاز ؛ فإن حقيقة الساحل والقليب غيرهما ، والوجه هو الثانى ؛ لأنه أدل على بلاغة القائل ومدح المقول فيه ، أما بلاغة القائل فالسلامة من هُجْنَة التكرير بالمخالفة بين صدر البيت وعجزه ، فإن عجزه يدلّ على القليل والكثير ، لأن البارض هو أول النبت حين يبدو ، فإذا كثر وتكاثف

(١) البارض : أوّل ماتخرج الأرض من النبت قبل أن تتبين أجناسه . والجميم ـ بالجيم ـ النبت إذا عمّ وطال وانتشر .

سمى جميا[١] ، فكأنه قال : أخذنا منه تبرعا ومَسْألة ، وقليلاً وكثيرا ، وأما مدح المقول فيه فلتعداد حالاته الأربع فى تبرعه وسؤاله وإكثاره وإقلاله ، وما فى معاناة هذه الأحوال من المشاقّ .

فهذا مايتعلق بالترجيح البلاغى بين الحقيقة والحقيقة ، وبين المجاز والمجاز ، وبين الحقيقة والمجاز .

وههنا ترجيح آخر لايتعلق بما أشرنا إليه ؛ إذ هو خارج عما تقتضيه المعانى الخطابية من جهة الفصاحة أو البلاغة ، وذلك أن يرجح بين معنيين أحدهما تام والآخر مقدّر ، أو يكون أحدهما مناسباً لمعنى تقدَّمَه أو تأخر عنه ، والآخر غير مناسب ، أو بأن ينظر فى الترجيح بينهما إلى شىء خارج عن اللفظ ؛ فمثال المعنيين المشار إليهما أن المعنى التام هوالذى يدل عليه لفظه ولايتعداه ، وأما المقدر فهو الذى لايدل عليه لفظه بل يستدل عليه بقرينة أخرى ، وتلك القرينة قد تكون من توابعه وقد لاتكون .

فمما جاء من ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم « فِي سَائِمَةِ[٢] الْغَنَمِ زَكَاة » ؛ فهذا اللفظ يستخرج منه معنيان : أحدهما تام ، والآخر مقدر ، فالتام دلالته على وجوب الزكاة فى السائمة لاغير ، والمقدّردلالته على سقوط الزكاة عن المعلوفة ، إلا أنه ليس مفهوما من نفس اللفظ ، بل من قرينة أخرى هى كالتابعة له ، وهى أنه لما خصت السائمة بالذكر دون المعلوفة علم من مفهوم ذلك أن المعلوفة لا زكاة فيها ، وللفقهاء فى ذلك مُجاذَبات جَدَلية يطول الكلام فيها ،

(١) فى الأصول كلها « سمى حميا » بالحاء المهملة ، وكذا وقع فى رواية بيت أبى تمام هنا ، وليس ذلك بشىء ، وإنما هو « جميا » بالجيم .

(٢) السائمة : التى ترعى ، وتقول : سامت الماشية تسوم ، إذا رعت ، وتقول : أسامها صاحبها ، وفى التنزيل : (فِيهِ تُسِيمُونَ) أى تخرجون ماشيتكم لترعاه ، وجمع السائمة سوائم .

وليس هذا موضعها ، والذى يترجح عندى هو القول بفَحْوَى المعنى المقدر ، وهو الذى يسميه الفقهاء مفهوم الخطاب .

وله فى الشعر أشباه ونظائر :

فمما ورد من ذلك شعراً قول جَزْء بن كليب الْفَقْعَسى [١] من شعراء الحماسة، وقد خطب إليه ابن كوز ابنته فرده :

تَبَغَّى ابْنُ كُوزٍ وَالسَّفَاهَةُ كَاسْمِهَا ... لِيَسْتَادَ مِنَّا أَنْ سَنَوْنَا لَيَالِيَا [٢]

فَلاَ تَطْلُبَنْهَا يَا ابْنَ كُوزٍ فَإِنَّهُ ... غَذَا النَّاسُ مُذْ قَامَ النَّبِيُّ الْجَوَارِيَا [٣]

وهذا البيت الثانى يشتمل على المعنيين التام والمقدر ، أما التام فإن ابن كوز سأل أبا هذه الجارية أن يزوجه إياها فى سَنَة ، والسنة : الجدب ؛ فرده وقال : قد غذا الناسُ البناتِ مذ قام النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنا أيضاً أغذو هذه ، ولولا

(١) فى الأصول « جرى بين كاب الفقعسى» ، والذى فى ديوان الحماسة « جرير ابن كليب الفقعسى » ، وقد صوب الشارح نقلا عن أبى محمد الأعرابى أن اسمه «جزء ابن كليب الفقعسى » .

(٢) « ليستاد منا » أى يتقرب إلى السادات منا ، وذلك كناية عن رغبته فى التزوج منهم ، و « سنونا » كذلك هو فى الأصول بالسين المهملة والنون الموحدة ، ومعناه دخلنا فى السنة ، وهى الجدب والقحط ، وفى الحماسة وشرحه «شتونا» بالشين المعجمة والتاء المثناة ، ومعناه دخلنا فى الشتاء ، والشتاء عندهم زمان القحط والمجدبة وهم يكنون به عن الجدب ، و « أن شتونا » تعليل : أى لأن نزل بنا الجدب جاء هذا الرجل خاطبا منا .

(٣) فى الحماسة بين هذا البيت والذى قبله بيتان آخران ، وهما قوله :

فَمَا أَكْبَرُ الْأَشْيَاءِ عِنْدِي حَزَازَةً ... بِأَنْ أُبْتَ مَزْرِيًّا عَلَيْكَ وَزَارِيَا

وَإِنَّا عَلَى عَضِّ الزَّمَانِ الَّذِي تَرَى ... نُعَالِجُ مِنْ كُرْهِ الْمَخَازِي الدَّوَاهِيَا

وانظر شرح التبريزى على ديوان الحماسة (ج ١ ص ٢٣٦) .

ذلك لَوَأْدْتُها كما كانت الجاهلية تفعل ، وفيه وجه آخر ، وهو أنهم كانوا يَئِدُون البنات قبل الإسلام ، فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك ، فقوله « غذا الناس مذ قام النبي الجواريا » أي في النساء كثرة ، فتزوج بعضهنَّ وخَلِّ ابنتي ، وهذان المعنيان هما اللذان دل عليهما ظاهر اللفظ ، وأما المعنى المقدر الذي يعلم من مفهوم الكلام ، فإنه يقول : إن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بإحياء البنات ، ونهى عن الوأد ، ولو أنكحتكها لكنت قد وأدتها ؛ إذ لافرق بين إنكاحك إياها و بين وأدها ، وهذا ذم للمخاطب ، وهو معنى دقيق ، ومجيء المعانى المستخرجة من المفهومة قليل فى الشعر .

وأما ما يستدل عليه بقرينة ليست من توابعه فإن ذلك أدق من الأول ، وألطف مأخذا .

فمما ورد منه قول النبي صلى الله عليه وسلم « مَنْ جُعِلَ قَاضِياً بَيْنَ النَّاسِ فَقَدْ ذُبِحَ بِغَيْرِ سكِّينٍ » فهذا يستخرج منه المعنيان المشار إليهما ، فالتام منهما يدل على أنه من جعل قاضياً فقد عرض نفسه لخطر عظيم كالذبح بغير سكين ، وأما المقدر فإنه يدل على أنه من جعل قاضياً فقد أمر بمفارقة هواه ، وهذا لايدل عليه اللفظ بنفسه ، بل يستدل عليه بقرينة أخرى ، ولكنها ليست من توابعه ، ووجه ذلك أن لفظ الحديث عام يشمل القضاة على الإطلاق ، ولا يخلو إما أن يراد به عذاب الآخرة أو عذاب الدنيا ، ولا يجوز أن يكون المراد به عذاب الآخرة ؛ لأنه ليس كل قاض معذباً فى الآخرة ، بل المعذب منهم قضاة السوء ، فوضح بهذا أن المراد بالحديث عذاب الدنيا ، وعلى هذا فلا يخلو إما أن يكون العذاب صورةً أو معنى ، ولا يجوز أن يكون صورة ؛ لأنا نرى الإنسان إذا جعل قاضياً لا يذبح ولا يناله شيء من ذلك ، فبقي أن يكون المراد به عذاباً معنوياً ، وهو الذبح المجازى غير الحقيقى ، وفحوى ذلك أن نفس الإنسان مركبة على حُبِّ

هواها ، فإذا جعل قاضياً فقد أمر بترك ما جُبِل على حبه : من الامتناع عن الرِّشْوَة ، والحكم لصديقه على عدوّه ، ورفع الحجاب بينه وبين الناس ، والجلوس للحكم فى أوقات راحته ، وغير ذلك من الأشياء المكروهة التى تشق على النفس وتجدد لها ألما مُبَرِّحاً ، والذبح هو قطع الحُلْقُوم ، والألم حاصل به ، وهو كالذبح الحقيقى ، بل أشد منه ؛ لأن ألم الذبح الحقيقى يكون لحظة واحدة ثم ينقضى ويزول ، وألم قطع النفس عن هواها يدوم ولاينقضى ، وهو أشد العذاب قال الله فى عذاب أهل النار: (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مايَشْتَهُونَ) وقال فى نعيم أهل الجنة : (وَفِيهَا مَا تَشْتَهِى الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ) .

وكثيراً ما رأينا وسمعنا من حمله حب الشىء على إتلاف نفسه فى طلبه ، وركوب الأهوال من أجله ، فإذا امتنع عنه مع حبه إياه فقد ذبح نفسه : أى قطعها عنه كما يقطع الذابح حلق الذبيحة ؛ ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « انْتَقَلْنَا عَنِ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ » فسمّى جهاد الكفار الجهاد الأصغر وجهادَ النفس الجهاد الأكبر ، فكما أن مجاهدة النفس عن هواها قتال بغير سيف فكذلك قطعها عن هواها ذبح بغير سكين ، وهذا موضع غامض ، والترجيح فيه مختص بالوجه الآخر ؛ لاشتماله على المعنى المقصود ، وهو المراد من القضاة على الإطلاق .

وأما مثال المعنيين إذا كان أحدهما مناسباً لمعنى تقدمه أو لمعنى تأخر عنه والآخر غير مناسب ؛ فالأول هو ما كان مناسباً لمعنى تقدمه كقوله تعالى : (لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا) فالدعاء ههنا يدل على معنيين : أحدهما النهى أن يدعى الرسول باسمه ؛ فيقال : يامحمد ، كما يدعو بعضهم بعضاً بأسمائهم ، وإنما يقال له : يارسول الله ، أو يانبى الله ؛ الآخر النهى أن يجعلوا حضورهم عنده إذا دعاهم لأمر من الأمور كحضور بعضهم عند بعض ،

بل يتأدبون معه ؛ بأن لا يفارقوا مجلسه إلا بإذنه ، وهذا الوجه هو المراد ؛ لمناسبة معنى الآية التى قبله وهو قوله تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ) وأما الثانى ، وهو ما كان مناسباً لمعنى تأخر عنه فكقوله تعالى : (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ) فالتين والزيتون هما هذا الشجر المعروف ، وهما اسما جبلين أيضاً ، وتأويلهما بالجبلين أولى ؛ للمناسبة بينهما وبين ما أتى بعدهما من ذكر الجبل الذى هو الطور .

وعلى هذا ورد قول الشاعر فى أبيات الحماسة[1] :

وَلَوْ كُنْتُ مَوْلَى قَيْسِ عَيْلَانَ لَمْ تَجِدْ عَلَيَّ لِإِنْسَانٍ مِنَ النَّاسِ دِرْهَمَا
وَلَـكِنَّنِي مَوْلَى قُضَاعَةَ كُلِّهَا فَلَسْتُ أُبَالِي أَنْ أَدِينَ وَتَغْرَمَا

فإذا نظرنا إلى البيت الأول وجدناه يحتمل مدحاً وذماً : أى أنهم كانوا يُغْنُونَه بعطائهم أن يدين ، أو أنه كان يخاف الدَّيْنَ حَذَرَ أن لا يقوموا عنه بوفائه ، لـكن البيت الثانى حقق أن الأول ذم وليس بمدح[2] ؛ فهذا المعنى لا يتحقق فهمه إلا بآخره .

---

(١) هو شقران — بضم فسكون — مولى بنى سلامان — بفتح السين واللام مخففة — وهم من قضاعة ، وانظر (ص ١٥٢ ج ٤ من شرح التبريزى) .

(٢) أخطأ المؤلف فى ذلك خطأ شنيعا ، لأن الشاعر يقول بعد هذين البيتين :

أُولَئِكَ قَوْمِي بَارَكَ اللهُ فِيهِمُ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، مَا أَعَفَّ وَأَكْرَمَا
ثِقَالُ الْجِفَانِ وَالْحُلُومِ رَحَاهُمُ رَحَا الْمَاءِ يَكْتَالُونَ كَيْلاً غَذَمْذَمَا

وقد فسر التبريزى البيتين اللذين ذكرهما المؤلف بقوله : « يقول : لو كان ولائى فى قيس عيلان لاقتديت بهم فى الـكف عن الإنفاق لئلا يركبنى دين ، ولـكن ولائى فى قضاعة ، ومهما أخذت علىّ من الدين غرمت عنى ؛ فلا أبالى فى أى وجه أنفق من وجوه البر » اهـ ، ولا تظن أن قوله « على كل حال » فى البيت الأوّل مما أنشدناه لك يشير إلى أنهم بخلاء وأنه راض عنهم مع ذلك ؛ لأن معناه ليس كما يسبق إلى ذهنك ، بل معناه بارك الله فيهم متحوّلين ومتنقلين فى أحوال الدهر وتصاريفه . والغذمذم : الـكثير الذى لاحساب له ، بل يكون جزافا .

وأما الذى يكون الترجيح فيه بسبب شىء خارج عن مفهوم اللفظ فقوله تعالى: (وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ) ؛ فهذا مستنبط منه معنيان : أحدهما أن الله يعلم السر والجهر فى السموات والأرض ، وفى ذلك تقديم وتأخير : أى يعلم سركم وجهركم فى السموات وفى الأرض ؛ والآخر أنه فى السموات ، وأنه يعلم السر والجهر فى الأرض من بنى آدم ؛ لأن الوقف يكون على السموات ثم يستأنف الكلام ، فيقول : يعلم سركم وجهركم فى الأرض ، إلا أن هذا يمنع منه اعتقاد التجسيم ، وذلك شىء خارج عن مفهوم اللفظ .

الفصل الخامس

فى جوامع الكلم

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ » فالكَلِم : جمع كَلِمة ، والجوامع : جمع جَامعة ، والجامعة : اسم فاعلة من جَمَعَتْ فهى جامعة ، كما يقال فى المذكر : جَمَعَ فهو جامع ، والمراد بذلك أنه صلى الله عليه وسلم أوتى الكلم الجوامع للمعانى ، وهو عندى ينقسم قسمين : القسم الأول منهما هو ما استخرجته ونبهت عليه ، ولم يكن لأحد فيه قول سابق ، وهو أن لنا ألفاظا تتضمن من المعنى مالا تتضمنه أخواتها مما يجوز أن يستعمل فى مكانها ؛ فمن ذلك ما يأتى على حكم المجاز ، ومنه ما يأتى على حكم الحقيقة :

أما ما يأتى على حكم المجاز فقوله صلى الله عليه وسلم يوم حنين : «الآنَ حَمِىَ

الْوَطِيسُ » ؛ وهذا لم يسمع من أحد قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو أتينا بمجاز غير ذلك فى معناه فقلنا « اسْتَعَرَتِ الحربُ » لما كان مؤديا من المعنى مايؤديه « حَمِيَ الْوَطِيسُ » والفرق بينهما أن الوطيس هو التَّنُّور ، وهو موطن الْوَقُود ومجتمع النار ، وذلك يخيل إلى السامع أن هناك صورة شبيهة بصورته فى حميها وتوقدها ، وهذا لايوجد فى قولنا « استعرت الحرب » أو ماجرى مجراه .

وكذلك قال صلى الله عليه وسلم: « بُعِثْتُ فِي نَفَسِ السَّاعَةِ » فقوله « نفس الساعة » من العبارة العجيبة التى لايقوم غيرها مقامها ؛ لأن المراد بذلك أنه بعث والساعة قريبة منه ، لكن قربها منه لايدل على مادل عليه النَّفَسُ ، وذلك أن النفس يدل على أن الساعة منه بحيث يحس بها كما يحس الإنسان بنَفَسِ مَنْ هو إلى جانبه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم فى موضع آخر : « بُعِثْتُ أنَا وَالسَّاعَة كَهَاتَيْنِ » وجمع بين أصبعيه السَّبَّابة والوسطى ، ولو قال بعثت على قرب من الساعة أو والساعة قريبة منى لما دل ذلك على مادل عليه نَفَسُ الساعة ، وهذا لا يحتاج إلى الإطالة فى بيانه ؛ لأنه بَيِّنٌ واضح .

وقد ورد شيء من ذلك فى أقوال الشعراء الْمُفْلِقِين ، ولقد تصفحت الأشعار قديمها وحديثها ، وحفظت ماحفظت منها ، وكنت إذا مررت بنظرى فى ديوان من الدواوين ويلوح لى فيه مثل هذه الألفاظ أجدلها نَشْوَةً كنشوة الخمر ، وطَرَبًا كطرب الألحان ، وكثير من الناظمين والناثرين يمر على ذلك ولا يتفطن له ، سوى أنه يستحسنه من غير نظر فيما نظرت أنا فيه ، ويظنه كغيره من الألفاظ المستحسنة .

فمما جاء من ذلك قول أبى تمام(١) :

(١) هذان البيتان من قصيدة لأبى تمام يمدح فيها المعتصم ويذكر أخذ بابك ، وأولها قوله :

آلَتْ أُمُورُ الشِّرْكِ شَرَّ مَآلِ وَأَقَرَّ بَعْدَ تَخَمُّطٍ وَصِيَالِ

كَمْ صَارِمٍ عَضْبٍ أَنَافَ عَلَى فَتًى مِنْهُمْ لأَعْبَاءِ الْوَغَى حَمَّالِ(١)
سَبَقَ الْمَشِيبُ إِلَيْهِ حَتَّى ابْتَزَّهُ وَطَنَ النُّهَى مِنْ مَفْرِقٍ وَقَذَالِ(٢)

فقوله « وَطَنَ النهى » من الكلمات الجامعة ، وهى عبارة عن الرأس ، ولا يجاء بمثلها فى معناها مما يسدّ(٣) مسدّها .

وكذلك ورد قول البحترى :

قَلْبٌ يُطِلُّ عَلَى أَفْكَارِهِ ، وَيَدٌ تُمْضِي الْأُمُورَ ، وَنَفْسٌ لَهْوُهَا التَّعَبُ

فقوله « قلب يُطِلّ على أفكاره » من الكلمات الجوامع ، ومراده بذلك أن قلبه لا تملؤه الأفكار ، ولا تحيط به ، وإنما هو عالٍ عليها ، يصف بذلك عدمَ احتفاله بالقوادح ، وقلّةَ مبالاته بالخطوب التى تحدث أفكارا تستغرق القلوب ، وهذه عبارة عجيبة لا يؤتى بمثلها مما يسدّ مسدها .

وأما ما يأتى على حكم الحقيقة فكقول ابن الرومى :

سَقَى اللهُ أَوْطَاراً لَنَا وَمَآرِبًا تَقَطَّعَ مِنْ أَقْرَانِهَا مَا تَقَطَّعَا
لَيَالِيَ تُنْسِينِي اللَّيَالِي حِسَابَهَا بُلَهْنِيَةٌ أَقْضِي بِهَا الْحَوْلَ أَجْمَعَا

آلت : رجعت ، والمآل : المرجع ، والتخمط : التكبر ، والصيال : التسلط .
وانظر الديوان (ص ٢٥٩) .

(١) وقع هذا البيت محرفا فى أصول هذا الكتاب ؛ فجاء فيها « على قفا » وجاء فيها « منهم لأعبا الوغى » والتصحيح عن الديوان (ص ٢٦٣) .

(٢) ضبط فى الديوان « وطن النهى » بالرفع ، وهو خطأ ، وصوابه نصب « وطن النهى » على أنه مفعول ثان لابتز . والمفرق : وسط الرأس ، والقذال : مؤخره .

(٣) لا ، بل جاء بمثله كناية عن القلب ذلك الذى يقول :

الضَّارِبِينَ بِكُلِّ أَبْيَضَ مِخْذَمٍ وَالطَّاعِنِينَ مَجَامِعَ الأَضْغَانِ

سِوَى غِرَّةٍ لاَ أَعْرِفُ الْيَوْمَ بِاسْمِهِ وَأَعْمِلُ فِيهِ اللَّهْوَ مَرْأًى وَمَسْمَعَا[١]

فقوله «لا أعرف اليوم باسمه» من الكلمات الجامعة : أى أنى قد شغلت باللذات عن معرفة الليالى والأيام ، ولو وصف اشتغاله باللذات مهما وصف لم يأت بمثل قوله « لا أعرف اليوم باسمه » .

وأما القسم الثانى من جوامع الكلم، فالمراد به الإيجاز الذى يُدَلُّ به بالألفاظ[٢] القليلة على المعانى الكثيرة : أى أن ألفاظه صلوات الله عليه جامعة للمعانى المقصودة على إيجازها واختصارها ، وجُلّ كلامه جارٍ هذا المجرى ؛ فلا يحتاج إلى ضرب الأمثلة به ، وسيأتى فى باب الإيجاز منه مافيه كفاية ومَقْنَع .

فإن قيل : فما الفرق بين هذين القسمين اللذين ذكرتهما؛ فإنهما فى النظر سواء ؟

قلت فى الجواب : إن الإيجاز هو أن يؤتى بألفاظ دالة على معنى من غير أن تزيد على ذلك المعنى ، ولا يشترط فى تلك الألفاظ أنها لا نظير لها ؛ فإنها تكون قد اتصفت بوصف آخر خارج عن وصف الإيجاز، وحينئذ يكون إيجازا وزيادة .

وأما هذا القسم الآخر فإنه ألفاظ أفْرَادٌ فى حسنها لا نظير لها[٣] ، فتارة تكون موجزة، وتارة لا تكون موجزة ، وليس الغرض منها الإيجاز ، وإنما الغرض مكانُهَا من الحسن الذى لا نظير لها فيه ، ألا ترى إلى قول أبى تمام « وَطَن النهى » فإن ذلك عبارة عن الرأس ، ولا شك أن الرأس أوجز ؛ لأن الرأس لفظة واحدة ، و « وطن النهى » لفظتان ، إلا أن « وطن النهى » أحسن فى التعبير عن الرأس من الرأس ، فبان بهذا أن أحد هذين القسمين غير الآخر .

---

(١) فى الأصول « سوى عزة » وهو تحريف .

(٢) الباء فى قوله « يدل به » دالة على معنى غير المعنى الذى تدل عليه الباء فى قوله «بالألفاظ » ، وهذا أمر حتم ؛ لأنه لا يجوز أن يتعدى الفعل مرتين بحرف جر ومعناه واحد فى المرتين؛ والباء الأولى للاستعانة والثانية للتعدية، والمعنى يدل بالألفاظ القليلة على المعنى الكثير بواسطة الإيجاز .

(٣) أفراد : جمع فرد ، والمراد به المتفرد فى حسنه ؛ وقوله « لا نظير لها » هو تفسير لمعنى الأفراد .

الفصل السادس

فى الحكمة التى هى ضالة المؤمن

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الْحِكْمَةُ(١) ضالَّةُ الْمُؤْمِنِ فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا إِذَا وَجَدَهَا » ؛ والمراد بذلك أن الحكمة قد يستفيدها أهلها من غير أهلها ، كما يقال : ربَّ رَمْيةٍ مِنْ غَيْرِ رَامٍ ، وهذا لا يخص علما واحداً من العلوم ، بل يقع فى كل علم ، والمطلوب منه هٰهنا هو ما يخص علم البيان من الفصاحة والبلاغة ، دون غيره ، ومذ سمعت هذا الخبر النبوى جعلت كدِّى فى تتبع أقوال الناس فى مفاوضاتهم ومحاوراتهم ، فإنه قد تصدر الأقوال البليغة والحكم والأمثال ممن لايعلم مقدار مايقوله ، فاستفدت بذلك فوائد كثيرة لاأحصرها عدداً ، وأنا أذكر منها طَرَفًا يستدل به على أشباهه ونظائره .

فمن ذلك أنى سرت فى بعض الطرق وفى صحبتى رجل بَدَوِىّ من الأنباط لا يُعْتَدّ بقوله ، فكان يقول : غداً ندخل البلد وتشتغل عنى ، وكان الأمر كما قال ، فدخلت مدينة حلب وشغلت عنه أياماً ، ثم لقينى فقال لى : مَنْ تَرَوَّى فَتَرَتْ عِظامُه ، وهذا القول من الأقوال البليغة ، وهى من الحكمة التى هى الضالة المطلوبة عند مؤمنى الفصاحة والبلاغة .

ثم إنى سمعت منه بعد ذلك شيئاً يناسب قوله الأول ، فإنى سَفَرْت له إلى صاحب فى حلب فى شىء أخذته منه ، فاستقله ، وقال : الماء أَرْوَى لِشُدُوق النِّيب(٢) وهذا أيضاً من الحكمة فى بابها .

---

(١) فى الأصول « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن » وهو زيادة عما ورد فى الحديث.

(٢) الشدوق : جمع شدق ، والشدق ــ بكسر فسكون ــ جانب الفم ، والنيب : جمع ناب ، والناب : الناقة المسنة ، وتجمع أيضا على أنياب ونيوب .

وسافرت مرة أخرى على طريق المناظر ، وكان فى صحبتى رجل بدوى ، فسألته عن مسافة ما بين تَدْمُر وأراك ، فقال : إذا خرج سَرْحَاهُمَا تلاقيا[١] ، فعبر عن قرب المسافة بينهما بأوجز عبارة وأبلغها .

ثم سألته ليلة من الليالى عن الصبح لنرتحل من موضعنا ، فقال : قد ظهر الصبح إلا أنه لم يملك الإنسان بصره ، وهذا القول من الحكمة أيضاً

وكان تزوج غلام من غلمانى بدمشق ، فوقعت المرأة منه بموقع ، وشُغِفَ بها ، ثم إنى سافرت عن دمشق لمهم عرض لى ، وسافر ذلك الغلام فى صحبتى ، فلما عدنا من السفر شغل بامرأته والمقام عندها ، فسألته عن حاله ، فقال : إنها قد طالت وحَسُنَت ، وهى كذا وكذا ، وأخذ يصفها ؛ فقال أخ له كان حاضراً : يامولاى ، هى تلك لم تزد شيئاً ، وإنما هى فى عينه جَبَّار من الجبابرة[٢] ، وهذا القول قد ورد فى بعض أبيات الحماسة ، وهو معدود من أبيات المعانى :

أهَابُكِ إجْلاَلاً وَمَا بِكِ قُدْرَةٌ ... عَلَىَّ وَلٰكِنْ مِلْءُ عَيْنٍ حَبِيبُهَا

فكثيراً مايصدر مثل هذه الأقوال عن ألسنة الجهال .

وسمعت مايجرى هذا المجرى من بعض العبيد الأحابيش الذين لايستطيعون تقويم صيغ الألفاظ ، فضلاً عما وراء ذلك ، وذاك أنه رأى صبيا فى يده طاقة رَيْحَان ، فقال : هذه طاقة آسٍ تحمل طاقة رَيْحَان ، فلما سمعت ذلك منه أخذتنى هزة التعجب ، وذكرت شعر أبى نُوَاسٍ الذى تواصفه الناس فى هذا المعنى ، وهو قوله :

وَوَرْدَةٍ جَاءَ بِهَا شَادِنٌ ... فى كَفِّهِ الْيُمْنَى فَحَيَّانَا
سَبَّحْتُ رَبِّى حِينَ أبْصَرْتُهَا ... رَيْحَانَةً تَحْمِلُ رَيْحَانَا

---

(١) السرح ــ بفتح السين وسكون الراء ــ المال السائم من إبل وغنم ونحوهما .
(٢) فى ج « من الجبارة » ، وهو تحريف ، والتصويب عن ب .

وحضر عندى فى بعض الأيام رجل نصرانى مَوْسُوم بالطبِّ ، وكان لايحسن أن يقول كلمة واحدة ، وهو أقلف اللسان(١) ، يسىء العبارة ، فسألته عن زيارة شخص وهل يتردد إليه أم لا ، فقال : ظَلَامُ الليل يَهْدِينى إلى باب من أَوَدُّه ، وضوءُ النهار يَضِلُّ بى عن باب من لا أوده ، وهذا من ألطف المعانى وأحسنها ، وهو من الحكمة المطلوبة .

وكنت قصدت زيارة بعض الإخوان من الأجناد وهو من الأغتام(٢) الأعجام ، فسألته عن حاله ، وكان توالت عليه نكبات طالت أيامها ، وعظمت آلامها ، فقال لى فى الجواب ما معناه : إنه لم يبق عندى ارتياع لوقوع نائبة من النوائب ؛ وهذا معنى لو أتى به شاعر مفلق ، أو كاتب بليغ ؛ لاستحسن منه غاية الاستحسان .

وكنت فى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة بأرض فِلَسْطين فى الجيش الذى كان قُبَالة العدو الكافر من الفرنج لعنهم الله ، وتقابل الفريقان على مدينة يافا ، وكان إلى جانبى ثلاثة فرسان من المسلمين ، فتعاقدوا على الحملة إلى نحو العدو ، فلما حملوا صَدَقَ منهم اثنان وتلكأ واحد ، فقيل له فى ذلك ، فقال : الموتُ

---

(١) كذا بالأصول : وهذه العبارة تحتمل معنيين متضادين : أولهما أنه طويل اللسان ، وأصل الأقلف الذى لم يختتن ، ويقال : عام أقلف ، وسنة قلفاء ، إذا كان فيهما الخصب . وثانى المعنيين أنه قصيراللسان من قولهم : قلف الشجرة ، إذا نحى عنها قشرها ، والأول أقرب لقوله بعد «يسىء العبارة» .

(٢) الأغتام : جمع غتم — بضم فسكون — والغتم : جمع أغتم ؛ وهو الذى لايبين شيئا ،وجمع الجمع مما لايقاس ، ولكن المؤلف أخذ هذه الكلمة من قول المتنبى :

لِلّٰهِ مَافعَلَ الصَّوَارِمُ والْقَنَا فِى عَمْرِو حَابٍ وضَبَّةَ الْأَغْتَامِ

طَعامٌ لاَ تَجُشُّه المَعِدَةَ[١] فلما سمعت هذه الكلمة استحسنتها ، وإذا هى صادرة عن رجل من أهل بُصْرَى ندم من الأفدام[٢] .

ولو أخذت فى ذكر ما سمعته من هذا لأطلت ، وإنما دللت بيسير ما ذكرته على المراد ، وهو أنه يجب على المتصدّى للشعر والخطابة أن يتتبع أقوال الناس فى محاوراتهم ؛ فإنه لا يعدم مما يسمعه منهم حكما كثيرة ، ولو أراد استخراج ذلك بفكره لأعجزه .

ويحكى عن أبى تمام أنه لما نظم قصيدته البائية التى أولها :

* عَلَى مِثْلِها مِنْ أَرْبُعٍ وَمَلاَعِبِ[٣] *

انتهى منها إلى قوله :

يَرَى أَقْبَحَ الأَشياءَ أَوْبَةَ آمِلٍ كَسَتْهُ يَدُ المَأْمُولِ حُلَّةَ خائِبِ

ثم قال :

* وَأَحْسَنُ مِنْ نَوْرٍ يُفَتِّحُهُ الصَّبَا *

ووقف عند صدر هذا البيت يُرَدِّدُه ، وإذا سائل يسأل على الباب ، وهو يقول: من بياض عطايا كم فى سواد مطالبنا ، فقال أبو تمام :

* بَيَاضُ العَطَايا فى سَوَادِ المَطَالِبِ *

فأتمّ صدر البيت الذى كان يردده من كلام السائل .

---

(١) جش الشىء يجشه ـ مثل ردّه يرده ـ إذا دقه وكسره ، ويقال للسويق : جشيش .

(٢) الأفدام : جمع فدم ؛ والفدم ـ بفتح فسكون ـ العيّ الثقيل .

(٣) هذا صدر بيت هو مطلع قصيدة يمدح فيها أبا دلف القاسم بن عيسى العجلى ، وعجزه قوله :

* تُذَالُ مَصُونَاتُ الدُّمُوعِ السَّوَاكِبِ *

وانظر الديوان (ص ٤٠) .

وسمعت امرأة قد توفى لها ولد ، وهو بكرها الذى هو أول أولادها ، فقالت : كيف لا أحزن لذهابه وهو أَوَّلُ دِرْهَمٍ وَقَعَ فى الـكيس ، فأخذت أنا هذا المعنى وأودعته كتاباً من كتبى فى التعازى ، وهو كتاب كتبته إلى بعض الإخوان وقد توفى بكره من الأولاد ؛ فقلت : وَهُوَ أولُ دِرْهَمٍ ادَّخَرْتَهُ فِي كِيس الادِّخَارِ ، وأَعْدَدْتَهُ لحوادث الليل والنهار .

وبلغنى عن الشيخ أبى محمد بن أحمد المعروف[1] بابن الخشاب البغدادى ، وكان إماما فى علم العربية وغيره؛ فقيل : إنه كان كثيرا مايقف على حلق القصاص والمشعبذين ، فإذا أتاه طلبة العلم لا يجدونه فى أكثر أوقاته إلا هناك ، فليم على ذلك ، وقيل له : أنت إمام الناس فى العلم ، وما الذى يبعثك على الوقوف بهذه المواقف الرذيلة ؟ فقال : لو علمتم ما أعلم لما لُمْتُمْ ، ولطالما استفدت من هؤلاء الجهال فوائد كثيرة [فإنه[2]] تجرى فى ضمن هَذَيَانهم معانٍ غريبة لطيفة ، ولو أردت أنا وغيرى أن نأتى بمثلها لما استطعنا ذلك ، ولا شك أن هذا الرجل رأى مارأيته ، ونظر إلى مانظرت إليه .

الفصل السابع
فى الحقيقة والمجاز

وهذا الفصل مهم كبير من مهمات علم البيان ، لا ، بل هو علم البيان بأجمعه ؛ فإن فى تصريف العبارات على الأسلوب المجازى فوائد كثيرة ، وسيرد بيانها فى

---

(١) فى الأصول « أبى محمد أحمد بن أحمد » وابن الخشاب النحوى هو أبو محمد عبد الله بن أحمد .
(٢) زيادة يدعو إليها حسن نظام الـكلام .

مواضعها من هذا الكتاب ، إن شاء الله تعالى ، وقد نبهنا فى هذا الموضع على جملتها دون تفصيلها .

فأما الحقيقة فهى : اللفظ الدالّ على موضوعه الأصلى .

وأما المجاز فهو ماأريد به غَيْرُ المعنى الموضوع له فى أصل اللغة ، وهو مأخوذ من جَازَ من هذا الموضع إلى هذا الموضع؛ إذا تخطَّاه إليه ؛ فالمجاز إذاً اسْمٌ للمكان الذى يُجَاز فيه كالْمَعَاج والْمَزَار وأشباههما ، وحقيقته هى الانتقال من مكان إلى مكان ، فجعل ذلك لنقل الألفاظ من محلّ إلى محل ، كقولنا : زيدٌ أسدٌ ؛ فإن زيدا إنسان ، والأسد هو هذا الحيوان المعروف ، وقد جُزْنا من الإنسانية إلى الأسدية : أى عَبَرْنَا من هذه إلى هذه لوُصْلَة بينهما ، وتلك الوصلة هى صفة الشجاعة ، وقد يكون العبور لغير وُصْلة ، وذلك هو الاتساع ، كقولهم فى كتاب كليلة ودمنة : قال الأسد ، وقال الثعلب ؛ فإن القول لا وُصْلة بينه وبين هذين بحال من الأحوال ، وإنما أجرى عليهما اتساعا محضاً لاغير ، ولهذا مثال فى المجاز الحقيقى الذى هو المكان المجاز فيه ، فإنه لايخلو إما أن يجاز من سَهْل إلى سَهْل ، أو من وَعْر إلى وَعْر ، أو من سهل إلى وَعْر ؛ فالجواز من سهل إلى سهل أو من وعر إلى وعر هو كقولنا : زيد أسد ؛ فالمشابهة الحاصلة[1] فى ذات بَيْنِهِمَا كالمشابهة الحاصلة فى المكان ، والجواز من سهل إلى وعر كقولهم : قال الأسد ، وقال الثعلب ، فكما أنه لامشابهة بين القول وبين هذين ، فكذلك لامشابهة بين السهل والوعر ، وسيأتى كَشْفُ الغطاء عن ذلك وإشباعُ القول فى تحقيقه فى باب الاستعارة ، فليؤخذ من هناك .

(١) فى الأصول « فالمشابهة حاصلة — إلخ » وهو تحريف سببه ظن الناسخين أن قوله « حاصلة » خبر ، والصواب ما أثبتناه ؛ والخبر هو قوله « كالمشابهة — إلخ » .

وقد ذهب قوم إلى أن الكلام كله حقيقة لامجاز فيه ، وذهب آخرون إلى أنه كله مجاز لاحقيقة فيه ، وكلا هذين المذهبين فاسد عندى .

وسأجيب الخصم عما ادعاه فيهما ، فأقول :

محل النزاع هو أن اللغة كلها حقيقة أو أنها كلها مجاز ، ولا فرق عندى بين قولك إنها كلها حقيقة أو إنها كلها مجاز ، فإن كلا الطرفين عندى سواء ؛ لأن منكرهما غير مسلّم لهما ، وأنا بصدد أن أبين أن فى اللغة حقيقة ومجازا ، والحقيقة اللغوية هى حقيقة الألفاظ فى دلالتها على المعانى ، وليست بالحقيقة التى هى ذات الشىء أى نفسه وعينه ؛ فالحقيقة اللفظية إذاً هى دلالة اللفظ على المعنى الموضوع له فى أصل اللغة ، والمجاز هو نقل المعنى عن اللفظ الموضوع له إلى لفظ آخر غيره .

وتقرير ذلك بأن أقول :

المخلوقات كلها تفتقر إلى أسماء يستدل بها عليها ؛ ليعرف كل منها باسمه ، من أجل التفاهم بين الناس ، وهذا يقع ضرورة لابد منها ؛ فالاسم الموضوع بإزاء المسمى هو حقيقة له ، فإذا نقل إلى غيره صار مجازا ، ومثال ذلك أنا إذا قلنا شمس أردنا به هذا الكوكب العظيم الكثير الضوء ، وهذا الاسم له حقيقة ؛ لأنه وضع بإزائه ، وكذلك إذا قلنا بحر أردنا به هذا الماء العظيم المجتمع الذى طعمه ملح ، وهذا الاسم له حقيقة ؛ لأنه وضع بإزائه ، فإذا نقلنا الشمس إلى الوجه المليح استعارةً كان ذلك له مجازاً لاحقيقة ، وكذلك إذا نقلنا البحر إلى الرجل الجواد استعارةً كان ذلك له مجازًا لاحقيقة .

فإن قيل : إن الوجه المليح يقال له شمس ، وهو حقيقة فيه ، وكذلك البحر يقال للرجل الجواد ، وهو حقيقة فيه .

فالجواب عن ذلك من وجهين : أحدهما نظرىّ ، والآخر وضعىّ ،

أما النظرى فهو أن الألفاظ إنما جعلت أدلة على إفهام المعانى ، ولو كان

ماذهبت إليه صحيحا لكان البحر يطلق على هذا الماء العظيم الملح ، وعلى الرجل الجواد ، بالاشتراك ، وكذلك الشمس أيضاً ؛ فإنها كانت تطلق على هذا الكوكب العظيم الكثير الضوء ، وعلى الوجه المليح ، بالاشتراك ، وحينئذ فإذا ورد أحد هٰذين اللفظين مطلقا بغير قرينة تخصّصه فلا يفهم المراد به ماهو من أحد المعنيين المشتركين المندرجين تحته ، ونحن نرى الأمر بخلاف ذلك ؛ فإنا إذا قلنا شمس أو بحر وأطلقنا القول لايفهم من ذلك وجه مليح ولا رجل جواد ، وإنما يفهم منه ذلك الكوكب المعلوم وذلك الماء المعلوم ، لاغير ، فبطل إذاً ماذهبت إليه بما بيناه وأوضحناه .

فإن قلت : إن العُرْفَ يخالف ماذهبت إليه ؛ فإن من الألفاظ ما إذا أطلق لم يذهب الفهم منه إلا إلى المجاز دون الحقيقة ، كقولهم الغائط ، فإن العرف خصص ذلك بقضاء الحاجة دون غيره من المطمئن من الأرض .

قلت فى الجواب : هذا شىء ذهب إليه الفقهاء ، وليس الأمر كما ذهبوا إليه ؛ لأنه إن كان إطلاق اللفظ فيه بين عامة الناس من إسكاف وحَدَّاد ونجار وخباز ومن جرى مجراهم فهؤلاء لا يفهمون من الغائط إلا قضاء الحاجة ؛ لأنهم لم يعلموا أصل وضع هذه الكلمة وأنها مطمئن من الأرض ، وأما خاصة الناس الذين يعلمون أصل الوضع فإنهم لا يفهمون عند إطلاق اللفظ إلا الحقيقة لا غير ، ألا ترى أن هذه اللفظة لما وردت فى القرآن الكريم وأريد بها قضاء الحاجة قُرِنَتْ بألفاظ تدل على ذلك ، كقوله تعالى : (أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ) فإن قوله (أو جاء أحد منكم من الغائط) دليل على أنه أراد قضاء الحاجة دون المطمئن من الأرض ، فالكلام فى هذا وأمثاله إنما هو مع علم أصل الوضع حقيقة والنقل عنه مجازاً ، وأما الجهال فلا اعتبار بهم ، ولا اعتداد بأقوالهم .

والعجب عندى من الفقهاء الذين دونوا ذلك على ما دونوه ، وذهبوا إلى ما ذهبوا إليه .

وأما الوجه الوضعى فهو أن المرجع فى هـذا وما يجرى مجراه إلى أصل اللغة التى هى وضع الأسماء على المسميات ، ولم يوجد فيها أن الوجه المليح يسمى شمساً ، ولا أن الرجـل الجواد يسمى بحراً ، وإنمـا أهل الخطابة والشعر توسعوا فى الأساليب المعنوية ، فنقلوا الحقيقة إلى المجاز ، ولم يكن ذلك من واضع اللغة فى أصل الوضع ، ولهذا اختص كل منهم بشىء اخترعه فى التوسعات المجازية .

هذا امرؤ القيس قد اخترع شيئاً لم يكن قبله ؛ فمن ذلك أنه أول من عبر عن الفرس بقوله « قَيْدِ الأَوَابِدِ(١) » ولم يسمع ذلك لأحد من قبله .

وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يوم حنين : « الآنَ حَمِيَ الوَطِيسُ » وأراد بذلك شدة الحرب ؛ فإن الوطيس فى أصل الوضع هو التَّنُّور ، فنقل إلى الحرب استعارةً ، ولم يسمع هذا اللفظ على هذا الوجه من غير النبى صلى الله عليه وسلم .

وواضع اللغة ما ذكر شيئاً من ذلك ؛ فعلمنا حينئذ أن من اللغة حقيقة بوضعه ، ومجازاً بتوسعات أهل الخطابة والشعر .

وفى زماننا هذا قد يخترعون أشياء من المجاز على حكم الاستعارة لم تكن من قبل ، ولو كان هـذا موقوفاً من جهة واضع اللغة لمـا اخترعه أحـد من بعده ، ولا زيد فيه ، ولا نقص منه .

وأما الفرق بينه و بين الحقيقة فهو أن الحقيقة جارية على العموم فى نظائر ؛

---

(١) من ذلك قوله :

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وُكُنَاتِهَا بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلِ

والأوابد : الوحوش ، ومعنى كونه قيدها أنه لسرعته لايمكنها الهرب منه ، وهيكل : جسيم .

ألا ترى أنا إذا قلنا « فلان عالم » صدق على كل ذى علم ، بخلاف (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ) لأنه لا يصح إلا فى بعض الجمادات دون بعض ؛ إذ المراد أهل القرية ، لأنهم ممن يصح السؤال لهم ، ولا يجوز أن يقال : واسأل الحجر والتراب ، وقد يحسن أن يقال : واسأل الربع والطلل (١) .

واعلم أن كل مجاز فله حقيقة ؛ لأنه لم يصح أن يطلق عليه اسم المجاز إلا لنقله عن حقيقة موضوعة له ؛ إذ المجاز هو اسم الموضع الذى ينتقل فيه من مكان إلى مكان ، فجعل ذلك لنقل الألفاظ من الحقيقة إلى غيرها .

وإذا كان كل مجاز لا بد له من حقيقة نقل عنها إلى حالته المجازية فكذلك ليس من ضرورة كل حقيقة أن يكون لها مجاز ، فإن من الأسماء مالا مجاز له ، كأسماء الأعلام ؛ لأنها وضعت للفرق بين الذوات لا للفرق بين الصفات .

وكذلك فاعلم أن المجاز أولى بالاستعمال من الحقيقة فى باب الفصاحة

---

(١) من ذلك قول الأعشى :

أَلَمْ تَسْأَلِ الرَّبْعَ الْقَوَاءَ فَيَنْطِقُ ... وَهَلْ تُخْبِرَنْكَ الْيَوْمَ بَيْدَاءُ سَمْلَقُ

وقول عنترة :

طَالَ الثَّوَاءُ عَلَى رُسُومِ الْمَنْزِلِ ... بَيْنَ اللَّكِيكِ وَبَيْنَ ذَاتِ الْحَرْمَلِ

فَوَقَفْتُ فِي عَرَصَاتِهَا مُتَحَيِّراً ... أَسَلُ الدِّيَارَ كَفِعْلِ مَنْ لَمْ يُذْهَلِ

وقوله أيضا :

لِمَنْ طَلَلٌ بِوَادِي الرَّمْلِ بَالِ ... مَحَتْ آثَارَهُ رِيحُ الشَّمَالِ

وَقَفْتُ بِهِ وَدَمْعِي مِنْ جُفُونِي ... يَفِيضُ عَلَى مَغَانِيهِ الْخَوَالِي

أُسَائِلُ عَنْ فَتَاةِ بَنِي قُرَادٍ ... وَعَنْ أَتْرَابِهَا ذَاتِ الْجَمَالِ

وَكَيْفَ يُجِيبُنِي رَسْمٌ مُحِيلٌ ... بَعِيدٌ لَا يَعِنُّ عَلَى سُؤَالِي

والبلاغة ؛ لأنه لو لم يكن كذلك لكانت الحقيقة التي هي الأصل أولى منه حيث هو فرع عليها ، وليس الأمر كذلك ؛ لأنه قد ثبت وتحقق أن فائدة الكلام الخطابي هو إثبات الغرض المقصود في نفس السامع بالتخييل والتصوير حتى يكاد ينظر إليه عِيَانًا ، ألا ترى أن حقيقة قولنا « زيد أسد » هي قولنا « زيد شجاع » لكن فرق بين القولين في التصوير والتخييل و إثبات الغرض المقصود في نفس السامع ؛ لأن قولنا « زيد شجاع » لا يتخيل منه السامع سوى أنه رجل جرىء مقدام ، فإذا قلنا « زيد أسد » يُخَيَّل عند ذلك صورة الأسد وهيئته وما عنده من البطش والقوة ، ودق الفرائس ، وهذا لا نزاع فيه .

وأعجب ما في العبارة المجازية أنها تنقل السامع عن خلقه الطبيعي في بعض الأحوال؛ حتى إنها ليَسْمَح بها البخيل ، ويَشْجُع بها الجبان ، ويحكم بها الطائش المتسرع ، ويَجِدُ المخاطب بها عند سماعها نَشْوَةً كنشوة الخمر ، حتى إذا قطع عنه ذلك الكلام أفاق وندم على ما كان منه من بذل مال أو ترك عقوبة أو إقدام على أمر مهول ، وهذا هو فَحْوَى السحر الحلال ، المستغني عن إلقاء العصا والحبال .

واعلم أنه إذا ورد عليك كلام يجوز أن يحمل معناه على طريق الحقيقة وعلى طريق المجاز باختلاف لفظه ؛ فانظر : فإن كان لا مزية لمعناه في حمله على طريق المجاز فلا ينبغي أن يحمل إلا على طريق الحقيقة ؛ لأنها هي الأصل والمجاز هو الفرع ، ولا يعدل عن الأصل إلى الفرع إلا لفائدة .

مثال ذلك قول البحتري :

مَهِيبٌ كَحَدِّ السَّيْفِ لَوْ ضُرِبَتْ بِهِ ... ذُرَى أَجَإٍ ظَلَّتْ وَأَعْلاَمُهَا وُهْدُ (١)

---

(١) هو من قصيدة له يصف فيها الذئب وكان قد لقيه ، وأولها قوله :

سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ وَفَاءٌ وَلاَ عَهْدُ ... أَمَا لَكُمُ مِنْ هَجْرِ أَحْبَابِكُمْ بُدُّ

ويروى أيضا « لو ضُرِبَتْ به طُلَى أجَإٍ » جمع طلية ، وهى العنق ، فهذا البيت لايجوز حمله على المجاز ؛ لأن الحقيقة أولى به ، ألا ترى أن الذرَى جمع ذِرْوَة ، وهو أعلى الشيء ، يقال : ذروة الجبل، أعلاه ، والطُّلَى : جمع طلية ، وهى العنق ، والعنق : أعلى الجسد ، ولا فرق بينهما فى صفة العلو هنا ، فلا يعدل إذا إلى المجاز ؛ إذ لامزية له على الحقيقة .

وهكذا كل مايجىء من الكلام الجارى هذا المجرى ؛ فإنه إن لم يكن فى المجاز زيادة فائدة على الحقيقة لايعدل إليه .

الفصل الثامن

فى الفصاحة والبلاغة

اعلم أن هذا باب متعذر على الوالج ، ومسلك متوعر على الناهج ، ولم يزل العلماء من قديم الوقت وحديثه يكثرون القول فيه والبحث عنه ، ولم أجد من ذلك ما يعول عليه إلا القليل .

وغاية ما يقال فى هذا الباب : إن الفصاحةَ هى الظهور والبيان فى أصل الوضع اللغوى ، يقال : أَفْصَحَ الصُّبح ، إذا ظهر ، ثم إنهم يقفون عند ذلك ، ولا يكشفون عن السر فيه .

وبهذا القول لاتتبين حقيقة الفصاحة ؛ لأنه يعترض عليه بوجوه من الاعتراضات :

ورواية الديوان « مهيبا » بالنصب ، والخطب سهل ، وانظر الديوان (١ - ١٨٥ مصر) .

أحدها : أنه إذا لم يكن اللفظ ظاهرا بينا لم يكن فصيحاً ، ثم إذا ظهر وتبين صار فصيحاً .

الوجه الآخر : أنه إذا كان اللفظ الفصيح هو الظاهر البين فقد صار ذلك بالنِّسَبِ والإضافات إلى الأشخاص ؛ فإن اللفظ قد يكون ظاهراً لزيد، ولا يكون ظاهراً لعمرو ، فهو إذاً فصيح عند هذا وغير فصيح عند هذا ، وليس كذلك ، بل الفصيح هو فصيح عند الجميع ، لاخلاف فيه بحال من الأحوال ؛ لأنه إذا تحقق حد الفصاحة وعُرِفَ ماهِيَ لم يبق فى اللفظ الذى يختص به خلاف .

الوجه الآخر : أنه إذا جيء بلفظ قبيح ينبو عنه السمع ، وهو مع ذلك ظاهر بين ، ينبغي أن يكون فصيحاً ، وليس كذلك ؛ لأن الفصاحة وصف حسن اللفظ ، لاوصف قبح .

فهذه الاعتراضات الثلاثة واردة على قول القائل : « إن اللفظ الفصيح هو الظاهر البين » من غير تفصيل .

ولما وقفت على أقوال الناس فى هذا الباب ملكتنى الحيرة فيها ، ولم يثبت عندى منها ما أعَوِّل عليه ، ولكثرة ملابستى هذا الفن ومعاركتى إياه انكشف لى السر فيه ، وسأوضحه فى كتابى هذا ، وأحقق القول فيه ؛ فأقول : إن الكلام الفصيح هوالظاهر البين ، وأعنى بالظاهر البين أن تكون ألفاظه مفهومة لايحتاج فى فهمها إلى استخراج من كتاب لغة ، وإنما كانت بهذه الصفة لأنها تكون مألوفة الاستعمال بين أرباب النظم والنثر دائرةً فى كلامهم ، وإنما كانت مألوفة الاستعمال دائرة فى الكلام دون غيرها من الألفاظ لمكان حسنها ، وذلك أن أرباب النظم والنثر غَرْبَلوا اللغة باعتبار ألفاظها، وسَبَروا وقسموا ، فاختاروا الحسَنَ من الألفاظ فاستعملوه ، ونَفَوْا القبيح منها فلم يستعملوه ، فحسن الألفاظ[1] سبب

(١) فى ب ، ج «فحسن الاستعمال»وهو تحريف لايستقيم معه اتساق الاستنتاج

استعمالها دون غيرها ، واستعمالها دون غيرها سبب ظهورها و بيانها ؛ فالفصيح إذاً من الألفاظ هو الحسن .

فإن قيل : من أى وجه علم أرباب النظم والنثر الحسن من الألفاظ حتى استعملوه ، وعلموا القبيح منها حتى نفوه ولم يستعملوه ؟

قلت فى الجواب : إن هذا من الأمور المحسوسة التى شاهِدُها من نفسها ؛ لأن الألفاظ داخلة فى حَيِّز الأصوات ؛ فالذى يستلذه السمع منها ويميل إليه هو الحَسَن ، والذى يكرهه و ينفر عنه هو القبيح ؛ ألا ترى أن السمع يستلذ صوت البلبل من الطير وصوت الشحْرُور ، ويميل إليهما ، ويكره صوت الغراب ، و ينفر عنـه ، وكذلك يكره نَهِيقَ الحمار ، ولا يجد ذلك فى صَهِيل الفرس ، والألفاظ جارية هـذا المجرى ؛ فإنه لا خلاف فى أن لفظة المُزْنَة والدِّيمَة حسنة يستلذها السمع ، وأن لفظة البُعَاق[1] قبيحة يكرهها السمع ، وهذه اللَّفَظَات الثلاثة من صفة المطر ، وهى تدل على معنى واحد ، ومع هذا فإنك ترى لفظتى المُزْنَة وَالدِّيمَة وماجرى مجراهما مألوفة الاستعمال ، وترى لفظ البُعَاق وماجرى مجراه مَتْرُوكاً لا يستعمل ؛ و إن اسْتُعْمِل فإنما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة أومَنْ ذَوْقُه غير ذوق سليم ، لاجَرَمَ أنه ذم وقدح فيه ، ولم يلتفت إليه ، و إن كان عربيًّا محضاً من الجاهلية الأقدمين ؛ فإن حقيقة الشىء إذا علمت وجب الوقوف عندها ، ولم يُعَرَّجْ على ماخرج عنها .

و إذن ثبت أن الفصيح من الألفاظ هو الظاهر البين ، و إنما كان ظاهراً بينا لأنه مألوف الاستعمال ، و إنما كان مألوف الاستعمال لمكان حسنه ، وحسنه مُدْرَك بالسمع ، والذى يُدْرَك بالسمع إنما هو اللفظ ؛ لأنه صوت يأتلف عن

---

(١) البعاق ــ بضم الباء الموحدة بزنة غراب ، و بكسرها بزنة كتاب ، و بفتحها بزنة سحاب ــ هو السيل الدفاع ، وهو من المطر : الذى يفاجئك بوابل .

مخارج الحروف ، فما استلذه السمع منه فهو الحسن ، وما كرهه فهو القبيح ، والحسن هو الموصوف بالفصاحة ، والقبيح غير موصوف بفصاحة ؛ لأنه ضدها لمكان قبحه ، وقد مثلت ذلك فى المثال المتقدم بلفظة المُزْنَة والدِّيمَة ولفظة البُعَاق ، ولو كانت الفصاحة لأمر يرجع إلى المعنى لكانت هذه الألفاظ فى الدلالة عليه سواء : ليس منها حسن ومنها قبيح ، ولما لم يكن كذلك علمنا أنها تخص اللفظ دون المعنى .

وليس لقائل هٰهنا أن يقول : لا لَفْظَ إلا بمعنى ، فكيف فصلت أنت بين اللفظ والمعنى ؟ فإنى لم أفصل بينهما ، وإنما خصصت اللفظ بصفة هى له ، والمعنى يجىء فيه ضِمْناً وتَبَعاً .

الوجه الثانى : أن وزن فَعِيل هو اسم فاعل من فعُلَ — بفتح الفاء وضم العين — نحو كَرُمَ فهو كريمٌ ، وشَرُفَ فهو شريف ، ولَطُفَ فهو لطيف ، وهذا مُطَّرد فى بابه ، وعلى هذا فإن اللفظ الفَصيح هو اسم فاعل من فَصُحَ فهو فصيح ، واللفظ هو الفاعل للابانة عن المعنى ، فكانت الفصاحة مختصة به .

فإن قيل : إنك قلت « إن الفصيح من الألفاظ هو الظاهر البين ، أى المفهوم» ، ونرى من آيات القرآن مالا يفهم ماتضمنهُ من المعنى إلا باستنباط وتفسير ، وتلك الآيات فصيحة لا محالة ، وهذا بخلاف ما ذكرته .

قلت : لأن الآيات التى تستنبط وتحتاج إلى تفسير ليس شىء منها إلا ومفردات ألفاظه كلها ظاهرة واضحة ؛ وإنما التفسير يقع فى غموض المعنى من جهة التركيب ، لا من جهة ألفاظه المفردة ، لأن معنى المفردة يتداخل بالتركيب ، ويصير له هيئة تخصه ، وهذا ليس قَدْحًا فى فصاحة تلك الألفاظ ؛ لأنها إذا اعتبرت لفظةً لفظةً وجدت كلها فصيحة : أى ظاهرة واضحة .

وأعجب مافى ذلك أن تكون الألفاظ المفردة التى تركبت منها المركبة واضحة

كلها ، و إذا نظر إليها مع التركيب احتاجت إلى استنباط وتفسير ، وهـذا لا يختص به القرآن وحده ، بل فى الأخبار النبوية والأشعار والخطب والمكاتبات كثير من ذلك .

وسأورد ههنا منه شيئاً ؛ فأقول : قد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «صَوْمُكُمْ يَوْمَ تَصُومُونَ ، وَفِطْرُكُمْ يَوْمَ تُفْطِرُون ، وَأَضْحَاكُمْ يَوْمَ تَضَحُّون» وهذا الكلام مفهومةٌ مفرداتُ ألفاظِهِ ، لأن الصوم والفطر والأضحى مفهوم كله ، و إذا سمع هذا الخبر من غير فكرة قيل : علمنا أن صومنا يوم نصوم ، وفطرنا يوم نفطر ، وأضحانا يوم نضحّى ، فما الذى أعلمنا به مما لم نعلمه ؟ و إذا أمعن الناظر نظره فيه علم أن معناه يحتاج إلى استنباط ، والمراد به أنه إذا اجتمع الناس على أن أول شهر رمضان يوم كذا ، ولم يكن ذلك اليوم أوله ، فإن الصوم صحيح ، وأوله هو ذلك اليوم الذى اجتمع الناس عليه ، وكذا يقال فى يوم الفطر ، و يوم الأضحى .

ولهذا الخبر المشار إليه أشباه كثيرة تفهم معانى ألفاظها المفردة ، و إذا تركبت تحتاج فى فهمها إلى استنباط .

وأما ماورد من ذلك شعراً فكقول أبى تمام :

وَلِهَتْ فَأَظْلَمَ كُلُّ شَىْءٍ دُونَهَا ... وَأَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَىْءٍ مُظْلِمِ (1)

فإن الوله والظلمة والإضاءة كل ذلك مفهوم المعنى ، لكن البيت بجملته يحتاج فى فهمه إلى استنباط ، والمراد به أنها ولهت فأظلم مابينى وبينها، لمانالنى من الجزع لولهها؛

(1) هو من قصيدة له يمدح فيها أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شبابة ، وأولها :

نَثَرَتْ فَرِيدَ مَدَامِعٍ لَمْ تُنْظَمِ ... وَالدَّمْعُ يَحْمِلُ بَعْضَ شَجْوِ الْمُغْرَمِ

وانظر الديوان (ص ٣١٢) .

كما يقول الجازع : أظلمت الأرض عليّ : أى أنى صرت كالأعمى الذى لايبصر ، وأما قوله « وأضاء منها كل شيء مظلم » أى وضح لى منها ما كان مستترا عنى من حبها إياى .

وكذلك ورد قول أبى عبادة البحترى فى منهزم :

إذَا سَارَ سَهْبًا عَادَ ظَهْرًا عَدُوَّهُ وَكَانَ الصَّدِيقَ بُكْرَةً ذٰلِكَ السَّهْبُ (١)

فإن السَّيْر والسَّهْب والظهر والعَدُووالصَّديق كل ذلك مفهوم المعنى ، لكن البيت بمجموعه يحتاج معناه إلى استنباط ، والمراد أن هذا المنهزم يرى مابين يديه محبوبًا إليه ، وما خلفه مكروهاً عنده ؛ لأنه يطلب النجاة فيؤثر البعد مما خلفه والقرب مما أمامه ، فإذا قطع سهباً وخلَّفه وراءه صار عنده كالعدو ، وقَبْلَ أن يقطعه كان له صديقاً : أى يطلب لقاءه ويحبُّ الدنو منه .

فانظر أيها المتأمل إلى ماذكرته من هذه الأمثلة حتى يثبت عندك ماأردت بيانه.

وأما البلاغة فإن أصلها فى وضع اللغة من الوصول والانتهاء ، يقال : بَلَغْتُ المكان ، إذا انتهيت إليه ، ومَبْلَغُ الشيء : منتهاه ، وسمى الكلام بليغاً من ذلك؛ أى أنه قد بَلَغَ الأوصاف اللفظية والمعنوية .

---

(١) هو من قصيدة له يمدح فيها أحمد بن طولون ، ويذكر هرب لؤلؤ ، ودخوله بغداد ، وأولها :

قَلِيلٌ لَهَا أَنِّى بِهَا مُغْرَمٌ صَبٌّ وَإِنْ لَمْ يُقَارِفْ غَيْرَ وَجْدٍ بِهَا الْقَلْبُ

وانظر الديوان (ص ٣١ مصر) . والسهب ـ بفتح السين ـ الفلاة ، والسهب ـ بضم السين ـ المستوى من الأرض فى سهولة ، أو الناحية من الفلاة التى لامسلك فيها . و« ظهرا » ظرف ، و « عدوه » إما خبر عاد التى معناها صار ، وإما حال من فاعلها الذى هو ضمير مستتر يعود إلى السهب ، و « الصديق » خبر كان مقدم ، و «ذلك السهب» اسم كان ، و « بكرة » ظرف قابل به « ظهرا » ، وفى الديوان « عذرة » وأظنه محرفا عن « غدوة » .

والبلاغة شاملة للألفاظ والمعانى ، وهى أخص من الفصاحة ، كالإنسان من الحيوان ، فكل إنسانٍ حيوانٌ ، وليس كل حيوان إنسانا ، وكذلك يقال : كل كلام بليغ فصيح ، وليس كل كلام فصيح بليغاً .

و يفرق بينها و بين الفصاحة من وجه آخر غير الخاص والعام ، وهو أنها لا تكون إلا فى اللفظ والمعنى بشرط التركيب ؛ فإن اللفظة الواحدة لا يطلق عليها اسم البلاغة ، ويطلق عليها اسم الفصاحة ؛ إذ يوجد فيها الوصف المختص بالفصاحة ، وهو الحسن . وأما وصف البلاغة فلا يوجد فيها ؛ لخلوها من المعنى المفيد الذى ينتظم كلاماً .

مسألة تتعلق بهذا الفصل :

هل أخذ علم البيان من ضروب الفصاحة والبلاغة بالاستقراء من أشعار العرب أم بالنظر وقضية العقل ؟ .

الجواب عن ذلك أنا نقول : لم يؤخذ علم البيان بالاستقراء ، فإن العرب الذين ألفوا الشعر والخطب لا يخلو أمرهم من حالين : إما أنهم ابتدعوا ما أتوا به من ضروب الفصاحة والبلاغة بالنظر وقضية العقل ، أو أخذوه بالاستقراء ممن كان قبلهم .

فان كانوا ابتدعوه عند وقوفهم على أسرار اللغة ، ومعرفة جيدها من رديئها، وحسنها من قبيحها ، فذلك هو الذى أذهب إليه

و إن كانوا أخذوه بالاستقراء ممن كان قبلهم ، فهذا يتسلسل إلى أول من ابتدعه ولم يَسْتَقْرِه ، فان كل لغة من اللغات لا تخلو من وصفى الفصاحة والبلاغة المختصين بالألفاظ والمعانى ، إلا أن للغة العربية مزية على غيرها ؛ لما فيها من التوسعات التى لا توجد فى لغة أخرى سواها

مسئلة أخرى تتعلق بهذا الفصل أيضاً :

هل علم البيان من الفصاحة والبلاغة جارٍ مجرى علم النحو أم لا ؟

الجواب عن ذلك أنا نقول : الفرق بينهما ظاهر ، وذلك أن أقسام النحو أخذت من واضعها بالتقليد ، حتى لو عكس القضية فيها لجاز له ذلك ، ولما كان العقل يأباه ولا ينكره ؛ فإنه لو جعل الفاعل منصوبا والمفعول مرفوعا قُلِّد فى ذلك كما قلد فى رفع الفاعل ونصب المفعول ؛ وأما علم البيان من الفصاحة والبلاغة فليس كذلك ؛ لأنه استنبط بالنظر وقضية العقل ، من غير واضع اللغة ، ولم يفتقر فيه إلى التوقيف منه ، بل أخذت ألفاظ ومعانٍ على هيئة مخصوصة ، وحكم لها العقل بمزية من الحسن لايشاركها فيها غيرها ، فإن كل عارف بأسرار الكلام من أى لغة كانت من اللغات يعلم أن إخراج المعانى فى ألفاظ حسنة رائقة يلذها السمع ولا يَنْبُوعنها الطبع، خَيْرٌ من إخراجها فى ألفاظ قبيحة مستكرهة ينبوعنها السمع ، ولو أراد واضع اللغة خلاف ذلك لما قلدناه .

فإن قيل: لو أخذت أقسام النحو بالتقليد من واضعها لما أقيمت الأدلة عليها وعلم بقضية النظر أن الفاعل يكون مرفوعا والمفعول منصوبا ؟

فالجواب عن ذلك أنا نقول : هذه الأدلة واهية[1] لاتثبت على مَحَكِّ الجدل؛ فإن هؤلاء الذين تَصَدَّوْا لإقامتها سمعوا عن واضع اللغة رفع الفاعل ونصب المفعول من غير دليل أبداه لهم ، فاستخرجوا لذلك أدلة وعللا ، و إلا فمن أين علم هؤلاء أن الحكمة التى دعت الواضع إلى رفع الفاعل ونصب المفعول هى التى ذكروها .

(١) اشتهرت هذه الكلمة عن أدلة النحو وعلله ، وهذه كلمة من لم يمارس هذا العلم الجليل ممارسة الباحث المنقب ، ولم يؤت سعة صدر تسهل عليه احتمال المكاره وركوب الصعاب ؛ فإن آتاه الله نفاذ بصر وقوة عارضة وسعة اطلاع ، وكان مع ذلك عالما باستعمالات العرب خبيرا بما يكثر فى كلامها وما يقل وما يأتى على جهة الندرة والشذوذ ، إذا اجتمعت هذه الأمور لامرىء أدرك تماما أن هذه الأدلة التى يذكرها النحاة أدلة مستقيمة على أحسن وجوه البحث ؛ و إنما الذى دعا المؤلف إلى هذه المقالة ودعا كثيرا غيره إلى مثلها كثرة الترديدات والمجادلات فى الدليل الواحد؛ ولهذا البحث موضع غير هذا .

الفصل التاسع

فى أركان الكتابة

اعلم أن للكتابة شرائط وأركانا :

أما شرائطها فكثيرة ، وهذا التأليف موضوع لمجموعها ، وللقسم الآخر من الكلام المنظوم ، وليس يلزم الكاتب أن يأتى بالجميع فى كتاب واحد ، بل يأتى بكل نوع من أنواعها فى موضعه الذى يليق به ، كما أريناه فيما يأتى من هذا التأليف .

وأما الأركان التى لابدّ من إيداعها فى كل كتاب بلاغى ذى شأن فخمسة:

الأول : أن يكون مطلع الكتاب عليه جدة ورشاقة ؛ فإن الكاتب من أجاد المطلع والمقطع ، أو يكون مبنياً على مقصد الكتاب ، ولهذا باب يسمى باب المبادى والافتتاحات فَلْيُخْذ حَذْوه ، وهذا الركن يشترك فيه الكاتب والشاعر .

الركن الثانى : أن يكون الدعاء المودَعُ فى صدر الكتاب مشتقاً من المعنى الذى بنى عليه الكتاب .

وقد نبهنا على طرف من ذلك فى باب يخصه أيضاً ، فليطلب من هناك ، وهو مما يدل على حذاقة الكاتب وفطانته ، وكثيراً ماتجده فى مكاتباتى التى أنشأتها ؛ فإنى قَصَدْته فيها وتوخَّيْتُه ، بخلاف غيرى من الكتاب ؛ لأنه ربما يوجد فى كتابة غيرى قليلا ، وتجده فى كتابتى كثيرا .

الركن الثالث : أن يكون خروج الكاتب من معنى إلى معنى برابطة ؛ لتكون رقابُ المعانى آخذةً بعضُها ببعض ، ولا تكون مُقْتَضَبَة ، ولذلك باب

مفرد أيضاً يسمى باب التخلص والاقتضاب ، وهذا الركن أيضاً يشترك فيه الكاتب والشاعر .

الركن الرابع : أن تكون ألفاظ الكتاب غير مخلوقة بكثرة الاستعمال ، ولا أريد بذلك أن تكون ألفاظاً غريبة ؛ فإن ذلك عيب فاحش ، بل أريد أن تكون الألفاظ المستعملة مَسْبُوكة سبكا غريبا ، يظن السامع أنها غيرُ ما فى أيدى الناس ، وهى مما فى أيدى الناس ، وهناك مُعْتَرَك الفصاحة التى تظهر فيه الخواطر براعتها ، والأقلام شجاعتها ، كما قال البحترى :

بِاللَّفْظِ يَقْرُبُ فَهْمُهُ فِي بُعْـدِهِ   عَنَّا وَيَبْعُدُ نَيْـلُهُ فِي قُرْبِهِ [(١)]

وهذا الموضع بعيد المنال ، كثير الإشكال ، يحتاج إلى لطف ذوق وشهامة خاطر ، وهو شبيه بالشيء الذى يقال : إنه لاداخل العالم ولاخارج العالم ، فلفظه هو الذى يستعمل ، وليس بالذى يستعمل : أى أن مفردات ألفاظه هى المستعملة المألوفة ، ولكن سبكه وتركيبه هو الغريب العجيب .

وإذا سموت أيها الكاتب إلى هذه الدرجة ، واستطعمت طعم هذا الكلام المشار إليه ؛ علمت حينئذ أنه كالروح الساكنة فى بدنك التى قال الله فيها : (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى) وليس كل خاطر بِرَاقٍ إلى هذه الدرجة ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

ومع هذا فلا تظن أيها الناظر فى كتابى أنى أردت بهذا القول إهمال جانب المعانى ، بحيث يؤتى باللفظ الموصوف بصفات الحسن والملاحة ولا يكون تحته من المعنى مايماثله ويساويه ، فإنه إذا كان كذلك كان كصورة حسنة بديعة فى حسنها

(١) هو من قصيدة له يمدح فيها الحسن بن وهب ، وأولها قوله :

مَنْ سَائِلٌ لِمُذَلِّلٍ عَنْ خَطْبِهِ   أَوْ صَافِحٌ لِمُقَصِّرٍ عَنْ ذَنْبِهِ

إلا أن صاحبها بليد أبله ، والمراد أن تكون هذه الألفاظ المشار إليها جسما لمعنى شريف ، على أن تحصيل المعانى الشريفة على الوجه الذى أشرت إليه أيسر من تحصيل الألفاظ المشار إليها .

ويحكى عن المبرد رحمه الله تعالى أنه قال : ليس أحد فى زمانى إلا وهو يسألنى عن مشكل من معانى القرآن ، أو مشكل من معانى الحديث النبوى ، أو غير ذلك من مشكلات علم العربية ، فأنا إمام الناس فى زمانى هذا ، وإذا عرَضَت لى حاجة إلى بعض إخوانى وأردت أن أكتب إليه شيئاً فى أمرها أُحْجِم عن ذلك ؛ لأنى أرتِّب المعنى فى نفسى ثم أحاول أن أصوغه بألفاظ مرضية فلا أستطيع ذلك .

ولقد صدق فى قوله هذا ، وأنصف غاية الإنصاف .

ولقد رأيت كثيراً من الجهال الذين هم من السوقة أرباب الحرف والصنائع ، وما منهم إلا مَنْ يقع له المعنى الشريف ، ويظهر من خاطره المعنى الدقيق ، ولكنه لا يحسن أن يزاوج بين لفظتين

فالعبارة عن المعانى هى التى تخاب بها العقول ، وعلى هذا فالناس كلهم مشتركون فى استخراج المعانى ؛ فإنه لا يمنع الجاهل الذى لا يعرف علماً من العلوم أن يكون ذكياً بالفطرة ، واستخراج المعانى إنما هو بالذكاء لا بتعلم العلم .

وبلغنى أن قوماً ببغداد من رعاع العامة يطوفون بالليل فى شهر رمضان على الحارات وينادون بالسحور ، ويخرجون ذلك فى كلام موزون على هيئة الشعر وإن لم يكن من بحار الشعر المنقولة عن العرب ، وسمعت شيئا منه فوجدت فيه معانى حسنة مليحة ، ومعانى غريبة ، وإن لم تكن الألفاظ التى صيغت به فصيحة (١) .

---

(١) فى ب ، ج «وإن لم تكن الألفاظ التى صيغت به صيغة» ولايظهر لنافيه وجه

وهذا الركن أيضاً يشترك فيه الكاتب والشاعر .

الركن الخامس : أن لا يخلو الكتاب من معنى من معانى القرآن الكريم والأخبار النبوية ؛ فإنها معدن الفصاحة والبلاغة ، وإيراد ذلك على الوجه الذى أشرت إليه فى الفصل الذى يلى هذا الفصل من حل معانى القرآن الكريم والأخبار النبوية أحْسَنُ من إيراده على وجه التضمين، وتوخّى ذلك فى كل كتاب عَسِرٌ جداً ، وأنا انفردت بذلك دون غيرى من الكتاب ، فانى استعملته فى كل كتاب ، حتى إنه ليأتى فى الكتاب الواحد فى عدة مواضع منه ، ولقد أنشأت تقليداً لبعض الملوك مما يكتب من ديوان الخلافة ، ثم إنى اعتبرت ما ورد فيه من معانى الآيات والأخبار النبوية ، فكان ما يزيد على الخمسين ، وهذا لا أتكلفه تكلفا ، وإنما يأتى على حسب ما يقتضيه الموضع الذى يذكر فيه ، وقد عرفتك أيها الكاتب كيف تستعمل ما تستعمله من ذلك فى الفصل الذى يأتى بعد هذا الفصل ، فخذه من هناك .

وهذا الركن يختص بالكاتب دون الشاعر ؛ لأن الشاعر لا يلزمه ذلك ؛ إذ الشعر أكثره مدائح ، وأيضاً فإنه لا يتمكن من صوغ معانى القرآن والأخبار فى المنظوم كما يتمكن منه فى المنثور ، ولربما أمكن ذلك فى الشىء اليسير فى بعض الأحيان .

وإذا استكملتَ معرفة هذه الأركان الخمسة وأتيت بها فى كل كتاب بلاغى ذى شأن فقد استحققت حينئذ فضيلة التقدم ، ووجب لك أن تسمى نفسك كاتباً .

الفصل العاشر

فى الطريق إلى تعلم الكتابة

هذا الفصل هو كنز الكتابة ومنبعها ، وما رأيت أحداً تكلم فيه بشىء ، ولما حُبِّبَتْ إلى هذه الفضيلة ، وبَلَّغنى الله منها ما بَلَّغنى ؛ وجدت الطريق ينقسم فيها إلى ثلاث شعب :

الأولى : أن يتصفح الكاتب كتابة المتقدمين ، ويطلع على أوضاعهم فى استعمال الألفاظ والمعانى ، ثم يحذو حذوهم ، وهذه أدنى الطبقات عندى ؛

الثانية : أن يمزج كتابة المتقدمين بما يستجيده لنفسه من زيادة حسنة : إما فى تحسين ألفاظ ، أو فى تحسين معانٍ ، وهذه هى الطبقة الوسطى ، وهى أعلى من التى قبلها ؛

الثالثة : أن لا يتصفح كتابة المتقدمين ، ولا يطلع على شىء منها ؛ بل يصرف همه إلى حفظ القرآن الكريم وكثير من الأخبار النبوية وعدة من دواوين فحول الشعراء ممن غلب على شعره الإجادة فى المعانى والألفاظ ، ثم يأخذ فى الاقتباس من هذه الثلاثة ، أعنى القرآن والأخبار النبوية والأشعار ، فيقوم ويقع ، ويخطىء ويصيب ، ويضل ويهتدى ، حتى يستقيم على طريقة يفتتحها لنفسه ، وأَخْلِقْ بتلك الطريق أن تكون مبتدعة غريبة لا شركة لأحد من المتقدمين فيها ، وهذه الطريق هى طريق الاجتهاد ، وصاحبها يعد إماما فى فنّ الكتابة ، كما يعد الشافعىّ وأبو حنيفة ومالك رضى الله تعالى عنهم وغيرهم من الأئمة المجتهدين فى علم الفقه ، إلا أنها مستوعرة جداً ، ولا يستطيعها إلا من رزقه الله تعالى لسانا هجاما ، وخاطراً رقاما ، وقد سَهَّلْتُ لك صعابها ، وذَلَّلْتُ

مَحَاجِّها[١] ، وكنت أشحّ[٢] بإظهار ذلك لما عانيت فى نيله من العناء ؛ فإنى سلكت إليه كل طريق حتى بلغته آخراً ، وإنما تكون نفاسة الأشياء لعزة حصولها ومشقة وصولها :

لَيْسَ حُلْواً وُجُودُكَ الشَّىْءَ تبْغِيــــهِ طِلاَباً حَتَّى يَعِزَّ طِلاَبُهْ[٣]

ولقد مارست الكتابة ممارسة كشفت لى عن أسرارها ، وأظفرتنى بكنوز جواهرها ؛ إذ لم يظفر غيرى بأحجارها ؛ فما وجدت أعون الأشياء عليها إلا حل آيات القرآن الكريم والأخبار النبوية ، وحل الأبيات الشعرية ، وقد قصرت هذا الفصل على ذكر وجوهها ، وتقسيمها ، وتمهيد الطريق إلى تعليمها ، فمن وقف على ماذكرته علم أنى لم آت شيئا فَرِيًّا ، وأن الله قد جعل تحت خواطرى من بنات الأفكار سَرِيًّا ، وهذه الطريق يجهلها كثير من متعاطى هذه الصناعة ، والذى يعلمها منهم يرضى بالحواشى والأطراف ، ويقنع من لآلئها بمعرفة مافى الأصداف ، ولو استخرج منها مااستخرجت ، واستنتج مااستنتجت ؛ لهَامَ بها فى كل واد ، وتزود إلى سلوك طريقها كل زاد :

لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتُ كَلاَمَهَا خَرُّوا لِعَزَّةَ رُكَّعاً وَسُجُودَا[٤]

---

(١) المحاج ــ بتشديد الجيم ــ جمع محجة ، والمحجة : المقصد والطريق الذى يسلك

(٢) أشح : أضن ، والشح : البخل ، أوأشده .

(٣) هذا بيت للبحترى من قصيدة له يمدح فيها إسماعيل بن بلبل ، وأولها قوله :

عَادَ لِلصَّبِّ شَجْوُهُ وَاكْتِئَابُهْ بِبِعَادِ الَّذِى يُرَادُ اقْتِرَابُهْ

ورواية البيت الذى ذكره المؤلف فى الديوان هكذا :

لَيْسَ يَحْلُو وُجُودُكَ الشَّىْءَ تبْغِيــــهِ الْتِمَاساً حَتَّى يَعِزَّ طِلاَبُهْ

(٤) هذا البيت لكثير عزة ، وقبله قوله :

رُهْبَانُ مَدْيَنَ وَالَّذِينَ عَهِدْتُهُمْ يَبْكُونَ مِنْ حَذَرِ الْعَذَابِ قُعُودَا

ولا أريد بهذه الطريق أن يكون الكاتب مرتبطاً فى كتابته بما يستخرجه من القرآن الكريم ، والأخبار النبوية ، والشعر ، بحيث إنه لاينشىء كتابا إلا من ذلك ، بل أريد أنه إذا حفظ القرآن الكريم وأكثر من حفظ الأخبار النبوية والأشعار ، ثم نَقَّبَ عن ذلك تنقيب مُطَّلع على معانيه ، مُفَتّش عن دفائنه ، وقَلَّبه ظَهْراً لبطن ؛ عرف حينئذ من أين تؤكل الكتف فيما ينشئه من ذات نفسه ، واستعان بالمحفوظ على الغريزة الطبيعية ، ألا ترى أن صاحب الاجتهاد من الفقهاء يفتقر إلى معرفة آيات الأحكام ، وأخبار الأحكام ، وإلى معرفة الناسخ والمنسوخ من الكتاب والسنة ، وإلى معرفة علم العربية ، وإلى معرفة الفرائض والحساب من المعلوم والمجهول من أجل مسائل الدور والوصايا وغيرها ، وإلى معرفة إجماع الصحابة ، فهذه أدوات الاجتهاد ، فإذا عرفها استخرج بفكرته حينئذ ما يؤديه إليه اجتهاده ، كما فعل أبو حنيفة والشافعى ومالك وغيرهم من أئمة الاجتهاد ، وكذلك يجرى الحكم فى الكتاب إذا أحب الترقى إلى درجة الاجتهاد فى الكتابة ؛ فانه يحتاج إلى أشياء كثيرة قد ذكرتها فى صدر كتابى هذا ، إلا أن رأسها وعمودها وذِرْوَة سَنامِها ثلاثة أشياء : هى حفظ القرآن الكريم ، والإكثار من حفظ الأخبار النبوية ، والأشعار .

وحيث انتهى بنا القول إلى هذا الموضع فأول ما أبدأ به على عقب ذلك أن أقول :

حل الأبيات الشعرية ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول منها ، وهو أدناها مرتبة ، أن يأخذ الناثر بيتاً من الشعر فينثره بلفظه من غير زيادة ؛ وهذا عيب فاحش ، ومثاله كمن أخذ عِقْداً قد أتقن نظمه وأحسن تأليفه فأَوْهاهُ وبَدَّده ، وكان يقوم عذره فى ذلك أن لو نقله عن كونه عقداً إلى صورة أخرى مثله أو أحسن منه ، وأيضاً فانه إذا نثر الشعر بلفظه كان

صاحبه مشهور السرقة . فيقال : هذا شعر فلان بعينه ، لـكون ألفاظه باقية لم يتغير منها شيء، وقد سلك هذا المسلك بعض العراقيين فجاء مستهجناً لامستحسنا. كقوله فى بعض أبيات الحماسة :

وَأَلَدَّ ذِى حَنَقٍ عَلَىَّ كَأَنَّمَا تَغْلِي عَدَاوَةُ صَدْرِهِ فِي مِرْجَلِ
أَرْجَيْتُهُ عَنِّى فَأَبْصَرَ قَصْدَهُ وَكَوَيْتُهُ فَوْقَ النَّوَاظِرِ مِنْ عَلِ

فقال فى نثر هذين البيتين : فكم لقى أَلَدَّ ذِى حَنَق كأنه ينظر إلى الـكوا كب من عَل ، وتغلى عداوة صدره فى مرجل ، فـكواه فوق ناظريه ، وأ كبَّه لفمه ويديه . فلم يزد هذا الناثر على أن أزال رونق الوزن وطلاوة النظم لاغير .

ومن هذا القسم ضرب محمود لاعَيْبَ فيه ، وهو أن يكون البيت من الشعر قد تضمن شيئاً لا يمكن تغيير لفظه ، فحينئذ يعذر ناثره إذا أتى بذلك اللفظ ، ومثاله قول الشاعر فى أول الحماسة :

لوْ كُنْتُ مِنْ مَازِنٍ لَمْ تَسْتَبِحْ إِبِلِي بَنُو اللَّقِيطَةِ مِنْ ذُهْلِ بْنِ شَيْبَانَا

وقد نثرت ذلك فقلت : لست ممن تستبيح إبـلَهُ بنو اللقيطة ، ولا الذى إذا هَمَّ بأمر كانت الآمال إليه وسيطة ، ولـكنى أحمل الهمل ، وأقرب الأمل ، وأقول : سَبَقَ السَّيْفُ الْعَذَل ؛ فذكر بنى اللقيطة ههنا لابد منـــه على حسب ماذكره الشاعر ، وكذلك الأمثال السائرة ؛ فإنه لابد من ذكرها على ماجاءت فى الشعر .

وأما القسم الثانى ، وهو وسط بين الأول والثالث فى المرتبة ، وهو أن ينثر المعنى المنظوم ببعض ألفاظه ، ويعزم[(١)] عن البعض بألفاظ أخر، وهناك تظهر الصنعة فى المماثلة والمشابهة ومؤاخاة الألفاظ الباقية بالألفاظ المرتجلة ؛ فإنه إذا أخذ لفظا لشاعر مجيد قد نقحه وصححه فقرنه بمـا لايلاءمه كان كمن جمع بين لؤلؤة وحصاة ، ولا خفاء بمـا فى ذلك من الانتصاب للقدح ، والاستهداف للطعن .

والطريق المسلوك إلى هذا القسم أن تأخذ بعض بيت من الأبيات الشعرية هو أحسن مافيه ثم تماثله .

(١) كذا فى ب ، ج ؛ ولعله « ويعزف » ، ومعناه ينصرف .

وسأورد ههنا مثالا واحداً ليكون قدوة المتعلم ، فأقول :

قد ورد هذا البيت من شعر أبي تمام في وصف قصيدة له :

حَذَّاءَ تَملأُ كُلَّ أذْنٍ حِكْمَةً وَبَلاَغَةً وَتُدِرُّ كُل وَرِيدِ(١)

فقوله « تملأ كل أذن حكمة » من الكلام الحسن ، وهو أحسن مافي البيت ؛ فإذا أردت أن تنثر هذا المعنى فلابد من استعمال لفظه بعينه ؛ لأنه في الغاية القُصْوَى من الفصاحة والبلاغة ، فعليك حينئذ أن تؤاخيه بمثله ، وهذا عَسرٌ جدا وهو عندي أصعب منالاً من نثر الشعر بغير لفظه ؛ لأنه مسلك مضيق ؛ لما فيه من التعرض لمماثلة ماهو في غاية الحسن والجودة ، وأما نثر الشعر بغير لفظه ؛ فذلك يتصرف فيه ناثره على حسب مايراه ، ولا يكون مقيداً فيه بمثال يضطر إلى مؤاخاته .

وقد نثرت هذه الكلمات المشار إليها وأتيت بها في جملة كتاب فقلت : وكلامي قد عُرِف بين الناس واشتهر ، وفاق مَسِيرَ الشمس والقمر ، وإذا عرف الكلام صارت المعرفة له علامة ، وأمن من سرقته إذ لو سرق لدلت عليه الْوَسَامة ، ومن خصائص صفاته أن يملأ كل أذن حكمة ، ويجعل فصاحة كل لسان عجمة ، وإذا جرت نَفَثَاتُه في الأفهام قالت:أهذه بنت فكرة أم بنت كَرْمَة

فانظر كيف فعلت في هذا الموضع ؟ فإني لما أخذت تلك الكلمات من البيت الشعرى التزمت بأن أؤاخيها بما هو مثلها أو أحسن منها ، فجئت بهذا الفصل كما تراه ، وكذلك ينبغي أن يفعل فيما هذا سبيله .

---

(١) هذا بيت من قصيدة له يمدح فيها أحمد بن أبي دواد ، وأولها قوله :

أَرَأَيْتَ أَيَّ سَوَالِفٍ وَخُدُودِ عَنَّتْ لَنَا بَيْنَ اللِّوَى فَزَرُودِ

وانظر الديوان (ص ٨٢) . و « حذاء » هكذا في الديوان ، ووقع في ب ، ج « وحداء » ولها وجه أيضا .

وأما القسم الثالث ، وهو أعلى من القسمين الأولين ، فهو أن يؤخذ المعنى فيصاغ بألفاظ غير ألفاظه ، وثَمَّ يتبين حذق الصائغ فى صياغته ، ويعلم مقدار تصرفه فى صناعته ؛ فإن استطاع الزيادة على المعنى فتلك الدرجة العالية ، وإلا أحسن التصرف ، وأتقن التأليف ؛ ليكون أولى بذلك المعنى من صاحبه الأَول .

واعلم أن من أبيات الشعر مايتسع المجال لناثره ، فيورده بضروب من العبارات ، وذلك عندى شبيه بالمسائل السيالة فى الحساب التى يجاب عنها بعدة من الأَجوبة ، ومن الأَبيات مايضيق فيه المجال حتى يكاد الماهر فى هذه الصناعة ألاَّ يخرج عن ذلك اللفظ ، وإنما يكون هذا لعدم النظير .

فأما مايتسع المجال فى نثره فكقول أبى الطيب المتنبى :

لاَ تَعْذِلِ الْمُشْتَاقَ فى أَشْوَاقِهِ حَتَّى يَكُونَ حَشَاكَ فى أَحْشَائِهِ(١)

وقد نثرت هذا المعنى ؛ فمن ذلك قولى : لاتَعْذِلِ المحبَّ فيما يَهْوَاه ، حتى تَطْوِىَ القلبَ على ماطَوَاه ؛ ومن ذلك وجه آخر ، وهو : إذا اخْتَلَفَتِ العينان فى النظر ، فالعَذْلُ ضَرْبٌ من الْهَذَر .

ومن هذا الباب قول أبى الطيب المتنبى أيضاً :

إنَّ الْقَتِيلَ مُضَرَّجاً بِدُمُوعِهِ مِثْلُ الْقَتِيلِ مُضَرَّجاً بِدِمَائِهِ(٢)

---

(١) هذا البيت من قصيدة له أولها :

الْقَلْبُ أعلم ياعَذُولُ بِدَائِهِ وَأَحَقُّ مِنْكَ بِجَفْنِهِ وَبِمَائِهِ

وقد أخذ أبو الطيب هذا المعنى من قول البحترى :

إذا شِئْتَ أَلاَّ تَعْذِلَ الدَّهْرَ عَاشِقاً عَلَى كَمَدٍ مِنْ لَوْعَةِ الْبَيْنِ فاعْشَقِ

(٢) هذا البيت من نفس القصيدة التى منها البيت السابق .

أخذت هذا المعنى فنثرته ؛ فمن ذلك قولى : القتيلُ بسيف العيون ، كالقتيل بسيف المَنُون ، غَيْرَ أن ذلك لا يُجرَّدُ من غِمْدِهِ ، ولا يقاد صاحِبُهُ بعَمْدِهِ ؛ فزدت على المعنى الذى تضمَّنه البيت ، وغيرت اللفظ ؛ ومن ذلك وجه آخر ، وهو: دَمْعُ المحبِّ ودم القتيل، مُتفقان فى التشبيه والتمثيل ، ولا تجد بينهما بَوْناً ، إلا أنهما يختلفان لَوْناً . وهذا أحسن من الأول .

وأما مايضيق فيه المجال فيعسر على الناثر تبديل ألفاظه ؛ فكقول أبى تمام :

تَرَدَّى ثِيَابَ ٱلْمَوْتِ حُمْراً فَمَا أَتَى ... لَهَا ٱللَّيْلُ إِلَّا وَهْىَ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرِ (١)

وقول أبى الطيب المتنبى :

وكَانَ بِهَا مِثْلُ الْجنُونِ فَأَصْبَحَتْ ... وَمِنْ جُثَثِ الْقَتْلَى عَلَيْهَا تَمَائِمُ

وأمثال هذا لا تأتى إلا قليلا ؛ وسببه أن المعنى ينحصر فى مقصد من المقاصد حتى لايكاد يأتى إلا قدا ، كهذين البيتين ، ألا ترى أن أبا تمام قصد المؤاخاة فى ذكر لَوْنى الثياب من الأحمر والأخضر وجاء ذلك واقعاً على المعنى الذى أراده من لون ثياب القتلى وثياب الجنة ، فإذا فك نظم هذا البيت وأريد صوغه بغير لفظه لا يمكن ذلك ، و بيت أبى الطيب جارٍ هذا المجرى ؛ فإنه بناهُ على واقعة من الوقائع ، وذاك أن حصناً من حصون سيف الدولة قَصَدَه الروم وانتزعوه وأخربوه فنَهَدَ(٢) سيف الدولة إليه واسترجعه ، وجَدَّد بناءه ، وهزم الروم ، ونصب من جُثَث القتلى على السور ، فنظم المتنبى فى هذا قصيدا أوله :

---

(١) هذا بيت من قصيدة له مشهورة ، وأولها قوله :

كَذَا فَلْيَجِلَّ الخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ ٱلْأَمْرُ ... فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَاؤُهَا عُذْرُ

وانظر الديوان (ص ٣٦٨)

(٢) تقول : نهد فلان إلى العدو ؛ إذا نهض لقتاله ، وتقول : ناهد فلان عدوه ، إذا ناهضه ، وتقول : تناهدوا فى الحرب ، إذا نهض بعضهم إلى بعض للمحاربة .

* عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تأْتِي الْعَزَائِمُ[(١)] *

فلما انتهى إلى ذكر الحصن جاء بهذا البيت فى جملة أبيات ؛ فشرح صورة الحال فى إزعاج الحصن بالقتال ، وتعليق القتلى عليه ، وأبرز ذلك فى معنى التمثيل بالجنون والتمائم ، وهذا لا يمكن تبديل لفظه ؛ وهو وأمثاله مما يجب على الناثر أن يحسن الصنعة فى فكّ نظامه ؛ لأنه يتصدى لنثره بألفاظه ؛ فإن كان عنده قُوَّةُ تصرف و بَسْطَة عبارة فإنه يأتى به حسناً رائقاً .

وقد نثرت هٰذين البيتين : أما بيت أبى تمام فإنى قلت فى نثره : لم تَـكْسُهُ المنايا نَسْجَ شِفَارِها ، حتى كسته الجنة نسج شعارها ؛ فَبُدِّلَ أحْمَرَ ثوبه بأخضره ، وكأسَ حِمامه بكأس كَوْثَره ؛ وهذا من الحسن على غاية يكون كَمَدُ حسودها ، من جملة شهودها ؛ وأما بيت أبى الطيب المتنبى فإنى قلت فى نثره : سَرَى إلى حصن كذا مُسْتَعِيداً منه سَبِيَّةً نزعها العدو اخْتِلاَساً ، وأخذها مُخادعة لا افتراسا ، فما نزلها حتى استقادها ، ولا نزلها حتى استعادها ، وكأنما كان بها جُنُون فبعث لهـا من عزائمه عزائم ، وعَلَّق عليها من رءوس القتلى تمائم .

وفى هذا من الحسن ما لا خفاء به ؛ فمن شاء أن ينثر شعراً فلينثر هكذا ، و إلاَّ فليترك .

وقد جئت بهذا المعنى على وجه آخر ، وأبرزته فى صورة أخرى ، وذلك أنى أضفت إلى هذا البيت البيتَ الذى قبله ، وهو :

بَنَاهَا فَأَعْلَى وَالْقَنَا تَقْرَعُ الْقَنَا وَمَوْجُ الْمَنَايَا حَوْلَهَـا مُتَلَاطِمُ

ولما نثرت هٰذين البيتين قلت فى نثرهما ما أذكره ، وهو :

بَنَاهَا والأَسِنَّةُ فى بنائها مُتَخَاصِمة ، وأمواجُ المنايا فوق أيدى البانين مُتَلَاطِمة ،

(١) هذا صدر البيت ، وعجزه قوله :

* وَتأْتِي عَلَى قَدْرِ الْـكِرَامِ المَـكَارِمُ *

وما أحلت الحرب عنها(١) حتى زلزلت أقطارها بركض الجياد ، وأصيبت بمثل الجنون فعُلِّقَتْ عليها تمائم من الرءوس والأجساد ، ولا شك أن الحرب تُعَرِّدُ(٢) عمن عَزَّ جانبه ، وتقول : ألا هكذا فَلْيَكْسِبِ المجدَ كاسبه .

وهذا أحسن من الأول وأتم مَعْنًى .

وقد تصرفت فى هذا الموضع بزيادة فى معناه ، ونثرته على أسلوب أحسن من هذا الأسلوب ، فقلت : بَنَاهَا ودون ذلك البناء شَوْكُ الأسَل ، وطُوفَانُ المنَايَا الذى لايقال سَآوِى مِنْهُ إلى جَبَل ، ولم يكن بناؤها إلا بعد أن هدِّمت رءوس عن أعناق ، وكأنما أصيبت بجنون فعاقت القتلى عليها مكان التمائم أو شينَتْ بعَطَلٍ فعلِّقت مكانَ الأطْوَاق .

وهذا الفصل فيه زيادة على الفصل الذى قبله .

وإذ انتهى بنا الكلام إلى هٰهنا فى التنبيه على نثر الشعر، وكيفية نثره ، وذكر ما يَسْهُل منه وما يعسر ؛ فلنتْبِعْ ذلك بقول كُلِّيٍّ فى هذا الباب ؛ فنقول :

مَنْ أحبَّ أن يكون كاتبا ، أو كان عنده طبع مُجيب ؛ فعليه بحِفْظِ الدواوين ذوات المدد ، ولا يقنع بالقليل من ذلك ، ثم يأخذ فى نثر الشعر من محفوظاته ، وطريقه أن يبتدئ فيأخذ قصيداً من القصائد ؛ فينثره بيتاً بيتاً على التوالى ، ولا يستنكف فى الابتداء أن ينثر الشعر بألفاظه أو بأكثرها ؛ فإنه لايستطيع إلا ذلك ، وإذا مَرَنت نفسه ، وتَدَرَّب خاطره ؛ ارتفع عن هذه الدرجة ، وصار يأخذ المعنى ويكسوه عبارة من عنده ، ثم يرتفع عن ذلك حتى يكسوه ضروبا من العبارات المختلفة ، وحينئذ يَحْصُل لخاطره بمباشرة المعانى لِقَاحٌ

---

(١) كذا ؛ ولعله « وما أجلت الحرب فيها » .

(٢) تعرد ــ بالعين المهملة ــ تنكل وتتأخر ، ومنه قول الشاعر :

ظَنَنْتُكَ إنْ شُبَّتْ لَظَى الحَرْبِ صَالِياً ... فَعَرَّدْتَ فِيمَنْ كانَ عَنْهَا مُعَرِّدَا

ووقع فى ب ، ج « تغرد » بالغين معجمة .

فيستنتج منها معانى غير تلك المعانى ، وسبيله أنْ يكثر الإدْمَان ليلا ونهارا ، ولا يزال على ذلك مدة طويلة ، حتى يصير له ملكة ، فإذا كتب كتابا أو خَطَب خطبة تدفَّقَت المعانى فى أثناء كلامه ، وجاءت ألفاظه مَغْسُولة لا مَغْسُولة ، وكان عليها حدَّة حتى تكاد ترقص رقْصاً ، وهذا شىء خَبَرْتُه بالتجربة ، ولا ينبئك مثل خبير .

فإن قيل : الكلام قسمان : منظوم ، ومنثور ؛ فلم حَضَضْتَ على حفظ المنظوم وجعلته مادة للمنثور ، وهلا كان الأمر بالعكس ؟

قلت فى الجواب : إن الأشعار أكثر ، والمعانى فيها أغزر ، وسبب ذلك أن العرب الذين هم أصل الفصاحة جل كلامهم شعر ، ولا نجد الكلام المنثور فى كلامهم إلا يسيرا ، ولو كثر فإنه لم ينقل عنهم ، بل المنقول عنهم هو الشعر ، فأودعوا أشعارهم كل المعانى ، كما قال الله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ) ثم جاء الطراز الأول من الْمُخَضْرَمِين فلم يكن لهم إلا الشعر ، ثم استمرت الحال على ذلك ، فكان الشعر هو الأكثر ، والكلام المنثور بالنسبة إليه قَطْرَة من بحر ، ولهذا صارت المعانى كلها مودعة فى الأشعار ، وحيث كانت بهذه الصورة ، فكان حَقِّى على حفظها واستعمال معانيها فى الخطب والمكاتبات لهذا السبب .

وقد نثرت فى هذا الموضع أبياتا تكون قدوة للمتعلم :

فمن ذلك قولى فى فصل من فصول الكلام يتضمن ذكر السيادة ، وهو : الشريف من شَرُفَ بنفسه ، لا بما دفن مع أبيه فى رَمْسِه ؛ فإن تلك مكارم أتت فتجمل الزمان بمأتاها ، ثم مات أربابها فدفنت مع موتاها ، ولو ساد الناس بآبائهم لكانت السيادة للطينة الأولى ، ولقد خلق الأبناء من الآباء مجبولا ، وهذا المعنى مأخوذ من قول الشاعر :

وَمَا الْفَخْرُ بِالْعَظْمِ الرَّمِيمِ ، وَإِنَّمَا فَخَارُ الَّذِى يَبْغِى الْفَخَارَ بِنَفْسِهِ

غير أن الفصل الذى ذكرته يتضمن من المعنى زيادة على ماتضمنه هذا البيت .

ومن ذلك ما كتبته فى فصل من كتاب يتضمن معاتبة أخ لإخْوَته وتنصّله إليهم ، فقلت : جَرَحُوا قلبى وحبهم يذهب بألم الجراحة ، وطَرَفُوا عَيْنِى وهم يزيدون فى نظرها ملاحة ، وإذا صَدَرَت الإساءة عن الأَحباب لم يكن وَقْرُهَا وَقْرا ، وأصبحت وهى مَنْسِيَّة إذا تجدَّدت الإساءة بالذكرى ، وما منهم إلا من سِيطَ دمى بدمه ولحمى بلحمه ، ولولا أن الأسماء معارف الأشخاص لكان اسمى وارداً على اسمه ، وكيف أَخْشُنُ عليهم وقد جبلنى الله لهم على اللين ، أم كيف أَذُودُ النفس عنهم وهى مشتقة منهم وآدم بين الماء والطين ، ومتى أؤمل من شَجَرَتى أغصانا كهٰذه الأغصان ، وقد أصيبت جرثومتها بالْجِدَاد ، ولهذا قيل : إن الإخوة يتعذر الاعتياض عنهم ولا يتعذر الاعتياض عن الأَولاد .

آخر هذا الفصل مأخوذ من شعر ابن الرومى ، وهو قوله :

تَعَزَّيْتَ عَمَّنْ أَثْمَرَتْكَ حَيَاتُهُ وَوَشْكُ التَّعَزِّى عَنْ ثِمَارِكَ أَجْدَرُ
تَعَذَّرَ أَنْ نَعْتَاضَ عَنْ أُمَّهَاتِنَا وَأَبْنَائِنَا وَالنَّسْلُ لَايَتَعَذَّرُ

غير أن ابن الرومى ذكر ذلك فى تعزية إنسان بابنه ، فتصرفت أنا فى هذا المعنى ونقلته إلى هذا الفصل فى تضمنه معاتبة أخ لإخوته .

ومن ذلك ماذكرته فى فصل من كتاب يتضمن ذم المشيب ، فقلت : والعيشُ كل العيش فى سن الحداثة ، وما يأتى بعدها فلا يدعى إلا بسن الْغَثَاثَة ، وليس بعد الأربعين من مَصِيفٍ للذة ولا مَرْبَع ، وهى نهاية القوة الصالحة من الطبائع الأربع ، فإذا تجاوزها المرء أشْفَتْ ثمار عمره على خَرْصِها ، وصارت زيادته كزيادة التصغير التى هى زيادة تدل على نقصها ، وأصبح بعد ذلك يدعى أبا بعد أن كان يدعى ابنا ، وتَقَمَّصَ ثوبا من المشيب لايجر ثوبه خُيَلَاء ولا يُزْهَى به حسناً ، وإن قيل إن أحسن الثياب شِعَار الْبَيَاض قيل إلا هذا الثوب فإنه

مُسْتَثْنى ، ويكفيه من الفظاعة أن ينظر الأحباب إليه نظر الْقتَال ، ولولا أن الخمود بعده لما استعير له لفظة الاشتعال ، ومن الناس من يُدَلّس لونه بصبغة الخضاب ، وليس ذلك إلا حداداً على فقد الشباب ، وهو فى فعله هذا كاذب ولا يخفى أنْسُ الصادق من وَحْشَة الـكذاب ، وخداعُ النفس أن تسلو عن بئره الْمُعَطَّلة وقَصْرِه الْمَشِيد ، ويُحَسِّن لهـا الخروجَ فى ثوب مُرَقَّع وهى تراه بعين الثوب الجديد .

و بعض هذا مأخوذ من شعر ابن الرومى ، وهو قوله :

رَأَيْتُ خِضَابَ الْمَرْءِ بَعْدَ مَشِيبِهِ حِدَاداً عَلَى شَرْخِ الشَّبِيبَةِ يُلْبَسُ

غير أن فى هذا الفصل معانى كثيرة لطيفة لاتوجد فى كلام آخر .

ومن ذلك قولى فى وصف الجود والسخاء ، وهذا الفصل يشتمل على معان متعددة ؛ فمنها قولى فى العطاء ، وهو: شافهَتْنِي أسبابُ الغنى برؤيته حتى كادت تنطق ، واخْضَرَّتْ أكناف منزلى بعَطَائِه حتى كادت تُورِقُ ، ومن فضيلة بره أنه لايأتى به على أعْيُن الناس ، و إذا غَرَسَه عند إنسان رَبَّ ذلك الغراس ؛ فلا يستكثر ماجادت به سحابُ يده ، ولا يمنعه عطاء يومه عن عطاء غَدِهْ .

و بعض هذا المعنى مأخوذ من شعر أبى نُوَاس :

كَانوا إذَا غَرَسُوا سَقَوْا وَإذَا بنَوْا لمْ يَهْدِمُوا لِبِنَائِهِمْ أُسُـسَا

ومن هذا المعنى أيضاً قولى ، وهو : أخذ المكارمَ من سمائها وأرضها ، وقام بنَفْلها فى الناس وفَرْضِها ، وتحلى ببعض أسماء الشهور حتى أصبح بعضها حاسداً لبعضها ، فالمحرَّمُ للعائذ بحَرَمِهِ ، وصفرللطامع فى سعادة قَدَمه ، ور بيع لرائدِ نَوَالِه ، ورَجَب لأقوال عُذَّاله .

وهذا مأخوذ من قول الفرزدق :

يَدَاكَ يَدٌ رَبِيـعُ النَّـاسِ فِيهَا وَفِي الْأُخْرَى الشهور من المحرم

وقد قال الشعراء فى ذلك كثيراً ، إلا أنى أنا تَصَرَّفت فى هـــذا المعنى تصرفا لم يتصرف فيه أحد غيرى .

ومن هذا المعنى ما ذكرته فى فصل من كتاب ، وهو : ولَقَدْ سَوَّى بين أعدائه فى البغض و بين أمْوَاله ؛ فهٰذه مَعْنِيَّة بوقع نِصَاله ، وهذه مَعْنِيَّة(١) بصَنَائع نَوَاله ، ولو أحَبَّ المـال لـكان أحَبَّه إليه مايبذله ، كما أن أحبَّ الناس إليه مَنْ يسأله ، ومِنْ أحْسَنِ ما سَنَّه من الـكرم أنه جَادَ حتى بَدَّل رَغَبَ العَافِينَ(٢) زُهْدًا ، ورأى الحمد عِوَضاً من الصنيعة فأبى أن يعتاض من صنائعه حَمْدًا .

و بعض هذا المعنى مأخوذ من شعر أبى نواس ، وهو :

لَيْتَ أعْدَائِىَ كَانُوا لأبِى إسْــحٰقَ مَالاَ

ومن ذلك قولى فى وصف القتال وموطن الحرب ووصف الشجاعة والأنجاد ، وما يتعلق بذلك و يجرى معه ، وهذا الفصل يشتمل على معانى مختلفة :

فمن ذلك ماذكرته فى وصف العسكر ، وهو : فسرنا فى غَمَامَةٍ من الـكتائب ، تُظِلُّها غَمَامَةٌ من الطيور الأشائب ، فهٰذه يَضُمُّهَا بَحْرٌ من حَديد ، وهذه يضمها بر من صعيد(٣) وما مَرَّتْ ببلد إلا أزالت أرضه من سمائه ، وَألبسَتْ نهارَهُ ثوب ظلْمائه ، و بَدَّلت أحراره بعبيده وحرائره بإمائه ، وكذلك فعلت

---

(١) « معنية » بالعين المهملة فى هذه الفقرة والتى قبلها ـ وهو اسم مفعول من عناه يعنيه ؛ إذا قصده ، وكأنه قال : إن أعداءه مقصودة بوقع نصاله ، وأمواله مقصودة بصنائع نواله ، والصنائع : جمع صنيعة ، والنوال : العطاء . ووقع فى ب ، ج « مغنية » بالغين المعجمة .

(٢) الرغب ـ بفتح الراء والغين المعجمة ـ الرغبة . ووقع فى ب ، ج « رغب العارفين » وهو تحريف بزيادة الراء ـ والعافين : جمع عاف ، والعافى : طالب المعروف .

(٣) قال ابن أبى الحديد « إن الصعيد وجه الأرض ، والطيور التى تظل الجيش إنما يضمها بحر من الجوّ والهواء ، لامن الأرض » اهـ .

بمدينة فلانة وقد ضرب الأمْنُ عليها أسوارا ، وَبَعُدَ عهدها بالنوائب فلم تدخل لها دِياراً ، فهي تخبر عن بلهنية الخَفْض ولم تُرَعْ عنه بالانتقال ، ولا رأت السيف وقد ألقى لونه فى ذوائب الأطفال[(١)] ، فما شعر أهلها إلا وقد رَجّهَا الجيش بكاهله ، ورماها بوابله قبل طلّه وطَلُّ السحاب قبل وابله ، وبرَزَت خيلُ القوم ولها زِيُّ فُرْسانها ، وهى مستبقة إلى طِرَادِها كاستباقها إلى مَيْدَانها ، إلا مَنْ تتأوَّدُ القناة من يده بين لهذمين ، وتستقلّ السرج منه ومن جواده بين مُطَهَّمَيْن ، فجرت المغاوير إلى المغاوير ، وتلاقت الرياح بالأعاصير ، وكان الطعن بينهم عناقا ، واللبث وفاقا ، وسبق ألم الموت ألم الجراح ، ونَفَذت غيرَ مُخَضَّبةٍ لسرعتها أسِنَّةُ الرماح ، وحَصَل القوم [فى] القَبْضَة ، وذمُّوا عُقْبى النَّهضة ، وجيء بالأسرى مُقَرَنين فى الأصفاد ، موقنين أن رءوسهم عَوَاريٌّ على تلك الأجساد ، ولو استطاع رأس أحدهم أن ينكر عنقه لأنكره ، ولا يود وهو المعظم أن يقال ما أعظمه بل يقال ما أحقره ، وتصرفت أيدى المسلمين فى القتل والنهاب ، وكان للسيف رقاب وللسبى رقاب .

فى هـذا الفصل معان كثيرة مستحسنة ، ومنها ما أخذ من شعر المتنبى ، كقوله :

سَحَابٌ مِنَ العِقْبانِ تَرْجُفُ تحتهَا سَحَابٌ إذا اسْتَسْقَتْ سَقَتْهاصَوَارِمُهْ[(٢)]

---

(١) لون السيف : البياض ، والذوائب : جمع ذؤابة ، وهى شعر الرأس ، يريد أنه أشاب الأطفال ، وهذا ينظر إلى قوله تعالى : (يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً) .

(٢) من قصيدة له مطلعها :

وَفَاؤُكُمَا كَالرَّبْعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهْ بأَنْ تَسْعِدَا والدَّمْعُ أَشْفَاهُ سَاجِمُهْ

وكقوله :

واسْتَعارَ الْحَدِيدُ لَوْناً وَأَلْقَى ... لَوْنَهُ فى ذَوَائِبِ الأطفالِ(١)

ومن ذلك ما ذكرته فى وصف المسلوبين فى فصل من جملة كتاب يتضمن الْبُشْرَى بهزيمة الكفار ، وهو : فَسُلِبوا وعاضتهم الدماء عن اللباس ، فهم فى صورة عارٍ وزِيُّهُمْ زِىُّ كاس ، وما أسرع ماخيط لهم لباسها المحمر ، غير أنه لم يُجَبْ عليهم ولم يُزَرّْ ، وما لبسوه حتى لبس الإسلام شعار النصر ، الباقى على الدهر ، وهو شعار نَسَجَه السِّنَان الخارق ، لا الصَّنَع الحاذق ، ولم يغب عن لابسه إلا ريثما غابت البيض فى الطلَى والهام ، وأَلِفَ الطعن بين ألف الخط واللام

وهذه معان حسنة رائقة ، ومنها معنى واحد مأخوذ من شعر البحترى ؛ وهو :

سُلِبوا وَأَشْرَقَتِ الدِّمَاء عَلَيْهِمُ ... مُحْمَرَّةً فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يُسْلَبُوا(٢)

ومن ذلك ما ذكرته فى صدر كتاب يتضمن فتحاً ، وهو : أُصْدِرُ هذا الكتاب والفتح غَضٌّ طرىٌّ لم تنصل حمرة يومه ، ولا أغمدت سيوف قومه ، فسطوره مُتَرَّبة بعُثارِ عَجَاجه ، ممتلئة بخط ضربه وإعجام زجاجه .

وهذا المعنى ينظر إلى قول أبى تمام :

كَتَبْتَ أَوْجُهَهُمْ مَشْقاً وَنَمْنَمَةً ... ضَرْباً وَطَعْناً يُقَاتُ الهَامَ والصُّلُفَا(٣)

---

(١) هذا البيت من قصيدة له مطلعها :

صِلَةُ الْهَجْرِ لِي وَهَجْرُ الْوِصَالِ ... نَكَسَانِي فِي السُّقْمِ نَكْسَ الْهِلَالِ

(٢) من قصيدة له مطلعها :

عَارَضْنَنَا أُصُلاً فَقُلْنَا الرَّبْرَبُ ... حَتَّى أَضَاءَ الأقْحُوَانُ الأشْنَبُ

وانظر الديوان (ص ٦٢ مصر) .

(٣) من قصيدة يمدح فيها أبا دلف ، ومطلعها :

أَمَّا الرُّسُومُ فَقَدْ أَذْكَرْنَ مَاسَلَفَا ... فَلَا تَكُفَّنَّ عَنْ شَأْنَيْكَ أَوْ يَكِفَا

كِتَابَةً مَا تَنِي مَقْرُوءَةً أَبَدًا وَمَا خَطَطْتَ بِهَا لاَمًا وَلاَ أَلِفَا(١)

إلا أن أبا تمام مثل آثار الضرب والطعن فى الوجوه بالكتابة ، وأنا مثلت الكتابة وإعجامه بالضرب والطعن ، فكأننى عكست المعنى الذى ذكره أبو تمام ، وهذا مقصد فى حل الأبيات الشعرية حسن ، فإن استخراج المعنى من عكسه أدقّ من استخراجه من نفسه ، وقد نبهت على ذلك فى مواضع أخر من هذا الباب .

ومن ذلك ما ذكرته فى فصل من كتاب يتضمن فتحاً من فتوح الكفار ، وهو : وأقْبَلتْ أحزاب الكفر وهى معتصمة بصليبها ، ورفعته على أعواد عالية كهيئة خطيبها ، ولم تعلم أن الله كتب عليه الهوان بعد تلك الكرامة ، وأنه ذو شُعَبٍ أرْبَع والتربيعُ نحسٌ فى حكم النِّجَامة(٢) وكيف ترجو بكفرها ظهوراً ولهاَ منه معنى الاختفاء وللاسلام معنى السلامة ؛ ولما التقى الجمعان اصْطَفَقَتْ يمين وشمال ، وزحفت جبال إلى جبال ، وكثرت النفوس على المنايا حتى كادت لا تفى بالآجال ، وأقدمت الخيل إقدام فُرْسانها ، وأظلم النقع فلا تُبْصر إلا بآذانها ، ونالت النحور ثارها من كعوب الرماح ، واشتكت الأسِنَّة فلا طريق بينها لمهبِّ الرياح ، واسْتُؤْصِلت شجرة الكافرين بالقطع لا بالْجِدَاد ، وحال حَدُّ السيف دون حديد الأصفاد ، ونقلوا إلى جهنم يَصْلَوْنَها وبئس المِهاد ، وانقلب المسلمون وقد مَلَئُوا الأغماد نصراً ، والصحائف أجراً ، والأيدى وقْراً ، والقلوب جَذَلاً والألسنة شكراً ، وكان ذلك اليوم فى الأيام عَلَمَا ، وفى الأقسام

---

(١) المشق : مد الحروف ، والهام : جمع هامة ، وهى الرأس ، والصلف : جمع صليف ، وهو عرض العنق ، وانظر الديوان (٢٠٠ ـ ٢٠٣ بيروت).

(٢) قال ابن أبى الحديد : « لفظة النجامة لفظة رديئة مستفلة ، على أنا لا نعرف صحتها وجوازها ، ولا سمعناها اسما للتنجيم ، ولا مصدرا » اهـ

قسما ، ولم يره الزمان منسوبا إليه إلا راجع شبابا بعد أن ناهز هَرَمًا .

فى هذا الفصل شىء من معانى الشعر ، وذلك من قول أبى الطيب المتنبى[(١)] :

أَتَاهُمْ بِأَوْسَعَ مِنْ أَرْضِهِمْ طِوَالَ السَّبِيبِ قِصَارَ الْعُسُبْ[(٢)]
تَغِيبُ الشَّوَاهِقُ فِى جَيْشِهِ وَتَبْدُو صِغَاراً إِذَا لَمْ تَغِبْ[(٣)]
وَلاَ تَعْبُرُ الرِّيحُ فِى جَوِّهِ إِذَا لَمْ تَخَطَّ الْقَنَا أَوْ تَثِبْ[(٤)]

ومن قوله أيضا[(٥)] :

فِى جَحْفَلٍ سَتَرَ الْعُيُونَ غُبَارُهُ فَكَأَنَّمَا يُبْصِرْنَ بِالآذَانِ[(٦)]

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها سيف الدولة ، وكان سيف الدولة قد كتب إليه يستدعيه ، وأولها قوله :

فَهِمْتُ الْكِتَابَ أَبَرَّ الْكُتُبْ فَسَمْعًا لِأَمْرِ أَمِيرِ الْعَرَبْ
وَطَوْعًا لَهُ وَابْتِهَاجًا بِهِ وَإِنْ قَصَّرَ الْفِعْلُ عَمَّا وَجَبْ

(٢) « أتاهم » الضمير يعود إلى الدمستق المذكور فى قوله :

وَغَرَّ الدُّمُسْتُقَ قَوْلُ الْعُدَا ةِ إِنَّ عَلِيًّا ثَقِيلٌ وَصِبْ

والسبيب : شعر الناصية والعرف والذنب . والعسب ــ بضم العين والسين المهملتين ــ جمع عسيب ، وهو منبت الذنب من الجلد والعظم . و يستحب فى الخيل أن يطول شعر ذنبها و يقصر عظمه .

(٣) الشواهق : جمع شاهق ، وهو الجبل العالى ؛ وتبدو : تظهر .

(٤) الجو : الهواء ، وتخط : مضارع أصله من الخطو ، تقول : تخطيته أتخطاه ، وتثب : ترتفع

(٥) من قصيدة له يقولها عند منصرفه من بلاد الروم سنة خمس وأربعين وثلثمائة ، وأولها :

الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ هُوَ أَوَّلٌ وَهِىَ الْمَحَلُّ الثَّانِى

(٦) الجحفل : الجيش العظيم ، وأصله من قولهم : تجحفل القوم ؛ إذا اجتمعوا . ويقولون : هذا رجل جحفل ، يريدون أنه عظيم القدر .

ومن ذلك ماذكرته فى الإنجاد وإجابة الصَّرِيخ ، وهو : إذ اسْتَصْرَخَ بعزمٍ غذته صحبة الجيش ، عن لذة العيش ، فهو يستعذب حَرَّ الثُّغُور ، على برد(١) الثغور ، ويلهو بالبيض الذكُور ، عن بيض الخدور(٢) ، ولا طيب عنده إلا ريح العَجَاج(٣) ، ولا عِنَاق إلا أطراف الزِّجَاج(٤) ، ولا أَرَبَ له فى الرقاد إلا على صَهَوَات الجياد ، فعسكر قلبه أَمْضَى فى الوَغَى من عسكر ، ونجدة بأسه تأبى لقاء الأقران فى دِرْع أو مِغْفَر .

وهذه المعانى مأخوذة من أبيات الحماسة ، ومن شعر مسلم بن الوليد .

ومن ذلك ماذكرته فى وصف الْمَخْبَر دون الْمَنْظَر ، وهو : إذا سَمَوْتَ لأمرٍ فكن واحدا فى مكانك ، ولا تَرْضَ بكثرة الشركاء فيقال فُلَانٌ من أقرانك ، ألم تر إلى الْحِرْبَاء الذى هو دويبة حقيرة الشان ، ضعيفة الأركان ، فإنه ارتفع فى هَوَاه عن الأرض وأنسها ، إلى السماء وشمسها ، وقال لا أحبُّ من تُفْسِدُ الأيامُ من حسنه ، ولا من أحد بسمة خِلِّه ولا خدنه ، والهمم ليست منوطة بجَهَارَة المناظر ، والتعويل على الخبر المستتر فى الأفئدة الباطنة لا على

---

(١) الثغور الأولى : جمع ثغر ، وهوموضع المخافة من العدوّ أن يبادره . والثغور الثانية : جمع ثغر ، وهو الفم .

(٢) البيض الذكور : جمع أبيض ، وهوالسيف . وبيض الخدور : جمع بيضاء ، ويكنى عن الحسان بذلك ، وأوله من قول امرىء القيس :

وَبَيْضَةِ خِدْرٍ لاَ يُرَامُ خِبَاؤُهَا تَمَتَّعْتُ مِنْ لَهْوٍ بِهَا غَيْرَ مُعْجَلِ

(٣) العجاج ــ بفتح العين المهملة ، بزنة سحاب ــ هو الغبار ، وهوالدخان أيضا . والمراد هنا الأول .

(٤) الزجاج ــ بكسر الزاى وفتح الجيم ــ جمع زج ــ بضم الزاى وتشديد الجيم ــ وهو الحديدة التى تكون فى أسفل الرمح .

الظواهر ، ومن ههنا قيل : إنّ وضاءة النفوس أنضر من وضاءة الأجساد ، ورقم الشِّيَمِ أحسن من رقم الأبراد .

وآخر هذا الفصل ينظر إلى قول سُحَيْم عبد بنى الْحَسْحَاس .

إنْ كُنْتُ عَبْدًا فَنفسِي حُرَّةٌ كَرَمًا   أَوْ أَسْوَدَ اللَّوْنِ إِنِّى أَبْيَضُ الْخُلُقِ

إلا أن الفصل يتضمَّن معنى غريبا لم يسبقنى إليه أحد .

ومن ذلك ماذكرته فى الحسد فى فصل من كتاب ، وهو : حاسدُ سَيِّدِنَا ينظر إلى زهرة دنياه ولا ينظر إلى استحقاقه ، وهو كالناظر إلى الأطواق الموضوعة فى الجِيدِ ولا يدرى أن الجيدَ أحسن من أطْوَاقه ، ولو قاس الدنيا بالاستحقاق لذهب الحســدُ من صدره ، وقال مالى أحْسُدُ مَنْ لم يَنْتَهِ قدرُ دنياه إلى معشار قَدْرِه .

ومن ذلك ماذكرته فى صدر كتاب يتضمن الأعذار عن تواتر المكاتبات ، وهو : إذا اعْتَذَر من انقطاع الكتب اعتذار الخادم من اتصالها ، ولوكانت واردة على غير ذلك الباب الكريم لخاف من إملالها ، وقد عد احتمال تثقيلها من جملة الأيادى التى أثقلته ، وأراد أن يجرى معها بسوابق شكره فأعجلته وما أمْهَلَتْه ، وهو الآن مُرْتَهَنٌ بين قديم وجديد ، وأصبح كخِرَاشٍ إذ تكاثرت عليه الظباء فلم يدر لكثرتها مايصيد ، فإن أمسك سيدُنا من أياديه وإلا فليتفضل على الشكر بالإنظار ، وليعلم أن ذمة وفائه كذمة ديوان المال فى الإعسار .

هذا فصل فى هذا المعنى قَلَّمَا يؤتى بمثله ، وفيه معنى واحد من قول الشاعر :

تَكَاثَرَتِ الظِّبَاءُ عَلَى خِرَاشٍ   فَمَا يَدْرِى خِرَاشٌ مَايصِيدُ

ومن ذلك ماذكرته فى استصلاح مودة ، فقلت : كنتُ عنده بالمنزلة التى آمَنُ بها ما أجنيه فصرت أخاف مالم أجْنِه ، وكان لايقبل عَلَىَّ شهادة عَيْنِه فأصبح الآن يقبل على شهادة أذنه ، لكن لم يجعل الله القلوب بين أُصْبُعَين من

أصابعه إلا ليذهب بها كُلَّ واد ، ومن هٰهنا كانت تنتقل من وِدَاد إلى قِلًى ومن قِلًى إلى وداد ، ولا شك أن لهما بين الحالتين عُمُرًا تنتهى إليه كما تنتهى أعمار الأجساد ، والصبر خير ما استعمل فى جفاء الإخوان ، والماء إذا جرى فى مكان ثم انحرف عنه فلا بد أن يعود إلى ذلك المكان .

و بعض هذا مأخوذ من شعر ابن الرومى [وهو قوله] :

عَهِدْتُكَ لاتَعْتَدُّ بِالعَيْنِ شَاهِدًا عَلَىَّ فَلِمْ أصْبَحْتَ تَعْتَدُّ بِالْأُذْنِ

ومن ذلك ماذكرته فى فصل من كتاب إلى بعض الملوك على يد بعض العُفَاة ، وهو : الشِّيَمُ الكريمة للانسان بمنزلة المسك فى سُرَرِ الغزلان ، غير أن طيب هذه يَعْبق بالأنوف وطيبَ هذه يَعْبق بالآذان ، وقد جعل تفاوت المزية بين هذين الطيبين فَرقا ، فأحدهما يبقى دائما ولا يذهب والآخر يذهب ولا يبقى ، ونصيب مولانا من الطيب الباقى نصيب زكت مَعَادنه ، وكثرت خزائنه ، وسارت فى الأرض محاسنه ، ورفعه الله به إلى محل يبعد شأْوُه على الطالب ، ولا يرى إلا فى لسان شاعر أو لسان خاطب ، وهو مما استثنى من خلق الناس الذى هو من طين لازب ، ومن أجل ذلك يرون أشباها ماعداه ، وما منهم إلا من يقر بفضله ولو كان من حساده أو عِدَاه ، وقد أصبحوا وهم يقلون لديه حين يكثرون ، و يقول كل منهم لصاحبه أَفَسِحْرٌ هٰذَا أمْ أَنْتُمْ لاتُبْصِرُون .

هذا الفصل و إن تضمن شيئاً من القرآن الكريم فليس المراد ههنا القرآن الكريم ، بل منه شيء مأخوذ من الشعر ، وهو قول المتنبى :

النَّاسُ مَالَمْ يَرَوْكَ أشباهُ وَالدَّهْرُ لَفْظٌ وَأَنتَ مَعْنَاهُ

ومن ذلك ما ذكر فى وصف الخمر ، وهو: الخمر لاتفى لذة إسكارها ، بتنغيص خُمَارِها ، فهى خَرقاء البيان ، بَذِيَّةُ اللسان ، وتأنيثها يدلك أنها من ناقصات العقول والأديان ، وقد عرف منها سُنَّة الجور فى أحكامها ، ولولا ذلك لما استأثرت من الرءوس بجناية أقدامها .

وهذا أحسن من قول الشاعر وأغرب وألطف ، لأنه قال :

ذَكَرَتْ حَقَائِدَها القَدِيمَةَ إذ غَدَت وَهْناً تُدَاسُ بأَرْجُلِ العَصّارِ
لَانَتْ لهُمْ حَتى انْتَشَوْا فَتَحَكَّمَتْ فِيهِمْ فَنَادَتْ فِيهِمُ بالثّارِ

وكذلك قلت فى وصفها أيضاً ، وهو : مدامة تَنْفِى خواطر الهموم ، وتَسْرِى مَسرَى الأرواح فى الجسوم ، وتشهد بأن الكرم مستمد من ماء الكروم ، ويمثل حَبَبُها[1] نجوما إلا أنها مُضِلّة والهداية للنجوم .

وبعض هذا مأخوذ من قول أبى نوّاسٍ :

إذَا هِىَ حَلَّتْ فى أُلَّهاةِ مِنَ الْفَتَى دعا هَمُّهُ مِنْ صَدْرِهِ بِرَحِيل

وما زال الشعراء يتواردون على هذا المعنى حتى سمج ، لكن الذى ذكرته بعد هذا المعنى من محاسن المعانى فى وصفها، وكذلك ماذكرته فى وصفها ، وهو : الخمر كالعذراء فى نُفُورها ، وملازمة خُدُورها ، ولهذا تشمئز من نكاح المِزَاج ، وتَصْخَبُ لمسِّ الماء صَخَبَ الأبكار لمس الأزواج ، ومن شأنها أن تلبس عند الزفاف إكليلا على راسها ، وكذلك شأن العرائس عند زفافها إلى أعراسها .

وهذه المماثلة بين الخمر و بين البكر على هذا النسق لم يأت بها أحد غيرى ، و إنما وصفت بأنها بكر ، كقول أبى نواس :

فَقُلْتُ لِشَيْخٍ مِنْهُمُ مُتَكَلِّمٍ لَهُ دِينُ قِسِّيسٍ وَفِى نُطْقِهِ كُفْرُ
أعِنْدَكَ بِكْرٌ مُرَّةُ الطَّعْمِ قَرْقَفٌ صَنِيعَةُ دِهْقَانٍ تَرَاخَى له الْعُمْرُ
فَقَالَ عَرُوسٌ كَانَ كِسْرَى رَبِيبَهَا مُعَتَّقَةٌ مِنْ دُونِهَا الْبَابُ وَالسِّتْرُ

ووصفت بالنكاح والزواج ، كقوله أيضاً :

وَقَهْوَةٍ كَالْعَقِيقِ صَافِيَةٍ يَطِيرُ مِنْ كَأْسِهَا لَهَا شَرَرُ
زَوَّجْتُهَا المَاءَ كَىْ تَذِلَّ لَهُ فَامْتَعَضَتْ حِينَ مَسَّهَا الذَّكَرُ

---

(١) الذى فى ب ، ج «حبها» وتنقص باء .

ومن ذلك ماذكرته فى الحزم ، وهو : لاينبغى للحازم أن يُسَاور المورد المؤذن بمضيقه و إن أفضى الصَّدَرُ إلى رحيبه ، فإنّ تَوَقِّىَ الداء خير من التعرض له مع وجود طبيبه ، ولْنَدَعْ قولَ من يقعد على تَلِّ السلامة ثم يلبس الكتائبَ بالكتائب ، و يقول : ليس للعزم إلا تمام الصدور وليس عليه تمام العواقب .

بعض هذا مأخوذ من شعر أبى تمام(١) :

وَرَكْبٍ كَأَطْرَافِ الْأَسِنَّةِ عَرَّسُوا ... عَلَى مِثْلِهَا وَاللَّيْلُ تَسْطُو غَيَاهِبُهْ

لِأَمْرٍ عَلَيْهِمْ أَنْ تَتِمَّ صُدُورُهُ ... وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ أَنْ تَتِمَّ عَوَاقِبُهْ

ومن ذلك ماذكرته فى وصف الرأى والكيد ، وهو : أخْفَى على العدوّ كَيْدَهُ حتى لم يدع كائداً ، وأعمى عليه سلوكَ الطريق حتى ظنه حائدا . فَسُيُوفه تسطو على بعدها ، ولا تقطع إلا وهى فى غمدها .

و بعض هذا المعنى أخذته من شعر أبى تمام(٢) ، وهو :

سَكَنَ الْكَيْدُ فِيهِمُ إنَّ مِنْ أعْظَمِ كَيْدٍ أَنْ لَا يُسَمَّى أَرِيبَا

وكذلك قولى فى هذا المعنى ، وهو : أخذ بسَمْعِ العدو و بَصَرِهِ ، وسدَّ مَطْلَع وِرْدِهِ وصَدَرِه ، فيَدَاه مغلولة مع أنها مطلقة السَّرَاح ، ومَقَاتله بادية على أنها شاكية السِّلاح .

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب ، وأولها:

أَهُنَّ عَوَادِي يُوسُفٍ وَصَوَاحِبُهْ ... فَعَزْمًا فقِدْمًا أَدْرَكَ السُّؤْلَ طَالِبُهْ

وانظر الديوان (ص ٤٣ بيروت) .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف الثغرى ، وأولها قوله :

مِنْ سَجَايَا الطُّلُولِ أَلاَّ تُجِيبَا ... فَصَوَابٌ مِنْ مُقْلَتِي أَنْ تَصُوبَا

وهذا المعنى ينظر إلى المعنى الذى قبله .

وكذلك قولى أيضاً ، وهو : يُبَيِّتُ برأيه العدو قبل جيشه ، وتلقاه يطيشُ قلمه الذى كُلُّ الحلم فى طيشه ، فإذا أطلّتْ وجوه الآراء كان رأيه لها صباحاً ، وإذا جهزت الجحافل لحرب كان قلمه لها سلاحا .

و بعض هذا المعنى مأخوذ من شعر البحترى[1] :

وَهُوَ الْمَرْءُ مَا غَزَا بَلَداً بِالـــرَّأْىِ إلاَّ كَفَاهُ غَزْوَ الْجُنُودِ

ومن ذلك ماذكرته فى وصف السير والركاب والخيل والقفار ومايتعلق بها

فمنه مايتعلق بالسير ، وهو : ركب ظهْرَ الليل يُبَارى مسير شُهْبه بمسير أشْهَبه[2] ، ويستقرب بُعْدَ المَدَى فى نيل مَطْلبه ، غيرأن تلك تفرى أديم الغياهب ، وهذا يفرى أديم السَّبَاسِب[3] .

وهذا مأخوذ من قول المتنبى[4] :

يُبَارِى نُجُومَ الْقَذْفِ فى كلِّ لَيْلَةٍ نُجُومٌ لَهُ مِنْهُنَّ وَرْدٌ وَأَدْهَمُ

---

(١) لم أجد هــذا البيت فى شعر البحترى . وقد تــكرر هذا المعنى فيه ؛ فمن ذلك قوله :

مُسْتَشَارٌ فى الْمُعْضِلاتِ إِذَا مَا أُرْ تِجَ الْخَطْبُ عَنْ دُعاءِ وَلِيــدِهْ

وَمُصِيبٌ مَفَاصِلَ الرَّأْىِ إنْ حَا رَبَ كَانَتْ آرَاؤُهُ مِنْ جُنُودِهْ

ومن ذلك قوله فى قصيدة يمدح فيها محمد بن عبد الملك الزيات :

فَهْىَ مِنْ عَزْمِ رَأْيِهِ فى جُنُودٍ قُمْنَ مِنْ حَوْلِهَا مَقامَ الجُنُودِ

(٢) يريد بالأشهب : جوادا لونه الشهبة .

(٣) السباسب : جمع سبسب ــ بوزن جعفر ــ وهو الأرض القفر

(٤) من قصيدة له أولها قوله :

إِذَا كَانَ مَدْحٌ فَالنَّسِيبُ الْمُقَدَّمُ أَكُلُّ فَصِيحٍ قالَ شِعْراً مُتَيَّمُ

ومن هذا المعنى أيضاً قولى، وهو : اتَّخَذَ اللَّيْلَ ظهرا ، واستلان خشونة الْمَسْرَى ، فلم يزل يقذف صبغة سواده ، بصبغة جواده ، حتى بدت فى أديم الليل شِيَاتُ صباحه ، وشَابَهَ الأدهم فى غُرّته وأوضاحه ، فعند ذلك أخذ أحدهما فى رحيله ، وأخذ الآخر فى نزوله .

وهذا المعنى ينظر إلى الذى قبله ، وفيه من شرف الصنعة مالا خفاء به .

ومن ذلك ماذكرته أيضاً فى فصل من كتاب ، وهو : سِرْتُ وتحتى بنت قَفْرَةٍ لايذهب السُّرَى بجماحها ، ولا تستزيد الحادى من مراحها ، فهى طَمُوح بأثناء الزِّمام ، وإذا سارت بين الآكام قيل هذه واحدة من الآكام ، ولم تُسَمَّ جَسْرَةً إلا لأنها تقطع عرض الفلاة كما يقطع الجسر عرض الماء ، ولا سميت حَرْفًا إلا لأنها جاءت لمعنى فى العزائم لالمعنى فى الأفعال والأسماء ، وخَلْفَهَا جَنِيبٌ من الخيل يُقْبِل بجِذْعٍ ويدبر بصخره ، وينظر من عين جحظة ويسمع بأذن حشره ، ويجرى مع الريح الزَّعْزَع فَيَذَرُها وقد ظهر فيها أثر الْقَتَرَه ، وما قِيدَ خلفها إلا وهو يهتدى بها فى المسالك المضلّة ، ويطأ على أثرها فيرقم وجوهَ البدور بأشكال الأهلة ، هذا والليل قدألقى جِرَانَهُ فلم يَبْرَح ، والكواكب قد رَكَدَت فيه فلم تسبح ، وأنا أودُّ لو زاد طوله، ولم تظهر غرة أدهمه ولا حُجُوله، فقد قيل: إنه أدنى للبعد وأكتم للأسرار ، ودل عليه القول النبوىّ بأن الأرض تُطْوَى فيه مالا تطوى فى النهار ، وما زلت أسير بريدها تنوء به حتى كاد يَنْضُولون السواد ، وظهر لون السرحان فأغار على سَرْح السماء كما يغير السرحان على سرح

وأراد بنجوم القذف: الشهب التى تقذف بها الشياطين والتى ذكرها الله تعالى فى قوله: (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ) وذكر رجم الشياطين بها فى قوله : (وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُوراً) والورد ــ بفتح فسكون ــ الفرس الأحمر .

النقاد ، فعند ذلك نَهِلَت العين من الكرى نهلة الطائر ، ولم يكن ذلك على ظهر الأرض المطمئنة وإنما كان على الظهر السائر

فى هذا الفصل كل مليحة من المعانى ، ولو لم يكن فى هذا الكتاب سواه لكان كافياً ، و بعضه مأخوذ من الشعر ، كقول أبى تمام[1] :

طَمُوحٌ بأَثْناءِ الزِّمَامِ كأَنَّما يُخالُ بِها مِنْ عَدْوِها طَيْفُ جِنَّةٍ[2]

وكقوله[3] :

بِالشَّذْقَمِيَّاتِ العِتاقِ كأَنَّما أَشْباحُها بَيْنَ الْأَكامِ أَكامُ[4]

ومن ذلك ماذكرته فى النسب فى فصل من كتاب ، وهو : لهم نَسَبٌ لاتدخله لام التعريف ، وهو موضوع لا يجرى على سنن التوقيف ، فإذا ذكر أوله وقفت من عرفانه على طلل ، ووجدته مهملا فى جملة الهمل ، وإن قيل إنه من نجوم السماء قلت لكنه لايخرج عن الثور أو الحمل ، فما أرهف لوصفه لسان إلا نبا ، ولا اقتدح له زناد خاطر إلا كبا ، وهم منه كآوى الذى يرى الناس له ابنا ولا يرون لابنه أبا .

وهذا من أغرب ما يؤتى به فى ذم النسب ، وهو من باب توليد المعانى الذى

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها حبيش بن المعافى قاضى نصيبين ، وأولها قوله :

نُسَائِلُها أَىَّ المَوَاطِنِ حَلَّتِ وَأَىَّ بِلَادٍ أَوطَنَتْها وَأَيَّتِ

(٢) وقع فى ج «بأثناء الزمان» وهو تحريف شنيع ، والتصويب عن ب ، وعن الديوان (٦٠) .

(٣) من قصيدة له يمدح فيها المأمون ، وأولها قوله :

دِمَنٌ أَلَمَّ بِهَا فَقَالَ سَلامُ كَمْ حَلَّ عُقْدَةَ صَبْرِهِ الإِلْمامُ

(٤) الشذقميات : النوق الكرام . والأكام : التلال ، يريد أنهن جسيمات عاليات.

يسمى الـكيمياء ، و بعضه مستولد من قول أبى نواس فى هجاء الخصيب[١] :

وَما خُبْزُهُ إِلاَّ كَآوَى يُرَى ابْنُهُ وَلَمْ يُرَ آوَى فى حُزُونٍ وَلاَسَهْلِ[٢]

فأبو نواس ذم خُبْز الخصيب فى عدم رؤيته ، وأنا نقلت ذلك إلى النسب ، فجاء ألطف وأحسن وأليق وأدخـل فى باب الصنعة ، و إذا حقق النظر فيما ذكره أبو نواس فى هذا المعنى لم يوجد مناسبا ، فإن الخبز فى عدم رؤيته لا يحمل على ابن آوى ، و إنما المناسبة تقع فى النسب من أجل ذكر الابن والأب .

ومن ذلك ما ذكرته فى ذم قوم ، وهو فصل من كتاب ، فقلت : تركت قوماً لم ينقعوا صَدَى ، ولم يجروا إلى مَدَى ، فأعراضهم نـكرة العارف ، وأموالهم حنظلة الناقف ، لا تمطر سحبهم على كثرة مائها ، ولا تزكو الذريعة بأرضهم على نمائها .

و بعض هذا المعنى مأخوذ من شعر الشريف الرضى[٣] :

تَرَكْتُ أُنَاساً لَمْ يَهَشُّوا لِمِنَّةٍ وَلَمْ يَنْقَعُوا غُلَّ الظِّمَاءِ الْخَوَامِسِ

عَلَى الْقُرْبِ فِيهِمْ إِنَّنِى غَيْرُ طَامِعٍ وَمِنْكَ عَلَى بُعْدِ الْمَدَى غَيْرُ آيِسِ[٤]

---

(١) البيت ثانى أبيات قصيدة يهجو بها أبو نواس إسماعيل بن أبى سهل بن نيبخت، والذى قبله قوله :

عَلَى خُبْزِ إِسْمَاعِيلَ وَاقِيَةُ الْبُخْلِ فَقَدْ حَلَّ فى دَارِ الأَمَانِ مِنَ الأَكْلِ

(٢) وقع فى ب ، ج « وما خبره » بالراء المهملة، وهو تصحيف ، وصوابه «خبزه» بالزاى ، وكذلك هو فى الديوان (ص ١٧١) .

(٣) من أبيات له يمدح فيها الملك بهاء الدولة ، وأولها :

أَقُولُ لِرَكْبٍ خَابِطِينَ إِلَى النَّدَى رَمَوْا غَرَضاً وَاللَّيْلُ دَاجِى الْحَنَادِسِ

(٤) فى الديوان « على القرب إنى فيهم غير طامع » ، وانظره (١ - ٤٢٣) . وقريب من معنى هذين البيتين مع توافقهما فى أكثر الألفاظ قول الشريف أيضا :

ومن هذا الباب أيضاً قولي ، وهو: تركت قوماً يسلّون الحبيب، ويملّون القريب، ولا يرعون من يرعاهم ، ولا يدرُّ اللبن على مَرْعاهم ، فنوالهم تحايا ، وأعراضهم ضحايا ، ومن أحسن صفاتهم أنهم يعاقبون على الظنة ، ولا يرتاحون لمنة ، فالذرائع لديهم مدفونة ، والصنائع غير مسنونة .

و بعض هذه المعانى مأخوذ من شعر أبى الطيب[1] المتنبي :

رَأَيْتُكُمْ لاَ يَصُونُ الْعِرْضَ جَارُكُمُ ... وَلا يَدِرُّ عَلَى مَرْعَاكُمُ اللَّبَنُ

جَزَاءُ كُلِّ قَرِيبٍ مِنْكُمُ مَلَلٌ ... وَحَظُّ كُلِّ مُحِبٍّ مِنْكُمُ ضَغَنُ

ومن ذلك ما ذكرته على الحث على الاغتراب ، وهو : لولا التغرب لما ارْتقت بنات الأصداف إلى شرف الأعناق ، ولا ارتقى تراب الأحجار إلى نور الأحداق .

وكذلك قولى فى هذا المعنى ، وهو : فى الانتقال تنويهٌ لخامل الأقدار ، ولولا ذلك لم يكس الهلال حلة الأبدار ، والمَنْدَل الرطب حَطَب فى أوطانه ، والمسك دم فى سُرَرِ غزلانه ، ولولا فراق السهم وتره لم يَحْظ بفضل الإصابة ، ولولا فراق الوَشيج منبته لم يتحلَّ بعز السِّنان ولا شرف الذّؤابة .

وهذا الفصل فصل من القول فى معناه ، ومما لم ينبش للخواطر ابتداء مبناه ؛ فمنه ما هو مأخوذ من الشعر ، ومنه ما منح به الخاطر على غير مثال ، وهو يشهد لنفسه .

نُذَادُ وَيُرْوَى الْأَبْعَدُونَ بِمَائِكُمْ ... وَنَحْنُ عَلَى الْوِرْدِ الظِّمَاءُ الْخَوَامِسُ

وَتَنْدَى لِقَوْمٍ آخَرِينَ سَحَابُكُمْ ... وَنَحْنُ مَنَاشِي أَرْضِكُمْ وَالْغَرَائِسُ

(١) من قصيدة له أرسلها إلى سيف الدولة من مصر ، وقد بلغه أنه ذكر بمجلسه بسوء ، وأول هذه القصيدة قوله :

بِمَ التَّعَلُّلُ ؟ لاَ أَهْلٌ ، وَلاَ وَطَنُ ، ... وَلاَ نَدِيمٌ ، وَلاَ كَأْسٌ ، وَلاَ سَكَنُ

ومن ذلك ما ذكرته فى وصف الأيام ، وهو : أيام تُعَدُّ بأعوام[(١)] لقصر أعمارها ، وشهور لايشعر بأنصافها ولا سِرارها ؛ فالأوقات بها أصائل ، والمحاسن فيها شمائل ، والمآرب فى ساعاتها رياض فى خمائل ؛ فما أدرى أهى خيالات أحلام غرت ، أم أحاديث أمانٍ مرت .

و بعض هذا المعنى مأخوذ من أبيات الحماسة[(٢)] :

شُهُورٌ يَنْقَضِينَ وَما شَعَرْنَا ... بِأَنْصَافٍ لَهُنَّ وَلاَ سِرَارِ[(٣)]

ومن ذلك ماذكرته فى وصف الإخوان، وهو : ليس الصَّدِيقُ مَنْ عَدَّ سَقَطاتِ قرينه ، وجازاه بغَثِّهِ وسمينه ، بل الصديق مَنْ ماشى أخاه على عَرَجِه ، واستقام له على عِوَجِهِ ، فذلك الذى إنْ رَأَى سيئة وطئها بالقدم ، و إن رأى حسنة رفعها على عَلَمٍ .

و بعض هذا المعنى مأخوذ من أبيات الحماسة[(٤)] :

(١) كذا ؛ ولعله « أعوام تعد بأيام » .

(٢) من كلة رواها أبو تمام ، ولم ينسبها لقائل معين ، وأولها .

أَقُولُ لِصَاحِبِي وَالْعِيسُ تَهْوِى ... بِنَا بَيْنَ الْمُنِيفَةِ فَالضِّمَارِ

تَمَتَّعْ مِنْ شَمِيمِ عَرَارِ نَجْدٍ ... فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَّةِ مِنْ عَرَارِ

وانظر (شرح التبريزى على الحماسة : ٣ - ٢١٤) .

(٣) قال التبريزى فى شرح هذا البيت : « ارتفع شهور على أنه مبتدأ ، وهو تفسير الزمان الذى حمده وتلهف على انقضائه ، و ينقضين خبره ، ويجوز أن يرتفع شهور على أنه خبر مبتدأ محذوف ، و ينقضين حينئذ يكون صفة له ، وما شعرنا : أى ماعلمنا ، يقال : شعرت به شِعْرَةً وشِعْراً وشُعُوراً ، ومنه الشعر ، و يقال : شعر الرجل ؛ إذا قال الشعر ؛ فشعر ، بكسر العين ، أى صار شاعرا ؛ وسرار الشهر : آخره ؛ لأن القمر يستسر فيه » اه ، والسرار : بكسر السين بزنة كتاب .

(٤) أول كلة اختارها أبو تمام لقعنب بن ضمرة ، وهو قعنب بن أم صاحب ، وأم صاحب : هى أمه ، وهوأحد بنى عبد الله بن غطفان ، وانظر (شرح التبريزى

إنْ يَسْمَعُوا رِيبَةً طَارُوا بِهَا فَرَحًا عَنِّى ، وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا[(١)]

إلا أن الذى ذكرته ضدُّ هذا المعنى ، وقد يستخرج المعنى من ضده . وهو أحسن مما يستخرج من نفسه .

ومن هذا قولى أيضاً ، وهو : لَيْسَ الصديقُ من صَرَّى أَخْلاَفَ وُدِّه[(٢)] وغشّ فى صَفْقَة عهده ، بل الصديق من لا ترد سلعة وده بإقالةٍ وَلاَ عَيْب ، ولا تخص محافظة إخائه بشهادةٍ دون غَيْب[(٣)] فذلك أخى من غير نسب ، وكنزى من غير نَشَب .

وهذا مأخوذ من الفقه فى تَصْرِيَة ضرع الشاة عند البيع ، وذلك يوجب الرد .

ومما ينتظم بهذا السلك قولى ، وهو : الانتقال عن خلة الوداد ، كالانتقال عن نسب الميلاد ، وكما يحرم هذا فى نص الحكم المشروع ، فكذا يحرم هذا فى خلق الكرم المطبوع ، على أن نسب الخلة الذى يَنْمِيه القلب إلى القلب ، أوْصَلُ من نسب الرحم الذى يَنْمِيه الابن إلى الأب ، ولهذا كانت مودة سَلمَانُ قُرْبَى ، ونسب أبى لَهَبٍ سبًّا وتَبًّا .

على الحماسة : ٤ ــ ٢٤) وكلمة قعنب بن أم صاحب قدرواها له ابن الشجرى فى مختاراته (ص ٦) وأولها قوله :

بَانَتْ سُلَيْمَى فَأَمْسَتْ دُونَهَا عَدَنُ وَغَلِقَتْ عِنْدَهَا مِنَ قَلْبِكَ الرُّهُنُ

(١) فى الحماسة « طاروا بها فرحا منى » ، وفى رواية ابن الشجرى « طاروا لها فرحا منى » .

(٢) صرى الرجل شاته تصرية : لم يحلبها أياما ليجتمع اللبن فى ضرعها ؛ فيرى حافلا ، يقصد بهذا الغش فى البيع ؛ والأخلاف للناقة كالثدى للمرأة .

(٣) الشهادة : الحضور ، تقول : شهدنا فلان يوم كذا ، تريد حضرنا ، والغيب : ضده .

و بعض هذا مأخوذ من شعر أبى نواس ، وهو :

كَانَتْ مَوَدَّةُ سَلْمَانَ لهُ نَسَباً   وَلَمْ يَكُنْ بيْنَ نُوحٍ وَابْنِهِ رَحِمُ

ومن ذلك ماذكرته فى وصف الديار، وهو: دَارٌ كانت مقاصر جنة ، فأصبحت وهى مَلاَعِبُ جِنَّة ، ولقد عميت أخبار قُطَّانها ، وأنشاز أوطانها ، حتى شابهت إحداهما فى الخفاء ، الأخرى فى العفَاء ، وكنت أظن أنها لا تسقى بعدهم بغمام ، ولا يرفع عنها جلباب ظلام ، غير أن السحاب بكاهم فجَرَت بها سَوَافِح دموعه، والليل شق عليهم ثوبه فظهر الصباح من خلال صُدُوعه .

وهذه معان لطيفة جداً ، و بعضها مأخوذ من شعر الشريف الرضى رحمه الله تعالى(١) :

أَمَرَابِـعَ الْغِزْلاَنِ غيَّرَكِ الْبِلَى   حَتَّى غَدَوْتِ مَرَاتِعَ الْغِزْلاَنِ(٢)

ومما يلتئم بهذا المعنى قولى أيضا ، وهو: دارأصْبَحَت مراتع أذواد ، بعد أن كانت مَنَاجع رُوّاد ، فلو تصورت الآمال التى مثلت بفنائها ، كما تصورت الآثار المماثلة من بنائها ؛ لرأيت رسومها مع رسوم القباب . وعلمت كم غَارَ بِهَا مِنْ بَحْرٍ ونَضَب من سحاب .

---

(١) من كلمة له يقولها وقد خرج إلى الكوفة لزيادة قبر أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وأول هذه الكلمة قوله :

مَا زِلْتُ أطْرِقُ المَنازِلَ بِالنَّوَى   حَتَّى نَزَلْتُ مَنازِلَ النُّعْمانِ

وانظر الديوان (٢ – ٨٨٥) .

(٢) رواية الديوان هكذا :

أمَقَاصِرَ الْغِزْلاَنِ غيَّرَكِ الْبِلَى   حَتَّى غَدَوْتِ مَرَابِضَ الْغِزْلاَنِ

والمراد بالغزلان فى صدر البيت : الحسان ربات الخدور ، والمراد بها فى عجز البيت الظباء الدقاق الأسواق .

وهذا معنى حسن له من نفسه مُثْنٍ وحامد ، ومن سامعه عِين وشاهد ، وهو من معانيّ المستخرجة .

ومن ذلك قولى أيضاً ، وهو : النقص مُوَكَّل بكمال النعماء ، ولذلك كان الْوَخَم مقترناً بالمرعى والماء ، وقَلَّمَا ترى ثمرة إلا ومعها زُنبُور ، ولا لذة إلا و إلى جانبها شيء محذور .

وكذلك قولى أيضاً ، وهو : لايظفر الرجل بمطالبه شَفْعا ، ولا تؤتيه من كل جهة نفعا ، بل يرى مَرْعًى بلا ماء وماء بلا مرعى ، ولذلك كانت النحلة مع الشهْدَة ، والشوكة مع الْوَرْدَة .

و بعض هذه المعانى مأخوذ من قول أبى تمام(١) :

أَرْضٌ بِهَا عُشُبٌ زَاكٍ وَلَيْسَ بِهَا ... مَاءٌ وَأُخْرَى بِهَا مَاءٌ وَلاَ عُشُبُ(٢)

إلا أن فى الكلام المنثور زيادة على ماتضمنه الشعر ، وكأنه ينظر إليه نظرا بعيداً .

ومن سبيل الْمُتَصَدِّى لهذا الفن أن يأخذ المعنى من الشعر فيجعله مثل الإكسير فى صناعة الكيمياء ، ثم يخرج منه ألوانا مختلفة من جوهر وذهب وفضة ، كما فعلت فى هذا الموضع ؛ فإنى أخذت معنى هذا البيت من الشعر فاستخرجت منه ماليس منه ، وهذا أعلى الدرجات فى نثر المعانى الشعرية .

وقد بسطت القول فى هذا الموضع ، وكشفت عن دفائنه ، فى الكتاب

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا جعفر محمد بن عبد الملك بن أبى مروان الزيات ، وأولها :

قَدْ نَابَتِ الْجِزْعَ مِنْ أَرْوِيَّةَ النُّوَبُ ... وَاسْتَحْقَبَتْ جِدَّةً مِنْ دَارِها الْحِقَبُ

وانظر الديوان (ص ٤٦) .

(٢) رواية الديوان « أرض بها عشب جرف » والجرف : ماجرفته السيول وأكلته الأرض ، والذى هنا أفضل من رواية الديوان ؛ لتمام التقابل .

الذى وَسَمْته بـ«الْوَشْيِ الْمَرْقُوم فى حَلِّ المنظوم» وهو كتاب مفرد [فى] هذا الفن خاصة .

ومن هذا الضرب الذى هو الكيمياء فى توليد المعانى ما ذكرته فى وصف الربيع فقلت : فصل الربيع هوأحَدُ ميزانى عامه ، والمستفيد لسَامِهِ من حَامه ، وقد وصف بأنه ميعاد نطق الأطيار ، وميلاد أجِنَّة الأزهار ، والذى تستوفى به حولها سلافة العقار ، فإذا سَلَّتِ السحبُ فيه سيوفها كان ذلك للرضا لاللغضب ، و إذا خلعت على الأرض غُلاَلتها الدَّكْنَاء لبست منها ديباجة منسوجة بالذهب .

وهذا المعنى مستولد من قول أبى تمام فى وصف السحاب(١) :

سَلَبَتْهُ الْجَنُوبُ وَالدِّينُ وَالدُّنْـيَا وَصَافِى الْحَيَاةِ فِى سَلَبِهْ(٢)

إلا أن فى الذى ذكرته معنيين غريبين إذا أمعن الناظر نظره فهمهما .

ومن ذلك ماذكرته فى لين القول و إعادته ، وما يجرى مجراه ، كقولى فى فصل من كتاب ، وهو : لم أُعِدْ عليه القولَ لأنه لايبلغ مَدَى ميدانه ، إلا بتحريك سوطه وعنانه ، بل أَخْذاً بأدب الله فى أذكار القرآن ، واتباعا لسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فى تثويب الأذان .

و بعض هذا مأخوذ من شعر أبى تمام(٣) :

---

(١) من قصيدة له يمدح أبا الحسن محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمى ، وأولها قوله :

إِنَّ بُكاءً فى الرَّبْعِ مِنْ أَرَبِهْ فَشَايِعاً مُغْرَمًا عَلَى طَرَبِهْ

(٢) هكذا ورد هذا البيت فى جميع نسخ الأصل ، وهو غير مستقيم ، وصوابه :

قَدْ جَلَبَتْهُ الْجَنُوبُ ؛ فالدِّينُ وَالدُّ نْيا وَصَافِى الحياةِ مِنْ جَلَبِهْ

وانظر الديوان (ص ٥٢) .

(٣) آخر قصيدة له يمدح فيها سليمان بن وهب ، وأولها قوله :

أَىُّ مَرْعَى عَيْنٍ وَوَادِى نَسِيبِ لَحَبَتْهُ الأَيَّامُ فى مَلْحُوبِ

لحبته : وطئته . وملحوب : اسم موضع .

لَوْ رَأَيْنَا التَأْكِيدَ خُطَّةَ عَجْزٍ مَاشَـفَعْنَا الْأَذَانَ بِالتَّثْوِيبِ[١]

وكذلك قولى أيضاً ، وهو : وقد علم أن لين القول أنجع قبولا ، وهو من أدَبِ كليم الله إذ بعثه إلى فرعون رَسُولا ، ألا ترى أن الْحُدَاء يبلغ من المطايا بلُطْفه ، مالا يبلغه السوط على عُنْفه .

و بعض هذا المعنى مأخوذ من شعر أبى تمام[٢] :

وَخُذْهُمْ بِالرُّقَى إنَّ الْمَهَارَى يُهَيِّجُهَا عَلَى السَّيْرِ الْحُدَاء[٣]

ومن ذلك ماذكرته فى ذم الدنيا ، وهو : أنْكَادُ الدنيا مَشُوبة بالأشياء التى جُبِلَتِ النفوس على حُبِّها ، وكل ماتستلذه الأبدان من مأكلها فإنه يضرها من جهة طبها ، ولهذا يذم من منفعة الهليلج ، ومضرة اللوزينج . وأعجب من ذلك أنه لاينتفع الإنسان بشىء من لذاتها إلا ضره من جهة ثوابه ، وهو كالذى ينتفع باصْطِلاَء النار وهى مُحْرِقة لأثوابه ، وقد ضرب لذلك مثل من الأمثال ، وقيل : إن كل ماينفع الكبدَ مضرٌّ بالطحال .

وهذا مأخوذ من الأمثال العربية والمولدة .

ومن ذلك ماذكرته فى الزهد ، وهو : الناس فى الدنيا أبناء الساعة

---

(١) رواية الديوان « لو رأينا التوكيد » وهما سواء ، وفى الديوان « ماشفعنا الآذان » وهو تحريف سببه قلة إدراك معنى التثويب الذى يذكر فى الشريعة .

(٢) من قصيدة له يعاتب فيها على بن الجهم و يطاب إليه استنجاز وعد من عثمان ابن إدريس بن بدر ، وأولها قوله :

بِأَىِّ نُجُومِ وَجْهِكَ يُسْتَضَاءُ أَبَا حَسَنٍ ، وَشِيمَتُكَ الإِبَاءُ

(٣) الرقى : جمع رقية ، وهى تعويذة ، المهارى : جمع مهرية ، بفتح الميم وسكون الهاء ، والإبل المهرية : منسوبة إلى مهرة ، ومهرة : بلد ، و يقال : اسم رجل ، يهيجها : يثيرها ، الحداء ــ بضم الحاء ــ الغناء .

الراهنة ، وكما أن النفوس ليست فيها بقاطنة فكذلك الأحوال ليست بقاطنة ، ولهذا كانت المآتم بها كالأعراس يتفرق ندىٌّ جمعها ، فهذه تُنْسِي ما مضى من لذة سرورها وهذه تُنْسى مامضى من ألم فَجْعِها ، ولا شبيه لها على ذلك إلا الأحلام التي يتلاشى خيالها عاجلا ، وتجعل اليقظة حقها باطلا ، وما ينبغى حينئذ أن يفرح بها مقبلة ولا يؤسى عليها مدبرة ، وكل ما تراه العين منها ثم يذهب فكأنها لم تَرَه ، وغاية مطلوب الإنسان منها أن يُمَدَّ له فى مدة عمره ، ويُمْلَى له فى امتداد كُثْره ، أما تعميره فيعترضه المشيب الذى هو عدم فى وجود ، وهو أخو الموت فى كل شيء إلا فى سكنى اللحود ، فالجوارح التى يدرك بها الشهوات ترى وكل منها قد تحول ، وأصبح كالطلل الدارس الذى ليس عنده من[1] مُعَوَّل ، فلا لَيْلَى بلمُيْلَى ولا النَّوَّار بالنوار ، ولا الأسماع أسماع ولا الأبصار أبصار ، وأما ماله فإن أمسكه فهو عُرْضَةَ لوارث يأكله ، أو لحادث يستأصله ، وإن أنفقه كان عليه فى الحلال حساباً ، وفى الحرام عقاباً ، فهذه زهرة الدنيا الناضرة ، وهذه عقباها الخاسرة .

وبعض هذا المعنى مأخوذ من شعر صالح بن عبد القُدُّوس :

وَإِذَا الجنازَةُ وَالعَرُوسُ تَلاَقَيَا أَلْفَيْتَ جَمْعًا كُلُّهُ يَتفرَّق

ومن قول أبى الْعَتَاهية :

إِنَّمَا أَنْتَ طُولَ عُمْرِكَ مَا عُمِّـــرْتَ فى السَّاعةِ الَّتى أَنْتَ فيهَا

ومن ذلك ماذكرته فى فصل من كتاب يتضمن تعزية ، وهو : كيف يُظْلِم ذلك اللَّحْدُ وبه من أعمال ساكنه أنوار ؟ أم كيف يُجْدِبُ وبه من فَيْض يمينه سحاب مِدْرَار ؟ أم كيف تُوحِشُ أقطاره والملائكة داخلة عليه من تلك الأقطار ؟

---

(١) هذا من قول امرىء القيس بن حجر الكندى

وَإِنَّ شِـــفَائِى عَبْرَةٌ مُهَرَاقَةٌ وَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ

أم كيف يُخْفيه طولُ العهد على زُوَّاره وطيبُ ترابه هادٍ للزوار ، وما أعلم ماأقوله في هذا الخطب الجليل ، الذى دَقَّ فيه الحزن الجليل ، وسمحت له النفوس بالفدية على حب الحيـاة وذلك من الفداء القليل ، وقد قيل : إنه لم يُخْلَقِ الدمع إلا إنذاراً بأن نوائب الزمان ستنوب ، وقد جعله الله ذخراً للقائها وإنما يذخر السلاح للقاء الحروب ، والذى ذَخَرْته منه لم يغن عنى فى هذه النائبة ، وأىُّ جُنَّةٍ تقوم فى وجه سهامها الصائبة ، لا جَرَمَ أنى أصبحت بين يديها هَدَفاً للرماء ، ولم يبق منى إلا ذَماءُ الحُشَاشة ومن العجب بقاء الذَّماء .

وشيء من هذا الفصل مأخوذ من شعر ابن الرومى :

لَمْ يُخْلَقِ الدَّمْعُ لِامْرِىءٍ عَبَثاً اللهُ أدْرَى بلَوْعَةِ الحَزَنِ

وكذلك ذكرت فصلا فى كتاب آخر يتضمن تعزية، وهو : فياوَيْحَ أيدٍ أسلمته إلى الثرى وما كان يسلمها إلى الاعدام ، وألبسته ظلمة اللحد وطالما جلا عنها غيابة الظُّلْم والإظلام، وغادرته بِوَحْدَته مستوحشاً وقد كان يؤنسها بنوافل الإنعام ، ومثله لا يوارى القبر منـه إلا صورة يدركها النفاد ، وتبلى كما يبلى غـيرها من الأجساد ، ولـكنه لا يستطيع مُوَاراة الذكر الخالد الذى يذهب بشماتة الحساد ، و يتمثل فى السماء بصورة الـكواكب وفى الأرض بصورة الأَطْوَاد .

و بعض هذا مأخوذ من قول بعض شعراء الحماسة(١) :

---

(١) هو من كلمة اختارها أبو تمام لأبى الشغب العبسى ، يقولها فى خالد بن عبدالله القسرى ، وأولها قوله :

أَلاَ إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ حَيًّا وَهَالِـكاً أَسِيرُ ثَقِيفٍ عِنْدَهُمْ فِى السَّلاَسِلِ

وكان يوسف بن عمر الثقفى قد أسر خالد بن عبد الله القسرى ، وانظر التبريزى (٢ — ٣٧٨) ..

فَإِنْ تَدْفِنُوا الْبَكْرِيَّ لاَتَدْفِنُوا اسْمَهُ   وَلاَ تَدْفِنُوا مَعْرُوفَهُ فِي الْقَبَائِلِ (١)

ومن ذلك ماذكرته فى وصف كلام بالفصاحة، وهو فصل من كتاب؛ فقلت: وله الْبَيَانُ الذى يغض من نَسَق الفريد، ولايخلق نضرة لباسه الجديد، وهو فوق كلام الْمُجِيد ودون القرآن الْمَجِيد، وإذا اختصروا صفته قيل: إنه يستميل سمع الطروب، ويستحق وقار القلوب، ويتمثل آيات بيضاء من غير ضَمٍّ إلى الجيوب، ويرى فى الأرض غير لاغبٍ إذا مَسَّ غَيْرَهُ فترة اللُّغُوب، ولا تزال الناس فى عشق معانيه ضربا واحداً والعاشقون ضروب، ولما وقفت عليه قلت: سبحان من أعطى سيدنا فلم يَبْخَل، وخَصَّه بنُبُوّة البيان إلا أنه لم يُرْسَل، ولولا أن الوحى قد سُدَّ بابه لقيل: هذا كتاب منزل، ولقد خار الله لأولى الفصاحة إذ لم يَحْيَوْا إلى عصره، ولم يُبْتَلُوا فيه بداء الحسد الذى يُصْليهم بتوقُّد جَمْره، ولئن سلموا من ذلك فما سلمت أقوالهم من أقواله التى مَحَتْهَا مَحْوَ المداد، وقد كانت باقيةً بعدهم فلما أتى صارت كما صاروا إلى الأَلْحَاد.

وفى هذا الفصل شىء من المعانى الشعرية كقول البحترى (٢):

مُسْتَمِيلٌ سَمْعَ الطَّرُوبِ الْمُعَنَّى   عَنْ أَغَانِيِّ مَعْبَدٍ وَعَقِيدِ (٣)

---

(١) رواية الحماسة:

قِإِنْ تَسْجُنُوا الْقَسْرِيَّ لاَ تَسْجُنُوا اسْمَهُ   وَلاَ تَسْجُنُوا مَعْرُوفَهُ فِي الْقَبَائِلِ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها محمد بن عبد الملك الزيات، وأولها قوله:

بَعْضَ هٰــــذَا الْعِتَابِ وَالتَّفْنِيدِ   لَيْسَ ذَمُّ الْوَفَاءِ بِالْمَحْمُودِ

(٣) رواية الديوان فى عجز هذا البيت:

* عَنْ أَغَانِي مُخَارِقٍ وَعَقِيدِ *

وانظر الديوان (١ ـ ٢٠٦ مصر).

وقول الشريف الرضى رحمه الله(١) :

عَشِقْتُ وَمَالِي يَعلَمُ اللهُ حَاجَةٌ سِوَى نَظَرِي، وَالْعاشِقُونَ ضُرُوبُ

وفيه أيضاً شيء من معانى القرآن الكريم ، إلا أنها جاءت ضمناً وتبعاً ، وموضعها يأتى بعد الأبيات الشعرية .

وكذلك ذكرت فصلا آخر من هذا الأسلوب، وهو : إن للكلمة طعماً يُعْرَفُ مَذَاقُه من بين الكلام ، وخفَّة الأرواح معلومة من بين ثقل الأجسام ، فلو لم نعرفه بطعمه ، عرفناه بوسمه ، والصباح لا يُتمارى فى إسْفَاره ، ولا يفتقر إلى دليل على إشراق أنواره ، وقد علم أن العرف يعرف بغصنه ، وأن القول يعرف بلَحْنِه ، ونفائس هذه العقود لا يبرزها إلا أنفاسه ، فَدُرَرُها لفظه وسلوكها قِرْطاسه .

ومن هذا الباب قولى أيضاً ، وهو: ألفاظ كخَفْقِ البُنُود ، أو زأر الأسود ، ومعان تدل بإرهافها أنها هى السيوف وأن قلوباً تحتها هى الغمود ، فيخالها المتأمل حَوْمَة طِعَان، أو حَلْبَة رِهان .

و بعض هذا مأخوذ من شعر البحترى(٢) :

يَقْظَانَ يَنْتَخِبُ الكلاَمَ كأنَّهُ جَيْشٌ لَدَيْهِ يُرِيدُ أنْ يَلْقى بِهِ

ومن ذلك ماذكرته فى فصل من كتاب إلى بعض الإخوان من أهل الكتابة

---

(١) من قصيد له فى الغزل ، وأولها قوله :

يَقَرُّ بِعَيْنِي أنْ أرَى لَكِ مَنْزِلاً بِنَعْمَانَ يَزْكُو تُرْبُهُ وَيَطِيبُ

وانظر الديوان (١ - ١٤١) .

(٢) من كلمة له يعاتب فيها إسماعيل بن شهاب ، وأولها قوله :

هَلْ لِلنَّدَى عَدْلٌ فَيَغْدُو مُنْصِفاً مِنْ قَبْلِ إسماعِيلِهِ ابْنِ شِهَابِهْ

انظر الديوان (١ - ٧٢ مصر) .

كان اعتدى عليه شخص يدعى الكتابة وليس من أهلها ، فقلت : وقد نِيطَ بسيدنا قلما الْخَطِّ اللذان ينسب أحدهما إلى المداد وينسب الآخر إلى الصِّعَاد[١] ، فهو يدير هذا فى معركة المقال وهذا فى معركة الطِّرَاد ، ولربما صَهَلَ أحد قلميه من فوق صَفَحَات الدروج ، كما تَصْهَل الجيادُ من تحت أَعْوَاد السُّروج ، فله احتفال المواطن والمجالس ، وإليه غِنَاء أصحاب العمائم والْقَلاَنس ، لا كمن لا يجاوز هَمُّه طرفى ردائه ، وإذا نودى لفضيلة قيل إنما يسمع الحىّ بندائه ، وكم فى الناس من صُوَر لا تجد لمعناها أثرا ، وإذا رأيتها قلت أرى خَالاً ولا أرى مطرا ، وأىُّ جمال عند من ليس له إلا جمال ثيابه ، وهل يَنْفَعُ السيفَ الكَهَامَ أن تُجْعَلَ من الذهب حليةُ قِرَابه ، وكل من هؤلاء ذَنَبٌ يسعى بغير راس ، ولا له هَمٌّ إلا فى عيشة الطاعم الكاس[٢] وإذا اعتبر حاله وجد من البهائم وإن كان منسوبا إلى الناس ، والسيادة ليست فى وَشْى الثياب ، ولا فى طيب الطعام والشراب ، وإنما هى فى شيئين : إما شهامة قلم تَفْرَق لها قلوب الغمود ، أو شهامة رمح تَفَرَّق لها قلوب الأسود ، وكأنى بقوم يسمعون هذا وكلهم يمتعض امتعاض الْمُغْضَب ، وَتَتَابَع نفسه تتابع المتعب ، ويعترض الشَّجَى فى حلقه حتى يَغَصَّ من غير أن يشرب ، ولم يزل بالحساد من سيدنا دَاءٌ يورثهم أَرَقاً ، ويوسعهم شَرَقا ،

(١) الصعاد ـ بكسر الصاد ـ : جمع صعدة ـ بفتح فسكون ـ وهى القناة المستوية التى نبتت كذلك فهى لا تحتاج إلى تثقيف .

(٢) يشير إلى قول الحطيئة :

دَعِ الْمَكَارِمَ لا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِى

ويراد بالطاعم الكاسى الذى يؤتى له بالطعام والكسوة من غير أن يتجشم لهما ؛ فهما بمعنى المطعوم المكسو ، وهذا هو الذى حمل النحاة على أن قالوا : الطاعم الكاسى فى هذا ونحوه بمعنى المنسوب إلى الطعام والكسوة .

وكثيراً ماتَعَرّق له جباههم وكذا الميت يَنْدَى جبينه عرقا ، وما أرى لهؤلاء دواء إلا أن يطرحوا عن منا كبهم ثقل المساجلة ، والحسد إنما يكون ممن يجرى مع صاحبه فى مِضْمَار المماثلة ، وكنت أحبّ أن يقام على الكتابة محتسب حتى يتفلس منها خلق كثير ، وتستريح جياد كثيرة من ركوب حمير ، وفى مثل هذا السوق يظهر أهل الْخَلاَبة والنجش ، وما منهم إلا مَنْ هو فى الحضيض الأسفل وقد أجلس نفسه قائمة العرش ، ونار الآلة العمرية تميز خالص النقود من زَيْفِهَا ، ولا حيف فى هذا المقام على من أسرفت دعواه الكاذبة فى حَتْفها .

و بعض هذا الفصل مأخوذ من شعر عبد السلام بن رَغْبَان عُرِف بديك الجن(١) :

يُزْهَى بِهِ الْقَلَمَانِ إلاَّ أنَّ ذَا ... لَدْنُ الْمَجَسِّ وَأَنَّ ذَا بِكُعُوبِ(٢)

عُودَانِ : يَقْضُبُ ذَا الطُّلَى بِلُعَابِهِ، ... وَيَجُوبُ ذَا الْمُهَجَاتِ بِالتَّرْكِيبِ

ويكفيك أيها المتوشح لنثر الشعر أن تنظر إلى هذا الفصل ، وتتأمل الموضع الذى أخذت معنى هذين البيتين ووضعته فيه ؛ فإن فيه غناء وَمَقْنَعاً .

وأما حَلُّ آيات القرآن العزيز فليس كنثر المعانى الشعرية ؛ لأن ألفاظه ينبغى أن يحافظ عليها ، لمكان فصاحتها ، إلا أنه لاينبغى أن يؤخذ لفظ الآية بجملته ؛ فإن ذلك من باب التضمين ، وإنما يؤخذ بعضه ، فإما أن يجعل أولا لكلام أو آخرا ، على حسب مايقتضيه موضعه ، وكذلك تفعل بالأخبار النبوية .

على أنه قد يؤخذ معنى الآية والخبر فيكسى لفظاً غير لفظه ، وليس لذلك من الحسن ماللقسم الأول ؛ للفائدة التى أشرنا إليها .

---

(١) فى ب ، ج « عبد السلام بن رعبان » بالعين مهملة فى اسم أبيه ، وهو تصحيف ، وانظر ابن خلكان .

(٢) فى ج « لدن المجلس » وهو تصحيف شنيع ، وورد فى ب على وجه الصواب .

وقد سلكت فى ذلك طريقاً اخْتَرَعْتُها ، وكنت أنا ابن عُذْرَتها ، وعند تأمل ماأوردته منها فى هذا الكتاب يظهر للمتأمل صحة دعاوىَّ ، ولئن كان مَنْ تَقَدَّمنى أتى بشىء من ذلك فإنى ركبت فيه جواداً وركب جملا ، ونال من مورده نهلة واحدة ونلت منه نَهَلا وعَلَلا ، ومن آتاه الله فى القرآن بصيرةً فإنه يسبك ألفاظه ومعانيه فى كلامه ، ويستغنى به عن غيره ، إلا أنه ينبغي أن يكون فيه صَوَّاغا يخرج منه ضروب المصوغات ، أو صَرَّافا يَتَجَهْبَذُ فى نقوده المختلفة من الذهب المختلف الألوان ، ولا أقول من الفضة ؛ فإنه ليس فيه من الفضة شىء ، وهو أعلى من ذلك ، أو يكون فيه تاجراً يديره على يده ، ويتصرف فى أرباحه ، ويخرج من الأمتعة المجلوبة من مناسجه كُلَّ غريبة عجيبة ، وكل هذا يفهمه من عرف فلزم ، وحكم بما علم .

وَمَا كُلُّ مَنْ قالَ الْقَرِيضَ بِشَاعِرٍ وَلاَ كُلُّ مَنْ عانَى الْهَوَى بِمُتَيَّمِ

واعلم أن المتصدِّىَ لحل معانى القرآن يحتاج إلى كثرة الدرس؛ فإنه كلما دِيمَ على درسه ظهر من معانيه مالم يظهر من قبل ، وهذا شىء جَرَّبْتُهُ وخَبَرْتُه ؛ فإنى كنت آخذ سورة من السور وأتلوها ، وكلما مر بى معنى أثبتُّه فى ورقة مفردة ، حتى أنتهى إلى آخرها ؛ ثم آخذ فى حل تلك المعانى التى أثبتُّها واحداً بعد واحد ، ولا أقنع بذلك حتى أعاود تلاوة تلك السورة ، وأفعل مثل ما فعلته أولا ، وكلما صقَلْتُها التلاوة مَرَّةً بعد مرة ، ظهر فى كل مرة من المعانى مالم يظهر فى المرة التى قبلها .

وسأورد فى هذا الموضع سورة من السور ، ثم أردفها بآيات أخرى من سُوَرٍ متفرقةٍ ، حتى يتبين لك أيها المتعلم مافعلته فتحْذُوَ حَذْوَه ، وقد بدأت بالسورة أولا ، وهى سورة يوسف عليه السلام ؛ لأنها قصة مفردة برأسها ، وفيها معان كثيرة :

فالأول ما ذكرته فى دعاء كتاب من الكتب ، وهو : وَصَلَ كتابُ

الحضرةِ السامية أحْسَنَ الله أثرها ، وأعْلَى خَطرَها ، وَقضى من العلياء وَطرَها ، وأظهر على يدها آيات المكارم وسُوَرَها ، وأسجد لها كواكبَ السيادة وشمسها وقمرها .

وهذا أول معنى فى السورة ، وقد نقلته عن قصة المنام إلى الدعاء .

ثم أبرزت هذا المعنى فى صورة أخرى ، وهو : أكرَمُ النِّعَمِ ما كان فيها ذكرى للعابدين ، وتقدمه إنى رَأيتُ أحدَ عشرَ كَوْكباً والشمسَ والقمرَ رَأيتهمْ لى ساجدين ، فهذه النعمة هى التى تأتى بتيسير العسير ، وتجلو ظُلْمَةَ الْخطْب بالصباح المنير ؛ فانظر إلى أثَر رَحمة الله كيفَ يحيي الأرْض بعدَ مَوْتها ، إنَّ ذلكَ لمحيي الموْتى وهوَ على كلِّ شيء قدير .

ثم تصرّفت فى هذا المعنى فأخرجته فى معرض آخر ، وهو فصل من جملة تقليد يكتب من ديوان الخلافة لبعض الوزراء ، فقلت : وقد علمه أمير المؤمنين فأدنى مجلسه من سمائه ، وآنسه على وحدة الانفراد بحفل نعمائه ، ورفعه حتى وَدَّت الشمس لو كانت من أترابه والقمر لو كان من ندمائه ، وذلك مقام لا تستطيع الجُدُود أن ترقى إلى رتبته ، ولا الآمال أن تطوف حول كعبته ، ولا الشفاه أن تتشرف بتقبيل تربته ، فليزد إعجاباً بما نالته مواطئُ أقدامه ، ولينظر إلى سجود الكواكب له فى يقظته لا فى منامه .

ومن ذلك ما ذكرته فى ذم بخيل ، وهو : لم أرَ كَوَاهب فلان مَلأَتْ أمَلِي بطمع وعودها ، وفرغت يدى من نيل جودها ، فلم أحظ إلا بلامع سرابها ، وكانت كدم القميص فى كذابها .

ومن ذلك ما ذكرته فى تزكية إنسان مما رمى به ، وهو : لم تُرْمَ بذنب إلا نابت البراءة له مناب الشهود ، وجيء من أهلها بشهادة القميص المقدود .

ومن ذلك ما ذكرته فى عذر الهوى ، وهو : لم يَهْوَ حبيباً إلا كان لأهل

التقى فيه أسوة ، ولا ليم من أجله إلا اعتذر عذر امرأة العزيز إلى النسوة .

ومن ذلك ما ذكرته فى فصل من جواب كتاب إلى بعض الإخوان ، وهو : إن كان الكلام كما قيل ذَكَراً والجواب أنثى فجوابى هذا عروس تجلى فى حُلَلها المحَبَّرَة ، وعقودها المشذرة ، وتُزْهى بما آتاها الله من الحسن الذى ليس بالمجلوب ، ولا ترضى بتقطيع الأيدى دون تقطيع القلوب ، وها قد أرسلتها إلى سيدنا حتى يعلم أن نتائج خاطرى على الفطرة ، وأنها معشوقة الصور فكل الناس فى هواها بنو عُذْرَة .

وفى هذا الفصل معنى الآية والخبر النبوى والبيت من الشعر .

ومن ذلك ما ذكرت فى تقلب الأيام ، وهو : لقينا أياما ضاحكات ، وليتها أيام عابسات ، فكانت كَسَبْعِ سُنْبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ .

ومن ذلك ما ذكرته فى وصف كريم ، وهو : ليس ممن يرقب عَجَفَ الزمان فَيَذَر الحب فى سُنْبُله ، ولكنه يستأنف الصبر فى آخره ويستهلك المال فى أوله ، فلا يبقى من يومه لغده ، ولا يَتَّهِمُ ربه فيما بِيَدِه .

ومن ذلك ما ذكرته فى حب الرشوة ، وهو : الرِّشْوَة تحلّ عُقَدَ القلوب ، وتهوّن فراق المحبوب ، ألا ترى أن ردّ البضاعة، حكم على أخى يوسف بالإضاعة .

ومن ذلك ما ذكرته فى الاستسلام لحكم الأقدار ، وهو : لا تحترس من جنود الأقدار بالآراء المتعمقة ، وسواء عندها البابُ الواحدُ والأبواب المتفرقة .

ومن ذلك ما ذكرته فى تتابع الإساءة ، وهو : لم يزل يَرْشُقُنِى بقَوَارصه حتى تكاثر النَّبْل واستحكم التَّبْل ، ولم يكفه الإلقاء فى غَيَابة الجبّ حتى قال : إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ .

ومن ذلك ما ذكرته فى التوكل ، وهو : إذا طلب أمراً أجمل فى المطلوب ، ووكَلَه إلى الذى بيده مفاتيح الغيوب ، وتأسى فى حاجته منه بالحاجة التى كانت فى نفس يعقوب .

ومن ذلك ماذكرته فى وصف الكيد ، وهو : لم يَأْتِ أمراً إلا أخفى أسباب أَوَاخِيه ، وبدأ فيه بالأوعية قبل وِعاء أخيه .

وهذه ثلاثة عشر معنى من سورة يوسف عليه السلام .

وأما الآيات التى هى من سور متفرقة فأولها ما كتبته فى صدر كتاب إلى بعض الإخوان جوابا عن كتابه ، وهو : وَرَدَ كتابُهُ عشيةَ يوم كذا فَعَرِض على عَرْضَ الجياد على سليمان ، وتساوينا فى الاشتغال منه ومنها بالاستحسان ، غير أن الجياد وإن حسنت فإنها لاتبلغ فى الحسن مبلغ الكتاب ، لكن قلت كما قال إِنِّى أَحبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى حتَّى تَوَارتْ بالْحِجَابِ ، ولئن قضى الاشتغال هناك بمسح سُوقٍ وأعناق ، فإنه لم يقض هٰهنا بمسح سطور ولا أوراق ، وإنما اشتغلت عن عبادة بعبادة ، ولو شئت لقلت عن إفادة بإفادة .

وهذا مأخوذ من قصة سليمان عليه السلام فى سورة صۤ ، وهى قوله تعالى : (وَوَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الجِيَادُ فَقَالَ إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ رُدُّوها عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ) ، فانظر كيف أخذت هذه القصة وقابلت بينها وبين الكتاب ، ثم إنى تصرفت فيها بالموافقة بينهما تارة والمخالفة بينهما أخرى ، وهكذا ينبغى أن يفعل فيما هذا سبيله .

ومن ذلك ما كتبته عن الملك الأفضل على بن يوسف إلى الديوان العزيز النبوى ببغداد فى فصل من كتاب ، وهو: وقد علم أن المال الذى يُخْتَزَن ، كالماء الذى يُحْتَقَن ، فكما أن هذا يَأْجُنُ بتعطيل الأيدى عن امتياح مشار به ، فكذلك يأجُنُ هذا بتعطيل الأيدى عن امتياح مواهبه ، وأىُّ فرقٍ بين وجوده وعدمه لولا أن تُمْلَكَ به القلوب ، وتقلَّ به الخطوب ، ويُرْكَبَ به ظهرُ العزم الذى ليس برَكُوب ، ومَنْ بَسَط الله يده فيه ثم قبضها بحله فإنه يقف دون

الرجال مغموراً ، ويقعد عن نيل المعالى مَلُوماً مَحْسُورا ، وإذا أدركته منية مضى وكأنه لم يكن شيئاً مذكورا ، ومذ ناط الله بيد الخادم ما ناطه من أمر بلاده لم يدخر منها إلا مَرْبِط أشقره ، ومركز أسمره ، وما عداهما فإنه مصروف إلى قوة الإسلام فى سد ثُغُوره وتكثير جنوده ، وإيقاد حرب عدوه بعد خمودها واستباحة جمرها عند وقوده ، وما يَفْضُل عن ذلك فإنه للناس يشتركون فى وَشَلَه وغَمْرِه ، والمُسْلم أخو المسلم يساويه فى حقه من بيت المال وإن خَالَفَهُ فى مزية قَدْرِه ، ولا سبيل على الخادم وهو يفعل ما يفعله أن يُدلس من هذا المال بتبعة المطلوب ، أو يلتحق بالقوم الذين يكنزونه فيجزى عليه بكىّ الجباه والظهور والجنوب ، ولم يأت به الله على فَتْرَة من مثله إلا ليمحو به سيئات الدين ويعيد به الإسلام إلى وطنه بعد أن طال عهده بمفارقة الوطن ، ولا يكون حسنة من حسنات أمير المؤمنين ، ترقمها الدنيا فى ديوانه ، وتثقل بها فى الآخرة كِفة ميزانه .

وفى هذا الفصل معنى آيتين : إحداهما فى سورة هل أتى ، والأخرى فى سورة براءة .

ومن ذلك ما كتبته عنه إلى عمه الملك العادل أبى بكر بن أيوب من كتاب يتضمن استعطافه والتنصُّل إليه ، وهو : من شيمة الأقدار أن تذهب ببصائر ذوى الألباب ، ويمثل لهم الخطأ فى مثال الصواب ، ولولا ذلك لَمَا زَلَّ الحكيم واعْوَجَّ المستقيم ، والمملوك يُقَبِّلُ اليد الكريمة المولوية الملكية العادلية لازال عُرْفُها مأمولا ، وَإِحسانها عند الله مقبولا ، وفعلها فى المكرمات مبتدعا إذا كان فِعْل الأيادى مفعولا ، ونستغيث إلى عفوها الذى يكفى فيه لِفظة الاعتذار ، ولا يَنْفَدُ بمواظبة الآصار ، ولو عرف ذنبه باديًا لَقَرَعَ له سن الندامة ، وعاد على نفسه

بالملامة . ولما كان عجيباً أن يكون مُليماً ، وأن يكون مولانا كريما ، لكنه حمل آصرة الذنب وهو برىء من حملها ، وخاف أن تكون هذه كأخواتها التى سلفت من قبلها ، والأمور المتشابهة يُقَاس البعض منها على البعض ، والملسوع لايستطيع أن يرى مَجَرّ حَبْلٍ على الأرض ، ولم يجترم الملوك الآن جريمةً سوى أن فر إلى الاعتصام ، وألقى بيده إلى أقوام لم يكونوا له بأقوام ، وإذا ضاق على المرء أقربه كان الأبعد له من ذوى الأرحام .

وليس بأوّل مَنْ ذهب هذا المذهب ، ولا بأول من حمل نفسه على ركوب هذا المركب ، ولئن قال بعض الناس إنه تَعَجَّل فى اعتصامه وفراره ، وإنه لو صبر لحمد مَغَبَّة اصطباره ، فهذا قول من لم يعرف حال الملوك فيقيم له عذرا ، ولا ابْتُلِى بما ابتلى به من قوارص مولانا مرة بعد أخرى ، ولقد تكاثرت عليه هذه الأقوال المؤنبة حتى ملأت طرفه كحل السُّهاد ، وجنبه شَوْكَ الْقَتَاد ، وأصبح وهو يرى أنه زلق فى خطيئته زلقا ، وغص بندمه من أجلها شَرَقا ، وبدت له سوأته حتى طفق يخصف عليها ورقا ، ومع هذا فإنه واثق أن حِلْمَ مولانا لايؤتى من الزلل ، وأن حَصَاة الذنوب لاتخف بوزن ذلك الجبل ، وها هو قد جاء نازعا للنازع الْمُنْتَبَى ، وعاد مستشفعاً ولا شفيع أكرم من القربى .

ثم مضيت على هذا النهج إلى آخر الكتاب .

وفى الذى أوردته من هذا الفصل معنى آية من القرآن فى سورة الأعراف ، وهى قوله تعالى : (فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ) .

ومن ذلك ما كتبته عن الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان بن مسعود صاحب الموصل إلى الديوان العزيز ببغداد بعد وفاة والده يسأل فى التقليد ، وكان عمره إذ ذاك ستَّ عَشْرَةَ سَنَةً ؛ فما جاء فى صدر الكتاب بعد الدعاء قولى ،

وهو : إذَا تُوفِّيَ وليٌّ من أولياء الدولة فمن السُّنَّة أن يعزى بفقده ، ويستخرج إذنها فى سليله القائم منْ بعده ، حتى لاتخلو أرضها من رواسى الجبال ، ولا سماؤها من مطالع الكواكب التى تجلو ظلمة الليال ، وقد مضى والد العبد إلى رحمة الله وهو متزود من الطاعة خير زاد ، غير خائف من إحصاء الرقيب العتيد إذ جعلها له من الْعَتَاد ، وما عليه وقد ثَقُلَتْ كِفَّةُ مِيزانه ما كان فى الكفة الأخرى من السجلات الكثيرة الأعداد ، ومضمون وصيته التى عهدتها أن نمشى فى الطاعة على أثَرِه ، ونهتدى بالأوامر الشريفة فى مَوْرِد الأمر ومَصْدَره ، وقد جعلها العبد نَجِيَّ فكره إذا قام وإذا قعد ، وسُبْحَة صلاته إذا ركع وإذا سجد ، وهو يرى أنه لم يَمْضِ والده حتى أبقى للدولة من يثبت قدمه موضع قَدَمِه ، وعند ذلك يقال : إن غُصْنَ الشجرة كالشجرة فى ثبات أصله وقوة مَعْجَمِه ، وهذا مقام لاتمتاز فيه الآباء عن الأبناء ، وليست المزية لاكْتِهَالِ السن إنما هى لشبيبة الغناء ، وقد أُوتى يَحْيَي الحكم قبل أن يجرى القلم فى كتابه ، وشهد له بالتزكية قبل أن ينتصب فى مِحْرَابه ، وكذلك قد أمَّرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أُسَامة على فَتَاء عُمْرِه ، وشهد أنه خليق بما أُسْنِدَ إليه من أمره ، والعبد وإن بسط الاستحقاقُ لسانَه فإن الأدب يَحْكم بانقباضه ، ويريه أن التفويض إلى إنعام الديوان العزيز أسرع فى نُجْح أغراضه ، ولا شك أن منتهى الآمال لايبلغ أدنى تلك المواهب ، ولو جمعت فى صعيدٍ واحد ثم سألت مطالبها لما نقصت خزائن العطايا من تلك المطالب .

وهذا الفصل من أول الكتاب ، وفيه معنى آيتين من سورة مريم عليها السلام : أما الأولى فقوله تعالى عند ذكر يحيي عليه السلام : (وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا) وأما الثانية فقوله تعالى : (وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا) وفى هذا الفصل أيضاً معانى ثلاثة من الأخبار النبوية ، وليس هذا موضعها ، وإنما جاءت ضمناً وتبعا .

ومن ذلك ماذكرته فى وصف الغبار فى الحرب ، وهو : وعَقَدَ العجاج شفقا فانعقد ، وأرانا كيف رَفْعُ السماء بغير عَمَد ، غير أنها سماء بُنِيَتْ بسنابك الجياد ، وزُيِّنَتْ بنجوم الصِّعاد ، ففيها مايوعد من المنايا لا مايوعد من الأرزاق ، ومنها تقذف شياطين الحرب لاشياطين الاستراق .

وهذه المعانى مأخوذة من سورة الرعد ، وسورة الصافات ، وسورة الذاريات .

ومن ذلك ماذكرته فى وصف طعام ، وهو فصل من كتاب ، فقلت : طعام لا يُمَلّ إذا شيئت الأطعمة بِمَلالها ، وكأنما تَوَلّته يد الخلقة ولم تباشره الأيدى بعملها ، فهو من بقايا المائدة التى نزلت من السماء ، وقد طاب حتى لا يُحْتاج من بعده إلى استعمال الماء ، وما رآه ذو شِبَعٍ إلا رأى تَرْكَه غَبْنا ، وودّ لو زيد إلى بطنه بطنا .

وبعض هذا مأخوذ من سورة المائدة .

ومن ذلك ماذكرته فى فصل من كتاب إلى ديوان الخلافة ، وهو : قد تكاثرت وَسائل الخادم حتى لايدرى ما يجعله لطلابه سفيرا ، وما منها إلا مايقال: إنه أول وليس فيها مايجعل أخيراً ، غير أنه لا يذكر منها إلا ماهو تَوْأم إيمانه ، والذى لاينظر الله من ابن آدم إلا إلى مكانه ، وفى ذلك كاف عن الوسائل التليدة والطريفة ، وقول لاإله إلاّ الله لايعدله شىء من الحسنات المودعة فى الصحيفة ، وقد تجدّد الآن للخادم مطلب هو بالنسبة إلى مواهب الديوان العزيز يسير ، ولو قامت مَطَالبُ الناس فى صعيد واحد لأعطى كلا منها مَرَامه ولم يقل ذلك كثير ، وكتابه هذا سائر إلى تلك المواهب التى يضيق عنها صدر الأرض باتساعه ، وليس الذى يسأله مُمتنَعاً فيُحَال على النظر إلى الجبل فى امتناعه ، وكما أن عبيد الديوان العزيز أطوار فكذلك مطالبهم أطوار ، وقد جعل الله الأشياء متفاوتةً فى مراتبها وكلُّ شىء عنده بمقدار .

وهذا الفصل من أحسن مايكتب فى استنجاز مطلوب ، وفيه معانى ثلاثة أخبار نبوية ، ومعنى آيتين من القرآن الكريم ، وليس هذا موضع الأخبار ، وإنما جاء ضمناً وتبعا ؛ فالآية الأولى فى سورة الأعراف ، والآية الثانية فى سورة الرعد .

ومن ذلك ماذكرته فى وصف كاتب ، وهو : إذا دَجَا ليلُ قلمه ، وطَلَعَتْ فيه نجوم كَلِمِهِ ، لم يقعد له شيطان بلاغة مَقْعَدَا ، إلا وَجَدَ له شهابا مُرْصَداً ، فأسرارها مَصُونة عن كل خاطف ، مَطْوِيَّة عن كل قائف .

وهذا المعنى مأخوذ من سورة الجن .

ومن ذلك ماذكرته فى وصف كاتب أيضاً ، فقلت : له بنت فِكْرٍ ما تَمَخَّضَتْ بمعنى إلا أنتجته من غير ماتهمله ، وأتت به قومها تَحْمِله ، ولم يعرض على مَلَإٍ من البلغاء إلا ألْقَوْا أقلامهم أيُّهُم يَسْتعيره لاأيهم يَكْفُله .

وفى هذين السطرين آيتان من القرآن الكريم : الأولى فى سورة مريم ، وقصتها وقصة ولدها عليهما السلام ، وهى قوله تعالى : (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ) والثانية فى سورة آل عمران فى قوله : (إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ).

ومن ذلك ماذكرته فى فصل من كتاب يتضمن وصف القلم ، فقلت : وقد أوحى الله تعالى إلى قلمه ماأوحاه إلى النحل ، غير أنها تأوى إلى المكان الْوَعْر وهو يأوى إلى البيان السَّهْل ، ومن شأنه أن يجتنى من ثمراتٍ ذاتِ أرواح لاذات أكمام ، ويَخْرُجَ من نَفَثَاته شرابٌ مختلفٌ طعمه فيه شفاء للأفهام ، وأين ماتنبته كثافة الخشب مما تنبته لطافة المعنى ، ولا تَسْتَوى نَضَارة هذا الثمر وهذا الثمر ولا طيب هذا الجنى وهذا الجنى ، وقد أرخص الله ما يكثر وجوده فيذهب فى لهوات الأفواه ، وأغلى ما يعز وجوده فيبقى خالداً على ألسنة الرّواه ، وكل هذه الأوصاف لا تصح إلا فى قلم سيدنا الذى إذا خلا بخاطره امتلأت

بحديثه المحافل ، وإذا حلا كتابُهُ وُجِدَت الكتب الخالية من قبله وهى عَوَاطل ، فله حينئذ أن ينظر إلى غيره بعين الاحتقار ، ولو اصفه أن يسهب وهو قائم مقام الاختصار .

هذا الفصل غريب عجيب ، وقد جمع بين الأضداد ، فمناله بعيد ، وفهمه قريب ، وهو مأخوذ من سورة النحل .

ومن ذلك ما ذكرته فى ذم بخيل ، وهو : له شِيمَةٌ فى الجود لا يُشَام نائلها ، وإذا هَزَّها سائلها قال : إنها كلمة هو قائلها .

وهذا مأخوذ من سورة المؤمنين .

ومن ذلك ما ذكرته فى صدر كتاب ، وهو : وَصَل كتابه فوقف منه على اللفظ الرخيم ، والمعنى الذى هو فى كل وادٍ يَهِيم ، وقال : يا أَيُّها المَلَأُ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ، ثم أخذ فى إعلاء قدره ، وتَنْوِيه ذكره ، ولم يستفت الملأ فى الإذعان لأمره ، ولا أهدى فى قبالته سوى هدية لسانه وصدره ، لا جَرَم أنها تقبل ولا ترد ، ويعتد بها ولا تعدّ ، فإنها مال لا يُنْفِده الإنفاق ، وجوهر تتحلَّى به الأخلاق لا الأعناق

وهذا مأخوذ من قصة سليمان عليه السلام فى كتابه إلى بَلْقِيس ، وهى مذكورة فى سورة النمل ، وفى هذا من شرف الصنعة أنه خولف بين معانيه ومعانى ما أتى به القرآن الكريم .

ومن ذلك ما ذكرته فى صدر كتاب يتضمن ذكر معركة حرب بين المسلمين والكفار ، وهو : إذا خطب القلم عن الرمح الذى هو نَدِيدُه قام محتفلا ، وأَسْهَبَ مُتَرَوِّياً ومرتجلا ، حتى يأتى فى خطابته بالمعانى الأخائر ، وأصدق القول ما صدر عن شهادة الضرائر للضرائر ، وكتابنا هذا يصف معركةً احْمَرَّت ضبابتها ، وضاقت بالأسود غابتها ، فالطعن بها محتضر ، والموت محتقر ، والنصر

من كلا الفريقين مقتسر ، وكان الإسلام هناك زجر السنيح ، وفوز القِدْح المَنِيح ، وليس الذى يرقب المعونة من الله الذى هو رب المسيح كمن يرقبها من المسيح ، ولقد نفذت الرماح فى أعداء الله تعالى حتى اعتدلت من جانبى الصدور والظهور ، وتركت الناجى منهم وهو لا ينظر إلى الصليب إلا نَظَر الخائف المذعور ، فليس لهم من بعدها جيش يجمع ، ولا لواء يرفع ، وقد كانت بلادهم من قبل مانعة وهى الآن لا تذب عنها ولا تمنع ، وهذه معركة قَلّت بها الرقاب المأسورة ، وكثرت النفوس المقتولة ، وقربت بها القرابين التى تأكلها النار لا لأنها مقبولة .

ومعنى الآية فى هذا الفصل مأخوذ من سورة آل عمران ، إلا أنها تخالفه ، وذاك أن القُرْبان كان يقبل فتنزل النار تأكله وأجساد هؤلاء الكفار قربان تأكله النار لكنها لا تأكله لأنه مقبول ، وباقى الفصل يتضمن معنى حسناً رقيقاً .

ومن ذلك ما ذكرته فى فصل من كتاب يتضمن الشكوى من خُلُق بعض الإخوان ، وهو : ولَقَدْ صبرت على أخلاقه العائثة ، وعاملته بالخليقة الرائثة ، وعالجته بضروب المعالجات فلم تنفع فيه رُقى الراقية ولا نَفْثُ النافثة ، ولما أعيا علىّ إصلاحه أخذت بمقالة الخضر لموسى فى المرة الثالثة .

وهذا مأخوذ من قصة موسى عليه السلام وقصة الخضر فى سورة الكهف .

ومن ذلك ما ذكرته فى فصل من كتاب ، وهو : تجمعوا فى نار الندم يُعْرَضُون عَليها غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وصار الأمر الذى كانوا يرجونه مَخْشِيًّا ، وَأَضْحَوْا كأهل النار الذين صاروا أعداء وكانوا شيعاً ، وقال ضعفاؤهم للذين استكبروا : إنّا كنا لكم تَبَعا .

وهذا مأخوذ من سورة حم المؤمن ، ومن سورة سبأ .

ومن ذلك ما ذكرته فى ذم غلام أَبْلَه كنت أقاسى من بَلَهه نَكَدًا فكتبت

يوماً من الأيام إلى بعض إخوانى كتاباً وعرضت فيه بذكره ، فقلت : ولقد ملكه النسيان حتى كأنه يَقِظٌ فى صورة نائم ، وحتى حَقَّق قول التناسخ فى نقل أرواح الأناسىّ إلى البهائم ، فما أُرْسِل فى حاجة إلا ذهبت عن قلبه يَمْنَةً ويَسْرَة ، ولا طلب منه ما استحفظه إلا قال : أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ .

وهذا فصل يشتمل على عدة معان ؛ منها ما هو مأخوذ من القرآن الكريم من سورة الكهف .

ومن ذلك ما ذكرته فى تقليد قاض ، وهو فصل منه ، فقلت : والفضائلُ مابَقِيتَ موجودةٌ ولم تفقد ، وهى حية وإن أوْدَى أربابها ، ولا يموت من لم يولد ، ومِنْ أكرم ما أُوتِيه منها فضيلةُ التقوى التى الكرم من شعارها ، والعاقبةوالحسنى كلاهما من آثارها ، وما نقول إلا أنه اتخذها حارساً يمنع الخصم من تَسَوُّر محرابه ، ويؤمن قلبه من الفتنة الداعية إلى استغفاره ومَتَابه ، وقد قَرَن الله له هذه الفضيلة بالعلم الذى أعلمه بعلامته ، وَوَسَمَه بوسامته ، وقذف فى روعه ما لا يسأل معه عن السفينة وخرقها والغلام وقتله والجدار وإقامته ، وعلى ما بلغه منه فإنه فيه أحد المَنْهُومَيْن اللَّذين لا يشبعان ، وإذا كان لغيره فيه نظر واحد ومَسْمَع فله فيه نظران ومَسْمَعان .

وفى هذا الفصل المختصر معانى عدة آيات ، وخبر من الأخبار النبوية ؛ أما الآية الأولى فقوله تعالى : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) وأما الآية الثانية فقوله تعالى : (وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى) وأما الثالثة فقوله تعالى: (وَهَلْ أَتَاكَ نَبأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَاب) وأما الآية الرابعة فقوله تعالى : (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِى السَّفِينَةِ خَرَقَهَا) وكذلك إلى آخر القصة ، وهذا من أحسن ما يأتى فى هذا الباب .

ومن ذلك ما ذكرته فى جملة كتاب يتضمن عناية ببعض الفقراء ، فقلت

بعد الابتداء بصدر الكتاب : وقد علم منه أنه يعد لطالب فضله فضلا ، ويرى التبرّع بمعروفه فرضاً إذا رآه غيره مع المُساءلة نفلا ، وما ذاك إلا لمزية خلق توجد بطيب التربة ، وشرف الرتبة ، وأوتى من كنوز الكرم مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ ، ولهذا خرج على قومه من الأخلاق فى زينته ، وفَضَلَ الخلْقَ بطينة غير طينته ، ومن فضله أنه يسأل عن السائلين ، ويحتال فى استنباط أمل الآملين

ثم مضيت على هذا النهج حتى أنهيت الكتاب .

والغرضُ أن تعلم أيها المتعلم كيف تَضَعُ يدك فى أخذ ماتأخذه من بعض الآية ، ثم تضيف إليه كلاما من عندك ، وتجعله مسجوعا كما قد فعلت أنا فى هذا الموضع ، ألا ترى أنى أخذت بعض هذه الآية فى قصة من سورة الْقَصَص ، وهى قوله تعالى : (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) فهذه الآية أخذت بعضها وأضفت إليه كلاما من عندى حتى جاء كما تراه مسجوعا ، وكذلك فعلت بالآية الأخرى من هذه السورة أيضاً ، وهى قوله : (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) وهكذا ينبغى لك إذا أردت أن تسلك هذه الطريق ، وَقَدَرت على سلوكها ، وهى من محاسن الصناعة البلاغية ، وليس فوقها من الكلام ماهو أعلى درجة منها ؛ لأنها ممزوجة بالقرآن لا على وجه التضمين بل على وجه الانتظام به ، والله يختص بها من يشاء من عباده .

وفيما ذكرته من نثر هذه الآيات كفاية للمتعلم .

وأما الأخبار النبوية فكالقرآن العزيز فى حل معانيها .

فإن قلت: إن الأخبار النبوية لايجرى فيها الأمر مَجْرَى القرآن ؛ إذ القرآن له حاصِرٌ وضابط ، وكل آياته تدخل فى الاستعمال ، كما قال بعضهم : لَوْ ضَاعَ منى

عِقَال لوجدته فى القرآن الكريم ، وأما الأخبار فليست كذلك ؛ لأنها كثيرة لاتنحصر ، ولو انحصرت لكان منها مايدخل فى الاستعمال ومنها مالا يدخل ، ولا بد من بيان يمكن الإحاطة به ، والوقوف عنده .

قلت فى الجواب عن هـذا : إنك أول ماتحفظه من الأخبار هو كتاب الشهاب ؛ فإنه كتاب مختصر، وجميعُ مافيه يستعمل ؛ لأنه يتضمن حكما وآدابا ؛ فإذا حفظته وتَدَرَّبْتَ باستعماله كما أرَيْتُكَ ههنا حصل عندك قوة على التصرف والمعرفة بما يدخل فى الاستعمال ومالا يدخله ، وعند ذلك تتصفح كتاب صحيح البخارى ومسلم والموطأ والترمذى وسنن أبى داود وسنن النسأئى وغيرها من كتب الحديث ، وتأخذ ما يُحْتَاج إليه ، وَأَهْلُ مكة أَخْبَر بشعابها ، والذى تأخذه إن أمكنك حِفْظه والدرس عليه فهو المراد ؛ لأن مالا تحفظه فلست منه على ثقة ، وإن كان لك محفوظات كثيرة كالقرآن الكريم ودواوين كثيرة من الشعر وما ورد من الأمثال السائرة وغير ذلك مما أشرنا إليه فعليك بمداومة المطالعة للأخبار والإكثار من استعمالها فى كلامك حتى تُرْقَم على خاطرك ، فتكون إذا احتجت منها إلى شىء وجدته ، وسَهُل عليك أن تأتى به ارتجالا ، فتأمَّلْ ماأوردته عليك وأعْمَلْ به .

وكنت جردت من الأخبار النبوية كتاباً يشتمل على ثلاثة آلاف خبر كلها تدخل فى الاستعمال ، وما زلت أواظب [على] مطالعته مدة تزيد على عشر سنين فكنت أُنْهِى مطالعته فى كل أسبوع مرة ، حتى دار على ناظرى وخاطرى مايزيد على خمسمائة مرة ، وصار محفوظا لايشذ عنى منه شىء ، وهذا الذى أوردته ههنا فى حل معانى الأخبار هو من هناك .

وسأذكر ما دار بينى وبين بعض علماء الأدب فى هذا الأسلوب الذى أنا بِصَدَدِه ههنا ، وذاك أنه اسْتَوْعَرَه وأنكره ، وقال : هذا لايتهيأ إلا فى الشىء

اليسير من الأخبار النبوية ، فقلت : لا ، بل يتهيأ في الأكثر منها ؛ فقال : قد ورد عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه اختصم إليه في جَنِين فَقَضَى على من أسقطه بغُرَّةٍ عَبْدٍ أو أَمَةٍ ، فأين يُسْتَعْمَل هذا ؟ فأفكرت فيما ذكره ، ثم أنشأت هذا الفصل من الكلام ، وأودعته فيه : قد كثر الجهل حتى لا يقال فلان عالم وفلان جاهل ، وضرب المثل بباقل وكم في هذه الصورة الممثلة من باقل ، ولو عرف كل إنسان قَدْرَه لما مشى بدن إلا تحت رأسه ولا انتصب رأس إلا على بَدَنه ، ولكان صاحب العمامة [أحَقَّ] بعمامته وصاحب الرَّسَن أحقَّ بِرَسَنِه ، وكنت سمعت بكاتب من الكتاب كَلِمُهُ إلى غَثَاثة ، وقَلَمُهُ بَغَاثَة لا يَسْتَنْسِرُ[1] وأيُّ بطش لبَغاثة ، وإذا وجب الوضوء على غيره بالخارج من السبيلين وجب عليه من سُبُل ثلاثة ، هذا وهو يدعى أنه في الفصاحة أُمَّة وحْدَه[2] ، ومَنْ قُسُّ إيَادٍ وسَحْبَانُ وائل عنده ؟ وإذا كُشِف عن خاطره وُجِد بليداً لا يخرج عن العمه والكمه ، وإن رام أن يستنتجه في حين من الأحيان قضى عليه بغرةٍ عبدٍ أو أَمَه ، وكثيراً ما يتقدم ونقيصته هذه على الأفاضل من العلماء ، وقد صار الناس إلى زمان يعلو فيه حضيضُ الأرض على هام السماء .

فلما أوردته عليه ظهرت أمارة الحسد على صفحات وجهه وفَلَتَاتِ لسانه ، مع إعجابه به ، واستغرابه إياه ، ثم قال : وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) يشير إلى المثل « إنَّ الْبَغَاث بأرْضِنَا تَسْتَنْسِرُ » والبغاث ـ بتثليث الباء ـ من أجبن الطير وفيه يقول الشاعر :

بُغَاثُ الطَّيْرِ أكْثَرُهَا فِرَاخاً ... وَأمُّ الصَّقْرِ مِقْلَاةٌ نَزُورُ

(٢) في ج « أمة واحدة » وهو تحريف صيره غير ملائم للقرينة الثانية في السجعة ، وقد جاء في ب على الصواب الذى أثبتناه .

هذا الحديث ، وهو « لَاتَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ صُورَةٌ وَلا تِمْثَال » فهذا أين يستعمل من المكاتبات ؟

فتَرَوَّيْتُ فى قوله تروِّيًا يسيراً ، ثم قال : هــذا يستعمل فى كتاب إلى ديوان الخلافة ، وأمليت عليه الكتاب ، فجاء هذا الحديث فى فصل منه ، وهو : إذا أفاض الخادمُ فى وصف ولائه نَكَصَتْ همُ الأولياء عن مقامه ، وعلموا أنه أخذ الأمر بزمامه ، فقد أصبح وليس بقلبه سوى الولاء والإيمان ؛ فهـذا يظهر أثره فى طاعة السر وهذا فى طاعة الإعلان ، وما عداهما فإن دخوله إلى قلبه من الأشياء المحظورة ، والملائكة لاتدخل بيتاً فيه تمثال ولا صورة ، فليعول الديوان العزيز على سَيْفٍ من سيوف الله يَفْرِى بلا ضارب ويسرى بلا حامل ، ولا يُسَلُّ إلا بيد حق ولا يغمد إلا فى ظهر باطل ، وليعلم أنه كَرِشُه وعَيْبَته فى تضمن الأسرار ، وأنه أحد سَعْدَيه إذا عدت مواقف الأنصار .

فلما رأى هذا الفصل بُهِتَ له ، وأعجب منه ، ثم إنى لم أقنع بإيراد ذلك الحديث حتى قرنت به حديثاً آخر ، وهو قول النبى صلى الله عليه وسلم: «الْأَنْصَارُ كَرِشِي وعَيْبَتِي » .

وحيث عرفتك أيها المتعلم ماتقتدى به فى هذا الموضع فقد ذكرت لك أمثلة كثيرة تتدرب بها .

فمن ذلك ماذكرته فى دعاء كتاب من الكتب ، وهو : أعاذ الله أيامه من الغِيَرِ ، وبَيَّنَ بِخَطَر مجده نقضَ كل خَطَر ، وجعل ذكره زاداً لكل ركب وأنساً لكل سمر ، ومنحه من فضله مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وهذا المعنى مأخوذ من الحديث فى وصف نعيم الجنة فنقلته إلى الدعاء .

ومن ذلك ماذكرته فى وصف الحلم ، وهو : تركته حتى جال فى المَيْدَان ،

وامتد فى الأشْطَان ، ولم أنتصر خَوْفا من قيام الملك وقعود الشيطان ، والحليم لايظهر أثر حلمه إلا عند تَلَدُّده ، والكظيم هو أشد مايخاف من تبدده .

وهذا المعنى أخذته من قصة أبى بكر رضى الله عنه فى خصامه ، فإنه بغى عليه ثلاث مرات وهو ساكت ، ففى الثالثة انتصر ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « كانَ المَلَكُ جالِساً إلى جانِبِ أَبِى بَكْرٍ يُكْذِبُ خَصْمَهُ بِمَا يَقُولُ فَلَما انْتَصَرَ قامَ المَلَكُ وَقَعَدَ الشَّيْطَانُ » .

ومن ذلك ماذكرته فى النصرة على العدو فى موطن القتال ، وهو : أخذنا بسُنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النصر الذى نرجوه ، ونبذنا فى وجه العدو كَفًّا من التراب وقلنا: شاهَت الوُجُوه ، فَثَبَّتَ الله ماتَزَلْزَلَ من أقدامنا، وأقْدَمَ حَيْزُومُ فأغنى عن إقدامنا .

وهذان المعنيان أحدهما مأخوذ من حديث غزوة حُنَيْن ، وما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أخذ قبضة من التراب وألقاها فى وجوه الكفار وقوله : «شاهَتِ الوُجُوه» ؛ والمعنى الآخر مأخوذ من حديث غزوة بدر ، وذاك أن رجلا من المسلمين لاقى رجلا من الكفار وأراد أن يضربه فخر على الأرض ميتاً قبل أن يَصِل إليه ، وسمع الرجل المسلم صوتا من فوقه ، وهو يقول : « أقْدِمْ حَيْزُومُ » فجاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأخبره ، فقال : « ذَاكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ » .

ومن ذلك ماذكرته فى ضيق مجال الحرب ، وهو : وَضَاقَ الضربُ بين الفريقين حتى اتصلت مواقع البيض الذكور ، وتصافحت الفور بالفور والصدور بالصدور ، واستظل حينئذ بالسيوف لاشتباك مجالها ، وتُبُوِّئَتْ مقاعدُ الجنة التى هى تحت ظلالها .

وهو مأخوذ من الحديث النبوى ، وهو قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : « الجَنَّةُ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ » .

ومن ذلك ماذكرته فى جملة كتاب أذُمُّ فيه الزمان ؛ فقلت : ولكنها الأيام تُبْدِى لنا من جَوْهَرِها كل غريبة ، وتَسُوسُنا سياسة العبد المجدَّعِ الذى كأنَّ رأسَه زَبيبة ، وليس للمرء فيما يلقاه من أحداثها نعمى كانت أو بوسى ، إلا أن يَكِلَ الأمور إلى وليها فيقول : حاجَّ آدمُ مُوسَى .

وهذا مأخوذ من الخبر النبوى فى قوله صلى الله عليه وسلم : « حاجَّ آدَمُ مُوسَى ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى : أَنْتَ أَخْرَجْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ مِنَ الجنَّةِ وَأَشْقَيْتَهُمْ ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ : أَنْتَ الَّذِى اصْطَفَاكَ اللهُ تَعَالَى بِرِسَالَتِهِ وَكَلاَمِهِ ؟ أَتلومُنِى عَلَى أَمرٍ كَتَبَهُ اللهُ تَعالَى عَلَىَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِى ؟ » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى » .

ومن ذلك ماذكرته فى وصف بعض الكتاب ؛ وهو فصل من كتاب كتبته إليه ؛ فقلت : ولقد سَرَدْت عليه أحاديث البلاغة فاستغنى عن بسط ردائه ، وهُدِى إلى جوامع كلِمها فاقتدى الناس باهتدائه ، فاذا اشتبهت عنده مسالك طرقها لم يملكه سلطان الحيرة ، وإن أغرب فى أساليبها لم يُقَلْ فيه ماقيل فى رواية أبى هريرة .

وهذا الفصل من أحسن ما يؤتى به فى صناعة نثر المعانى ، وهو مأخوذ من حديث أبى هريرة ؛ قال : قلت : يارسول الله ، أسمع منك أشياء فلا أحفظها ، فقال : « ابْسُطْ رِدَاءَكَ » فَبَسَطْتُهُ فَحَدَّث حَدِيثاً كثيراً فما نسيت شيئا حدثنى به ؛ وأما رواية أبى هريرة فشكَّ فيها قوم لكثرتها .

وقد اجتمع فى هذا الفصل معنى الحديث النبوى وغيره ، ومثل هذا لايتفطن له عند الوقوف إلا من تَبَحَّر فى الوقوف على الأخبار النبوية ؛ ومن أجل ذلك جعلته ركناً من أركان الكتاب فى الفصل التاسع .

ومن ذلك ما ذكرته فى ذم بعض البلاد الوخمة ، فقلت : وَمِنْ صفاتها أنها

مدرة مستو بلة الطينة ، مجوع لها بين حَرِّ مكة ولأْوَاء المدينة ، إلا أنها لم يأمن حرمها فى الخطفة ، ولا نقلت حُمَّاها إلى الجُحْفَة .

فى هذه الكلمات القصار آية من القرآن الكريم ، وخبران من الأخبار النبوية ؛ فالآية من سورة العنكبوت ، وهى قوله تعالى (أَوَلَمْ يرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) وهــذا موضع يختص بالأخبار لابالآيات ، غير أن الآية جاءت ضمناً وتبعاً ، وأماالخبران فالأول منهما قول النبى صلى الله عليه وسلم : « مَنْ صَبَرَ عَلَى حَرِّ مَكَّةَ وَلَأْوَاءِ المَدِينَةِ ضَمِنْتُ لَهُ عَلَى أُللهِ الجنَّة » وأما الثانى فقوله صلى الله عليه وسلم فى دعائه للمدينة : « اللَّهُمَّ حَبِّبْها إِلَيْنا كما حَبَّبْتَ إلَيْنا مَكةَ وَانْقُلْ حُمَّاها إِلَى الجُحْفَة » .

فانظر أيها المتأمل إلى هذه الكلمات حتى تعلم أن عدتها مصوغة من الآية والخبرين سواء بسواء ، وهــذا طريق لو ادَّعَيْتُ الانفراد بسلوكه لما اختلف على فى الاعتراف به اثنان .

ومن ذلك ما كتبته فى كتاب إلى بعض الإخوان جواباً عن كتاب ورد منه ، وكان كتابه تأخر عنى زمانا طويلا ، فقلت : ولما تأملته ضَمَمْتُه إلىَّ والتزمْتُه ، ثم استلمته والتثمته ، وعلمت أن المعارف و إن قدمت أيامها أنسَاب وَشِيجة ، وتأَسَّيْتُ[(١)] بالخلق النبوى فى العجوز التى كانت تأتى فى زمن خديجة .

وهذا مأخوذ من الخبر المنقول عن عائشة رضى الله عنها ، وهو أنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذبح الشاة فيُعَضِّيها[(٢)] أعْضَاء ويقسمها فى أصدقاء خديجة ، وكانت تأتيه عجوز فيكرمها و يبسط لها رداءه ، فسألته عن ذلك ،

---

(١) تأسيت به : جعلته أسوة وقدوة لى ففعلت مثل فعله .

(٢) يعضيها : يجزئها و يقطعها .

فقال : « هٰذِهِ كانَتْ تأْتِينَا فى زَمَن خَدِيجَةَ وَحُسْنُ الْعَهْدِ مِنَ الإيمـان » .

ومن ذلك ما ذكرته فى وصف كتاب ، وهو: كل سَطْرٍ منه رَوْضة غير أنها ليل فى صباح ، وكل معنًى منه دُمْيَة غير أن ليس على مُصَوِّرها من جُنَاح .

وهذا مأخوذ من الحديث فى تحريم الصور (١) .

ومن ذلك ما ذكرته فى وصف كريم ، وهو : فأغنى بجوده إغناء المطَر ، وَسَماَ إلى المعالى سُمُوَّ الشمس وسار فى منازلها مَسِيرَ القمر ، ونتج من أبكار فضائله ما إذا ادَّعاه غيره قيل : لِلعَاهِرِ الحَجَر .

وهـــذا المعنى من قول النبى صلى الله عليه وسلم : « الوَلَدُ لِلفِرَاشِ وَلِلْعاهِرِ الحجَرُ »

ومن ذلك ماذكرته فى وصف الفصاحة ، فقلت : أفكار الخواطر لاتستولد على انفرادها ، وغايتها أن يتناكح فى استنتاج أولادها ، وأنا أنكح فكرى لفكر نكاح الأنساب ، ولا أخاف أن أُضْوِىَ فأميل إلى الاغتراب .

وهذا مأخوذ من قول النبى صلى الله عليه وسلم فى الأمر بنكاح البعيدة النسب فقال: « غَرِّبُوا لاتُضْوُوا» يريد بذلك أن الإنسان إذا نكح المرأة القريبة إليه حصل بينهما حَيَاء يمنع من قضاء الشهوة كما ينبغى فيجىء الولد ضاويا : أى هزيلا ، وهذا معنى غريب لى استخرجته من الحديث النبوى .

ومن ذلك ماذكرته فى فصل من كتاب إلى بعض الإخوان ، جوابا عن كتاب ورد منه يتضمن الشكوى من شخص جَرَتْ بينه وبينه مخاصمة ، فقلت :

---

(١) روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيامَةِ الْمُصَوِّرِينَ » وذلك أنه عليه السلام كان يخشى أن يعود التصوير بالناس إلى عبادةالأوثان ، وهىأخوف ما كان يخافه علىأمته بعد أنأنقذهم الله به وبرسالته من الشرك والوثنية .

وَصَلَ كتابه وهو كتابُ مَنْ أكثر الشكوى، وطلب العدوى، ونزل من التظلم بالعُدْوَة الدُّنيا وَأنزل خَصْمَهُ بالعُدْوَة القُصْوَى، والقاضى لا يحكم لأحد الخصمين حتى يحضر صاحبه، وإن فُقِئَتْ عين أحدهما فربما فُقِئت عين الآخر وهُشِم حاجبه، على أنه قد اعترف أن كليهما كان للحم أخيه آكلا، وعليه فى حال مَحْضَره جاهلا، وسبابُ المؤمن معدود من فُسُوقه، وإطراقه عن تورد هذا المقام أولى من طُرُوقه، ولولا تغليظ النَّكير لما جعل اللسان واليد سواء فيما جَرَحا، ولما أخر الله المغفرة عن الخائضين فيها حتى يصطلحا؛ فكن أنت ممن أطاع تقْوَاه لاهواه، واتَّبع مَنْ علم الحق فرآه أوسمعه فرواه، واعلم أن تَهاجُرَ الأخوين فوق الثلاثة من مَنْهِيَّات الحرام، وأن الفائز بالأجر منهما هو البادىء بالسلام، وَدَفْعُ السيئة بالحسنة يجعل العدو وَليًّا حميا، وقد جعل الله المتخلق بهذا الخلق صابرا وجعل له حظا عظيما، والشيطان إنما يحوم على آثاره مواقع الشَّنآن، ولا يحمد من أعمال بنيه شيئا إلا ما زَيَّلَ بين الإخوان .

فى هذا الفصل معانى آيات وأخبار، وهذا الموضع مختص بذكر الأخبار دون الآيات؛ فأول المعانى المأخوذة من الأخبار قول النبى صلى الله عليه وسلم «إِذَا أَتَاكَ أَحَدُ الخَصْمَيْنِ وَقَدْ فُقِئَتْ عَيْنُهُ فَلَا تَحْكُمْ لَهُ، فَرُبَّمَا أَتَى خَصْمُهُ وَقَدْ فُقِئَتْ عَيْنَاهُ»؛ وأما المعنى الثانى فقوله صلى الله عليه وسلم: «سِبَابُ الْمُؤْمِنِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»؛ وأما المعنى الثالث فقوله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الأَعْمَالَ تُعْرَضُ عَلَى اللهِ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ فَيَغْفِرُ لِكُلِّ امْرِئٍ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا إِلَّا امْرَأً كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاء؛ فَيَقُول: اتْرُكُوا هٰذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا»؛ وأما المعنى الرابع فقوله صلى الله عليه وسلم: «لَا يَحِلُّ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ»؛ وأما المعنى الخامس فقول النبى صلى الله عليه وسلم: «إِذَا الْتَقَى الْمُتَهَاجِرَانِ فَأَعْرَضَ هٰذَا وَأَعْرَضَ هٰذَا فَخَيْرُهُمَا الَّذِى يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ»؛ وأما المعنى السادس

فقوله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ إِبْلِيسَ لَهُ عَرْشٌ عَلَى الْبَحْرِ فَيَبُثُّ بَنِيهِ فى آفاقِ الْأَرْضِ ، فَيَأْتِى أَحَدُهُمْ فيقولُ : فَعَلْتُ كَذَا وَفَعَلْتُ كَذَا؛ فيقولُ : مَافَعَلْتَ شَيْئًا ، وَيَأْتِى أَحَدُهُمْ فيقولُ: زَيَّلْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ أَوْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ زَوْجَتِهِ؛ فَيَقُولُ : نِعْمَ الْوَلَدُ أَنْتَ » .

فانظركم فى هذه الأسطر اليسيرة من معنى خبر نبوى ، هذا سوى مافيها من معانى الآيات ، و إذا عددت هذه الكلمات المذكورة فى هذه الأسطر وجدتها جميعها منتظمة من الآية والخبر ، وهذا مما يدلك على الإكثار من المحفوظ واستحضاره عند الحاجة إليه على الْفَوْر .

ومن ذلك ما ذكرته فى صدر كتاب ، وهو جواب عن كتاب يتضمَّنُ تهديداً وتخويفاً ، فقلت : وَرَدَ الكتاب مُضَمَّناً من الْوَعْد والْوَعِيد ما آنَسَ نَفْسَ المملوك وأَوْحَشَها ، ونَقَعَ ضُلوعَه وأَعْطَشَها ، وأقام له من الظنون السيئة جنوداً تقاتله ، وتأخذ عليه شُعَبَ الأفكار فلا تزاوِله ، وكانت كلماته طوالا وأوراقه ثقالا ، وما أفلت سطر من سطوره إلا كان الآخر له عقالا ، ولما استكمل الوقوف عليه ثقلت أطوار الخوف والرجاء من أطواره ، وعرضت عليه الجنة والنار فى قرطاسه كما عرضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عرض جداره ، ولولا وثوقه بأناة مَوْلانا لذهبت نفسه فَرَقا ، وابتغى فى السماء سلما وفى الأرض نفَقا ، لكنه قد توسَّم فى كرمه مَخَايِلَ الصنع الوسيم ، وغره منه ماغره من ربه الكريم ، وعلم أن خلق حلمه يغلب خلق غضبه إذ هذا حادث وذاك قديم .

وفى هذا الفصل معنى خبر من الأخبار النبوية ، وهو أنه كان صلوات الله عليه يخطب فمال بيده إلى الجدار ، وقال : « عُرِضَتْ عَلَيَّ الجنَّةُ وَالنَّارُ فِى عُرْضِ هٰذَا الْجِدَارِ فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ » .

ومن ذلك ما ذكرته فى صدر كتاب إلى بعض الإخوان ، وهو : الخادم

يُوَاصل بالدعاء الذى لايزال لقلبه زميلا ، وللسانه رَسِيلا ، وإذا رفع أدْنَتْه الملائكة قربا إذا تباعدت عن غيره ميلا ، ولا اعتداد بالدعاء إلا إذا صدر عن أكرم مصدر ، ووجد له فوق السماء مَظْهَرًا وإن لم يكن هناك من مظهر ، ووصف باطنه بأنه الأبيض الناصع الذى هو خير من ظاهر الأشعث الأغبر ، ولا يعامل الخادم أهل وُدِّه إلا بهذه المعاملة ، ومن خلقه المجازفة فى بذل المودة إذا أخذ الناس نسبة المكايلة .

فى هذا معنى خبرين : أحدهما قول النبى صلى الله عليه وسلم : « إنَّهُ إذَا كَذَبَ الْكَاذِبُ تَبَاعَدَ الْمَلَكُ عَنْهُ مِيلاً لِنَتَنِ كَذِبِهِ » ، والآخر قوله صلى الله عليه وسلم : « رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّه » .

ومن هذا الباب ماذكرته فى كتاب يتضمن خطبة مودة ، فابتدأت الكلام فيه بعد تصدره بالدعاء ، فقلت : لولا العادة لرَفَع الخادم كتابه هذا أن يسطر فى وَرَقَة ، وليس ذلك إلا لإرساله فى خطبة مودة رأى صورتها فى سَرَقَة ، ولما تأملها قال : إنْ يكن ذلك من عند الله يُمْضِه ، وأبدى لها صفحة الرضا وإن كانت كل مودة لم تُرْضِه ، وخير المودات ماليس لها ضرة تشاركها فى وَسامتها ، ولا تُضَاهيها فى درجة كرامتها ؛ فتلك التى تزدهى ذا الهمة أبوة وجمالا ، ولم يُغْله مهرها ولو بذل فيه نفساً لامالا ، وما يظنها الخادم إلا هذه المودة التى خطبها ، وقد عَلَتْ أن تكون راغبة ولكن هو الذى أرغبها ، على أنه لم يترشح لها إلا مَنْ هو من أكفائها ، وليست الكفاءة هٰهنا إلا ماتبذله الضمائر من صفائها ، وقد أتاح الله لها كُفْئاً يكثر من إيناسها ، ويَضَعُها من البرِّ فى محلة ناسها ، ويجعل كل يوم من أيامها عُرْساً حتى تتصل مواسم أعراسها .

ثم مضيت على هذا النهج إلى آخر الكتاب ، والمعنى المأخوذ فيه من الخبر

النبوى فى موضعين : الأول أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضى الله عنها « إِنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام عَرَضَ عَلَيَّ صُورَتَكِ فِي سَرَقَةٍ » والسرقة : حريرة بيضاء « وَقَالَ: هٰذِهِ زَوْجَتُكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، فَقُلْتُ: إِنْ يَكُنْ ذٰلِكَ مِنْ عِنْدِ اللهِ يُمْضِهِ » فأخذت أنا هذا المعنى ونقلته إلى خطبة مودة ، ولا يأتى فى خطبة المودات شىء أحسن منه ، ولا ألطف ، ولا أشد مقصدا ؛ الخبر النبوى الثانى قول النبى صلى الله عليه وسلم: « إِنَّمَا تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ لِحَسَبِهَا أَوْ لِدِينِهَا أَوْ لِمَالِهَا أَوْ لِجَمَالِهَا » فقلت أنا : فتلك التى تزدهى ذا الهمة أبوة وجمالا : أى قد جمعت الحسب والجمال .

ومن ذلك ماذكرته فى سبب حب المال ، وهو : بين المال علاقةٌ وكيدة وبين القلوب ، وهى له بمنزلة المحب وهو لها بمنزلة المحبوب ، وليس ذلك إلا لأن الله قَبَضَ قَبْضَةً من جميع الأرض فخلق آدم من تلك القبضة ، ويوشك حينئذ أن صورة قلبه تكونت من معدن الذهب والفضة ، ولولا أن يكون منهما عنصراً بدائه ، لما جعلهما الأطباء دواءه من دائه ، فلا تستغرب إذن أن تكون على حبهما مطبوعا ، إذ كان منهما مصنوعا .

وهذا المعنى من قول النبى صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ : مِنْهُمُ الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذٰلِكَ ، وَالْحَزْنُ وَالسَّهْلُ ، وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ » غير أنى استنبطت أنا حبَّ المال من هذا الحديث ، وهو معنى غريب لم أسبق إليه .

ومن ذلك ماذكرته فى وصف كلام ، وهو : ليس السِّحْر ماأودع فى جف طَلْعة ، بل ماأودع فى صَوْغ معنى أو نَظْم سَجْعة ، ولذلك لبيد فى شعره ، أَسْحَر

من لبيد فى سحره[(١)] وكلا صُنْعيهما من الغريب العجيب ، غير أن مايستنبط من القلب أعجب مما يدفن فى القليب .

وهذا المعنى مأخوذ من قصة لبيد بن الأعصم فى سحره النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن عرف القصة وصورتها علم ماقد ذكرته فى نثر هذه الكلمات البديعة.

ومن ذلك ماذكرته فى وصف الْمَنْجَنِيق من جملة كتاب ، فقلت : ونُصِبَ المنجنيق فجثم بين يدى السور مُنَاصياً ، و بسط كفه إليه مواتيا ، ثم تولى عقو بته بعَصاه التى تفتك بأحجاره ، و إذا عصى عليها بلد أخذت فى تأديب أسواره ، فما كان إلا أن استمرت عقو بتها عليه حتى صار قائمه حصيداً وعاصيه مستقيداً ، وقال : ألم يكن نهى عن المد والتجريد فمالى لاأرى إلا مداً وتجريداً ، وعند ذلك أذْعَنَ لفتح الأبواب ، وتلا قوله تعالى : (لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَاب) ، وكذلك لم نأت صعباً إلا استسهل ، ولا حَثَثْنَا مطيًّا إلا استعجل ، ولطالما وقف غيرنا على هذا البلد فشفه طول الانتظار ، ولم يحظ منه إلا بمسَاءلة المنصب أحجار الديار .

---

(١) لبيد الأول : هو لبيد بن ربيعة العامرى الشاعر المشهور ، وهو ممن أدرك الإسلام فأسلم ، وترك قول الشعر ، وقال : إن الله أبدله من الشعر سورتين من الكتاب الكريم . وينسب للإمام الشافعى قوله :

وَلَوْلاَ الشِّعْرُ بِالْعُلَمَاءِ يُزْرِى لَكُنْتُ الْيَوْمَ أَشْعَرَ مِنْ لَبِيدِ

ولبيدالثانى: هولبيد بن الأعصم اليهودى. و يروى أنه سحر النبى صلى الله عليه وسلم ووضع سحره فى بئر ، و يروى أنه صلى الله عليه وسلم تأثر بهذا السحر حتى كان يخيل إليه أنه فعل الشىء وهو لم يفعله ، حتى أتاه جبريل فأخبره بالسحر و بموضعه ، فلما استخرج من البئر ، وقرئت له المعوذتان قام من مرضه كأنما نشط من عقال . وقد رددنا هذه المقالة واستبعدنا حصول هذه الحادثة و برهنا على صحة ما ادعيناه فى تفسيرنا لجزء (عَمّ يَتَسَاءلُونَ) الذى أخرجناه منذ عامين ، فارجع إلى تفسير المعوذتين منه .

فى هذا الفصل معنى خبر من الأخبار النبوية ، وهو قول النبى صلى الله عليه وسلم فى النهى عن ضرب المحدود «لاَمَدَّ وَلاَ تَجْرِيدَ» : أى لا يمد على الأرض ولا يُجَرَّد عنه ثوبه .

ومن ذلك ما ذكرته فى صدر كتاب إلى الديوان العزيز النبوى ، وهو : خَلَّدَ الله دولة الديوان العزيز النبوى ، ولا زالت أكنافها وادعة ، وعلياؤها جامعة ، وجُدُودها كالنجوم التى تُرَى فى كل حين طالعة ، وأيامها كالليالى ساكنة ولياليها كالأيام ناصعة ، وأبوابها كأبواب الجنة التى يقال فيها ثامن وثامنة إذا قيل فى أبواب غيرها سابع وسابعة ، وهذا الدعاء قد استجابه الله قبل أن ترفع إليه يَدٌ أو ينطق به ضمير ، فاذا دعا به الخادم وجد صنع الله قد سبقه أولاً وجاء هو فى الزمن الأخير ، فليس له حينئذ إلا أن يدعو لما خُوِّله الدِّيوَانُ العزيز بالدوام ، وأن يُعيذه من النقص بعد التمام ، ثم يستهدى ما يؤهل له من الخدم التى يعتدها من لطائف الإحسان ، وإذا ندب لتكليف أوامرها قال والحمد والشكر يسجدان ، ولا شك أنَّ درجات الأولياء تتفاوت فى الصفات والأسماء ؛ فمنها ما يكون ببطن الأرض ومنها ما يرى كالكوكب فى أُفُقِ السماء ، ولولا النَّهْىُ عن تزكية المرء نَفْسَه لا دَّعَى الخادم أن له أعلاها ، وجاء بالأولياء من بعده فقال (وَالشَّمْسِ وَضُحَاها وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا) ، لكنه لا يَمُن بما يعتده عند الله من ذُخْرِه ، وسِرُّ الولاء فى هذا المقام أكرم من جهره ، وليس الذى يَمُنُّ بصلاته وصيامه كالذى يَمُنُّ بسرٍّ وَقَرَ فى صدره ، والله لا ينظر إلى الأعمال وإنما ينظر إلى القلوب ، وفَرْقٌ بين المطيع بمحضر الشهادة وبين المطيع بظهر الغيوب ، ولو اطلع الديوان العزيز على ضمير الخادم فى الطاعة لَسَرَّه ، وعلم أنه الأشعث الأغبر الذى لو أقسم على الله لأبَرَّه .

فى هذا الفصل من الآيات والأخبار عدة مواضع ؛ وهذا الموضع مختص

بالأخبار فلنذكرها دون الآيات : أما الأول منها فقول النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّكُمْ تَرَوْنَ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى فِي الْجَنَّةِ كَمَا تَرَوْنَ الْكَوَاكِبَ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ » ؛ وأما الخبر الثانى فقوله صلى الله عليه وسلم : « مَا فَضَلَكُمْ أَبُو بَكْرٍ بِصَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ وَلَكِنْ فَضَلَكُمْ بِسِرٍّ وَقَرَ فِي صَدْرِهِ » ؛ وأما الخبر الثالث فقوله صلى الله عليه وسلم : « رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ »

وفيما أوردته من حل المعانى الشعرية وحل آيات القرآن والأخبار النبوية طريقٌ واضح لمن يَقْوَى على سلوكه ، والله الموفق للصواب .

المقالة الأولى فى الصناعة اللفظية

وهى تنقسم قسمين :

القسم الأول : فى اللفظة المفردة

إعلم أنه يحتاج صاحب هذه الصناعة فى تأليفه إلى ثلاثة أشياء : الأول منها اختيار الألفاظ المفردة ، وحكم ذلك حكم اللآلىء المُبَدَّدَة؛ فإنها تتخير وتنتقى قبل النظم ؛ الثانى نَظْم كل كلمة مع أختها المُشَاكِلة [١] لها ؛ لئلا يجىء الكلام قلقاً نافراً عن مواضعه ؛ وحكم ذلك حكم العقد المنظوم فى اقتران كل لؤلؤة منه بأختها المشاكلة لها [١] ؛ الثالث الغَرَضُ المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه ، وحكم ذلك حكم الموضع الذى يُوضَع فيه العقد المنظوم ، فتارةً يُجْعَل إكليلا على الرأس ، وتارةً يجعل قِلَادَة فى العنق ، وتارةً يجعل شَنْفاً فى الأذن [٢] ، ولكل موضع من هذه المواضع هيئة من الحسن تخصه .

فهذه ثلاثة أشياء لا بد للخطيب والشاعر من العناية بها ، وهى الأصل المعتمد عليه فى تأليف الكلام من النظم والنثر ؛ فالأول والثانى من هذه الثلاثة المذكورة هما المراد بالفصاحة ، والثلاثة بجُمْلَتها هى المراد بالبلاغة .

---

(١) فى ب ، ج «مع أختها فى المشاكلة لها» وهو تحريف بزيادة «فى» والمشاكلة ــ بكسر الكاف ــ اسم فاعل من قولك : شاكت فلانا ؛ إذا شابهته . وقد اجتمعت النسختان على حذف «فى» من العبارة الآتية ، والمقصود بالعبارتين واحد .

(٢) الشنف ــ بفتح الشين وسكون النون ــ مايجعل فى الأذن من أعلى ، أما مايجعل فى أسفل الأذن فهو القرط ــ بضم القاف وسكون الراء ــ وجمع الشنف : شنوف ، مثل فاس وفلوس . وتقول : شنف المرأة فتشنفت ، وقرطها فتقرطت ، ومن المجاز : شنف آذاننا بعذب ألفاظه .

وهذا الموضع يَضِلُّ فى سلوك طريقه العلماء بصناعة صَوْغ الكلام من النظم والنثر، فكيف الجهال الذين لم تنفحهم رائحة؟ ومَن الذى يؤتيه الله فطرة ناصعة يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسهُ نار حتى ينظر إلى أسرار ما يستعمله من الألفاظ فيضعها فى موضعها.

ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد، وكلاهما حسن فى الاستعمال، وهما على وزن واحد وعدة واحدة، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه فى كل موضع تستعمل فيه هذه، بل يفرق بينهما فى مواضع السبك: وهذا لا يدركه إلا من دَقَّ فهمه وَجَلَّ نَظَرُه.

فمن ذلك قوله تعالى: (مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ) وقوله تعالى: (رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّراً) فاستعمل الجوف فى الأولى والبطن فى الثانية، ولم يستعمل الجوف موضع البطن، ولا البطن موضع الجوف، واللفظتان سواء فى الدلالة، وهما ثلاثيتان فى عَدَدٍ واحد، ووزنهما واحد أيضا، فانظر إلى سَبْك الألفاظ كيف تفعل؟

ومما يجرى هذا المجرى قوله تعالى: (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى) وقوله: (إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) فالقلب والفؤاد سواء فى الدلالة، وإن كانا مختلفين فى الوزن؛ ولم يستعمل فى القرآن أحدهما فى موضع الآخر.

وعلى هذا ورد قول الأعرج من أبيات الحماسة:

نَحْنُ بَنُو المَوْتِ إِذَا المَوْتُ نَزَلْ ... لاَعَارَ بالمَوْت إذا حُمَّ الاجَلْ

* المَوْتُ أَحْلَى عِنْدَنَا مِنَ العَسَلْ *(١)

---

(١) هذه الأبيات للأعرج المعنىّ، ويقال: إنها لعمرو بن يثربى، وقد اختارها أبو تمام فى ديوان الحماسة (وانظر شرح التبريزى: ١ — ٢٨٠)، وترتيب الأبيات

وقال أبو الطيب المتنبي(١) :

إِذَا شِئْتُ حَفَّتْ بِي عَلَى كُلِّ سَابِحٍ رِجَالٌ كَأَنَّ المَوْتَ فِي فَمِهَا شُهْدُ(٢)

فهاتان لفظتان هما العسل والشهد ، وكلاهما حسن مستعمل لا يُشَكُّ في حسنه واستعماله ، وقد وردت لفظة العسل في القرآن ، دون لفظة الشهد ؛ لأنها أحسن منها ، ومع هذا فإن لفظة الشهد وردت في بيت أبي الطيب فجاءت أحسن من لفظة العسل في بيت الأعرج .

وكثيرا مانجد أمثال ذلك في أقوال الشعراء المُفْلِقِين وغيرهم ، ومن بلغاء الكتاب ومِصْقَعِي الخطباء .

وتحته دقائق ورموز إذا عُلمت وقِيس عليها أشباهُها ونظائرها كان صاحب الكلام في النظم والنثر قد انتهى إلى الغاية القُصْوَى في اختيار الألفاظ ووَضْعِها في مواضعها اللائقة بها

في الحماسة ليست على ماذكره المؤلف ، وهاك القطعة بكمالها كما وردت هناك :

أَنَا أَبُو بَرْزَةَ إِذْ جَدَّ الْوَهَلْ خُلِقْتُ غَيْرَ زُمَّلٍ وَلاَ وَكَلْ
ذَا قُوَّةٍ وَذَا شَبَابٍ مُقْتَبَلْ لاَجَزَعَ الْيَوْمَ عَلَى قُرْبِ الْأَجَلْ
الْمَوْتُ أَحْلَى عِنْدَنَا مِنَ الْعَسَلْ نَحْنُ بَنِي ضَبَّةَ أَصْحَابُ الْجَمَلْ
نَحْنُ بَنُو الْمَوْتِ إِذَا الْمَوْتُ نَزَلْ نَنْعَى ابْنَ عَفَّانَ بِأَطْرَافِ الْأَسَلْ

ويروى في أول هذه الأبيات « أنا أبو بردة » .

(١) من قصيدة له يمدح فيها محمد بن سيار بن مكرم التميمي ، وأولها قوله :

أَقَلُّ فَعَالِي ، بَلْهَ أَكْثَرَهُ ، مَجْدُ وَذَا الْجِدُّ فِيهِ ، نِلْتُ أَمْ لَمْ أَنَلْ ، جَدُّ

(٢) وقع في ب ، ج صدر هذا البيت هكذا « إذا بي مشت حفت على كل سابح » وهو تحريف ، وتصويبه عن جملة مراجع أولها الديوان . والسابح : الفرس السريع الجرى كأنه يسبح في الماء عند مشيه . والشهد : العسل ، وهو بضم الشين أو فتحها ، والهاء ساكنة .

واعلم أن تفاوت التفاضل يقع فى تركيب الألفاظ أكثر مما يقع فى مفرداتها؛ لأن التركيب أعسر وأشق ، ألاترى ألفاظ القرآن الكريم من حيث انفرادها قد استعملتها العرب ومَنْ بعدهم ، ومع ذلك فإنه يفوق جميع كلامهم ويعلو عليه ، وليس ذلك إلا لفضيلة التركيب .

وهل تشك أيها المتأمل لكتابنا هذا إذا فكرت فى قوله تعالى : (وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) أنك لم تجد ما وجدته لهذه الألفاظ من المزية الظاهرة إلا لأمر يرجع إلى تركيبها ، وأنه لم يعرض لها هذا الحسن إلا من حَيْثُ لاقت الأولى بالثانية ، والثالثة بالرابعة ، وكذلك إلى آخرها ، فإن ارْتَبْتَ فى ذلك فتأمل هل ترى لفظة منها لو أخذت من مكانها وأفردت من بين أخواتها كانت لابسةً من الحسن مالبسته فى موضعها من الآية .

ومما يشهد لذلك ويؤيده أنك ترى اللفظة تروقك فى كلام ، ثم تراها فى كلام آخر فتكرهها ؛ فهذا ينكره من لم يَذُقْ طَعْمَ الفصاحة ، ولا عرف أسرار الألفاظ فى تركيبها وانفرادها .

وسأضرب لك مثالا يشهد بصحة ماذكرته ، وهو أنه قد جاءت لفظة واحدة فى آية من القرآن وبيت من الشعر ؛ فجاءت فى القرآن جَزْلَةً متينة ، وفى الشعر ركيكة ضعيفة ، فأثَّرَ التركيبُ فيها هٰذين الوصفين الضدين ؛ أما الآية فهى قوله تعالى : (فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللهُ لَايَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ) .

وأما بيت الشعر فهو قول أبى الطيب المتنبى (١) :

تَلَذُّ لَهُ الْمُرُوءَةُ وَهْىَ تُؤْذِى   وَمَنْ يَعْشَقْ يَلَذَّ لَهُ الْغَرَامُ (٢)

وهذا البيت من أبيات المعانى الشريفة ، إلا أن لفظة « تؤذى » قد جاءت فيه وفى الآية من القرآن فَحَطَّتْ من قدر البيت لضعف تركيبها وحسن موقعها فى تركيب الآية .

فأنصف أيها المتأمل لما ذكرناه ، واعْرِضْه على طبعك السليم حتى تعلم صحته ، وهذا موضع غامض يحتاج إلى فضل فكرة ، وإمعان نظر ، وما تعرّض للتنبيه عليه أحد قبلى ، وهذه اللفظة التى هى « تؤذى » إذا جاءت فى الكلام فينبغى أن تكون مندرجة مع مايأتى بعدها متعلقة به كقوله تعالى : (إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِىَّ) وقد جاءت فى قول المتنبى منقطعة ، ألا ترى أنه قال « تلذ له المروأة وهى تؤذى » ثم قال « ومن يعشق يلذ له الغرام » فجاء بكلام مستأنف ، وقد جاءت هذه اللفظة بعينها فى الحديث النبوى ، وأضيف إليها كاف الخطاب ؛ فأزال مابها من الضعف والركة ، وذاك أنه اشتكى النبى صلى الله عليه وسلم ، فجاءه جبريل عليه السلام وَرَقَاه ، فقال : بسم الله أَرْقيك ، من كل داء يُؤْذِيك ؛ فانظر إلى السر فى استعمال اللفظة الواحدة ، فإنه لما زيد على هذه اللفظة حرف واحد أصلحها وحسنها ، ومن هٰهنا تزاد الهاء فى بعض المواضع ، كقوله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ إِنِّى ظَنَنْتُ أَنِّى مُلَاقٍ

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها المغيث بن على العجلى ، وأولها قوله :

فُؤَادٌ مَاتُسَلِّيهِ الْمُدَامُ   وَعُمْرٌ مِثْلُ مَاتَهَبُ اللِّئَامُ

(٢) ورد فى الديوان « المروّة » بتشديد الواو ، وهو تخفيف المروأة بقلب الهمزة واوا وإدغامها فى الواو ، والمروأة : الكرم . والغرام فى هذا البيت : العذاب ، وتقول: لذلى كذا يلذ ، من باب طرب يطرب ، مثل ظل يظل .

حِسَابِيَهْ) ثم قال : (مَاأَغْنَى عَنِّى مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ) فإن الأصل فى هذه الألفاظ كتابى وحسابى ومالى وسلطانى ، فلما أضيفت الهاء إليها ــ وتسمى هاء السكت ــ أضافت إليها حسناً زائداً على حسنها ، وكستها لطافةً ولباقة .

وكذلك ورد فى القرآن الكريم (إِنَّ هٰذَا أَخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ) فلفظة « لى » أيضاً مثل لفظة « يؤذى » وقد جاءت فى الآية مندرجة متعلقة بما بعدها ، وإذا جاءت منقطعة لاتجىء لائقة ، كقول أبى الطيب أيضاً[1] :

تُمْسِى الْأَمَانِىُّ صَرْعَى دُونَ مَبْلَغِهِ   فَمَا يَقُولُ لِشَىْءٍ لَيْتَ ذٰلِكَ لِى

وربما وقع بعض الجهال فى هذا الموضع فأدخل فيه ماليس منه ، كقول أبى الطيب[2] :

مَاأَجْدَرَ الْأَيَّامَ وَاللَّيَالِى   بِأَنْ تَقُولَ مَالَهُ وَمَالِى

فإن لفظة « لى » هٰهنا قد وردت بعد «ما» وقبلها «مَالَهُ» ثم قال «وَمَالِى» فجاء الكلام على نَسَقٍ واحد ، ولو جاءت لفظة « لى » هٰهنا كما جاءت فى البيت الأول لكانت منقطعة عن النظير والشبيه ، فكان يعلوها الضعف والركة ، وبين ورودها هٰهنا وورودها فى البيت الأول فرق يحكم فيه الذوق السليم .

وهٰهنا من هذا النوع لفظة أخرى قد وردت فى آية من القرآن الكريم ، وفى بيت من شعر الفرزدق؛ فجاءت فى القرآن حسنة، وفى البيت الشعر غير حسنة ،

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها سيف الدولة ، وأولها قوله :

أَجَابَ دَمْعِى وَمَاالدَّاعِى سِوَى طَلَلٍ   دَعَا فَلَبَّاهُ قَبْلَ الرَّكْبِ وَالْإِبِلِ

(٢) هومطلع كلمة يقولها لأبى شجاع ، ويصف فيها خروجه للصيد ، وبعده قوله :

لَا أَنْ يَكُونَ هٰكَذَا مَقَالِى   فَتًى بِنِيرَانِ الْحُرُوبِ صَالِى

وتلك اللفظة هى لفظة «القمل» أما الآية فقوله تعالى : (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاَتٍ) ؛ وأما البيت الشعر فقول الفرزدق :

من عزه احتجرت كليب عنده زربا كأنهم لديه القُمَّلُ[1]

وإنما حسنت هذه اللفظة فى الآية دون هذا البيت من الشعر لأنها جاءت فى الآية مندرجة فى ضمن كلام ، ولم ينقطع الكلام عندها ، وجاءت فى الشعر قافية : أى آخراً انقطع الكلام عندها .

وإذا نظرنا إلى حكمة أسرار الفصاحة فى القرآن الكريم غُصْنَا منه فى بحر عميق لاقرار له .

فمن ذلك هذه الآية المشار إليها ؛ فإنها قد تضمنت خمسة ألفاظ ، هى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، وأحسن هذه الألفاظ الخمسة هى الطوفان والجراد والدم ؛ فلما وردت هذه الألفاظ الخمسة بجملتها قدم منها لفظة الطوفان والجراد ، وأخرت لفظة الدم آخراً ، وجعلت لفظة القمل والضفادع فى الوسط ؛ ليطرق السمع أولا الْحَسَنُ من الألفاظ الخمسة ، وينتهى إليه آخراً ؛ ثم إن لفظة الدم أحسن من لفظتى الطوفان والجراد ، وأخف فى الاستعمال ، ومن أجل ذلك جىء بها آخراً ، ومراعاةُ مثل هذه الأسرار والدقائق فى استعمال الألفاظ ليس من القدرة البشرية .

وقد ذكر مَنْ تَقَدَّمنى من علماء البيان للألفاظ المفردة خصائص وهيآت تتصف بها ، واختلفوا فى ذلك ، واستحسن أحدهم شيئاً خُولف فيه ، وكذلك استقبح الآخر شيئاً خُولف فيه ، ولو حققوا النظر ووقفوا على السر فى اتصاف

(١) كذا ورد هذا البيت فى أصول الكتاب ، وروايته فى الديوان :

مِنْ عِزِّهِمْ جَحَرَتْ كُلَيْبٌ بَيْتَهُمْ زَرْبًا كَأَنَّهُمُ لَدَيْهِ الْقُمَّلُ

بعض الألفاظ بالحسن و بعضها بالقبح لما كان بينهم خلاف فى شىء منها ، وقد أشرت إلى ذلك فى الفصل الثامن من مقدمة كتابى هذا الذى يشتمل على ذكر الفصاحة ، وفى الوقوف عليه والإحاطة به غِنًى عن غيره ، لكن لابد أن نذكر هٰهنا تفصيلا لما أجملناه هناك ؛ لأنا ذكرنا فى ذلك الفصل أن الألفاظ داخلة فى حيز الأصوات ؛ لأنها مركبة من مخارج الحروف ؛ فما استلذه السمع منها فهو الحسن ، وما كرهه ونبا عنه فهو القبيح ، و إذا ثبت ذلك فلا حاجة إلى ماذكر من تلك الخصائص والهيآت التى أوردها علماء البيان فى كتبهم ؛ لأنه إذا كان اللفظ لذيذاً فى السمع كان حسناً ، و إذا كان حسناً دخلت تلك الخصائص والهيآت فى ضمن حسنه .

وقد رأيت جماعةً من الجهال إذا قيل لأحدهم إن هذه اللفظة حسنة وهذه قبيحة أنكر ذلك ، وقال: كل الألفاظ حسن ، والواضع لم يضع إلا حسناً ، ومَنْ يبلغ جهله إلى أن لا يفرق بين لفظة الغُصْن ولفظة العُسْلوج وبين لفظة المُدَامة ولفظة الإِسْفِنْط وبين لفظة السيف ولفظة الخَنْشَليل وبين لفظة الأسد ولفظة الفَدَوْكَس فلا ينبغى أن يخاطب بخطاب ، ولا يجاوب بجواب ، بل يُتْرَك وشأنه ، كما قيل : اتركوا الجاهل بجهله ولو ألقى الجعر فى رحله ، وما مثاله فى هذا المقام إلا كمن يُسَوِّى بين صورة زنجية سوداء مظلمة السواد شَوْهاءَ الخَلْقِ ذات عين مُحْمَرَّة وشَفَة غليظة كأنها كلوة ، وشَعْر قَطَط (١) كأنه زبيبة ، وبين صورة رومية بيضاء مُشْرَبَة بحمرة ، ذات خَدٍّ أسيل ، وطرف كَحِيل ، ومَبْسِم كأنما نظم من أقاحٍ ، وطُرَّة كأنها ليل على صباح ، فإذا كان بإنسان من سَقَم النظر أن يُسَوِّى بين هذه الصورة وهذه فلا يبعد أن يكون به من سقم الفكر أن يسوى بين هذه الألفاظ وهذه ، ولا فرق بين النظر والسمع فى هذا المقام ؛ فإن هذا حاسة وهذا حاسة ، وقياس حاسة على حاسة مناسب .

(١) تقول : هذا شعرقطط ــ بزنة سبب ــ وهذا شعرقط ــ بفتح القاف وتشديد الطاء ــ إذا كان قصيرا جعدا ، وتقول : قطط شعره ــ بزنة فرح ــ .

فإنْ عاند معاند فى هذا ، وقال : أغراض الناس مختلفة فيما يختارونه من هذه الأشياء ، وقد يعشق الإنسانُ صورة الزنجية التى ذممتها ويفضلها على صورة الرومية التى وصفتها .

قلت فى الجواب : نحن لانحكم على الشاذ النادر الخارج عن الاعتدال ، بل نحكم على الكثير الغالب ، وكذلك إذا رأينا شخصا يُحِبُّ أكل الفَحَم مثلا أو أكل الجِصِّ والتراب ويختار ذلك على مَلاَذِّ الأطعمة ، فهل نستجيد هذه الشهوة أو نحكم عليه بأنه مريض قد فسدت معدته وهو محتاج إلى علاج ومداواة ؟ .

ومن له أدنى بصيرة يعلم أن للألفاظ فى الأذن نغمة لذيذة كنغمة أوتار ، وصوتا منكراً كصوت حمار ، وأن لها فى الفم أيضاً حلاوة كحلاوة العسل ، ومرارة كمرارة الحَنْظَل ، وهى على ذلك تجرى مجرى النغمات والطعوم .

ولا يسبق وهمك أيها المتأمل إلى قول القائل الذى غلب عليه غلظ الطبع ، وفجاجة الذهن(١) بأن العرب كانت تستعمل من الألفاظ كذا وكذا ، فهذا دليل على أنه حسن ، بل ينبغى أن تعلم أن الذى نستحسنه نحن فى زماننا هذا هو الذى كان عند العرب مستحسناً ، والذى نستقبحه هو الذى كان عندهم مستقبحاً؛ والاستعمال ليس بدليل على الحسن ، فإنا نحن نستعمل الآن من الكلام ماليس بحسن ، وإنما نستعمله لضرورة ، فليس استعمال الحسن بممكن فى كل الأحوال ، وهذا طريق يضل فيه غير العارف بمسالكه ، ومن لم يعرف صناعة

(١) الفجاجة ـ بفتح الفاء ـ الفاكهة التى لم تنضج ، هذا ظاهر عبارة القاموس ، والذى نراه أن هذا مصدر ، والفج ـ بكسر الفاء ـ الفاكهة قبل نضجها ، والكلام ههنا مجاز ، والمراد بفجاجة الذهن : الذهن الذى لم تنضجه الدربة ولم تكمله معاودة الشيء مرة بعد أخرى .

النظم والنثر وما يجده صاحبها من الكلفة فى صوغ الألفاظ واختيارها فإنه معذور فى أن يقول ماقال

لاَيَعْرِفُ الشَّوْقَ إلاَّ مَنْ يُكَابِدُهُ وَلاَ الصَّبَابَةَ إِلاَّ مَنْ يُعَانِيهَا

ومع هذا فإن قول القائل «بأن العرب كانت تستعمل من الألفاظ كذا وكذا وهذا دليل على أنه حسن» قولٌ فاسد لا يصدر إلا عن جاهل ؛ فإن استحسان الألفاظ واستقباحها لايؤخذ بالتقليد من العرب ؛ لأنه شىء ليس للتقليد فيه مجال ، وإنما هو شىء له خصائص وهيآت وعلامات إذا وجدت علم حسنه من قبحه ، وقد تقدم الكلام على ذلك فى باب الفصاحة والبلاغة ، وأما الذى نقلد العرب فيه من الألفاظ فإنما هو الاستشهاد بأشعارها على ما يُنْقَل من لغتها ، والأخذ بأقوالها فى الأوضاع النحوية فى رفع الفاعل ونصب المفعول وجر المضاف إليه وجزم الشرط وأشباه ذلك ، وما عداه فلا .

وحسن الألفاظ وقبحها ليس إضافياً إلى زيد دون عمرو أو إلى عمرو دون زيد ؛ لأنه وصف ذَوِىٌّ لايتغير بالإضافة ؛ ألا ترى أنّ لفظة المُزْنة مثلا حسنة عند الناس كافة من العرب وغيرهم ، وهلم جرا ، لايختلف أحد فى حسنها ، وكذلك لفظة الْبُعَاق[1] فإنها قبيحة عند الناس كافة من العرب وغيرهم ؛ فإذا استعملتها العرب لا يكون استعمالهم إياها مُخْرِجا لها عن القبح ، ولا يلتفت إذن إلى استعمالهم إياها ، بل يعاب مستعملها ، ويغلظ له النكير حيث استعملها .

وقد ذكر ابن سنان الخفاجى[2] ما يتعلق باللفظة الواحدة من الأوصاف ، وقسمها إلى عدة أقسام : كتباعد مخارج الحروف ، وأن تكون الكلمة جارية على الْعُرْف العربى غير شاذة ، وأن تكون مُصَغَّرة فى موضع يعبر به عن شىء

(١) البعاق ــ مثلث الباء ــ السيل الدفاع ، وانظر (ص ٦٦ من هذا الجزء) .

(٢) انظر كتاب « سر الفصاحة » لابن سنان الخفاجى (ص ٦٠) .

لطيف أو خفىّ أو ما جرى مجراه ، وألاّ تكون مبتذلة بين العامة ، وغير ذلك من الأوصاف .

وفى الذى ذكره مالا حاجة إليه : أما تباعد المخارج فإن معظم اللغة العربية دائر عليه ؛ لأن الواضع قسمها فى وضعه ثلاثة أقسام : ثلاثياً ، ورباعياً، وخماسياً ، والثلاثى من الألفاظ هو الأكثر ، ولا يوجد فيه ما يكره استعماله إلا الشاذ النادر ، وأما الرباعى فإنه وسط بين الثلاثى والخماسى فى الكثرة عدداً واستعمالا ؛ وأما الخماسى فإنه الأقل ، ولا يوجد فيه مايستعمل إلا الشاذ النادر ، وعلى هذا التقدير فإن أكثر اللغة مستعمل على غير مكروه ، ولا تقتضى حكمة هذه اللغة الشريفة التى هى سيدة اللغات إلا ذلك ، ولهذا أسقط الواضع حروفاً كثيرة فى تأليف بعضها مع بعض استثقال واستكراه[1] ، فلم يؤلف بين حروف الحلق كالحاء والخاء والعين ، وكذلك لم يؤلف بين الجيم والقاف ، ولا بين اللام والراء ، ولا بين الزاء والسين ، وكل هذا دليل على عنايته بتأليف المتباعد المخارج ، دون المتقارب ، ومن العجب أنه كان يخل بمثل هذا الأصل الكلى فى تحسين اللغة ، وقد اعتنى بأمور أخرى جزئية : كمماثلته بين حركات الفعل فى الوجود و بين حركات المصدر فى النطق ، كالغَلَيان والضَّرَبَان والنَّقَدَان والنَّزَوَان ، وغير ذلك مما جرى مجراه ، فإن حروفه جميعها متحركات ، وليس فيها حرف ساكن ، وهى مماثلة لحركات الفعل فى الوجود ، ومن نظر فى حكمة وضع هذه اللغة إلى هذه الدقائق التى هى كالأطراف والحواشى فكيف كان يُخِلّ بالأصل المعوّل عليه فى تأليف الحروف بعضها إلى بعض ؟ على أنه لو أراد الناظم أو الناثر أن يعتبر مخارج الحروف عند استعمال الألفاظ وهل هى متباعدة أو متقاربة لطال الخطب فى ذلك وَعَسُرَ ، ولما كان الشاعر ينظم قصيدا ولا الكاتب ينشىء كتاباً إلا فى مدة طويلة تمضى عليها أيام وليال ذوات عدد كثير ، ونحن نرى

(١) فى الأصول « فى تأليف بعضها مع بعض استثقالا واستكراها » .

الأمر بخلاف ذلك ؛ فإن حاسة السمع هى الحاكمة فى هذا المقام بحسن ما يحسن من الألفاظ وقبح ما يقبح .

وسأضرب لك فى هذا مثالا ، فأقول : إذا سُئِلت عن لفظة من الألفاظ ، وقيل لك : ماتقول فى هذه اللفظة أحسنة هى أم قبيحة ؟ فإنى لا أراك عند ذلك إلا تُفْتِى بحسنها أو قبحها على الفوْر ، ولو كنت لا تفتى بذلك حتى تقول للسائل : اصْبِرْ إلى أن أعتبر مخارج حروفها ثم أفتيك بعد ذلك بما فيها من حسن أو قبح ؛ لصحّ لابن سنان ما ذهب إليه من جعل مخارج الحروف المتباعدة شرطاً فى اختيار الألفاظ ، وإنما شذ عنه الأصل فى ذلك ، وهو أن الحسن من الالفاظ يكون متباعد المخارج ؛ فحسن الألفاظ إذن ليس معلوما من تباعد المخارج ، وإنما علم قبل العلم بتباعدها ، وكل هذا راجع إلى حاسة السمع ؛ فإذا استحسنتَ لفظاً أو استقبحْتَهُ وُجِدماتستحسنه متباعدَ المخارج وما تستقبحه متقارب المخارج ، واستحسانها واستقباحها إنما هو قبل اعتبار المخارج لابعده .

على أن هذه قاعدة قد شذ عنها شواذّ كثيرة ؛ لأنه قد يجىء فى المتقارب المخارج ماهو حسن رائق .

ألا ترى أن الجيم والشين والياء مخارج متقاربة ، وهى من وسط اللسان بينه و بين الحنك ، وتسمى ثلاثتها الشَّجَرِية ، و إذا تركب منها شىء من الألفاظ جاء حسناً رائقاً ، فإن قيل جَيْش كانت لفظة محمودة ، أو قدمت الشين على الجيم فقيل شَجِىّ كانت أيضاً لفظة محمودة .

ومما هو أقرب مخرجاً من ذلك الباء والميمُ والفاء ، وثلاثتها من الشفة ، وتسمى الشَّفَهِية ، فإذا نظم منها شىء من الألفاظ كان جميلا حسناً ، كقولنا : فَمٌ ، فهذه اللفظة من حرفين هما الفاء والميم ، وكقولنا : ذقته بِفَمِى ، وهذه اللفظة

مؤلفة من الثلاثة بجملتها ، وكلاهما حسن لاعيب فيه .

وقد ورد من المتباعد المخارج شيء قبيح أيضاً ، ولو كان التباعد سبباً للحسن لما كان سبباً للقبح ؛ إذ هما ضدان لايجتمعان .

فمن ذلك أنه يقال : مَلَعَ ؛ إذا عدا ، فالميم من الشفة ، والعين من حروف الحلق ، واللام من وسط اللسان ، وكل ذلك متباعد ، ومع هذا فإن هذه اللفظة مكروهة الاستعمال ، ينبو عنها الذوق السليم ، ولا يستعملها من عنده معرفة بفن الفصاحة .

وههنا نكتة غريبة ، وهو أنا إذا عكسنا حروف هذه اللفظة صارت عَلِمَ ، وعند ذلك تكون حسنة لامزيد على حسنها ، وما ندرى كيف صار القبح حسناً؛ لأنه لم يتغير من مخارجها شيء ، وذاك أن اللام لم تزل وسطا والميم والعين يكتنفانها من جانبيها ، ولو كان مخارج الحروف معتبراً فى الحسن والقبح لما تغيرت هذه اللفظة فى مَلَع وعَلم .

فإن قيل : إن إخراج الحروف من الحلق إلى الشفة أيسر من إدخالها من الشفة إلى الحلق ؛ فإن ذلك انْحِدَار وهذا صعود ، والانحدار أسهل .

فالجواب عن ذلك أنى أقول : لو استمرّ لك هذا لصح ماذهبت إليه ، لكنّا نرى من الألفاظ ماإذا عكسنا حروفه من الشفة إلى الحلق أو من وسط اللسان أو من آخره إلى الحلق لايتغير ، كقولنا غَلَبَ ؛ فإن الغين من حروف الحلق ، واللام من وسط اللسان ، والباء من الشفة ، و إذا عكسنا ذلك صار بَلَغَ ، وكلاهما حسن مليح ، وكذلك تقول : حَلُمَ من الحِلْم ، وهو الأَناة ، و إذا عكسنا هذه الكلمة صارت مَلُحَ ، على وزن فَعُلَ ــ بفتح الفاء وضم العين ــ وكلاهما أيضاً حسن مليح ، وكذلك تقول : عَقَرَ ورَقَعَ ، وعَرَفَ وفَرَعَ ، وحَلَفَ وفَلَحَ ، وقَلَمَ ومَلَقَ ، وكلم وملك ، ولو شئت لأوردت من ذلك شيئاً كثيراً تضيق عنه هذه الأوراق ،

ولو كان ماذكرته مطرداً لكنا إذا عكسنا هذه الألفاظ صار حسنها قبحاً ، وليس الأمر كذلك .

وأما ماذكره ابن سنان من جَرَيَان اللفظة على العرف العربى فليس ذلك مما يوجب لها حسناً ولا قبحاً ، وإنما يقدح فى معرفة مستعملها بما ينقله من الألفاظ فكيف يُعَدُّ ذلك من جملة الأوصاف الحسنة ؟

وأما تصغير اللفظة فيما يعبر به عن شىء لطيف أو خفىّ أو ماجرى مجراه فهذا مما لاحاجة إلى ذكره ؛ فإن المعنى يسوق إليه ، وليست معانى التصغير من الأشياء الغامضة التى يفتقر إلى التنبيه عليها ؛ فإنها مُدَوَّنة فى كتب النحو ، وما من كتابِ نحوٍ إلا والتصغير باب من أبوابه ، ومع هذا فإنّ صاحب هذه الصناعة مخير فى ذلك : إن شاء أن يورده بلفظ التصغير ، وإن شاء بمعناه ، كقول بعضهم :

لَوْ كَانَ يَخْفَى عَلَى ٱلرَّحْمٰنِ خَافِيَةٌ   مِنْ خَلْقِهِ خَفِيَتْ عَنْهُ بَنُو لبَدِ

فهل كان يمكن هذا الشاعر أن يصغر من هٰؤلاء القوم ويحقر من شأنهم بألفاظ التصغير ويجىء هٰكذا كما جاء بيته هذا ؟ فالوصية به إذن مُلْغاة لاحاجة إليها .

وأما الأوصاف الباقية التى ذكرت فهى التى ينبغى أن ينبه عليها ؛ فمنها ألاَّ تكون الكلمة وَحْشِيَّةً ، وقد خفى الوحشى على جماعة من المنتمين إلى صناعة النظم والنثر ، وظنوه الْمُسْتَقْبَحَ من الألفاظ ، وليس كذلك ، بل الوحشىُّ ينقسم قسمين : أحدهما غريب حسن ، والآخر غريب قبيح ، وذلك أنه منسوب إلى اسم الْوَحْش الذى يسكن الْقِفَار ، وليس بأنيس ، وكذلك الألفاظ التى لم تكن مأنوسة الاستعمال ، وليس من شرط الوحش أن يكون مُسْتَقْبَحًا ، بل أن يكون نافراً لايألف الإنس ؛ فتارة يكون حسناً ، وتارة يكون قبيحاً ، وعلى هذا فإن أحد قسمى الوحشى ــ وهو الغريب الحسن ــ يختلف باختلاف النِّسَب والإضافات ؛ وأما القسم الآخر من الوحشى الذى هو قبيح فإن الناس فى استقباحه

سواء ، ولا يختلف فيه عربى بادٍ ولا قروى مُتَحَضِّر ، وأحسن الألفاظ ما كان مألوفا متداولا ؛ لأنه لم يكن مألوفاً متداولا إلا لمكان حسنه ، وقد تقدم الكلام على ذلك فى باب الفصاحة ؛ فإن أرباب الخطابة والشعر نظروا إلى الألفاظ ونَقَّبُوا عنها ، ثم عَدَلوا إلى الأحسن منها فاستعملوه ، وتركوا ماسواه ، وهو أيضاً يتفاوت فى دَرَجات حسنه ؛ فالألفاظ إذن تنقسم ثلاثة أقسام : قسمان حَسَنان ، وقسم قبيح ؛ فالقسمان الحسنان أحدهما ماتداول استعماله الأول والآخر ، من الزمن القديم إلى زماننا هذا ، ولا يطلق عليه أنه وحشى ، والآخر ماتداول استعماله الأول دون الآخر ، ويختلف فى استعماله بالنسبة إلى الزمن وأهله ، وهذا هوالذى لايعاب استعماله عند العرب ؛ لأنه لم يكن عندهم وَحْشِيًّا ، وهو عندنا وحشى ، وقد تضمن القرآن الكريم منه كلمات معدودة ، وهى التى يطلق عليها غريب القرآن ، وكذلك تضمن الحديث النبوى منه شيئاً ، وهو الذى يطلق عليه غريب الحديث .

وحضر عندى فى بعض الأيام رجل متفلسف فجرى ذكر القرآن الكريم ، فأخذت فى وصفه ، وذكر مااشتملت عليه ألفاظه ومعانيه من الفصاحة والبلاغة ، فقال ذلك الرجل : وأىُّ فصاحة هناك وهو يقول : (تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى)؟ فهل فى لفظة (ضيزَى) من الحسن ما يوصف ؟ فقلت له : اعلم أن لاُستعمال الألفاظ أسراراً لم تقف عليها أنت ولا أئمتك ، مثل ابن سينا والفارابى ، ولا من أضلهم مثل أرسطاليس وأفلاطون ، وهذه اللفظة التى أنكرتها فى القرآن ، وهى لفظة (ضِيزَى) فإنها فى موضعها لا يَسُدُّ غيرها مَسَدَّها ؛ ألا ترى أن السورة كلها التى هى سورة النجم مسجوعة على حرف الياء ، فقال تعالى : (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَما غَوَى) وكذلك إلى آخر السورة ، فلما ذكر الأصنام وقسمة الأولاد وما كان يزعمه الكفار قال : (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ

الْأُنْثَى تِلْكَ إذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى) فجاءت اللفظة على الحرف المسجوع الذى جاءت السورة جميعها عليه ، وغيرها لا يسدّ مسدها فى مكانها ، و إذا نزّلنا معك أيها المعاند على ما تريد قلنا : إن غير هذه اللفظة أحسن منها ، ولكنها فى هذا الموضع لا ترد ملائمة لأخواتها ، ولا مناسبة ؛ لأنها تكون خارجة عن حرف السورة ، وسأبين ذلك فأقول : إذا جئنا بلفظة فى معنى هذه اللفظة قلنا قسمة جائرة أو ظالمة ولا شك أن جائرة أو ظالمة أحسن من ضيزى ، إلا أنا إذا نظمنا الكلام فقلنا : ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ظالمة لم يكن النظم كالنظم الأول وصار الكلام كالشىء المعوز الذى يحتاج إلى تمام ، وهذا لا يخفى على من له ذوق ومعرفة بنظم الكلام ، فلما سمع ذلك الرجل ما أوردته عليه رَبَا لسانه فى فمه إفحاما ، ولم يكن عنده فى ذلك شىء سوى العناد الذى مستنده تقليد بعض الزنادقة الذين يكفرون تشهّياً ، و يقولون ما يقولونه جهلا و إذا حُوقِقُوا عليه ظهر عجزهم وقصورهم .

وحيث انتهى القول إلى ههنا فإنى أرجع إلى ما كنت بصدد ذكره فأقول:

وأما القبيح من الألفاظ الذى يعاب استعماله فلا يسمى وَحْشيًّا فقط ، بل يسمى الوحشى الغليظ ، وسيأتى ذكره ، و إذا نظرنا إلى كتاب الله تعالى الذى هو أفصح الكلام وجدناه سهلا سلساً ، وما تضمنه من الكلمات الغريبة يسير جداً ، هذا ، وقد أنزل فى زمن العرب العرباء وألفاظه كلها من أسهل الألفاظ ، وأقربها استعمالا ، وكفى به قُدْوَةً فى هذا الباب ، قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « مَا أَنْزَلَ اللهُ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فى الإنْجِيلِ مِثْلَ أُمِّ الْقُرْآنِ ، وَهِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي » ، يريد بذلك فاتحة الكتاب ؛ وإذا نظرنا إلى ما اشتملت عليه من الألفاظ وجدناها سهلة قريبة المأخذ يفهمها كل أحد حتى صبيان المكاتب وعوامّ السوقة ، و إن لم يفهموا ما تحتها من أسرار الفصاحة والبلاغة ؛ فان أحسن الكلام ما عرف الخاصة فضله ، وفهم العامة معناه ، وهكذا فلتكن الألفاظ المستعملة

فى سهولة فهمها وقرب متناولها ، والمُقْتَدِى بألفاظ القرآن يكتفى بهـا عن غيرها من جميع الألفاظ المنثورة والمنظومة .

وأما ما ورد من اللفظ الوحشى فى الأخبار النبوية فمن جملة ذلك حديث طَهْفَة بن أبى زهير النهدى ، وذاك أنه لما قدمت وفود العرب على النبى صلى الله عليه وسلم قام طَهْفَة بن أبى زهير فقال : أتيناك يا رسول الله من غَوْرِىِّ تِهَامَة على أَكْوَارِ المَيْسِ(١) ، ترتمى بنا العِيسُ(٢) ، نَسْتَجْلِبُ الصَّبِيرَ(٣) ، وَنَسْتَخْلِبُ الخَبِيرَ(٤) ، ونَسْتَعْضِدُ البَرِيرَ(٥) ، ونَسْتَخِيل الرِّهَامَ(٦) ، ونستخيل الجَهام(٧) ،

---

(١) الميس — بفتح الميم وسكون الياء — هو شجر صلب تعمل منـه أكوار الإبل ورحالها .

(٢) العيس — بكسر العين المهملة — الإبل البيض يخالط بياضها شقرة يسيرة ، واحدها أعيس وعيساء .

(٣) الصبير — بفتح الصاد المهملة — سحاب أبيض متراكم متـكاثف .

(٤) الخبير : النبات ، ونستخلبه : نحصده ونقطعه بالمخلب ، والمخلب — بزنة منبر — المنجل .

(٥) البرير : ثمر الأراك مطلقا ، ويقال : إذا اسودّ و بلغ . ونستعضده : نجنيه للأكل .

(٦) نستخيل : نظن ، وهو نستفعل من خال يخال ، بمعنى ظن يظن . والرهام : جمع رهمة ، وهى المطر الضعيف ، و يقال : الرهمة أشد وقعا من الديمة ، ومعنى نستخيلها نظنها خليقة بالمطر ، وتقول : أخلت السحابة وأخيلتها واستخيلتها واستخلتها ، وقد روى ابن الأثير هذه العبارة كما رواها أخوه هنا فى مادة (ر هـ م) من النهاية ، وروى فى مادة (خ ى ل) « ونستخيل الجهام » .

(٧) الجهام : السحاب الذى فرغ ماؤه ، وقد وقع فى ب ، ج « نستجيل » بالجيم ، وهو تحريف ، وهذه الكلمة قد رويت « نستحيل » بالحاء المهملة ، ورويت « نستخيل » بالخاء معجمة ، قال ابن الأثير فى النهاية (ج هـ م) : « الجهام : السحاب الذى فرغ

فى أرض غائلة النِّطاءِ(١) ، غليظة الْوِطَاء ، قد نَشِف المُدْهُنُ(٢) ، وَيَبِسَ الجِعْثِن(٣) ، وسَقَطَ الأمْلُوجُ(٤) ، وَماتَ العُسْلُوجُ(٥) ، وهَلَكَ الْهَدِىُّ(٦) وَفَادَ الْوَدِىُّ(٧) ، بَرِئْنا إليك يارسول الله من الْوَثَنِ والْفِتَنِ ، وما يحدث الزمن،

ماؤه ، ومن روى نستخيل ـ بالخاء المعجمة ـ أراد لانتخيل فى السحاب خالا إلا المطر و إن كان جهاما لشدة حاجتنا إليه ، ومن رواه بالحاء المهملة أراد لاننظر من السحاب فى حال إلا إلى جهام من قلة المطر .

(١) وردت هـذه العبارة فى ب ، ج « غائلة الغطاء » بالغين المعجمة ، وصوابه «غائلة النطاء » بالنون ، والنطاء ـ بزنة كتاب ـ البعد ، وتقول : بلد نطىّ ، مثل بعيد وزنا ومعنى ، ويروى « غائلة المنطى » والمنطى : مصدر ميمى بمعنى البعد ، والمراد بقوله « غائلة النطاء» أنها تغول سالـكيها وتهلـكهم ببعدها .

(٢) نشف : جف ، والمدهن ـ بضم الميم والهاء بينهما دال مهملة ساكنة ـ نقرة فى الجبل يجتمع فيها المطر .

(٣) الجعثن ـ بكسر الجيم والثاء المثلثة بينهما عين مهملة ساكنة ـ هو أصل النبات

(٤) الأملوج : هو نوى المقل ، وقيل : هو ورق من أوراق الشجر يشبه الطرفاء والسرو ، وقيل : هو ضرب من النبات ورقه كالعيدان ؛ وفى رواية « سَقَطَ الْأُمْلُوجُ مِنَ الْبِكَارَةِ » والبكارة : جمع بكر ـ بفتح فسكون ـ وهو الفتىّ السمين من الإبل : أى سقط عنها ماعلاها من السمن برعى الأملوج ؛ فسمى السمن نفسه أملوجا على سبيل الاستعارة ، قاله الزمخشرى .

(٥) العسلوج : هو الغصن إذا يبس وذهبت طراوته ، وقيل : هو الحديث الطلوع من قضبان الشجر ، يريد أن الأغصان يبست وهلـكت من الجدب ، وجمع العسلوج عساليج .

(٦) الهدى ـ على وزن فعيل ـ مثل الهدى ـ بفتح فسكون ـ وهو مايهدى إلى البيت الحرام من النعم لينحر هناك ، وأطلق على جميع الإبل و إن لم تكن هديا ، من باب الإطلاق والتقييد .

(٧) فاد : مات ، والودىّ : صغار النخل ، واحدته ودّية ، و يروى «ومات الودىّ» كما رواه ابن الأثير فى النهاية

لنا دعوة السَّلَام ، وشريعة الإسلام ، ماطَمَى الْبَحْرُ وقامَ تِعارُ[١] ، ولنا نَعَم هَمَل أَغْفَال[٢] ماتَبِضُّ بِبِلاَل[٣] ، وَوَقِير[٤] كَثِير الرَّسَل ، قَلِيل الرِّسْل[٥] ، أصابتنا سُنَيَّة حَمْراء مُؤْزِلَة[٦] ليس لهـا عَلَلٌ وَلاَ نَهَل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي مَحْضِهَا[٧] وَمَخْضِهَا[٨] وَمَذْقِهَا[٩] وفِرْقِهَا[١٠] ، وابعث راعيها فى الدَّثْر[١١] بيَانِـعِ الثمر ، وافْجُرْ له الثَّمَد[١٢] ، وبارك له فى المال

(١) تعار ـ بكسر التاء أوله ـ جبل بعينه ، ويجوز صرفه وترك صرفه .

(٢) وقع فى الأصول « نعم همل أعقال » والتصحيح عن ابن الأثير فى النهاية ، والأغفال : التى لاعلامة لها ولا سمة ، ويقال : المراد بالأغفال هنا التى لا ألبان لها ، واحدها غفل ، مثل قفل وأقفال .

(٣) « تبض » تسيل ؛ تقول : بض المـاء ، إذا قطر وسال ، والبلال ـ بكسر الباء ـ مايبل الحلق ، يريد مايقطر منها لبن .

(٤) الوقير : الغنم ، ويقال : أصحابها ، ويقال : القطيع من الضأن خاصة ، وقيل : هو الغنم والـكلاب والرعاء جميعا ، وكثير الرسل : أى أنها كثيرة الإرسال فى المرعى ، وهو بفتح الراء والسين جميعا .

(٥) « قليل الرسل » بكسر الراء وسكون السين ـ أى اللبن ، يريد أن الذى يرسل إلى المرعى من الغنم كثير ولـكنه لالبن فيه ، ويقال : إن المعنى أنه شديد التفرق فى طلب المرعى .

(٦) مؤزلة ـ بضم الميم وسكون الهمزة ، ويروى بضم الميم وفتح الهمزة وتشديد الزاى مكسورة ـ يريد آتية بالأزل ، وهو الجدب والشدة والضيق .

(٧) المحض ـ بالحاء المهملة ـ الخالص .

(٨) المخض ـ بالخاء المعجمة ـ مامخض من اللبن وأخذ زبده .

(٩) المذق : المزج والخلط ، تقول : مذقت اللبن ، إذا خلطته بالمـاء ، والمراد هنا المخلوط .

(١٠) الفرق ـ بكسر الفاء ، وبعضهم يفتحها ـ مكيال يكال به اللبن .

(١١) الدثر ـ بفتح فسكون ـ المال الـكثير ، ويقال : المراد به هنا الخصب والنبات .

(١٢) الثمد ـ بفتح الثاء والميم ـ القليل ، ومعنى افجره : صيره لهم كثيرا .

والولد ، ومن أقام الصلاة كان مسلما ، ومن آتى الزكاة كان مُحْسناً ، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصاً ، لكم يابنى نَهْد وَدَائعُ الشرك[١] ، ووَضَائعُ[٢] المِلْك ، لاتُلْطِطْ فى الزكاة[٣] ، ولا تُلْحِدْ فى الحياة[٤] ، ولا تَتَثَاقَلْ عن الصَّلاة .

وكتب معه كتابا إلى بنى نَهْدٍ « من محمد رسول الله إلى بنى نَهْدٍ ، السلام على من آمن بالله ورسوله ، لكم يابنى نَهْدٍ فى الوَظِيفَةِ الفريضة[٥] ، ولكم الفارض والفريش[٦] وذو العنان الركوب

(١) ودائع الشرك : العهود والمواثيق ، ويقال : توادع الفريقان ؛ إذا أعطى كل واحد منهما الآخر عهدا ألا يغزوه ، واسم ذلك العهد الوديع ، وتقول : أعطيته وديعا ؛ تريد عهدا .

(٢) الوضائع : جمع وضيعة ، وهى الوظيفة التى تكون على الملك ، وهى مايلزم الناس من أموالهم من الصدقة والزكاة : أى لكم الوظائف التى تلزم المسلمين لانتجاوزها معكم ولا نزيد عليكم شيئا منها .

(٣) لاتلطط فى الزكاة : أى لاتمنعها ؛ يقال : لط الغريم ، وألط ، إذا منع الحق ؛ ويقال : لط الحق بالباطل ؛ إذا ستره ، ويروى « لايلطط فى الزكاة » بياء المضارعة و بناء الفعل للمجهول .

(٤) لا تلحد فى الحياة : أى لا يكن منك ميل عن الحق مادمت حيا ، ويروى «ولا يلحد فى الحياة» بياء المضارعة و بناء الفعل للمجهول ، ويروى ، « ولا نلطط فى الزكاة ، ولا نلحد فى الحياة » بنون المضارعة مع البناء للمعلوم .

(٥) لكم فى الفريضة الوظيفة : أى لكم فى فريضة الزكاة الهرمة المسنة ، يريد أنها تبقى لكم ولا تؤخذ منكم ، ورويت هذه العبارة « عليكم فى الوظيفة الفريضة » والمراد على هذا الوجه أن عليهم فى كل نصاب من أنصبة الزكاة مافرض فيه لايزاد عليها ولا ينقص منها .

(٦) الفريض والفارض : المسن من الإبل . وقد رويت هذه العبارة على ثلاثة أوجه : أولها « لكم الفارض والفريض » وثانيها « لكم الفارض والفريش » وهى هكذا فى أصول كتابنا هذا ، وثالثها « لكم العارض والفريش » والعارض — بالعين المهملة — المريضة ، وقيل : هى التى أصابها كسر ، ويقال: عرضت الناقة ،

والْفَلُوُّ الضَّبِيس(١) ، لا يُمْنَعُ سَرْحكم(٢) ، ولا يُعْضَدُ طَلْحُكم(٣) ، ولا يُحْبَسُ درّكم ، ولا يؤكل أكلكم ، مالم تضمروا الإمّاق(٤) ، وتأكلوا الرباق(٥) ، من أقرّ بما فى هذا الكتاب فله من رسول الله الوفاء بالعهد والذمة ، ومن أبى فعليه الرِّبْوَة(٦) » .

وفصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتقتضى استعمال هذه الألفاظ ، ولا تكاد توجد فى كلامه ، إلا جوابا لمن يخاطبه بمثلها ، كهذا الحديث وما جرى مجراه ، على أنه قد كان فى زمنه متداولا بين العرب ، ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يستعمله إلا يسيراً ؛ لأنه أعلم بالفصيح والأفصح .

إذا أصابها كسر أو آفة، والمعنى إنا لا نأخذ ذات العيب. والفريش : الناقة الحديثة النتاج كالنفساء من النساء، ويقال : الفريش من النبات ما انبسط على وجه الأرض ولم يقم على ساق ، ويقال : فرس فريش ، إذا حمل عليها صاحبها بعد النتاج بسبع .

(١) الفلو الضبيس : أى المهر العسر الذى لم يرض .

(٢) السرح ــ بفتح فسكون ــ والسارح ، والسارحة : الماشية ، والمراد من قوله « لايمنع سرحكم » أنها لا تصرف عن مرعى تريده .

(٣) يعضد : يقطع ، والطلح : شجر .

(٤) الإمآق : مصدر أمأق الرجل ، إذا صار ذا حمية وأنفة ، وقيل : صار ذا حدة وجراءة ، والمراد هنا مالم تضمروا فى أنفسكم الغدر بالعهود ونكث المواثيق ، فأطلق السبب وأراد المسبب وروى « الإماق » وهو بوزن كتاب مخفف من الأول.

(٥) الرباق ــ بكسر الراء ــ جمع ربقة ، وأصل الربقة عروة من حبل تجعل فى عنق البهيمة أوفى يدها تمسكها ، وقد شبه مايلزم الأعناق من العهد بالرباق ، واستعار الأكل لنقض العهد ، فإن البهيمة إذا أكلت ربقتها خلصت من الشد .

(٦) «من أبى فعليه الربوة» أى من امتنع عن الزكاة وتقاعد عن أدائها وجب عليه الزيادة ، كعقوبة له ، ويروى «من أقر بالجزية فعليه الربوة » أى من امتنع عن الإسلام لأجل الزكاة كان عليه من الجزية أكثر مما عليه من الزكاة .

وهذا الكلام هو الذى نَعُدُّه نحن فى زماننا وحشياً لعدم الاستعمال ، فلا تظن أن الوحشى من الألفاظ ما يكرهه سمعك ، و يثقل عليك النطق به ، وإنما هو الغريب الذى يقل استعماله ، فتارةً يَخِفُّ على سمعك ولا تجد بِهِ كراهة ، وتارةً يثقل على سمعك وتجد منه الكراهة ، وذلك فى اللفظ عيبان : أحدهما أنه غريب الاستعمال ، والآخر أنه ثقيل على السمع كريه على الذوق ، وإذا كان اللفظ بهذه الصفة فلا مزيد على فظاظته وغلاظته ، وهو الذى يسمى الوحشى الغليظ ، ويسمى أيضاً المتوعِّر ، وليس وراءه فى القبح درجة أخرى ، ولا يستعمله إلا أجهل الناس ممن لم يخطر بباله معرفة هذا الفن أصلا .

فإن قيل : فما هذا النوع من الألفاظ ؟

قلت : قد ثبت لك أنه ما كرهه سمعك ، وثقل على لسانك النطق به ، وسأضرب لك فى ذلك مثالا ؛ فمنه ماورد لتأبط شراً فى كتاب الحماسة(١) :

يَظَلُّ بِمَوْمَاةٍ وَيُمْسِى بِغَيْرِهَا جَحِيشاً وَيَعْرَوْرِى ظُهُورَ الْمَسَالِكِ(٢)

فإن لفظة «جحيش» من الألفاظ المنكرة القبيحة ، و ياللّٰه العجب : أليس أنها بمعنى فريد ، وفريد لفظة حسنة رائقة ، ولو وضعت فى هذا البيت موضع جحيش لما اختلّ شىء من وزنه ، فتأبط شراً ملوم من وجهين فى هذا الموضع : أحدهما أنه استعمل القبيح ، والآخر أنه كانت له مندوحة عن استعماله فلم يعدل عنها .

---

(١) من كلمة له رواها أبو تمام فى الحماسة (انظر شرح التبريزى : ١ — ٩٠) وأولها قوله :

وَإِنِّى لَمُهْدٍ مِنْ ثَنَائِى فَقَاصِدٌ بِهِ لِابْنِ عَمِّ الصِّدْقِ شُمْسِ بْنِ مَالِكِ

(٢) الموماة : المفازة التى لاماء فيها ، وتجمع على الموامى ، وجحيشا : منفردا ، كما قال المؤلف ، ووقع فى ج «حجيش» بتقديم المهملة ، وهو تصحيف ، «و يعرورى» من قولهم : اعرورى الفرس ، إذا ركبه عريا . وفى الحماسة «ظهور المهالك» .

ومما هو أقبح منها ماورد لأبى تمام [من] قوله[(١)] :

قَدْ قُلْتُ لَمَّا اطْلَخَمَّ الأَمْرُ وَانبَعَثَتْ عَشْــوَاءُ تَالِيَةٌ غُبْساً دَهَارِيسا[(٢)]

فلفظة « اطْلَخَمَّ » من الألفاظ المنكرة التى جمعت الوصفين القبيحين فى أنها غريبة وأنها غليظة فى السمع كريهة على الذوق ، وكذلك لفظة « دهاريس » أيضاً ، وعلى هذا ورد قوله من أبيات يصف فرساً من جملتها[(٣)] :

نِعْمَ مَتَاعُ الدُّنيـــا حَبَاكَ بِهِ أَرْوَعُ لاَحَيْــدَرٌ وَلاَ جِبْسُ[(٤)]

فلفظة « حيدر » غليظة ، وأغلظ منها قول أبى الطيب المتنبى[(٥)] :

جَفَخَتْ وَهُمْ لاَيَجْفَخُونَ بِهَابِهِمْ شِيَمٌ عَلَى الْحَسَبِ الْأَغَرِّ دَلاَئِلُ[(٦)]

فإن لفظة « جَفَخَ » مُرَّة الطعم ، وإذا مرت على السمع أقشعر منها ، وأبو الطيب فى استعمالها كاستعمال تأبط شراً لفظة جحيش ؛ فإن تأبط شراً كانت له مندوحة عن استعمال تلك اللفظة ، كما أشرنا إليه فيما تقدم ، وكذلك أبو الطيب

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها عياش بن لهيعة ، وأولها قوله :

أَحْيَا حُشَاشَةَ قَلْبٍ كَانَ مَخْلُوساً وَرَمَّ بِالصَّبْرِ عَقْلاً كَانَ مَأْلُوسا

(٢) اطلخم : أظلم ، عشواء : مؤنث الأعشى ، وهو الذى لايبصر ليلا ، والغبس: جمع غبساء أو أغبس ، وهى المظلمة ، والدهاريس : الدواهى .

(٣) من قصيدة له يمدح فيها الحسن بن وهب، وأولها قوله :

هَلْ أَثَرٌ مِنْ دِيَارِهِمْ دَعِسُ حَيْثُ تَلاَقَى الأَجْرَاعُ وَالْوَعْسُ

(٤) حباك : منحك وأعطاك ، والأروع : الذى يعجب الإنسان ، والحيدر : القصير ، والجبس : الجامد الثقيل الروح .

(٥) من قصيدة له يمدح فيها أبا الفضل أحمد بن عبدالله الأنطاكى ، وأولهاقوله :

لَكِ يَامَنَازِلُ فى الْقُلُوبِ مَنَازِلُ أَقْفَرْتِ أَنْتِ وَهُنَّ مِنْكِ أَوَاهِلُ

(٦) الشيم : جمع شيمة ؛ وهى الخليقة ، و « شيم » فاعل جفخت ، ونظام البيت : جفخت بهم شيم دلائل على الحسب الأغر وهم لايجفخون بها .

فى استعمال هذه اللفظة التى هى جَفَخَتْ ؛ فإن معناها فخرت ، والْجَفْخُ : الفخر ، يقال : جَفَخَ فلان ؛ إذا فخر ، ولو استعمل عوضاً عن جَفَخَتْ فَخَرَتْ لاستقام وزن البيت وحظى فى استعماله بالأحسن ، وما أعلم كيف يذهب هذا وأمثاله على مثل هؤلاء الفحول من الشعراء ؟

وهذا الذى ذكرته وما يجرى مجراه من الألفاظ هو الوحشى اللفظ الغليظ الذى ليس له مايدانيه فى قبحه وكراهته ، وهـذه الأمثلة دليل على ماأوردناه ، والعرب إذن لاتُلَام على استعمال الغريب الحسن من الألفاظ ، وإنما تلام على الغريب القبيح ، وأما الحضرى فإنه يلام على استعمال القسمين معاً ، وهو فى أحدهما أشد مَلاَمة من الآخر .

على أن هذا الموضع يحتاج إلى قيد آخر ، وذلك شىء استخرجته أنا دون غيرى ؛ فإنى وجدت الغريب الحسن يسوغ استعماله فى الشعر ، ولا يسوغ فى الخطب والمكاتبات ، وهذا ينكره من يسمعه حتى ينتهى إلى ماأوردته من الأمثلة ، ولربما أنكره بعد ذلك إما عناداً وإما جهلا ؛ لعدم الذوق السليم عنده .

فمن ذلك قول الفرزدق(١) :

وَلَوْلاَ حَيَاءٌ زِدْتُ رَأْسَكَ شَجَّةً إِذَا سُبِرَتْ ظَلَّتْ جَوَانِبُهَا تَغْلِي(٢)
شَرَنْبَثَةٌ شَمْطَاءُ مَنْ يَرَ مَابِهَا تَشِبْهُ وَلَوْ بَيْنَ الْخُمَاسِيِّ وَالطِّفْلِ(٣)

فقوله « شَرَنْبَثَة » من الألفاظ الغريبة التى يسوغ استعمالها فى الشعر ،

(١) من قصيدة له يهجو فيها جريرا ، وأولها قوله :

أَلاَ اسْتَهْزَأَتْ مِنِّى هُنَيْدَةُ أَنْ رَأَتْ أَسِيراً يُدَانِى خَطْوَهُ حَلَقُ الْحِجْلِ

(٢) فى الديوان والنقائض « زدت رأسك هزمة » .

(٣) البيتان ليسا متصلين فى الديوان والنقائض ، وبينهما خمسة أبيات ، وفيهما فى صدر هذا البيت « شرنبثة شمطاء من ير مابها » .

وهى هٰهنا غير مستكرهة ، إلا أنها لو وردت فى كلام منثور من كتاب أو خطبة لعيبت على مستعملها .

وكذلك وردت لفظة « مشمخر » فإن بشرا[١] قد استعملها فى أبياته التى يصف فيها لقاءه الأسد ، فقال :

وَأَطْلَقْتُ الْمُهَنَّدَ عَنْ يَمِينِي ... فَقَدَّ لَهُ مِنَ الْأَضْلَاعِ عَشْرَا

فَخَرَّ مُضَرَّجاً بِدَمٍ كَأَنِّى ... هَدَمْتُ بِهِ بِنَاءً مُشْمَخِرَّا

وعلى هذا ورد قول البحترى فى قصيدته التى يصف فيها إيوان كسرى[٢] ، فقال :

مُشْمَخِرٌّ تَعْلُو لَهُ شُرُفَاتٌ ... رُفِعَتْ فِى رُءُوسِ رَضْوَى وَقُدْسِ

فإن لفظة « مشمخر » لايحسن استعمالها فى الخطب والمكاتبات ، ولا بأس بها هٰهنا فى الشعر ، وقد وردت فى خطب الشيخ الخطيب ابن نُبَاتة ، كقوله فى خطبة يذكر فيها أهوال يوم القيامة ، فقال : « اقمطر وبالها ، واشمخر نكالها » فما طابت ولا ساغت .

ومن هذا الأسلوب لفظة « الكَنَهْوَر » فى وصف السحاب ، كقول أبى الطيب[٣] :

---

(١) هذه القصيدة لبديع الزمان الهمذانى نحلها بشر بن عوانة العبدى ، وأولها قوله :

أَفَاطِمَ لَوْ شَهِدْتِ بِبَطْنِ خَبْتٍ ... وَقَدْ لَاقَى الْهِزَبْرُ أَخَاكِ بِشْرَا

(٢) وأولها قوله :

صُنْتُ نَفْسِى عَمَّا يُدَنِّسُ نَفْسِى ... وَتَرَفَّعْتُ عَنْ جَدَا كُلِّ جِبْسِ

(٣) من قصيدة له يمدح فيها أبا الفضل بن العميد ، وأولها قوله :

بَادٍ هَوَاكَ صَبَرْتَ أَمْ لَمْ تَصْبِرَا ... وَبُكَاكَ إِنْ لَمْ يَجْرِ دَمْعُكَ أَوْ جَرَى

يَالَيْتَ بَاكِيَةً شَجَانِي دَمْعُهَا نَظَرَتْ إِلَيْكَ كَما نَظَرْتُ فَتَعْذِرَا
وَتَرَى الْفَضِيلَةَ لاَ تَرُدُّ فَضِيلَةً الشَّمْسَ تَشْرُقُ وَالسَّحَابَ كَنَهْوَرَا(١)

فلفظة « الكنهور » لاتعاب نظما ، وتعاب نثرا ، وكذلك يجرى الأمر فى لفظة « العرمس » وهى اسم الناقة الشديدة ؛ فإن هذه اللفظة يسوغ استعمالها فى الشعر، ولا يعاب مستعملها ، كقول أبى الطيب أيضاً (٢) :

وَمَهْمَهٍ جُبْتُهُ عَلَى قَدَمِى تَعْجِزُ عَنْهُ الْعَرَامِسُ الذُّلُلُ(٣)

فإنه جمع هذه اللفظة ، ولا بأس بها ، ولو استعملت فى الكلام المنثور لما طابت ولا ساغت ، وقد جاءت موحدة فى شعر أبى تمام ، كقوله (٤) :

هِىَ الْعرمسُ الْوَجْنَاء وابنُ ملمةٍ وَجَأْشٌ عَلَى مايُحْدِثُ الدَّهْرُ خافِضُ(٥)

وكذلك ورد قوله أيضاً :

* يَا مُوضِعَ الشَّدَنِيةِ الْوَجْنَاءِ(٦) *

---

(١) نصب « الشمس والسحاب » بفعل مضمر ، كأنه قال : وترى الشمس والسحاب ، وكنهور : حال .

(٢) من قصيدة يمدح فيها بدر بن عمار ، وأولها قوله :

أَبْعَدُ نَأْيِ الْمَلِيحَةِ الْبَخَلُ فِي الْبُعْدِ مَالاَ تُكَلَّفُ الإِبِلُ

(٣) المهمه : مابعد من الأرض واتسع ، وجبته : قطعته ، والعرامس : النوق الصلاب الشداد ، والذلل : المذللة بالعمل ، واحدها ذلول .

(٤) من قصيدة له يمدح فيها دينار بن عبد الله :

مَهَاةَ النَّقَا لَوْلاَ الشَّوَى وَالْمَآبِضُ وَأَنْ مَحَضَ الإِعْرَاضَ لِى مِنْكِ مَاحِضُ

(٥) الذى فى الديوان (١٨٤ بيروت) « هى الحرة الوجناء » .

(٦) هـذا صدر بيت هو مطلع قصيدة يمدح فيها خالد بن يزيد الشيبانى ، وعجزه قوله :

* وَمُصَارِعَ الْإِدْلاَجِ وَالْإِسْرَاءِ *

وموضع : اسم فاعل من أوضع إذا سير ناقته سيرا سريعا .

فإن « الشدنية » لا تعاب شعرا ، وتعاب لو وردت فى كتاب أو خطبة ، وهكذا يجرى الحكم فى أمثال هذه الألفاظ المشار إليها .

وعلى هذا فاعلم أن كل ما يسوغ استعماله فى الكلام المنثور من الألفاظ يسوغ استعماله فى الكلام المنظوم ، وليس كل ما يسوغ استعماله فى الكلام المنظوم يسوغ استعماله فى الكلام المنثور ، وذلك شىء استنبطته ، واطلعت عليه ؛ لكثرة مُمَارستى لهذا الفن ، ولأن الذوق الذى عندى دَلَّنى عليه ؛ فمن شاء فليقلدنى فيه ، وإلا فلْيُدْمِنِ النظر حتى يطَّلع على ما اطلعت عليه ، والأذهان فى مثل هذا المقام تتفاوت .

وقد رأيت جماعةً من مُدَّعِى هذه الصناعة يعتقدون أن الكلام الفصيح هوالذى يَعِزّ فهمه ، وَيَبْعُدُ مُتناوله ، وإذا رأوا كلاما وَحْشِيًّا غامض الألفاظ يُعْجَبون به و يصفونه بالفصاحة ، وهو بالضد من ذلك ؛ لأن الفصاحة هى الظهور والبيان ؛ لا الغموض والخفاء .

وسأبين لك ما تعتمد عليه فى هذا الموضع ؛ فأقول :

الألفاظ تنقسم فى الاستعمال إلى جَزْلة ورقيقة ، ولكل منهما موضع يحسن استعماله فيه .

فالجزل منها يستعمل فى وصف مواقف الحروب ، وفى قوارع التهديد والتخويف ، وأشباه ذلك .

وأما الرقيق منها فإنه يستعمل فى وصف الأشواق وذكر أيام البعاد ، وفى استجلاب المودّات ، وملاينات الاستعطاف ، وأشباه ذلك .

ولست أعنى بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشياً متوعِّراً عليه عنجهية البداوة ، بل أعنى بالجزل أن يكون متيناً على عذوبته فى الفم ولذاذته فى السمع ، وكذلك لست أعنى بالرقيق أن يكون ركيكا سفسفاً ، وإنما هو اللطيف الرقيق

الحاشية الناعم الملمس ، كقول أبي تمام[١] :

نَاعِمَاتِ الأَطْرَافِ لَوْ أَنَّهَا تُلْـــبَسُ أَغْنَتْ عَنِ المُلاَءِ الرِّقَاقِ[٢]

وسأضرب لك مثالا للجزل من الألفاظ والرقيق ، فأقول :

انظر إلى قوارع القرآن عند ذكر الحساب والعذاب والميزان والصراط ، وعند ذكر الموت ومفارقة الدنيا ، وما جرى هذا المجرى ؛ فإنك لا ترى شيئا من ذلك وحشيَّ الألفاظ ، ولا متوعراً ، ثم انظر إلى ذكر الرحمة والرأفة والمغفرة ، والملاطفات في خطاب الأنبياء ، وخطاب المنيبين والتائبين من العباد ، وما جرى هذا المجرى ؛ فإنك لا ترى شيئا من ذلك ضعيف الألفاظ ولا سفسفاً .

فمثال الأول ــ وهو الجزل من الألفاظ ــ قوله تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ، وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ، وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ، وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا قَالُوا بَلَى وَلٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ، قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها إسماعيل بن شهاب ويشكره ؛ وأولها قوله :

أَيُّهَا الْبَرْقُ بِتْ بِأَعْلَى الْبِرَاقِ وَاغْدُ فِيهَا بِوَابِلٍ غَيْدَاقِ

وانظر الديوان (٣٢٠ بيروت) .

(٢) قبل هذا البيت قوله :

مَا تَمَلَّيْتُ مِثْلَ ذَاكَ الْحِجَى الْمُعْـــرِقِ فِي الْحِلْمِ وَالسَّجَايَا الْعِتَاقِ

مَعَ مَاقَدْ طَوَيْتُ مِنْ سَائِرِ النَّا سِ وَمَا قَدْ نَشَرْتُ فِي الآفَاقِ

فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ، وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) .

فتأمل هـذه الآيات المضمنة ذكر الحشر على تفاصيل أحواله وذكر النار والجنة . وانظر هل فيها لفظة إلا وهى سَهْلة مستعذبة على ما بها من الجزالة .

وكذلك ورد قوله تعالى : (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) .

وأما مثال الثانى ــ وهو الرقيق الألفاظ ــ فقوله تعالى فى مخاطبة النبى صلى الله عليه وسلم : (وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى) إلى آخر السورة ، وكذلك قوله تعالى فى ترغيب المسألة (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)

وهكذا ترى سبيل القرآن الكريم فى كلا هذين الحالين من الجزالة والرقة، وكذلك كلام العرب الأول فى الزمن القديم مما ورد عنها نثراً ، ويكفى من ذلك كلام قبيصة بن نعيم لما قدم على امرئ القيس فى أشياخ بنى أسد يسألونه العفو عن دم[1] أبيه ، فقال: إنك فى المحل والقدر من المعرفة[2] بتصرف الدهر وما تحدثه أيامه وتنتقل به أحواله بحيث لاتحتاج إلى تذكير من واعظ،ولاتبصيرمن مُجَرِّب[3]

---

(١) وردت هـذه القصة ، ومحاورة قبيصة وامرىء القيس فى الأغانى (ج ٩ ص ١٠٤ دار الكتب ، فانظرها هناك) .

(٢) فى الأغانى « والمعرفة » .

(٣) فى الأغانى « بحيث لاتحتاج إلى تبصير واعظ ولا تذكرة مجرب » .

ولك من سُؤْدُد مَنْصبك وشرف أعْرَاقك وكرم أصلك فى العرب محتد(١) يَحْتَمِل ماحُمِل عليه من إقالة الْعَثْرَة ورُجُوع عن الهَفْوَة(٢)، ولا تتجاوز الهمم إلى غاية إلا رجعت إليك فوجَدَتْ عندك من فضيلة الرأى و بصيرة الفهم وكرم الصفح(٣) مايطول رغباتها و يستغرق طلباتها ، وقد كان الذى كان من الخطب الجليل الذى عَمَّتْ رَزِيَّته نزاراً واليمن ولم تخصص بذلك كندة دوننا للشرف البارع الذى كان لحجر(٤)، ولو كان يفدى هالك بالأنفس الباقية بعده لما بَخِلت كرائمنا بها على مثله(٥)، ولـكنه مضى به سبيل لايرجع أخراه على أولاه ، ولا يلحق أقصاه أدْناه : فأحمد الحالات فى ذلك أن تعرف الواجبَ عليك فى إحدى خلال ثلاث : إما أن اخترت من بنى أسد أشرَفَها بيتا ، وأعلاها فى بناء المـكرمات صَوْتا ، فَقُدْنَاهُ إليك بِنِسْعَةٍ تذهب مع شَفَرَاتِ حُسَامك بباقى قُصْرَته(٦)، فنقول : رجل امْتُحِن بها لك عزيز فلم يَسْتَلَّ سَخِيمته إلا بمكنته(٧) من الانتقام ، أو فداء بما يروح على بنى أسد من نَعَمِها فهى ألوف تجاوز الحسبة(٨) ، فكان ذلك فداء رجعت به القُضُب إلى أجفانها لم يردها تسليط الإحن على الْبُرَآء ، و إما أن وَادَعْتَنَا إلى

(١) فى الأغانى « محتمل » .
(٢) فى الأغانى « عن هفوة » .
(٣) فى الأغانى « وكرم الصفح فى الذى كان من الخطب الجليل » .
(٤) فى الأغانى « كان لحجر التاج والعمة فوق الجبين الـكريم و إخاء الحمد وطيب الشيم » .
(٥) فى الأغانى زيادة « ولفديناه منه » .
(٦) كذا فى الأصول ، والذى فى الأغانى «تذهب مع شفرات حسامك قصدته» والقصدة ــ بفتحات ــ العنق ، ولما فى أصول هذا الـكتاب وجه ولـكنه بعيد .
(٧) فى الأغانى « إلا بتمـكينه من الانتقام » .
(٨) فى الأصول « الحمسة » وهو تحريف ، والتصويب عن عـدة مراجع منها الأغانى .

أن تضع الحوامل ، فتُسْدل الأزر ، وتعقد الخمر فوق الرايات ، قال : فبكى ساعة ثم رفع رأسه ، فقال : لقد علمت العرب أنه لا كفء لحجر فى دم ، وإنى لن أعتاض [به] جملاً ولا ناقة فأكتسب به سُبَّة الأبد ، وفتَّ الْعَضُد ، وأما النَّظِرَة فقد أوجبتها الأجِنَّة فى بطون أمهاتها ، ولن أكون لعطَبِها سَبَبا ، وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل فى القلوب حَنَقاً ، وفوق الأسنة عَلَقا

إِذَا جَالَتِ الْحَــرْبُ فِى مَأْزِقٍ تُصَافِــحُ فِيــهِ الْمَنَايَا النُّفُوسَا[(١)]

أتقيمون أم تنصرفون ؟ قالوا : بل ننصرف بأسوأ الاختيار ، وأبلى الاجترار ، بمكروه وأذيَّة ، وحرب وبَليَّة ، ثم نهضوا عنه وقبيصة يتمثل :

لَعَلَّكَ أَنْ تَسْتَوخِم الْوِرْدَ إِنْ غَدَتْ كَتَائِبُنَا فِى مَأْزِقِ الحرب تمطر[(٢)]

فقال امرؤ القيس : لا والله ، ولكن أستعذبه ، فرُوَيْدًا ينفرج لك دُجَاها عن فرسان كندة وكتائب حمير ، ولقد كان ذكر غير هذا بى أولى ؛ إذ كُنْتَ نازلا بربعي ، ولكنك قلت فأوجبت[(٣)] [فقال قبيصة : ماتتوقع فوق المعاتبة والإعتاب][(٤)] فقال امرؤ القيس : هو ذاك .

فلتنظر إلى هذا الكلام من الرجلين قبيصة وامرىء القيس ، حتى يدع المتعمقون تعمقهم فى استعمال الوحشى من الألفاظ ؛ فإن هذا الكلام قد كان فى

---

(١) رواية الأغانى « إذا جالت الخيل » .

(٢) رواية الأغانى « لعلك أن تستوخم الموت » وفيه « فى مأزق الموت » .

(٣) فى الأغانى « فأجبت » ، ولما فى أصول هذا الكتاب وجه .

(٤) سقطت هذه العبارة من أصول هـذا الكتاب ، فلم يبن الكلام ، حتى اضطر مصحح نسخة بولاق إلى أن يكتب فى هامش النسخة «قوله ولكنك قلت إلخ ، كذا فى النسخ ، والظاهر أن يقول : فقال قبيصة ولكنك إلخ » وهـذا الذى استظهره غير سديد .

الزمن القديم قبل الإسلام بما شاء الله ، وكذلك كلام كل فصيح من العرب مشهور ، وما عداه فليس بشيء ، وهذا المشار إليه هٰهنا هو من جَزْل كلامهم ، وعلى ماتراه من السلاسة والعذوبة .

وإذا تصفحت أشعارهم أيضاً وجدت الوحشيّ من الألفاظ قليلاً بالنسبة إلى المسلسل فى الفم والسمع ، ألا ترى إلى هذه الأبيات الواردة للسموأل بن عاديا ، وهى :

إذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُهُ ... فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ
وَإنْ هُوَ لَمْ يَحْمِلْ عَلَى النَّفْسِ ضَيْمَهَا ... فَلَيْسَ إلَى حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيلُ
تُعَيِّرُنَا أنَّا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا ... فَقُلْتُ لَهَا إنَّ الْكِرَامَ قَلِيلُ
وَمَا ضَرَّنَا أنَّا قَلِيلٌ وَجَارُنَا ... عَزِيزٌ وَجَارُ الْأَكْثَرِينَ ذَلِيلُ
يُقَرِّبُ حُبُّ الْمَوْتِ آجَالَنَا لَنَا ... وَتَكْرَهُهُ آجَالُهُمْ فَتَطُولُ
وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أنْفِهِ ... وَلَا طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَتِيلُ
عَلَوْنَا إلَى خَيْرِ الظُّهُورِ وَحَطَّنَا ... لِوَقْتٍ إلَى خَيْرِ الْبُطُونِ نُزُولُ
فَنَحْنُ كَمَاءِ الْمُزْنِ مَا فِى نِصَابِنَا ... كَهَامٌ وَلَا فِينَا يُعَدُّ بَخِيلُ
إذَا سَيِّدٌ مِنَّا خَلَا قَامَ سَيِّدٌ ... قَؤُولٌ لِمَا قَالَ الْكِرَامُ فَعُولُ
وَأيَّامُنَا مَشْهُورَةٌ فِى عَدُوِّنَا ... لَهَا غُرَرٌ مَشْهُورَةٌ وَحُجُولُ
وَأسْيَافُنَا فِى كُلِّ غَرْبٍ وَمَشْرِقٍ ... بِهَا مِنْ قِرَاعِ الدَّارِعِينَ فُلُولُ
مُعَوَّدَةٌ ألَّا يُسَلَّ نِصَالُهَا ... فَتُغْمَدَ حَتَّى يُسْتَبَاحَ قَبِيلُ

فإذا نظرنا إلى ماتضمنته من الجزالة خلناها زُبَراً من الحديد ، وهى مع ذلك سهلة مستعذبة غير فَظة ولا غليظة .

وكذلك قد ورد للعرب فى جانب الرقة من الأشعار مايكاد يذوب لرقته ،

كقول عُرْوَةَ بن أذينة(١) :

إنَّ الَّتِي زَعَمَتْ فُؤَادَكَ مَلَّهَا ... خُلِقَتْ هَوَاكَ كما خُلِقْتَ هَوًى لها

بَيْضَاء بَاكَرَهَا النَّعِيمُ فَصَاغَهَا ... بِلَبَاقَةٍ فَأَدَقَّهَا وَأَجَلَّهَا

حَجَبَتْ تَحِيَّتَهَا فَقُلْتُ لِصَاحِبِي ... مَا كَانَ أَكْثَرَهَا لنا وَأَقَلَّهَا

وَإِذَا وَجَدْتُ لها وَسَاوِسَ سَلْوَةٍ ... شَفَعَ الضَّمِيرُ إلى الْفُؤَادِ فَسَلَّهَا

وكذلك ورد قول الآخر(٢) :

أَقُولُ لِصَاحِبِي وَالْعِيسُ تَهْوِى ... بنا بَيْنَ المنيفَةِ فالضِّمَارِ

تَمَتَّعْ مِنْ شَمِيمِ عَرَارِ نَجْدٍ ... فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَّةِ مِنْ عَرَارِ

أَلاَ يَاحَبَّذَا نَفَحَاتُ نَجْدٍ ... وَرَيَّا رَوْضِهِ غِبَّ الْقِطَارِ(٣)

وَأَهْلُكَ إِذْ يَحُلُّ الحَيُّ نَجْداً ... وَأَنْتَ عَلَى زَمَانِكَ غَيْرُ زَارِ

شُهُورٌ يَنْقَضِينَ وَمَا شَعَرْنَا ... بِأَنْصَافٍ لَهُنَّ وَلاَ سِرَارِ

فَأَمَّا لَيْلُهُنَّ فَخَيْرُ لَيْلٍ ... وَأَطْيَبُ مَا يَكُونُ مِنَ النَّهَارِ

ومما ترقص الأسماع له ، ويرن على صفحات القلوب ، قول يزيد بن الطَّثْرِيَّة في محبوبته من جرم :

بِنَفْسِيَ مَنْ لَوْ مَرَّ بَرْدُ بَنَانِهِ ... عَلَى كَبِدِى كَانَتْ شِفَاءً أَنَامِلُهْ

وَمَنْ هَابَنِي في كلِّ شَيْءٍ وَهِبْتُهُ ... فَلاَ هُوَ يُعْطِينِي وَلاَ أَنَا سَائِلُهْ

---

(١) روى هـذه الأبيات أبو تمام في ديوان الحماسة (انظر شرح التبريزي : ٣ - ٢١١) .

(٢) وهذه الأبيات أيضا قد رواها إلا آخرها بيتا أبو تمام في ديوان الحماسة (انظر شرح التبريزي : ٣ - ٢١٤) .

(٣) في الحماسة « بعد القطار » .

وإذا كان هذا قول ساكن فى الفلاة لايرى إلا شِيحَةً أو قَيْصُومة ، ولا يأكل إلا ضَبًّا أو يَرْبُوعاً ، فما بَالُ قوم سكنوا الحضر ، ووجدوا رقة العيش ، يتعاطَوْنَ وَحْشىَّ الألفاظ ، وشَظَف العبارات ، ولا يُخْلد إلى ذلك إلا إما جاهل بأسرار الفصاحة ، وإما عاجز عن سلوك طريقها ؛ فإنَّ كل أحد ممن شَدَا شيئاً مِنْ علم الأدب يمكنه أن يأتى بالوحشىّ من الكلام ، وذاك أنه يلتقطه من كتب اللغة ، أو يتَلَقَّفُهُ من أربابها ، وأما الفصيح المتَّصِف بصفة الملاحة فإنه لايقدر عليه ، ولو قدر عليه لما علم أين يضع يده فى تأليفه وسبكه .

فإنْ مَارَى فى ذلك مُمَارٍ فلينظر إلى أشعار علماء الأدب ممن كان مشاراً إليه حتى يعلم صحة ماذكرته .

هذا ابن دريد ، قد قيل : إنه أشعر علماء الأدب ، وإذا نظرت إلى شعره وجدته بالنسبة إلى شعر الشعراء المجيدين منحَطًّا ، مع أن أولئك الشعراء لم يعرفوا من علم الأدب عُشْر مِعْشار ماعلمه .

هذا العباس بن الأحنف ، قد كان من أوائل الشعراء المجيدين ، وشعرُهُ كمرِّ نسيم على عَذَبات أغصان ، وكلؤلؤات طَلٍّ على طُرَر ريحان ، وليس فيه لفظة واحدة غريبة يحتاج إلى استخراجها من كتب اللغة ، فمن ذلك قوله :

وَإِنِّى لَيُرْضِينِى قَلِيلُ نَوَالِكُمْ ... وَإِنْ كانَ لاأَرْضَى لَكُمْ بِقَلِيلِ
بِحُرْمَةِ مَاقَدْ كانَ بَيْنِى وَبَيْنَكم ... مِنَ الْوُدِّ إلاَّ عُدْتُمُ بِجَمِيلِ

وهكذا ورد قوله فى فَوْزَ التى كان يُشَبِّب بها فى شعره :

يَافَوْزُ ، يَامُنْيَةَ عَبَّاسِ ... قَلْبِى يُفَدِّى قَلْبَكِ الْقَاسِى
أَسَأْتُ إِذْ أَحْسَنْتُ ظَنِّى بِكُمْ ... وَالْحَزْمُ سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ
يُقْلِقُنِى شَوْقِى فَآتِيكُمُ ... وَالْقَلْبُ مَمْلُوءٌ مِنَ الْيَاسِ

وهل أعْذَب من هذه الأبيات وأعْلَق بالخاطر وأسْرَى فى السمع ؟ ولمثلها

تخف رواجح الأوزان ، وعلى مثلها تَسْهَرَ الأجفان ، وعن مثلها تتأخر السوابق عند الرهان ، ولم أُجْرِها بلسانى يوما من الأيام إلا ذكرت قول أبى الطيب المتنبى :

إِذَا شَاءَ أَنْ يَلْهُو بِلِحْيَةِ أَحْمَقٍ أَرَاهُ غُبَارِى ثُمَّ قَالَ لَهُ الْحَقِ

ومن الذى يستطيع أن يسلك هذه الطريق التى هى سَهْلة وَعْرة قريبة بعيدة ؟

وهذا أبو العتاهية ؟ كان فى عزة الدولة العباسية ، وشعراء العرب إذْ ذاك موجودون كثيراً ، وكانت مدا ئحه فى المهدىّ بن المنصور ، وإذا تأملت شعره وجدته كالماء الجارى رقَّةَ ألفاظ ولَطَافَةَ سَبْك ، وليس بركيك ولا وَاهٍ .

وكذلك أبو نواس ، وبهذا قُدِّمَ على شعراء عصره ، وناهيك بعصره وما جمعه من فحول الشعراء ، ويكفى منهم مُسْلم بن الوليد الذى كان فارسَ الشعر ، وله الأسلوب الغريب العجيب ، غير أنه كان يَتَعَنْجَه فى أكثر ألفاظه.

ويحكى أن أبا نواس جلس يوما إلى بعض التجار ببغداد هو وجماعة من الشعراء ، فاستسقى ماء ، فلما شرب قال :

* عَذُبَ المَاءُ وَطَابَا *

ثم قال: أجيزوه ، فأخذ أولئك الشعراء يتردّدون فى إجازته ، وإذا هم بأبى العتاهية ، فقال : ما شأنكم مجتمعين ؟ فقالوا : هو كيت وكيت ، وقد قال أبو نواس :

* عَذُبَ المَاءُ وَطَابَا *

فقال أبو العتاهية :

* حَبَّذَا المَاءُ شَرَابَا *

فعجبوا لقوله على الفور من غير تَلَبُّثٍ .

وكل شعر أبى العتاهية كذلك سهل الألفاظ ، وسأورد منه ههنا شيئا يستدل به على سلاسة طبعه وترويق خاطره :

فمن ذلك قصيدته التى يمدح فيها المهدى ، ويشبّب فيها بجاريته عتب :

أَلاَ مَا لِسَيِّدَتِي مَالَها ... تُدِلُّ فأَحْمِلُ إدْلاَلَها
أَلا إنَّ جَارِيَةً لِلإمَا ... مِ قَدْ سَكَنَ الحُسْنُ سِرْبَالَهَا
لَقَدْ أَتْعَبَ اللهُ قَلْبِي بِهَا ... وَأَتْعَبَ فِي اللَّوْمِ عُذَّالَهَا
كَأَنَّ بِعَيْنَيَّ فِي حَيْثُمَا ... سَلَكْتُ مِنَ الْأَرْضِ تِمْثَالَهَا

فلما وصل إلى المديح قال من جملته :

أَتَتْهُ الخِلاَفَةُ مُنْقَادَةً ... إِلَيْهِ تُجَرِّرُ أَذْيَالَهَا
فَلَمْ تَكُ تَصْلُحُ إلاَّ لَهُ ... وَلَمْ يَكُ يَصْلُحُ إلاَّ لَهَا
وَلَوْ رَامَهَا أَحَدٌ غَيْرُهُ ... لَزُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا
وَلَوْ لَمْ تُطِعْهُ نِيَاتُ الْقُلُوبِ ... لَمَا قَبِلَ اللهُ أَعْمَالَهَا

ويحكى أن بَشَّاراً كان شاهداً عند إنشاد أبى العتاهية هذه الأبيات ، فلما سمع المديح قال : انظروا إلى أمير المؤمنين ، هل طار عن أعواده ؟ يريد هل زال عن سريره طَرَباً بهذا المديح ، ولعمرى إنَّ الأمر كما قال بشار ، وخير القول ما أسكر السامع حتى ينقله عن حالته ، سواء كان فى مديح أوغيره ، وقد أشرت إلى ذلك فيما يأتى من هذا الكتاب عند ذكر الاستعارة ؛ فليؤخذ من هناك .

واعلم أن هذه الأبيات المشار إليها ههنا من رقيق الشعر غزلا ومديحاً ، وقد أذعن لمديحها الشعراء من أهل ذلك العصر ، ومع هذا فإنك تراها من السلاسة واللطافة على أقصى الغايات ، وهذا هو الكلام الذى يسمى السَّهْل الممتنع ، فتراه يُطْمِعُك ثم إذا حاولت مُمَاثلته رَاغَ عنك كما يَرُوغُ الثَّعْلَبُ ، وهكذا ينبغي أن يكون من خاض فى كتابة أو شعر ؛ فإن خير الكلام ما دخل الأذن بغير إذْنٍ .

وأما البداوة والعنجهية فى الألفاظ فتلك أمة قد خَلَتْ ؛ ومع أنها قد خَلَتْ وكانت فى زمن العرب العاربة فانها قد عيبت على مستعملها فى ذلك الوقت ، فكيف الآن وقد غلب على الناس رقة الحضر ؟

وبعد هذا ، فاعلم أن الألفاظ تجرى من السمع مجرى الأشخاص من البصر، فالألفاظ الجزلة تتخيل فى السمع كأشخاص عليها مَهَابة وَوَقار ، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذى دَمَاثة ولين أخلاق ولطافة مزاج ، ولهذا ترى ألفاظ أبى تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم ، واسْتَلأَموا(١) سِلاَحهم ، وتأهَّبوا للطِّراد ، وترى ألفاظ البُحْتُرِى كأَنها نساء حِسان عليهنّ غَلاَئل(٢) مُصَبَّغات وقد تَحَلَّيْنَ بأصناف الحلى ، وإذا أنعمت نظرك فيما ذكرته ههنا وجدتنى قد دللتك على الطريق ، وضربت لك أمثالاً مناسبة .

واعلم أنه يجب على الناظم والناثر أن يجتنبا مايضيق به مجال الكلام فى بعض الحروف ، كالثاء والذال والخاء والشين والصاد والطاء والظاء والغين ؛ فإن فى الحروف الباقية مندوحة عن استعمال مالا يحسن من هذه الأحرف المشار إليها ، والناظم فى ذلك أشدُّ مَلاَمة ؛ لأنه يتعرّض لأن ينظم قصيدة ذات أبيات متعددة فيأتى فى أكثرها بالبشع الكريه الذى يَمُجُّه السمع لعدم استعماله ، كما فعل أبو تمام فى قصيدته الثائية التى مطلعها :

* قِفْ بالطُّلُولِ الدَّارِسَاتِ عُلاَثَا(٣) *

---

(١) استلأموا : لبسوا اللأمة ؛ واللأمة ــ بفتح اللام وسكون الهمزة ــ هى الدرع المحكمة الملتئمة .

(٢) الغلائل : جمع غلالة ــ بالغين المعجمة ــ وهى شعار يلبس تحت الثوب .

(٣) هذا صدر البيت وعجزه قوله :

* أضحَتْ حِبالُ قَطِينِهِنَّ رِثَاثَا *

وانظر الديوان (ص ٦٣ بيروت) . و « علاثا » منادى مرخم ، وأصله علاثة

وكما فعل أبو الطيب المتنبى فى قصيدته الشينية التى مطلعها :

* مَبِيتِى مِنْ دِمَشْقَ عَلَى فِرَاشِ(١) *

وكما فعل ابن هانىء المغربى فى قصيدته الخائية التى مطلعها :

* سَرَى وَجَنَاحُ اللَّيْلِ أَقْتَمُ أَفْتَخُ(٢) *

والناظم لايعاب إذا لم ينظم هذه الأحرف فى شعره ، بل يعاب إذا نظمها وجاءت كريهة مُسْتَبْشَعة ، وأما الناثر فإنه أقرب حالاً من الناظم ، لأن غاية مايأتى به سَجْعَتان أو ثلاث أو أربع على حرف من هذه الأحرف ، وما يَعْدَم فى ذلك مايَرُوق إذا كان بهذه العدة اليسيرة ، فإن كلفت أيها الشاعر أن تنظم شيئاً على هذه الحروف فقل : هذه الحروف هى مَقَاتِل الفصاحة ، وعُذْرى واضح فى تركها ، فإن واضعَ اللغة لم يضع عليها ألفاظاً تَعْذُب فى الفم ، ولا تلذ فى السمع والذى هو بهذه الصفة منها فإنما هو قليل جداً ، ولا يصاغ منه إلا مقاطيع أبيات من الشعر ، وأما القصائد المُقَصَّدة فلا تُصَاغ منه ، وإن صيغت جاء أكثرها بَشِعاً كريهاً ، على أن هذه الحروف مُتَفَاوتة فى كراهة الاستعمال ، وأشدها كراهية أربعة أحرف ، وهى الخاء والصاد والظاء والغين ، وأما الثاء والذال والشين والطاء فإن الأمر فيهن أقربُ حالاً ، وهذا موضع ينبغى لصاحب الصناعة

---

(١) هى قصيدة يمدح فيها أبا العشائر على بن الحسين بن حمدان ، وهذا الذى ذكره المؤلف صدر مطلعها ، وعجزه قوله :

* حَشَاهُ لِى بِحَرٍّ حَشَاىَ حَاشِ *

(٢) هى قصيدة يمدح فيها المعز الفاطمى ، وهذا الذى ذكره المؤلف صدر مطلعها وعجزه قوله :

* حَبِيبٌ ضَجِيعٌ بِالْعَبِيرِ مُضَمَّخُ *

والأقتم : المظلم ، والأفتخ : المستطيل .

أن يُنْعِم نظره فيه ، وفيما أشرنا إليه كفاية للمتعلم ؛ فليعرفه وليقف عنده .

ومن أوصاف الكلمة ألاّ تكون مُبْتَذَلة بين العامة ، وذلك ينقسم قسمين :

الأول : ما كان من الألفاظ دالاً على معنى وضع له فى أصل اللغة فغيرته العامة وجعلته دالا على معنى آخر ، وهو ضربان :

الأول : مايكره ذكره ، كقول أبى الطيب(١) :

أَذَاقَ الْغَوَانِي حُسْنُهُ مَاأَذَقْنَنِي وَعَفَّ فَجَازَاهُنَّ عَنِّيَ بِالصَّرْمِ(٢)

فإن لفظة « الصرم » فى وضع اللغة هو الْقَطْع ، يقال : صرمه إذا قطعه ، فغيرتها العامة وجعلتها دالة على المحل المخصوص من الحيوان دون غيره ، فأبدلوا السين صاداً ، ومن أجل ذلك استكره استعمال هذه اللفظة ، وما جرى مجراها ، لكن المكروه منها مايستعمل على صيغة الاسمية ، كما جاءت فى هذا البيت ، وأما إذا استعملت على صيغة الفعل كقولنا صَرَمَه وصَرَمْتُه وتَصْرِمه فإنها لاتكون كريهة ؛ لأن استعمال العامة لايدخل فى ذلك ، وهذا الضرب المشار إليه لايعاب البدوى على استعماله كما يعاب المحتضر ؛ لأن البدوىّ لم تتغير الألفاظ فى زمنه ، ولا تصرفت العامة فيها كما تصرفت فى زمن المحتضرة من الشعراء ؛ فمن أجل ذلك عيب استعمال لفظة الصرم وما جرى مجراها على الشاعر المحتضر ، ولم يعب على الشاعر المتبدى(٣) ، ألا ترى إلى قول أبى صَخْر الهذلى(٤) :

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها الحسين بن إسحاق التنوخى ، وأولها قوله :

مَلاَمُ النَّوَى فى ظُلْمِهَا غَايَةُ الظلْمِ لَعَلَّ بِهَا مِثْلَ الَّذِى بِى مِنَ السُّقْمِ

(٢) رواية الديوان فى عجز هذا البيت هكذا :

* وَعَفَّ فَجَازَاهُنَّ عَنِّى عَلَى الصُّرْمِ *

(٣) فى نسخة « المبتدى » بتقديم الباء ، وهى توافق « المحتضر » .

(٤) من كلمة له رواها أبو تمام فى ديوان الحماسة وأولها قوله :

بِيَدِ الَّذِى شَعَفَ الْفُؤَادَ بِكُمْ تَفْرِيجُ مَا أَلْقَى مِنَ الْهَمِّ

قَدْ كَانَ صُرْمٌ فِي الْمَمَاتِ لَنَا فَعَجِلْتِ قَبْلَ الْمَوْتِ بِالصُّرْمِ

فإن هذا لا يعاب على صخر كما عيب على المتنبي قوله فى البيت المقدم ذكره .

وقد صنف الشيخ أبو منصور بن أحمد البغدادى المعروف بابن الجواليق كتابا فى هذا الفن ، ووسمه باصلاح ما تغلط فيه العامة ؛ فمنه ماهذا سبيله ، وهو الذى أنكر استعماله ؛ لكراهته ، ولأنه مما لم ينقل عن العرب ، فهذان عيبان .

وأما الضرب الثانى ، وهو أنه وضع فى أصل اللغة لمعنى فجعلته العامة دالا على غيره ، إلا أنه ليس بمستقبح ولا مستكره ، وذلك كتسميتهم الإنسان ظريفاً إذا كان دَمْثَ الأخلاق حسن الصورة أو اللباس ، أو ما هذا سبيله ، والظَّرْف فى أصل اللغة مختص بالنطق فقط .

وقد قيل فى صفات خلق الإنسان ما أذكره ههنا ، وهو الصَّباحة فى الوجه ، الوَضَاءَة فى البشرة ، الجَمَال فى الأنف ، الحَلَاوَة فى العينين ، الْمَلَاحة فى الفم ، الظَّرْف فى اللسان ، الرَّشاقة فى القدّ ، اللَّباقة فى الشمائل ، كمال الحسن فى الشعر؛ فالظرف إنما يتعلق بالنطق خاصة ، فغيرته العامة عن بابه .

وممن غلط فى هذا الموضع أبو نواس حيث قال :

اخْتَصَمَ الْجُودُ وَالْجَمَالُ فِيكَ فَصَارَا إِلَى جِدَالِ
فَقَالَ هَــذَا يَمِينُهُ لِي لِلْعُرْفِ وَالْبَذْلِ وَالنَّوَالِ
وَقَالَ هٰذَاكَ وَجْهُهُ لِي لِلظَّرْفِ وَالْحُسْنِ وَالْكَمَالِ
فَافْتَرَقَا فِيكَ عَنْ تَرَاضٍ كِلَاهُمَا صَادِقُ الْمَقَالِ

وكذلك غلط أبو تمام ، فقال [١] :

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف ، و يعرض بوال ولى الثغر بعده ، وأولها قوله :

أَطْلَالُهُمْ سُــلِبَتْ دُمَاهَا الْهِيفَا وَاسْتَبْدَلَتْ وَحْشاً بِهِنَّ عَكُوفَا

لَكَ هَضْبَةُ الْحِلْمِ الَّتِي لَوْ وَازَنَتْ أَجَأً إِذَنْ ثَقُلَتْ وَكَانَ خَفِيفَا[(١)]
وَحَلاَوَةُ الشِّيَمِ الَّتِي لَوْ مَازَجَتْ خُلُقَ الزَّمَانِ الْفَدْمِ عادَ ظَرِيفَا

فأبو نواس غلط ههنا فى أنه وصف الوجه بالظرف ، وهو من صفات النطق ، وأبو تمام غلط فى أنه وصف الخلق بالظرف ، وهو من صفات النطق أيضاً ، إلا أن هذا غلط لا يوجب فى هـــذه اللفظة قبحاً ، لـكنه جهل بمعرفة أصلها فى وضع اللغة .

القسم الثانى ممـا ابتذلته العامة ؛ وهو الذى لم تغيره عن وصفه ، وإنما أنكر استعماله لأنه مبتذل بينهم ، لا لأنه مستقبح ، ولا لأنه مخالف لما وضع له ، وفى هذا القسم نظر عندى ؛ لأنه إن كان عبارةً عما يكثر تداوله بين العامة فإنَّ من الـكثير المتداول بينهم ألفاظاً فصيحة ، كالسَّماء والأرض والنار والماء والحجر والطين ، وأشباه ذلك ، وقد نطق بها القرآن الـكريم فى مواضع كثيرة منه ، وجاءت فى كلام الفصحاء نظماً ونثراً ، والذى ترجح فى نظرى أنّ المراد بالمبتذل من هذا القسم إنما هو الألفاظ السخيفة الضعيفة ، سواء تداولتها العامة أو الخاصة .

فما جاء منه قول أبى الطيب المتنبى[(٢)] :

وَمَلْمُومَةٌ سَـــيْفِيَّةٌ رَبَعِيَّةٌ يَصِيحُ الحَصَا فِيها صِياحَ اللَّقَالِقِ[(٣)]

---

(١) الهضبة : الرابية ، وأجأ : أحد جبلى طيء ، وثانيهما سلمى .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها سـيف الدولة ، ويذكر إيقاعه بقبائل العرب ، وأولها قوله :

تَذَكَّرْتُ مَا بَيْنَ الْعُذَيْبِ وَبَارِقِ مَجَرَّ عَوَالِينَا وَمَجْرَى السَّـوَابِقِ

(٣) الملمومة : الـكتيبة المجتمعة ، سيفية : منسوبة إلى سيف الدولة ، ربعية : منسوبة إلى ربيعة ، وهى قبيلة سيف الدولة ، واللقالق : جمع لقلق ، وهو طائر كبير يسكن العمران فى أرض العراق .

فإن لفظة « اللقالق » مبتذلة بين العامة جداً ، وكذلك قوله[١] :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَجُوزُ إِلَيْهِمْ   شُـــعَرَاءُ كَأَنَّهَا الْخَازِبَازِ[٢]

وهذا البيت من مضحكات الأشعار ، وهو من جملة البرسام الذى ذكره فى شعره حيث قال[٣] :

إِنَّ بَعْضاً مِنَ الْقَرِيضِ هُرَاءٌ   لَيْسَ شَيْئاً وَبَعْضَـــهُ أَحْكَامُ[٤]

فِيــهِ مَا يَجْلُبُ الْبَرَاعَةَ وَالْفَهْـــمُ وَفِيــــهِ مَا يَجْلُبُ الْبِرْسَامُ

ومثل هذه الألفاظ إذا وردت فى الكلام وضعت من قدره ، ولو كان معنى شريفاً .

وهذا القسم من الألفاظ المبتذلة لايكاد يخلو منه شعر شاعر ، لكن منهم المقلّ ومنهم المكثر ، حتى إنّ العاربة قداستعملت هذا ، إلا أنه فى أشعارها أقل.
فمن ذلك قول النابغة الذبيانى فى قصيدته التى أولها :

مِنْ آلِ مَيَّةَ رَائِحٌ أَوْ مُغْتَدِى

أَوْ دُمْيَةٍ فِى مَرْمَرٍ مَرْفُوعَـــةٍ   بُنِيَتْ بِآجُرٍّ يُشَــادُ بِقَرْمَدِ

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا بكر على بن صالح الكاتب ، وأولها قوله :

كَفِرِنْدِى فِرِنْدُ سَيْفِى الْجُرَازِ   لَذَّةُ الْعَـــيْنِ عُدَّةٌ لِلْبِرَازِ

(٢) رواية الديوان «من يجوز عليه» ، والخازباز : حكاية صوت الذباب ، وهو اسم صوت مبنى على الكسر ، وربما سمى به الذباب نفسه . قال ابن أحمر :

تَفَقَّأَ فَوْقَهُ الْقَلَعُ السَّوَارِى   وَجُنَّ الْخَازِبَازِ بِهِ جُنُونَا

(٣) من قصيدة له يمدح فيها على بن أحمد المرى الخراسانى ، وأولها قوله :

لَاافْتِخَارٌ إِلَّا لِمَنْ لَا يُضَامُ   مُدْرِكٍ أو مُحَارِبٍ لَا يَنَامُ

(٤) فى بعض نسخ الديوان « إن بعضا من القريض هذاء » بالذال معجمة ، وتقول : هذى يهذى هذاء وهذيانا ، إذا قال قولا لافائدة فيه .

فلفظة « آجُرّ » مبتذلة جداً ، وإن شئت أن تعلم شيئاً من سر الفصاحة التى تضمنها القرآن فانظر إلى هذا الموضع ، فإنه لما جيء فيه بذكر الآجر لم يذكر بلفظه ، ولا بلفظ القرمد أيضاً ، ولا بلفظ الطُّوب الذى هو لغة أهل مصر ؛ فإن هذه الأسماء مبتذلة ، لكن ذكر فى القرآن على وجه آخر وهو قوله تعالى: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً) فعبر عن الآجر بالوقود على الطين .

ومن هذا القسم المبتذل قول الفرزدق فى قصيدته التى أولها :

* عَزَفْتَ بأعْشَاشٍ وَمَا كِدْتَ تَعْزِفُ[(١)] *

وَأَصْبَحَ مُبْيَضُّ الضَّرِيبِ كأَنَّهُ عَلَى سَرَوَاتِ النِّيبِ قُطْنٌ مُنَدَّفُ[(٢)]

فقوله « مُنَدَّفُ » من الألفاظ العامية .

ومن هذا القسم قول البحترى [(٣)] :

وُجُوهُ حُسَّادِكَ مُسْوَدَّةٌ أَمْ صُبِغَتْ بَعْدِيَ بالزَّاجِ

فلفظة « الزاج » من أشد ألفاظ العامة ابتذالا ، وقد استعمل أبو نواس هذا النوع فى شعره كثيراً ، كقوله :

---

(١) هذا صدر مطلع القصيدة ، وعجزه قوله :

* وَأَنكَرْتَ مِنْ حَدْرَاءَ مَا كُنْتَ تَعْرِفُ *

وعزفت : انصرفت ، وتقول : عزف الرجل عن اللهو ؛ إذا كان لايميل إليه ولا يشتهيه ، وتقول : عزف عن النساء ، إذا لم يصب إليهن .

(٢) رواية الديوان « وأصبح موضوع الصقيع كأنه » وقد وقع هنا فى ب ، ج « على سروات البيت » وما أثبتناه عن الديوان والنقائض ، وهو الصواب.

(٣) من قصيدة له يمدح فيها ابن كنداج ، وأولها قوله :

مُخْبِرَتِي بُرْقَةُ أَحْوَاجِ عَنْ ظُعُنٍ سَارَتْ وَأَحْدَاجِ

يَامَنْ جَفَانِى وَمَلاَّ نَسِيتَ أَهْلاً وَسَهْلاَ
وَماتَ مَرْحَبُ لَمَّا رَأَيْتَ مَالِىَ قَلاَّ
إِنِّى أَظُنُّكَ فِيمَا فَعَلْتَ تَحْكى القِرِلَّى

وكقوله :

وَأَغَرُ الجِلْدَةِ صَيَّرْتُهُ فى النَّاسِ زَاغًا وَشِقِرَّاقَا
مازِلْتُ أُجْرِى كلكى فَوْقَهُ حَتَّى دَعَا مِنْ تَحْتِهِ قَاقَا

وكقوله :

وَمُلِحَّة بِالعَذْلِ تَحْسَبُ أَنَّنِى بِالْجَهْلِ أَتْرُكُ صُحْبَةَ الشُّطَّار

وقد استعمل لفظة الشَّاطر والشَّاطرة والشُّطَّار والشَّطارة كثيراً ؛ وهى من الألفاظ التى ابتذلها العامة حتى سئمت من ابتذالها .

وهذه الأمثلة تمنع الواقف عليها من استعمال أشباهها وأمثالها .

ومن أوصاف الكلمة ألاَّ تكون مشتركة بين معنيين أحدهما يكره ذكره وإذا وردت وهى غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت ، وذلك إذا كانت مهملة بغير قرينة تميز معناها عن القبح ، فأما إذا جاءت ومعها قرينة فإنها لا تكون معيبة ، كقوله تعالى : (فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أُولٰئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ) ألا ترى أن لفظة التعزير مشتركة تطلق على التعظيم والإكرام وعلى الضرب الذى هو دون الحد ، وذلك نوع من الهوان ، وهما معنيان ضدان ، فحيث وردت فى هذه الآية جاء معها قرائن من قبلها ومن بعدها فخصت معناها بالحسن ؛ وميزته عن القبيح ، ولو وردت مهملة بغير قرينة وأريد بها المعنى الحسن لسبق إلى الوهم ما اشتملت عليه من المعنى القبيح . مثال ذلك لو قال قائل : لقيت فلانا فعزرته ، لسبق إلى الفهم أنه ضربه وأهانه ، ولو قال : لقيت فلاناً فأكرمته وعزرته ، لزال ذلك اللبس .

واعلم أنه قد جاء من الكلام مامعه قرينة فأوجبت قبحه ، ولو لم تجئ معه لما استقبح ، كقول الشريف الرضى(١) :

أَعْزِزْ عَلَيَّ بِأَنْ أَرَاكَ وَقَدْ خَلاَ عَنْ جَانِبَيْكَ مَقَاعِدُ الْعُوَّادِ(٢)

وقد ذكر ابن سنان الخفاجى هذا البيت(٣) فى كتابه فقال : إن إيراد هذه اللفظة فى هذا الموضع صحيح ، إلا أنه موافق لما يكره ذكره فى مثل هذا الشعر ، لاسيا وقد أضافه إلى من يحتمل إضافته إليه ، وهم العواد ، ولو انفرد لكان الأمر فيه سهلا ، فأما الإضافة إلى من ذكره ففيها قبح لاخفاء به ؛ هذا حكاية كلامه ، وهو مرضىٌّ واقع فى موقعه ، ولنذكر نحن ماعندنا فى ذلك فنقول : قد جاءت هذه اللفظة المعيبة فى الشعر فى القرآن الكريم ، فجاءت حسنة مرضية ، وهى قوله تعالى : (وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ) وكذلك قوله تعالى : (وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيداً وَشُهُباً وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً) ألا ترى أنها فى هاتين الآيتين غير مضافة إلى من تقبح إضافته إليه كما جاءت فى الشعر ، ولو قال الشاعر بدلا من مَقَاعد الْعُوَّاد : مَقَاعد الزيارة ، أو ماجرى مجراه ؛ لذهب ذلك القبح ، وزالت تلك الْهُجْنة ، ولهذا جاءت هذه اللفظة فى الآيتين على ماتراه من الحسن ، وجاءت على ماتراه من القبح فى قول الشريف الرضى .

---

(١) من قصيدة له يرثى فيها أبا إسحاق إبراهيم بن هلال الصابى الكاتب ، وأولها قوله :

أَعَلِمْتَ مَنْ حَمَلوا عَلَى الْأَعْوَادِ أَرَأَيْتَ كَيْفَ خَبَا ضِياء النَّادِى

(٢) فى الديوان « مقاود العواد » وهو خطأ .

(٣) انظر كتاب « سر الفصاحة » لابن سنان الخفاجى (ص ٧٩) .

وعلى هذا ورد قول تأبط شرا [١] :

أَقُولُ لِلِحْيَانٍ وَقَدْ صَفِرَتْ لَهُمْ ... وِطَابِي وَيَوْمِي ضَيِّقُ الْجُحْرِ مُعْوِرُ [٢]

فإنه أضاف الجحر إلى اليوم فأزال عنه هجنة الاشتباه ، لأن الجحر يطلق على كل ثقب كثقب الحية واليربوع ، وعلى المحل المخصوص من الحيوان ، فإذا ورد مهملا بغير قرينة تخصصه سبق إلى الوهم مايقبح ذكره ؛ لاشتهاره به دون غيره ، ومن هٰهنا ورد قول النبي صلى الله عليه وسلم: «الْمُؤْمِنُ لَا يُلْسَعُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ» وحيث قال : « يلسع » زال اللبس ؛ لأن اللَّسْع لايكون إلا للحية وغيرها من ذوات السموم .

وأما ماورد مهملا بغير قرينة فقول أبي تمام [٣] :

أَعْطَيْتَ لِي دِيَةَ الْقَتِيلِ وَلَيْسَ لِي ... عَقْلٌ وَلَا حَقٌّ عَلَيْكَ قَدِيمُ [٤]

فقوله « ليس لى عقل » يظن أنه من عَقَلَ الشىء إذا علمه ، ولو قال ليس لى عليك عقل لزال اللبس .

فيجب إذًا على صاحب هذه الصناعة أن يراعى فى كلامه مثل هذا الموضع ،

---

(١) من أبيات رواها أبو تمام فى ديوان الحماسة ، وأولها :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَحْتَلْ وَقَدْ جَدَّ جِدُّهُ ... أَضَاعَ وَقَاسَى أَمْرَهُ وَهْوَ مُدْبِرُ

(انظر شرح التبريزى : ١ — ٧٥) .

(٢) لحيان : بطن من هذيل ، وقوله « صفرت لهم وطابى » يريد خلا قلبي من ودهم ، ومعور : بادية عورته ، وهى مكان المخافة منه .

(٣) من قصيدة له يمدح فيها أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شبابة ، وأولها قوله :

أَسْقَى طُلُولَهُمُ أَجَشُّ هَزِيمُ ... وَغَدَتْ عَلَيْهِمْ نَضْرَةٌ وَنَعِيمُ

انظر الديوان (٢٩٩ بيروت) .

(٤) رواية الديوان « أعطيتنى دية القتيل » .

وهو من جملة الألفاظ المشتركة التى يحتاج فى إيرادها إلى قرينة تخصصها ضرورة.

ومن أوصاف الكلمة أن تكون مؤلفة من أقل الأوزان تركيباً، وهذا مما ذكره ابن سنان فى كتابه(١)، ثم مثله بقول أبى الطيب المتنبى(٢):

إِنَّ الْكِرَامَ بِلاَ كِرَامٍ مِنْهُمُ مِثْلُ الْقُلُوبِ بِلاَ سُوَيْدَاوَاتِهَا(٣)

وقال: إن لفظة «سُوَيْدَاوَاتِهَا» طويلة، فلهذا قبحت؛ وليس الأمر كما ذكره، فإن قبح هذه اللفظة لم يكن بسبب طولها، وإنما هو لأنها فى نفسها قبيحة، وقد كانت وهى مفردة حسنة، فلما جمعت قَبُحَتْ، لا بسبب الطول، والدليل على ذلك أنه قد ورد فى القرآن الكريم ألفاظ طِوَال، وهى مع ذلك حسنة، كقوله تعالى: (فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ) فإن هذه اللفظة تسعة أحرف، وكقوله تعالى: (لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ) فإن هذه اللفظة عشرة أحرف، وكلتاهما حسنة رائقة، ولو كان الطول مما يوجب قُبْحًا لقبحت هاتان اللفظتان، وليس كذلك، ألا ترى أنه لو أسقط من لفظة «سويداواتها» الهاء والألف اللتين هما عوض عن الإضافة لبقى منها ثمانية أحرف، ومع هذا فإنها قبيحة ولفظة (لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ) عشرة أحرف، وهى أطول منها بحرفين؛ ومع هذا فإنها حسنة رائقة.

والأصل فى هذا الباب ما أذكره، وهو أن الأصول من الألفاظ لا تحسن إلا فى الثلاثى وفى بعض الرباعى، كقولنا: عَذْب وعَسْجد، فإن هاتين اللفظتين

---

(١) انظر سر الفصاحة (ص ٨١).

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أبا أيوب أحمد بن عمران، وأولها قوله:

سِرْبٌ مَحَاسِنُهُ حُرِمْتُ ذَوَاتِهَا دَانِي الصِّفَاتِ بَعِيدُ مَوْصُوفَاتِهَا

(٣) أبو الطيب مولع بمثل هذه المطولات، انظر إلى قوله فى هذه القصيدة:

إِنِّي عَلَى شَغَفِي بِمَا فِي خُمْرِهَا لَأَعِفُّ عَمَّا فِي سَرَاوِيلاَتِهَا

إحداهما ثلاثية والأخرى رباعية ، وأما الخماسي من الأُصول فإنه قبيح ، ولا يكاد يوجد منه شيء حسن ، كقولنا : جَحْمَرِش (١) وصَهْصَلِق (٢) وما جرى مجراهما ، وكان ينبغي على ماذكره ابن سنان أن تكون هاتان اللفظتان حسنتين واللفظتان الواردتان في القرآن قبيحتين ؛ لأَن تلك تسعة أحرف وعشرة وهاتان خمسة وخمسة ، ونرى الأَمر بالضد مما ذكره ، وهذا لايعتبر فيه طول ولا قصر ، وإنما يعتبر نظم تأليف الحروف بعضها مع بعض ، وقد تقدم الكلام على ذلك ، ولهذا لايوجد في القرآن من الخماسي الأُصول شيء ، إلا ما كان من اسم نبي عُرِّب اسمه ولم يكن في الأَصل عربياً نحو إبراهيم وإسمعيل .

ومما يدخل في هذا الباب أن تجتنب الأَلفاظ المؤلفة من حروف يثقل النطق بها ، سواء كانت طويلة أو قصيرة ، ومثال ذلك قول امرئ القيس في قصيدته اللامية التي هي من جملة القصائد السبع الطوال :

غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إِلَى الْعُلاَ ... تَضِلُّ الْمَدَارَى فى مُثَنًّى وَمُرْسَلِ (٣)

---

(١) الجحمرش : العجوز المسنة .

(٢) الصهصلق : العجوز الصخابة ، وهو أيضا الصوت الشديد .

(٣) البيت من معلقته المشهورة التي أولها :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ ... بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

وقبل البيت قوله :

وَفَرْعٍ يَزِينُ الْمَتْنَ أَسْوَدَ فَاحِمٍ ... أَثِيثٍ كَقِنْوِ النَّخْلَةِ الْمُتَعَثْكِلِ

وأرادبالفرع شعرها ، والمتن : الظهر ، وفاحم : يشبه الفحم ، والمراد أنه شديدالسواد ، وأثيث : كثير ، وقنو النخلة : ما يكون فيه البلح ، وهو الشمراخ ، والمتعثكل : الذي تداخل بعضه في بعض لكثرته . ويقال : هوالمتدلي . والغدائر : جمع غديرة والمراد خصلاته ، والضمير يعود إلى الفرع . ومستشزرات : مرتفعات . والمدارى : جمع مدراة ، والمراد بها المشط . والمثنى: الذي فتل بعضه على بعض ، والمرسل : الذي

فلفظة « مُسْتَشزِرَاتٌ » مما يقبح استعمالها ؛ لأنها تثقل على اللسان و يشق النطق بها ، و إن لم تكن طويلة ؛ لأنا لو قلنا «مستنكرات» أو « مستنفرات » على وزن « مستشزرات » لمـا كان فى هاتين اللفظتين من ثقل ولا كراهة .

ولربما اعترض بعض الجهال فى هذا الموضع ، وقال : إن كراهة هذه اللفظة إنما هو لطولها ، وليس الأمر كذلك ؛ فإنا لو حذفنا منها الألف والتاء وقلنا « مُسْتَشْزِر » لـكان ذلك ثقيلا أيضاً ، وسببه أن الشين قبلها تاء ، و بعدها زاى ، فثقل النطق بها ، و إلا فلو جعلنا عوضاً من الزاى راء ومن الراء فاء ، فقلنا « مستشرف » لزال ذلك الثقل .

ولقد رآنى بعض الناس وأنا أعيب على امرىء القيس هذه اللفظة المشار إليها ، فأكبر ذلك ؛ لوقوفه مع شهرة التقليد فى أن امرأ القيس أشعر الشعراء ، فعجبت من ارتباطه بمثل هـذه الشبهة الضعيفة ، وقلت له : لا يمنع إحسان امرىء القيس من استقباح ماله من القبيح ، ومثال هذا كمثال غزال المسك فإنه يخرج منه المسك والْبَعَر ، ولا يمنع طيبُ ما يخرج من مسكه من خبث ما يخرج من بعره ، ولا تكون لذاذة ذلك الطيب حامية للخبث من الاستكراه، فأسكت الرجل عند ذلك .

وحضر عندى فى بعض الأيام رجل من اليهود ، وكنت إذا ذاك بالديار المصرية ، وكان لليهود فى هذا الرجل اعتقاد؛ لمـكان علمه فى دينهم وغيره ، وكان

ترك بغير فتل . و يروى «تضل العقاص فى مثنى ومرسل» والعقاص : جمع عقيصة ، وهو ماجمع من الشعر ففتل تحت الذوائب ، يريد أنها لـكثرة شعرها تجعله ثلاثة أقسام فبعضه تعقصه ، و بعضه تفتله ، و بعضه ترسله ، وأن الذى تعقصه يكون بين المفتول والمرسل فيغيب فيهما حتى لايكاد يظهر .

لَعَمْرِى كذلك ، فجرى ذكر اللغات ، وأن اللغة العربية هى سيدة اللغات ، وأنها أشرفهن مكانا ، وأحسنهن وضعاً ؛ فقال ذلك الرجل : كيف لا تكون كذلك ، وقد جاءت آخرا فنفت القبيح من اللغات قبلها وأخذت الحسن ؟ ثم إن واضعها تَصَرَّف فى جميع اللغات السالفة ؛ فاختصر ما اختصر ، وخفف ماخفف ، فمن ذلك اسم الجمل ؛ فإنه عندنا فى اللسان العبرانى « كوميل » مُمَالاً على وزن فُوعيل ، فجاء واضع اللغة العربية وحذف منها الثقيل المستبشع ، وقال : جَمَل ، فصار خفيفاً حسناً ، وكذلك فعل فى كذا وكذا ، وذكر أشياء كثيرة ، ولقد صدق فى الذى ذكره ؛ وهو كلام عالم به .

ومن أوصاف الكلمة أن تكون مَبْنِيَّةً من حركات خفيفة ، ليخف النطق بها ، وهــــذا الوصف يترتب على ما قبله من تأليف الكلمة ، ولهذا إذا توالى حركتان خفيفتان فى كلة واحدة لم تستثقل ، وبخلاف ذلك الحركات الثقيلة ، فإنه إذا توالى منها حركتان فى كلة واحدة استثقلت ، ومن أجل ذلك استثقلت الضمة على الواو والكسرة على الياء ؛ لأن الضمة من جنس الواو ، والكسرة من جنس الياء ، فتكون عند ذلك كأنها حركتان ثقيلتان .

ولنمثل لك مثالا لتهتدى به فى هذا الموضع ، وهو أنا نقول : إذا أتينا بلفظة مؤلفة من ثلاثة أحرف ، وهي « ج ز ع » فإذا جعلنا الجيم مفتوحة فقلنا الجَزْعُ أو مكسورة فقلنا الجِزْع كان ذلك أحسن من أن لو جعلنا الجيم مضمومة فقلنا الجُزع ، وكذلك إذا والينا حركة الفتح فقلنا الجَزَع كان ذلك أحسن من موالاة حركة الضم عند قولنا الجُزُع ، ومن المعلوم أن هـذه اللفظة لم يكن اختلاف حركاتها مُغَيِّراً لمخارج حروفها ، حتى ينسب ذلك إلى اختلاف تأليف المخارج ، بل وجدناها تارة تكتسى حسناً ، وتارة يسلب ذلك الحسن عنها ، فعلمنا أن ذلك حادث عن اختلاف تأليف حركاتها .

واعلم أنه قد توالت حركة الضم فى بعض الألفاظ ، ولم يُحْدِث فيها كراهة ولا ثقلا ، كقوله تعالى : (وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنا فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ) وكقوله تعالى : (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ) وكقوله تعالى : (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ) فحركة الضم فى هذه الألفاظ متوالية ، وليس بها من ثقل ولا كراهة ، وكذلك ورد قول أبى تمام (١) :

نَفَسٌ يَحْتَثُّهُ نَفَسُ ... وَدُمُوعٌ لَيْسَ تُحْتَبَسُ
وَمَغَانٍ لِلْكَرَى دُثُرٌ ... عُطُلٌ مِنْ عَهْدِهِ دُرُسُ
شَهَرَتْ مَا كُنْتُ أَكْتُمُهُ ... نَاطِقَاتٌ بِالْهَوَى خُرُسُ

فانظر كيف جاءت هذه الألفاظ الأربعة مضمومات كلها ، وهى مع ذلك حسنة لا ثقل بها ، ولا ينبو السمع عنها .

وهذا لا ينقض ما أشرنا إليه ؛ لأن الغالب أن يكون توالى حركة الضم مستثقلا ، فإذا شذ عن ذلك شىء يسير لا ينقض الأصل المقيس عليه .

القسم الثانى : الألفاظ المركبة ، قد قدَّمْنا القول فى شرح أحوال اللفظة المفردة ، وما يختص بها ، وأما إذا صارت مركبة فإن لتركيبها حكما آخر؛ وذاك أنه يحدث عنه من فوائد التأليفات والامتزاجات ما يخيل للسامع أن هذه الألفاظ ليست تلك التى كانت مفردة ، ومثال ذلك كمن أخذ لآلئ ليست من ذوات الْقِيَمِ الغالية فألَّفَها ، وأحسن الوضع فى تأليفها ؛ فخيل للناظر بحسن تأليفه و إتقان صنعته أنها ليست تلك التى كانت مَنثورة مُبَدَّدَة ، وفى عكس ذلك من يأخذ لآلئ من ذوات الْقِيَمِ الغالية فيفسد تأليفها ؛ فإنه يَضَعُ من حسنها ، وكذلك يجرى حكم

(١) هى أبيات فى الغزل مذكورة فى ديوانه (٤٤٨ بيروت) وليس معها شىء

الألفاظ العالية مع فساد التأليف ؛ وهذا موضع شريف ينبغى الالتفات إليه ، والعناية به .

واعلم أن صناعة تأليف الألفاظ تنقسم إلى ثمانية أنواع؛ هى: السجع ، ويختص بالكلام المنثور ، والتصريع ، ويختص بالكلام المنظوم ، وهو داخل فى باب السجع ؛ لأنه فى الكلام المنظوم كالسجع فى الكلام المنثور ، والتجنيس ، وهو يعم القسمين جميعاً ، والترصيع ، وهو يعم القسمين أيضاً جميعاً ، ولزوم مالا يلزم ، وهو يعم القسمين أيضاً ، والموازنة ، وتختص بالكلام المنثور ، واختلاف صيغ الألفاظ ، وهو يعم القسمين جميعاً ، وتكرير الحروف ، وهو يعم القسمين جميعاً :

النوع الأول : السجع ؛ وحَدُّه أن يقال : تواطؤ الفواصل فى الكلام المنثور على حرف واحد :

وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة ، ولا أرى لذلك وجهاً سوى عجزهم أن يأتوا به ، وإلا فلو كان مذموما لما ورد فى القرآن الكريم؛ فإنه قد أتى منه بالكثير ، حتى إنه ليؤتى بالسورة جميعها مسجوعةً ، كسورة الرحمن ، وسورة القمر ، وغيرها ، وبالجملة فلم تخل منه سورة من السور ؛ فمن ذلك قوله تعالى : (إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) وكقوله تعالى فى سورة طه : (طٰه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ، إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى ، تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمٰوَاتِ الْعُلَى ، الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ، لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ، وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ، اللهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) وكذلك قوله تعالى فى سورة ق : (بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ، أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ

بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ، وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) وكقوله تعالى : (وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ، فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ، فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً ، فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً) وأمثال ذلك كثيرة .

وقد ورد على هذا الأسلوب من كلام النبى صلى الله عليه وسلم شىء كثير أيضاً :

فمن ذلك مارواه ابن مسعود رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ » قلنا : إنا لنستحيى من الله يارسول الله قال : « لَيْسَ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ الِاسْتَحْيَاءُ مِنَ اللهِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى ، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى ، وَتَذْكُرَ الْمَوْتَ وَالْبِلَى ، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » .

ومن ذلك ماروا عبد الله بن سلام فقال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم جئت فى الناس لأنظر إليه ، فلما تَبَيَّنْتُ وَجهه علمت أنه ليس بوجه كذّاب ، فكان أول شىء تكلم به أن قال : « أَيُّهَا النَّاسُ ، أَفْشُوا السَّلَامَ ، وأَطْعِمُوا الطَّعَامَ ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ » .

فإن قيل : إن النبى صلى الله عليه وسلم قال لبعضهم مُنْكِراً عليه وقد كلمه بكلام مسجوع : « أَسَجْعاً كَسَجْعِ الْكُهَّان » ولولا أن السجع مكروه لما أنكره النبى صلى الله عليه وسلم .

فالجواب عن ذلك أنا نقول : لو كره النبى صلى الله عليه وسلم السجع مطلقاً لقال « أسَجْعا » ثم سكت ، وكان المعنى يدل على إنكار هذا الفعل لِمَ كان ، فلما قال « أسجعا كسجع الكهان » صار المعنى معلقاً على أمر ، وهو إنكار الفعل لِمَ كان على هذا الوجه ، فعلم أنه إنما ذم من السجع ما كان مثل سَجْع

الكهان ، لاغير ، وأنه لم يذم السجع على الإطلاق ، وقد ورد فى القرآن الكريم ، وهو صلى الله عليه وسلم قد نطق به فى كثير من كلامه ، حتى إنه غَيَّرَ الكلمة عن وجهها إتباعاً لها بأخواتها من أجل السجع ، فقال لابن ابنته عليهما السلام: «أُعِيذُهُ مِنَ الْهَامَّةِ، وَالسَّامَّةِ، وَكُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ» وإنما أراد مُلِمة ، لأن الأصل فيها من أَلَمَّ فهو مُلِم ، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : «ارْجِعْنَ مَأْزُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ» وإنما أراد مَوْزُورات من الْوِزْر ، فقال : «مأزورات» لمكان مأجورات ، طلباً للتوازن والسجع ، وهذا مما يدلك على فضيلة السجع .

على أن هذا الحديث النبوى الذى يتضمن إنكار سجع الكهان عندى فيه نظر ؛ فإن الوهم يسبق إلى إنكاره ، يقال : فما سَجْعُ الكُهَّان الذى يتعلق الإنكار به ونهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ والجواب عن ذلك أن النهى لَمْ يكن عن السجع نفسه ، وإنما النهى عن حكم الكاهن الوارد باللفظ المسجوع ؛ ألا ترى أنه لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجنين بغرة عبد أو أمة قال الرجل : «أَأَدِى مَنْ لاَ شَرِبَ وَلاَ أَكَلَ ، وَلاَ نَطَقَ وَلاَ اسْتَهَلّ ، وَمِثْلُ ذٰلِكَ يُطَلّ» فقال رسول الله صل الله عليه وسلم : «أَسَجْعاً كسجع الكهان» أى : أَتَتَّبع سجعاً كسجع الكهان(١) .

وكذلك كان الكهنة كلهم ؛ فإنهم كانوا إذا سئلوا عن أمر جاءوا بالكلام مسجوعا ، كما فعل الكاهن فى قصة هند بنت عتبة ، فإنه قال لما امتحن قبل السؤال عن قصتها: «ثَمرَة فى كَمَرَةٍ» فقيل له : نريد أبين من هذا ؟ فقال: «حَبَّةُ بُرّ فى إحليل مُهْر» والحكاية مشهورة ، فلهذا اختصرناها هٰهنا .

وكذلك قال سطيح ؛ فإنه قال : عَبْد المسيح ، جاء إلى سَطيح ، وهو مُوفٍ

---

(١) فى بعض النسخ «أأتبع سجعا كسجع الكهان» .

على الضريح ، لِرُؤْيَا الْمُوبِذَانِ ، وَارْتِجَاسِ الإيوان ، وأتم الكلام إلى آخره مسجوعا ؛ والحكاية مشهورة أيضاً فلهذا اختصرناها .

فالسجع إذاً ليس بمنهى عنه ، و إنما المنهىّ عنه هو الحكم المتبوع فى قول الكاهن ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَسَجْعاً كَسَجْعِ الكُهَّان » أى : أحكما كحكم الكهان ، و إلا فالسجع الذى أتى به ذلك الرجل لا بأس به ؛ لأنه قال : « أأدى من لا شرب ولا أكل ، ولا نطق ولا استهلّ ، ومثل ذلك يُطَلّ » وهذا كلام حسن من حيث السجع ، وليس بمنكر لنفسه ؛ و إنما المنكر هو الحكم الذى تضمنه فى امتناع الكاهن أن يَدِىَ الجنين بغرةٍ عبد أو أمة .

واعلم أن الأصل فى السجع إنما هو الاعتدال فى مقاطع الكلام ؛ والاعتدال مطلوب فى جميع الأشياء ، والنفس تميل إليه بالطبع ، ومع هذا فليس الوقوف فى السجع عند الاعتدال فقط ، ولا عند تواطؤ الفواصل على حرف واحد ؛ إذ لو كان ذلك هو المراد من السجع لكان كل أديب من الأدباء سَجَّاعا ، وما من أحد منهم ولو شَدَا شيئاً يسيراً من الأدب إلا و يمكنه أن يؤلف ألفاظاً مسجوعة ، و يأتى بها فى كلامه ، بل ينبغى أن تكون الألفاظ المسجوعة حُلْوَة حادة طَنَّانة رنانة ، لا غَثَّة ولا باردة ، وأعنى بقولى غثة باردة أنَّ صاحبها يصرف نظره إلى السجع نفسه من غير نظر إلى مُفْرَدات الألفاظ المسجوعة ، وما يشترط لها من الحسن ، ولا إلى تركيبها وما يشترط له من الحسن ، وهو فى الذى يأتى به من الألفاظ المسجوعة كمن ينقش أثواباً من الْكُرْسُفِ[1] ، أو ينظم عقداً من الْخَزَفِ الْمُلَوَّنِ .

وهذا مقام تزلّ عنه الأقدام ، ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب هـذا الفن بعد الواحد ، ومن أجل ذلك كان أربابه قليلا .

فإذا صفى الكلام المسجوع من الغَثَاثة والبرد فإن وراء ذلك مطلوباً آخر ،

(١) الكرسف ـ بزنة قنفذ ـ القطن .

وهو أن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى ، لا أن يكون المعنى فيه تابعاً للفظ ؛ فإنه يجيء عند ذلك كظاهرٍ مُموَّه، على باطن مُشوَّه، ويكون مثله كغِمْد من ذهب ، على نَصْل من خَشَب ، وكذلك يجرى الحكم فى الأنواع الباقية الآتى ذكرها من التجنيس والترصيع وغيرهما .

وسأبين لك فى هذا مثالا تتبعه ؛ فأقول : إذا صوّرت فى نفسك معنى من المعانى ، ثم أردت أن تصوغه بلفظ مسجوع ولم يؤاتك ذلك إلا بزيادة فى ذلك اللفظ أو نقصان منه ، ولا يكون محتاجا إلى الزيادة ولا إلى النقصان ، وإنما تفعل ذلك لأن المعنى الذى قصدته يحتاج إلى لفظ يدل عليه ، وإذا دللت عليه بذلك اللفظ لا يكون مسجوعا إلا أن تضيف إليه شيئاً آخر أو تنقص منه ، فإذا فعلت ذلك فإنه هو الذى يُذَمّ من السجع ويستقبح ؛ لما فيه من التكلف والتعسف ، وأما إذا كان محمولا على الطبع غير متكلَّف فإنه يجيء فى غاية الحسن ، وهو أعلى درجات الكلام ، وإذا تَهيَّأ للكاتب أن يأتى به فى كتابته كلها على هذه الشريطة فإنه يكون قد ملك رِقابَ الكلم : يَسْتَعْبِد كَرائمها ، ويستولد عقائمها ، وفى مثل ذلك فليتنافس ، وعن مقامه فليُتقاعس ، ولصاحِبُهُ أولى بقول أبى الطيب المتنبى[1] :

أَنْتَ الْوَحِيدُ إِذَا رَكِبْتَ طَرِيقَةً ... وَمَنِ الرَّدِيفُ وَقَدْ رَكِبْتَ غَضَنْفَرَا؟[2]

فإن قيل : فإذا كان السجع أعلى درجات الكلام على ماذهبت إليه ، فكان ينبغى أن يأتى القرآن كله مسجوعاً ؟ وليس الأمر كذلك ، بل منه المسجوع ومنه غير المسجوع .

---

(١) هو من قصيدته التى يمدح بها أبا الفضل بن العميد ، والتى أولها :

بَادٍ هَوَاكَ صَبَرْتَ أَمْ لَمْ تَصْبِرَا ... وَبُكَاكَ إِنْ لَمْ يَجْرِ دَمْعُكَ أَوْ جَرَى

(٢) رواية الديوان « إذا ارتكبت » ولعل ماهنا أحسن .

قلت فى الجواب : إن أكثر القرآن مسجوع ، حتى إن السورة لتأتى جميعها مسجوعة ، وما منع أن يأتى القرآن كله مسجوعا إلا أنه سلك [به] مسلك الإيجاز والاختصار ، والسجع لا يؤاتى فى كل موضع من الكلام على حد الإيجاز والاختصار ، فترك استعماله فى جميع القرآن لهذا السبب .

وههنا وجه آخر هو أقوى من الأول ، ولذلك ثبت أن المسجوع من الكلام أفضل من غير المسجوع ، وإنما تضمن القرآن غير المسجوع لأن ورود غير المسجوع معجزاً أبلغ فى باب الإعجاز من ورود المسجوع ، ومن أجل ذلك تضمن القرآن القسمين جميعاً .

واعلم أن للسجع سراً هو خلاصته المطلوبة فإن عرى الكلام المسجوع منه فلا يُعْتَدُّ به أصلا ، وهذا شىء لم ينبه عليه أحد غيرى ، وسأبينه ههنا ، وأقول فيه قولا هو أبين مما تقدم ، وأمثِّلُ لك مثالا إذا حَذَوْتَهُ أَمِنْتَ الطاعن ، والعائب ، وقيل فى كلامك : لِيُبَلِّغ الشاهد الغائب ، والذى أقوله فى ذلك هو أن تكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملةً على معنى غير المعنى الذى اشتملت عليه أختها ، فإن كان المعنى فيهما سواء فذاك هو التطويل بعينه ؛ لأن التطويل إنما هو الدلالة على المعنى بألفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها ، وإذا وردت سجعتان يَدُلَّان على معنى واحد كانت إحداهما كافيةً فى الدلالة عليه ، وجُلُّ كلام الناس المسجوع جارٍ عليه ، وإذا تأملت كتابة المُفْلِقِين ممن تقدم كالصّابى وابن العَمِيد وابن عَبَّاد وفلان وفلان فإنك تَرَى أكثر المسجوع منه كذلك ، والأقلّ منه على ما أشرتُ إليه .

ولقد تصفحت المقامات الحريرية والخطب النُّبَاتية ، على غرام الناس بهما ، وإكبابهم عليهما ، فوجدت الأكثر من السجع فيهما على الأسلوب الذى أنكرته .

فالكلام المسجوع إذاً يحتاج إلى أربع شرائط : الأولى : اختيار مفردات الألفاظ على الوجه الذى أشرت إليه فيما تقدم ، الثانية : اختيار التركيب على الوجه الذى أشرت إليه أيضاً فيما تقدم ، الثالثة : أن يكون اللفظ فى الكلام المسجوع تابعاً للمعنى ، لا المعنى تابعاً للفظ ، الرابعة : أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذى دَلَّت عليه أختها ؛ فهذه أربع شرائط لا بد منها .

وسأورد ههنا من كلامى أمثلة تَحْذى حذوها ، فانى لما سلكت هذه الطريق وأتيت بكلامى مسجوعا توخَّيْتُ أن تكون كل سَجْعة منه مختصة بمعنى غير المعنى الذى تضمنته أختها ، ولم أخلّ بذلك فى مكاتباتى كلها ، وإذا تأملتها علمت صحت ماقد ذكرته .

فمن ذلك ما كتبته فى صدر كتاب عن بعض الملوك إلى دار الخلافة ، وهو : الخادم واقف مَوْقِفَ رَاجٍ هائب ، لازم بكتابه هذا وقارَ حاضرٍ عن شخص غائب ، مُوجِّه وجهه إلى ذلك الجناب الذى تقسم فيه أرزاق العباد ، ويتأدب به الزمان تأدُّبَ ذوى الاستعباد ، وتستمد الملوك من خدمته شرف الجدود كما تستغنى بنسبها إليه عن شرف الأجداد ، ولو ملك الخادم نفسه لقصرها على خدمة قصره ، وأحظاها من النظر إليه ببرد العيش الذى عُمْرُها محسوبٌ من عُمْره ، وهذا القول يقوله وكل ماجد فيه حاسد ، وبتأمليه راكع ساجد ، والديوان العزيز محسود الاقتراب ، وهو موطن الرغبات الذى الاغتراب إليه ليس بالاغتراب ، وما ينافس فى القرب من أبوابه الكريمة إلا ذوو الهمم الكريمة ، وقد وَدَّت الكواكب بأسْرِها أن تكون له مُنادِمةً فضلا عن نَدْمانَيْ جَذِيمة .

ومن ذلك ما كتبته من كتاب يتضمن العناية ببعض الناس ، وهو :

الكريم من أوْجَبَ لسائله حقًّا ، وجعل كواذب آماله صدقاً ؛ وكان خرق العطايا منه خُلُقاً ، ولم يَرَ بين ذِمَّمه و بين رحمه فَرْقاً ، وكل ذلك موجود فى كرم مولانا أجراه الله من فضله على وتيرة ، وجعل هِمَمَه على تمام كل نقص قديرة ، وأوطأه من كل مجد سريراً كما بَوّأه من كل قلبٍ سَرِيرةً ، ولا زالت يَدُه بالمكارم جَدِيرة ، ومن الأيام مُجِيرة ، ولضرائرها من البحار والسحاب مميرة ، ولا برحت تستولد عقائم المعانى وتستجد أبنيتها حتى يشهد الناسُ منها فى كل يوم عقيقة أو وكيرة ، ومن صفات كرمه أنه يسبك الأموال مآثر ، ويَتَّخِذها عند السؤال ذخائر ، فهى تفنى لديهم بالإنفاق ، وذِكْرُها على مرور الأيام باق ، ومَنْ أرْبَحُ منه صَفْقَةً وقد باع صامتاً بناطق ، وما هو مُعَرَّض لحوادث السرقات بما لا تصل إليه يد سارق ، ومثْلُه مَنْ عَرَف الدنيا فرغب عن اقتنائها ، وجَدَّ فى ابتناء المحامد بهدم بنائها ، وعلم أن مالها ليس عند الضنين به إلا أحجاراً ، وأن غِناه منها لا يزيده إلا افتقاراً ؛ فهو لماله عَبْدٌ يخدمه ولا يستخدمه ، وأم ترضعه بسعيها ولا تَفْطِمهُ .

ومنه ما كتبته فى جواب كتاب يتضمن إباق غلام ، وهو أول كتاب ورد من المكتوب عنه إلى المكتوب إليه ؛ فقلت : وأما الإشارة الكريمة فى أمر الغلام الآبق عن الخدمة فقد يَفِرُّ المُهْرُ من عَليقه ، ويطير الْفَرَاش إلى حَريقه ، وغير بعيد أن يَنْبُوَ به مَضْجَعه ، أو يَكْبُو به مَطْمَعُه ، فيرجع وقد حمد من رجوعه ماذمه من ذهابه ، وعلم أن الغنيمة كل الغنيمة فى إيابه ، فما كل شجرة تحلو لذائقها ، ولا كل دارٍ تُرَحِّب بطارقها ، ومن أَبَقَ عن مولاه مغاضباً ، وجانَبَ محلّ إحسانه الذى لم يكن له مُجانباً ، فإنه يجد من مفارقة الإحسان ، مايجده من مفارقة معاهد الأوطان ، وهل أضَلُّ سَعْياً مِمَّنْ دفع فى صدر العافية وغدا يسأل عن الأسقام ، وألقى الثروة من يده ومضى فى طلب الإعدام ، ومع هذا فإن

الخادم يشكره على ذنب الإباق الذى أقدم على اجترامه ، وليس ذلك إلا لأنه صار سبباً لافتتاح باب المكاتبة الذى لم يطمع فى افتتاحه ، ولا جزاء له عنده إلا السعى فى إعادته إلى الخدمة التى تقلب فى إنشائها ، وهى أبَرُّ به من أمِّه التى تقلب فى أحشائها ، ومن فضلها أنها تلقاه من حلمها بوسيلة الشافع ، ومن كرمها بالوجه الضاحك والفضل الواسع .

فانظر أيها المتأمل إلى هذه الأسجاع جميعها وأَعْطِهَا حقَّ النظر حتى تعلم أن كل واحدة منها تختص بمعنى ليس فى أختها التى تليها ، وكذلك فليكن السجع ، و إلا فلا .

وسأورد هٰهنا من كلام الصابى ماستراه :

فمن ذلك تحميد فى كتاب ؛ فقال : « الحمدُ لله الذى لاتدركه الأعين بألحاظها ، ولا تَحُدُّه الألسن بألفاظها ، ولا تخلقه العصور بمرورها ، ولا تهرمه الدهور بكرورها » .

ثم انتهى إلى الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : « لم ير للكفر أثراً إلا طَمَسَه ومَحاه ، ولا رسماً إلا أزاله وعَفَّاه » .

ولا فرق بين مرور العصور وكرور الدهور ، وكذلك لا فرق بين مَحْوِ الأثر وعفاء الرسم .

ومن كلامه أيضاً فى كتاب ، وهو : « وقد علمت أنّ الدولة العباسية لم تزل على سالف الأيام ، وتعاقب الأعوام[1] ، تعتلّ طَوْراً وتَصِحّ أطوارا، وتَلْتَاث مرة وتستقل مراراً ، من حيث أصلها راسخ لايتزعزع ، و بنيانها ثابت لايتضعضع »

وهذه الأسجاع كلها متساوية المعانى ، فإن الاعتلال والالتياث والطَّوْر والْمَرّة والرُّسوخ والثَّبات ، كلٌّ ذلك سَوَاء .

وكذلك ورد له فى جملة كتاب كتبه عن عز الدولة بن بُوَيْه جواباً عن كتاب وصله من الأمير عبد الكريم بن المطيع لله ، فقال : « وصلنى كتابه

(١) فى ا ، ب « ومعاقب الآيام » .

مُنْتَقَحاً من الاعتزاء إلى إمارة المؤمنين ، والتقلد لأمور المسلمين ، بما أعْرَاقُه الزَّكية مُجَوِّزة لاستمراره ، وأرُومَتُه العلية مُسَوِّغة لاستقراره ، له ولكل نجيب أخذ بحظه من نسبه ، وضارب بسهم فى مَنْصِبِه ؛ إذ كان ذلك جاريًا على الأصول المعهودة فيه ، والأسباب العاقدة له ، من إجماع المؤمنين كافة ، فإن تعذر اجتماعهم مع انبساطهم فى الأرض ، وانتشارهم فى الطول والعرض ؛ فلا بد من اتفاق أشراف كل قُطْر وأفاضله ، وأعيان كل صُقْع وأمَاثِلِه » .

وهذا الكلام كله متماثل المعانى فى أسجاعه ، فإن إمارة المؤمنين والتقلّد لأمور المسلمين سواء فى المعنى ، وكذلك الأعراق والأرُومَة ، والتجويز والتسويغ ، والأشراف والأفاضل ، والأعيان والأماثل ، والقُطْر والصُّقْع ، كل ذلك سواء .

وعلى هذا جاء كلامه فى كتاب آخر ، فقال : « يسافر رأيه وهو دانٍ لم يَنْزَح ، ويَسِير تدبيره وهو ثاوٍ لم يَبْرَح » .

وكلا هٰذين سواء أيضاً . وما أحسن هذا المعنى لو قال : يسافر رأيه وهو دانٍ لم يَبْرَح ، ويُثْخِن الجراحَ فى عدوه وسيفه فى الغمد لم يجرح ؛ فإنه لو قال مثل هذا سلم من هُجْنة التكرار . وأمثال ذلك فى كلام الصابى كثير .

وعلى منواله نسج الصاحب ابن عَبَّاد .

فمن ذلك ماذكره فى وصف مهزومين ، فقال : « طَارُوا واقين بظهورهم صُدُورَهم ، وبأصلابهم نُحُورَهم [(١)] » وكلا المعنيين سواء .

وكذلك قوله فى هذا الكتاب يصف ضيق مجال الحرب : « مَكَانٌ ضَنْك على الفارس والراجل ، ضَيِّق على الرَّامِحِ والنَّابِلِ » .

ومن كلامه فى كتاب ، وهو : « لاتتوجه هِمَّتُه إلى أعظم مرقوب إلا طَاعَ ودَان ، ولا تمتد عزيمته إلى أفخم مطلوب إلا كان واستكان » .

وكل هذا الذى ذكره شىء واحد .

(١) فى ا « وبأصلابهم فجورهم » وهو تصحيف ، ولا يتم عليه كلام المولف .

وله من كتاب ، وهو : « وصل كتابه جامعاً من الفوائد أشدَّها للشكر استحْقَاقاً ، وأتمها للحمد استغراقاً ، وتعرَّفْتُ من إحسان الله فيما وفره من سلامته ، وهنأه من كرامته ، أنفسَ مَوْهُوب ومطلوب ، وأحْمَدَ مرقوب ومخطوب » .

وهذا كله متماثل المعانى ، متشابه الألفاظ .

وفيما أوردته هٰهنا مَقْنَع ؛ فأنعِمْ نظرك أيها الواقف علىهذا الكتاب فيما بينته لك ، ووضَعْتُ يدك عليه ، حتى تعلم كيف تأتى بالمعانى فى الألفاظ المسجوعة ، والله الموفق للصواب .

فإن قيل : إنك اشترطت أن تكون كل واحدة من الفقرتين فى الكلام المسجوع دالةً على معنى غير المعنى الذى دلت عليه أختها ، وإنما اشترطت هذه الشريطة فِراراً من أن يكون المعنيان شيئاً واحداً ، ونرى قد ورد فى القرآن الكريم لفظتان بمعنى واحد فى آخر إحدى الفقرتين المسجوعتين ، كقوله تعالى : (وَاذْكُرْ فى الْكِتَابِ إِسْمٰعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا) وكل رسول نبى .

قلت فى الجواب : ليس هذا كالذى اشترطته أنا فى اختصاص كل فقرة بمعنى غير المعنى الذى اختصت به أختها ، وإنما هذا هو إيراد لفظتين فى آخر إحدى الفقرتين بمعنى واحد ، وهذا لابأس به ؛ لمكان طلب السجع ، ألا ترى أن أكثر هذه السورة التى هى سورة مريم عليها السلام مسجوعة على حرف الياء ، وهذا يجوز لصاحب السجع أن يأتى به ، وهو بخلاف ماذكرته أنا ؛ ألا ترى أن النبى صلى الله عليه وسلم قد غير اللفظة عن وضعها طلباً للسجع ، فقال : «مأزُورَاتٍ» وإنما هى مَوْزُورات ، وقال : « الْعَيْن اللَّامَّة» وإنما هى الْمُلِمَّة ، إلا أنه ليس فى ذلك زيادة معنى ، بل يفهم من لفظة مأزورات أنها قائمة مقام موزورات ، وكذلك يفهم من لفظة لَامَّة أنها بمعنى مُلِمَّة ؛ فالسجع قد أجيز معه تغيير وضع اللفظة ،

وأجيز معه أن يورد لفظتان بمعنى واحد فى آخر إحدى الفقرتين ، ومع هذا فلم يجز فى استعماله أن يورد فقرتان بمعنى واحد ؛ لأنه تطويل مَحْضٌ لا فائدة فيه ، وبين الذى ذكرتَهُ أنت وبين الذى ذكرتُهُ أنا فرقٌ ظاهر .

والذى قدمته من الأمثلة المسجوعة للصابى والصاحب ابن عباد ربما كانت يسيرة أُتَّهَمُ فيها بالتعصب ، ويقال : إنى الْتَقَطْتُها التقاطاً من جملة رسائلهما ، وقد خرجت من عُهْدَة هذه التهمة ، وذاك أنى وجدت للصابى تقليداً بنقابة الأشراف العلويين ببغداد ، وكنت أنشأت تقليداً بنقابة الأشراف العلويين بالموصل ؛ وقد أوردت التقليدين ههنا ؛ ليتأملهما الناظر فى كتابى هذا ، ويحكم بينهما إن كان عارفاً أو يسأل عنهما العارفَ إن كان مقلِّداً .

وقد أوردت تقليد الصابى أولا ؛ لأنه المقدم زمانا وفَضْلاً ، وهو : « هذا ما عهدَ أميرُ المؤمنينَ إلى محمد بن الحسين بن موسى العَلَوِىّ ، المُوسَوِى ، حين وصلته به الأنساب ، وتأكَّدَتْ له الأسباب ، وظهرت دلائل عقله ولَبابَته ، ووضحت مَخايِلُ فضله ونجابته ، ومهد له بهاء الدولة وضياء الملة أبو نصر بن عضد الدولة وتاج الملة مولى أميرالمؤمنين ما مكن له عند أميرالمؤمنين من المحل المكين ، وَوَصفه به من الحِلْمِ الرَّزِينِ ، وأشاد به فيه من رفع المنزلة ، وتقديم المرتبة ، والتأهيل لولاية الأعمال ، والحمل للأَعباء الثِّقال ، وحيث رغبه فيه ، سابقةُ الحسين أبيه ، فى الخدمة والنصيحة والمواقف المحمودة ، والمقامات المشهودة ، التى طابت بها أَخْبَاره ، وحَسُنَت فيها آثاره ، وكان محمد متخلقاً بخلائقه ، وذاهباً فى طرائقه ، عِلْماً وديانة ، وَوَرَعاً وصِيانة ، وعِفَّةً وأمانة ، وشهامة وصَرَامة ، بالحظ الجزيل ، من الفضل الجميل ، والأدب الجَزْل ، والتوجُّه فى الأهل ، والإيفاء بالمناقب على لِدَاته وأَتْرَابه ، والإربار على قَرَائبه وأَضْرَابه ، فقلَّده ما كان داخلا فى أعمال أبيه من نِقابة نُقَباء الطالبيين أجمعين بمدينة السلام وسائر

الأعمال والأمصار شرقاً وغرباً ، وبعداً وقرباً ، واختصه ذلك جذباً بصنعه[١] ، وإنافة بقدره ، وقضاء لحق رحمه ، وترْفيها لأبيه ، وإسعافاً له بإيثاره فيه ، إلى أمير المؤمنين واستخلافه عليه من النظر فى المظالم ، وتسيير الحجيج فى المواسم ، والله يعقب أمير المؤمنين فيما أمرَ ودبَّرَ حسن العاقبة فيما قضَى وأمضَى ، وما توفيقُ أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكل وإليه ينيب .

أمَرَه بتقوى الله التى هى شعار المؤمنين ، وسنا الصالحين ، وعِصْمَة عباد الله أجمعين ، وأن يَعْتَقِدَها سراً وجهراً ، ويعتمدها قولا وفعلا ، ويأخذ بها ويعطى ، ويُسِرُّ بها وينْوى ، ويأتى ويذر ، ويورد ويصدر ؛ فإنها السَّبَب المتين ، والمعْقِلُ الحصين ، والزاد النافع يوم الحساب ، والمسلك المُفضى إلى دار الثواب ، وقد حضَّ الله أولياءه عليها ، وهداهم فى مُحْكم كتابه إليها ، فقال عزَّ من قائل : (يأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) .

وأمَرَه بتلاوة كتاب الله مواظباً ، وتَصَفّحه مُدَاوماً ملازماً ، والرجوع إلى أحكامهِ فيما أحل وحرَّم ، ونَقَض وأبرم ، وأثاب وعاقب ، وباعد وقارب ، فقد صحح الله برهانه وحجته ، وأوضح مِنْهاجه ومَحَجَّته ، وجعله نَجْماً فى الظلمات طالعاً ، ونوراً فى المشكلات ساطعاً ، فمن أخذ به نجا وسلم ، ومن عدَل عنهُ هوَى ونَدِم ، قال الله تعالى : (وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) .

وأمَرَه بتنزيه نفسه عما تدعو إليه الشبهات ، وتطلع إليه التَّبِعَات ، وأن يَضْبِطَها ضَبْطَ الحليم ، ويَكُفَّها كَفَّ الحكيم ، ويجعل عقله سلطاناً عليها ، وتمييزه آمراً ناهياً لها ، ولا يجعل لها عذراً إلى صَبْوَة ، ولا هفوة ، ولا يطلق منها عناناً عند ثوْرة ، ولا فوْرَة ، فإنها أمَّارة بالسُّوء ، منصبة إلى الغى ؛ فمن رَفضَها نجا ، ومن اتَّبعَها هوَى ، فالحازم متهم عند تحرك وطره وأربه واهتياج غيظه ،

(١) كذا فى جميع الأصول ؛ ولعله « جذبا بضبعه » .

ولا يَدَعْ أن يغضها بالشَّكيم ، ويَعْرُكها عَرْكَ الأديم ، ويقودَها إلى مصالحها بالخزائم ، ويفتقدها من مقارفة المآثم والمحارم[(١)] ، كيما يعز بتذليلها وتأديبها ، ويُجَلّ برياضها وتقويمها ، والمُفَرِّط [فى أمر] تطمَحُ به إذا طمَحَت ، ويجمح معها إذا جمَحَت ، ولا يلبَثُ أن توردَه حيث لا يصدر ، وتلجئه إلى أن يعتذر ، وتقيمه مقام النادم الواجم ، وتتنكب به سبيل الراشد السالم ، وأحق من تحلّى بالمحاسن ، وتصدّى لاكتساب المحامد ، مَنْ ضرب بمثل سهمه فى نسب أمير المؤمنين الشريف ، ومنصبه المنيف ، واجتمع معه فى ذُؤابة العِتْرة الطاهرة ، واستظلّ بأوراق الدَّوحة الفاخرة ، فذلك الذى تتضاعف به المآثر إن آثرها ، والمثالب إن أسَفّ إليها ، ولا سيما من كان مندوباً بالسياسة ومرشحاً للتقليد على أهله ؛ إذ ليس يفى بالصلاح لمن ولى عليه ، ولا يفى بإصلاح ما بَيْنَ جَنْبَيْهِ ، ومِنْ أعظم الهُجْنة عليه أن يأمر ولا يأتمر ، ويَزْجُر ولا يزدجر ، قال الله تعالى ذكره : (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ).

وأمره أن يتصفّح أحوال من ولى عليهم : من استقراء مذاهبهم ، والبحث عن بواطنهم ودخائلهم ، وأن يعرف لمن تقدمت قدَمُه منهم وتظاهر فضله فيهم منزلَتَهُ ، ويُوَفِّيه حَقَّه وزينته ، وينتهى فى إكرام جماعتهم إلى الحدود التى توجبها أنسابهم وأقدارهم ، وتقتضيها مواقعهم وأخطارهم ، فانَّ ذلك يلزمه لشيئين : أحدهما يخصه ، وهو النسب الذى بينه وبينهم ، والآخر يعمه والمسلمين جميعاً ، وهو قول الله جل ذكره : (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) فالمودة لهم الإعظام لأكابرهم ، والاشتمال على أصاغرهم ؛ واجب متضاعف الوجوب عليه ، متأكد اللزوم له . ومَنْ كان منهم فى دون تلك الطبقة مِنْ أحداثٍ لم يحتنكوا عليه ، وجذعان لم يقرحوا ، ومجرين إلى ما يُزْرِى بأنسابهم ، ويَغُضّ من أحسابهم ، عَذَلهم وأنَّبَهم ، ونهاهم ووَعَظَهم ، فانْ نزَعوا وأقلعوا فذاك

(١) فى ا « ويغتفرها من مقارفة المآثم والمحارم » .

المراد بهم ، والمقصد فيهم ، وإن أصَرُّوا وتتابعوا أنالَهُمْ من العقوبة بقدر ما يكف ويردع ؛ فإن نَفَعَ وإلا تجاوزه إلى ما يلذع ويوجع ، من غير تطرّق لأعراضهم ، ولا امتهان لأحسابهم ؛ فإن الغرض منهم الصيانة ، لا الإهانة ، والإدالة ، لا الإذالة ، وإذا وجبت عليهم الحقوق ، أو تعلقت بهم دواعى الخصوم ، قادَهم إلى الإغفاء بما يصح منها ويجب ، والخروج إلى سَنَن الحق فيما يشتبه ويلتبس ، ومتى لزمتهم الحدود أقامها عليهم بحسب ما أمره الله تعالى فيها ، بعد أن تثبت الجرائم وتصح ، وتبين وتتضح ، وتتجرد عن الشك ، وتتجلى من الظن والتهمة ، فإنَّ الذى يستحب فى حدود الله عز وجل أن تُدْرأ مع نقصان اليقين والصحة ، وأن تُمْضَى عليهم مع قيام الدليل والبينة ؛ قال الله عز وجل : (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) .

وأمره بحياطة أهل النسب الأطهر ، والشرف الأفخر ، عن أن يدّعيه الأدعياء ، أو يدخل فيه الدُّخَلاء ، ومن انتمى إليه كاذباً ، أو انتحله باطلاً ، ولم يوجد له بيت فى الشجرة ، ولا مِصْدَاق عند النسابين المهرة ، أوقع به كذبه وفسقه وشَهَرَه شُهْرَةً ينكشف بها غشه ولبسه ، وينزع بها غيره ممن تُسَوِّل له ذلك نفسه ، وأن يُحصن الفروج عن مناكحة من ليس كفئاً لها فى شرفها وفخرها ، حتى لا يطمع فى المرأة الحسيبة النسيبة إلا من كان مثلاً لها مساوياً ، ونظيراً موازياً ، فقد قال الله تعالى : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) .

وأمره بمراعاة مُتَبَتِّلى أهله ومتهجديهم ، وصلحائهم ومجاوريهم ، وأراملهم وأصاغرهم ، حتى تستد الْخَلَّة من أحوالهم ، وتدرّ المواد عليهم وتتعادل أقساطهم فيما يصل إليهم من وجوه أموالهم ، وأن يزوج الأيَامَى ، ويربى الْيَتامى ، وليلزمهم المكاتب فيتلقنوا القرآن ، ويعرفوا فرائض الإسلام والإيمان ، ويتأدبوا بالآداب

اللائقة بذوى الأحساب ؛ فإن شرف الأعْراق، محتاج إلى شرف الأخلاق ، ولا حمد لمن شرفه حسبه ، وسخف أدبه ، إذ كان لم يكتسب الفخر الحاصل بفضل سعى ولا طلب ولا اجتهاد ، بل بصنع الله تعالى له ، ومزيد المنة عليه ، وبحسب ذلك لزوم ما يلزمه من شكره سبحانه على هذه العطية ، والاعتداد بما فيها من الْمَزِيَّة . وإعمال النفس فى حيازة الفضائل والمناقب ، والتَّرَفّعُ عن الرذائل والْمَثَالب .

وأمره بإجمال النيابة عن شيخه الحسين بن موسى فيما أمره أمير المؤمنين باستخلافه عليه من النظر ، والأخذ للمظلوم من الظالم ، وأن يجلس للمترافعين إليه جلوساً عاما ، ويتأمل كلامهم تأملاً تاما ؛ فما كان منها متعلقاً بالحاكم رده إليه ، ليحمل الخصوم عليه ، وما كان من طريقة الغشم والظلم ، والتغلب والغصب ، قَبَضَ عنه اليد المبطلة ، وثَبَّتَ فيه اليدَ المستحِقّة ، وتَحرّى فى قضاياه أن تكون مُوَافقة للعدل ، ومُجَانبة للخذل ، فإن عادة الحكام وصاحب المظالم واحدة ، وهى إقامة الحق ونصرته ، وإبانته وإثارته ، وإنما يختلف سبيلا هما فى النظر ، إذ كان الحاكم يعمل بما ثبت عنده وظهر ، وصاحب المظالم يَفْحَص عما غمض واستتر ، وليس له مع ذلك أن يرد للحاكم حكومة ، ولا يحل له قَضِيّة ، ولا يتعقب ماينفذه ويُمْضيه ، ولا يَتتَبّع مايحكم به ويقضيه ، والله يهديه ويوفقه ، ويُسَدِّده ويرشده .

وأمره أن يسير حجيج بيت الله عز وجل إلى مقصدهم، ويحميهم فى بَدْأتهم وعَوْدتهم ، ويرتّبهم فى مسيرهم ومَسْلكهم ، ويَرْعاهم فى ليلهم ونهارهم ، حتى لاتنالهم شِدَّة ، ولاتَصِل إليهم مَضَرّة ،وأن يُريحهم[1] فى المنازل، ويوردهم المناهل، ويُناوِب بينهم فى النَّهَل والْعَلَل ، ويمكنهم من الارتواء والاكتفاء ، مجتهداً فى الصيانة لهم ، ومعذراً فى الذَّبِّ عنهم ، ومُتَلَوّماً على متأخرهم ومتخلفهم ، ومُنْهضا

(١) كذا فى ب ، ج ؛ وفى ا « وأن ينزلهم فى المنازل » .

لضعيفهم ومَهِيضهم ، فإنهم حُجَّاج بيت الله الحرام ، وزُوَّار قبر رسوله عليه الصلاة والسلام ، قد هَجَرُوا الأهل والأوطان ، وفارقوا الجيرةَ والإخوان ، وتَجَشَّمُوا المغارم الثِّقَال ، وتَعَسَّفوا السُّهُولة والجِبَال ، يُلَبُّون دعاء الله ، ويطيعون أمره ، ويُؤَدُّون فرضه ، ويرجون ثوابه ، وحَقِيقٌ على المسلم أن يحرسهم مُتَبَرِّعا ، ويَحُوطهم متطوعا ، فكيف من تولى ذلك وضمنه ، وتقلده واعتقبه ؟ قال الله تعالى : (وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً) .

وأمره أن يراعي أمور المساجد بمدينة السلام وأطرافها ، وأقطارها وأكنافها ، وأن يَجْبِيَ أموال وَقْفِهَا ، ويستقصي جميع حقوقها ، وأن يَلُمَّ شَعَثها ، ويَسُدَّ خَلَلَهَا ، بما يتحصل من هذه الوجوه قبله ، لا يزيل رسماً جرى ، ولا ينقض عادة كانت لها ، وأن يكتب اسم أمير المؤمنين على ما يَعْمُرُه منها ، ويذكر اسمه بعده بأن عمارتها جَرَتْ على يده ، وصلاح أداه قول أمير المؤمنين في ذلك ، تَنْوِيهاً باسمه ، وإشادةً لذكره ، وأن يولي ذلك من قبله مَنْ حَسُنَتْ أمانته ، وظهرت عفته وصيانته ؛ فقد قال الله جل من قائل : (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إلاَّ اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) .

وأمره أن يستخلف على ما يرى استخلافه عليه من هذه الأعمال في الأمصار الدانية والنائية والبلاد القريبة والبعيدة مَنْ يثقُ به من صُلَحاء الرجال ، ذوي الوفاء والاستقلال ، وأن يعهد إليهم مثل ما عهد إليه ، ويعتمد عليهم مثل ما اعتمد عليه ، ويستقصي في ذلك آثارَهُم ، ويَتَعَرَّف أخبارهم ؛ فمن وجده محموداً قَرَّبه ، ومن وجده مذموماً صَرَفه ولم يمهله ، واعْتَاضَ مَنْ تُرْجَى الأمانة عنده ، وتكون الثقة معهودة منه ، وأن يختار لكتابته وحجابته والتصرُّف فيما قرب منه وبعد عنه مَنْ يَزِينه ، ولا يَشِينه ، وينصح له ولا يغشه ، ويجمله ولا يُهَجِّنه ، مِنَ

الطبقة المعروفة باللطف ، المتصوّنة عن النَّطَفِ ، ويجعل لهم من الأرزاق الكافية ، والأجرة الوافية ، ما يَصُدُّهم عن المكاسب الذميمة ، والمآكل الوخيمة ؛ فليس تجب عليهم الحجة إلا مع إعطاء الحاجة ، قال الله تعالى : (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَاسَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى) .

وأمره أن يكتب لمن تقوم بينته عنده وتنكشف له حجته إلى أصحاب المعارف بالشدّ على يده ، واتصال حقه إليه ، وحَسْم الطَّمَع الكاذب فيه ، وقبض اليد الظالمة عنه ؛ إذ هم مندوبون للتصرف بين أمره ونَهْيه ، والوقوف عند رسمه وحَدّه .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك ، وحجته لك وعليك ، قد أبان منه سبيلك ، وأوضح دليلك ، وهَدَاك لرشدك ، وجعلك على بينة من أمرك ، فاعمل به ولا تخالفه ، وأنْتَهِ إليه ولا تجاوزه ، وإن عَرَضَ لك عارض يُعْجِزك الوفاء به ويَشْتَبه عليك الخروج منه أَنْهَيْتَهُ إلى أمير المؤمنين مبادِراً ، وكنت إلى ما يأمرك به صائراً ؛ إن شاء الله تعالى .

وأما التقليد الذى أنشأته أنا فقد أوردته بعد هذا التقليد ، وهو :

أما بعد فإن كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجْذَم ، وكل كتاب لا يرقم باسمه فليس بمُعْلم ، وعلى هذا فإن حمده يتنزل من الكلام ، منزلَةَ الأعضاء من الأجسام ، واسمه يتنزل من الكتاب ، منزلَةَ الرُّقُوم من الثياب ، وقد جمعنا فى كتابنا هذا بين التسمية والتحميد ، وجعلنا أحدهما مفتاحا للتيمن والآخر سبباً للمزيد ، ثم رَدَفْنَاهما بالصلاة على سيدنا محمد الذى أيَّدَه الله بالقرآن المجيد ، وجعل شهادته قبل كل شَهيد ، وعلى آله وصحبه الذين هُدُوا إلى الطَّيِّب من القول وهُدُو إلى صراط الحميد ، ومما يقترن بهذه الصلاة فى ثَوَابها ، ويجىء على أعقابها ، النظر فى أمر الأسرة النبوية التى وَصَل وُدَّها بوده ، وجعلها إحدى الثَّقَلَين

المُخَلَّفين مِنْ بَعْدِه ، وقد تقادم الآن زمانها ، وتشعبتْ أغصانها ، ونُسِيَ مالها فى الرقاب من عهدة الأمانة ، ولم توضع فيما وضع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم من المكانة ، وأولى الناس بها مَنْ أضمر ولاءها حقا ، وأوجب أن يَرِدَ معها الحوضَ حين يقال لوارده : سُحْقاً ، وكان بمن تحت يده منها بَارًّا رَفيقا حتى لايسأله برًّا ولا رفقاً ، ونحن نرجو أن نفوز بفضيلة هذه الحسنة ، وأن نَسْبق إليها سَبْق المتقرب فى الجمعة ببَدَنَهْ ، ومِنْ أهَمِّ أمورها أن يُخْتار لها زعيم يرأف بها رأفة الوالد بولده ، ويقوم بأمرها قيام الرأس بجسده ، حتى تأتلف أصولها كلها فى مَغْرسها ، ولا يَحْكُمُ عليها من ليس من أنْفُسِها ، وقد اخترنالها من وُفِّقْنا فى اختياره ، وأخذنا فيه ببيان الرأى وحَزْمِهِ لابِشُبْهَة الهوى واغتراره ، ولو لم يكن من القوم الذين ولوها لكان استحقاقه لها بَيِّنا ، والتعويل عليه مُتَعَيِّنا ، فكيف وقَدَمُه فيها قديمة الميلاد ، ووراثته إياها عن سيادة الجدود وسؤدد الأجداد ، وهو أنت أيها السيد الأجل الشريف الحسيب النسيب فلان بن فلان الحسينى ، ولو شئنا لأسندنا هذه النسبة كابراً عن كابر ، ونضَّدناها آخراً بعد أول عن أول قبل آخر ، حتى وصلنا هذا الفرعَ بشجرته الطيبة ، وهذا القَطْر بسحابته الصَّيِّبة ، وشرف الأنساب أصدقه ما كان الدهر به شهيداً ، وأجَدُّه ما كان قديماً وأخْلَقُه ما كان جديداً ، وما تَوَلى الروح الأمين مدحه قرآناً أكرم مما تولى الشعراء مدحه قصيداً ، ولا فَضْل للمُعْتَزِى إلى هذا النسب حتى تلحق البنوة بالأبوة ، ويضيف درجة الفضيلة إلى مَحْتِدِ النبوة ، وحينئذ يقال : ما أقرب الشَّبَهَ على قدم عهده ، وهذا ماء الوَرْد بعد ذهاب ورده ، وأنت ذلك الرجل الذى تردد الشرف فى مناسبه تردد القمر فى منازله ، وزَهَا المجد بمناقبه زهو الروض فى خمائله ، فَلاَ لَىَّ حَسَبك تغنيك عن سؤال مَنْ ومَا ، وتملأ بودّك وحمدك قلبا وفما ، والحسب ماحفظت أواخرُهُ أوائِلَه ، وأوضحت الليالى والأيامُ دلائِلَه ، وأقرّت به

الأعداء فما رَدَّتْ فضائله ، وهذه هى المـآثر التى إذا نظمت غارت الشِّعْرَى عليها من الشعر ، وإذا نثرت وجدت فى محكم الذّكر ، وأنت صاحبها وابن صاحبها ، ومَنْ لم يرثها عن أباعدها بل عن أقاربها ، ولو جانبت رياستها مصانعاً ، ومَشَيْتَ بها الضَّرَاءَ متواضعاً ؛ لدل عليك وَصْفُها ، وعرف منك عَرْفُها .

وقد قلدناك أمر هذه الأسرة الطاهرة التى هى أسرتك ، وأمرناك عليها وإمرتها إمرتك ، فتوَلَّهَا تولِّىَ من خَفَضَ لها جناحَه ، وأفاض عليها سَمَاحه ، وأنضى فيها غُدُوَّه ورَوَاحه ، حتى يقال : إنك الراعى الذى تناول ثلثه فأراح حسيرها ، وجَبَرَ كَسيرها ، وارتاد لها خِصْباً ، وأوردها رِفْهاً لاغِبًّا ، وأذكى فى كَلاَءَتها عَيْنا وقَلْبا .

ومن حقها عليك أن تنظر إلى ذات شمالها وذات يمينها ، وتتصفَّح أحوالها فى أمر دنياها ودينها ؛ فأوّل ذلك أن تعلّمها كتابَ الله تعالى الذى فى تعليمه نهج الصواب ، وفى تلاوته مضاعفة حسنات الثواب ، وقد مُثِّل قارئه بالبيت العامر وتاركه بالبيت الخراب ، وهو كتاب امتاز عن الكتب بنجوم التنزيل ، وتولى الله حفظه من التحريف والتبديل ، وافتتحه بالسبع المثانى التى لم ينزل مثلها فى التوراة ولا فى الإنجيل ، وهو الموصوف بأنه النور المستضاء به فى غيابة الظلماء ، والْحَبْلُ الممدود من الأرض إلى السماء ، والبحر الذى لا يَسْتَخْرِج لؤلؤه ومرجانه إلا الراسخون من العلماء ، .

وكذلك فَخُذْ هذه الأسرة بتعليم الفضائل التى تتفاوت بها القيم ، وسُسْهَا برياضة الآداب وتهذيب الشِّيم ، ولا تتركها فَوْضَى لا يتّسم أحدها بسِمَةَ القدر المنيف ، ولا يرجع إلى حسب تليد ولا إلى سَعْى طريف ، وتكون غاية ماعنده من الفضيلة أن يقال فلان الشريف ، ومن حفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها أن توفى فضل مكانها ، وتخالف بين شأن غيرها من المسلمين وبين شأنها ؛

فلا تبتذل بمجالس الولاة فى انتزاع ظلامة ، ولا فى إقامة حد يسلب معه رداء الكرامة ، وأنت تَتَوَلَّى ذلك منها فما وجب عليها من حق فخذها باقتضائه ، وأمْضِ فيها حكم الله الذى أمر بإمضائه ، وَلْيَكُنْ ذلك على وجه الرفق الذى يسلس له القياد ، ويتوطأ له المِهاد ، وإن أمكنك افتداء شىء من هذه الظلامات التى تتوجه عليها فقاد ، وقد أتم الله فضلها بمنع كرائمها إلا من كفء لا دناءة فى عنصره ، ولا غضاضة فى مَخْبَره ، وهو الذى إن فاته شرف النبوة فى مَغْرِسه فلم يَفُتْه شَرَف النباهة فى مَعْشَره ،وإذا تباينت الأقدار فلا فرق بين المناكح المخطوبة ، وبين الأسلاب المسلوبة ،فاحْفَظْ لأسرتك حرمة هذه المنزلة ، واجعلها فى كتاب الوصايا التى وصيت بها مكان الْبَسْمَلَة ، وكما أمرناك بالنظر فى صَوْن أقْدَارِها ، فكذلك نأمرك بالنظر فى حفظ مادة درهمها وديناره ، وقدعلمت أن لها أوقافاً وقفها قوم لحظوا بأجرها واسمها ، وستحظى أنت بالعدل فى قسمها ، فأجْرِ على كل منها رزقه ، وأعْطِ كل ذى حق حقه ، وفى الناس طائفة أدعياء يرومون إلحاق الرأس بالذنب ، والنَّبْع بالغرب ، ويلحقون أباً لغير ابن وابناً لغير أب ، كُلُّ ذلك رغبة فى سحت يأكلونه ، لا فى نَسَبٍ يوصلونه ، فنقب عن حال هؤلاء تنقيباً ، واجعل النسيب نسيباً ، والغريب غريباً ، حتى تخلص السلالة من طرّاقها ، وتبقى الشجرة قائمة على أعراقها ، ومن علمت كذبه فازجره بأليم الازدجار ، وأعْلِمْه بأنه قد تَبَوَّأ مقعده من النار ، وأشْهِرْه فى الناس حتى ينتهى وينتهى غيره بذلك الاشتهار . وههنا وصية هى أهم من هذه الوصية أمراً وأعظم أجراً ، وأجْدَرُ بأن تكون هى الأولى وتكون هذه الأخْرَى ، وهى الأخذ على ألسنة السفهاء من الْخَوْض فيما شَجَرَ بين آل النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وإظهار العَصَبِيَّة التى تزحزح الحق عن نصابه ، وترجعه على أعقابه ، وليس مُسْتَنَدُها إلا مغالاة ذوى الجهل ، وربما نشأ منها فتنة والفتنة أشد من القتل ؛ فوكل بهؤلاء

غرباً قاطعاً ، ونهياً قامعاً ، وكن فى ذلك شارعاً لما كان الله شارعا ، فأولئك السادات هم النجوم الذين بأيهم كان الاقتداء كان به الاهتداء ، وقُصارى المحسن فى هذا الزمان أن يتعلق منها سبباً ، ويأخذ عنهم ديناً أو أدَبًا ، ولا يَبْلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه ولو أنفق مثل أحد ذهباً ، ونحن نعلم أنك واقف على سُنَن اقتصادك ، وأن هذه الوصية هى محْضُ اعتقادك ، والمُنْصِف فى هذا المقام من رَمَقَه بنظر جلى ، ووفى أبا بكر وعمر رضى الله عنهما حقهما وإن كان من نَسْل على ؛ فكل قد ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم بفضله ، وهؤلاء من صحابته وهذا من أهله ، ونعوذ بالله من الأهواء الزائغة ، والأقوال التى ليست بسائغة ، ولا حجة إلا بالحق ولله الحجة البالغة ، وقد جعلنا لك فى مالنا عطاء دارًّا تستعين به على لوازم النفقات ، وتخرج نافلته فى وقاية عرضك التى هى محسوبة من الصدقات ، فإنَّ مَنْ ساد قَوْمًا يفتقر إلى تحمل أثقالهم ، والإفاضة من حاله على أحْوالهم ، وهذا بر يكون منا أصله ومنك فرعــه ، وثَوَاب يكون لك قَصْده ولنا شَرْعهُ ، وصاحب الإحسان مَنْ سَنَّ سبيل الإحسان ، ولم نَرْض أنْ أريناك مكانه حتى أمددناك فيه بالإمكان ، فأعْطِ مالنا ، وتعلم من سنة إفضالنا ، ولدولتنا بذلك ثوب جمال كلما لُبسَ زاد جِدَّةً ، وعمر ذكر كُلَّما مضت عليه مدد الأيام طال مُدَّة ، ولا ملك فى الدنيا لمن لم يجعل ملــكه حديثاً حسناً ، ويَشْتَرِى المحامد فيجعله لها ثمناً ، ومَنْ عرف قدر الثناء جَدَّ فى تحصيله ، ولو أنفق الـكثير فى قليله ، فـكم من دولة أعدمت منه فدَرَسَتْ آثار معالمها ، ولو كانت منهُ مُثْرِية لما ذهبت مع بقاء مكارمها ، وإذ ذكرنا هذا فلنختمهُ بما يكون قِلَادَةً لصاحب هذا التقليد ، وهو أن تجرد العناية بوجاهته حتى يلبس تقدمًا بذلك التجريد ، وفَحْوَى ذلك أن يعلم الناس ماله فى الدولة من منزلة الـكرامة ، ويعرفوا أنه فيها ابن جَلاَ غير مُحْتاج إلى وَضْع العِمامة ، ونحن نأمر نوابنا وولاتنا وأصحابنا أن يُوَفُّوه حَقَّ أبُوَّته

الشريفة ، وفضيلته التى رَدَفتها فأضْحَتْ وهى لها رديفة ، وأن يُعْطوه ما شاء من إعلاء شأنه ، ويمضوا فِعْلَ يده وقول لسانه ، إن شاء الله تعالى .

وقد وَجَدْتُ للصابى أيضاً تقليدا أنشأه لفخر الدولة أبى الحسن بن ركن الدولة أبى على بن بويه ، عن الخليفة الطائع رحمـه الله ، وهو مثبت ههنا على صورته ، وكان عرض على تقليد كتب للملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب ، من الخليفة المستضىء بالله رحمه الله فى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ، فوجدت فيه كلاماً نازلاً بالمرة ، وسألنى بعض الإخوان بمدينة دمشق أن أعارضه ، فعارضته بتقليد فى معناه ، وهو مثبت ههنا أيضاً ، وكلا التقليدين باسم ملك كبير ، وفيهما ما يظهر من فصاحة وبلاغة .

فأما التقليد الذى أنشأه الصابى فهو : هذا ما عهد عبد الله عبد الكريم الطائع لله أمير المؤمنين إلى فخر الدولة أبى الحسن بن ركن الدولة أبى على مولى أمير المؤمنين حين عرف غناه ، وبلَاه ، واستصَحَّ دينه ويقينه ، ورعى قديمه وحديثه ، واستنجب عُودَه ونِجارَه ، وأثنى عز الدولة أبو منصور بن معز الدولة أبى الحسين مولى أمير المؤمنين عليـه ، وأشار بالمزيد فى الصنيعة إليـه ، وأعلم أمير المؤمنين اقتداءه به فى كل مذهب ذهب فيه من الخدمة ، وغرَضٍ رَمَى إليـه من النصيحة ، دُخُولاً فى زُمْرَة الأولياء المنصورة ، وخروجاً عن جماعة الأعداء المدحورة ، وتَصَرُّفاً على موجبات البيعة التى هى بعز الدولة أبى منصور منوطة ، وعلى سائر ما يتلوه ويتبعه مأخوذة مشروطة ، فقلده الصَّلَاة وأعمال الحرب والمعاون والأحـداث والخراج والأعشار والضياع والجهبذة والصدقات والجوالى وسائر وجوه الجبايات والعرض والعطاء والنفقة فى الأولياء والمظالم وأسواق الرقيق والعيار فى دور الضرب والطرز والحسبة ، بكُوَر همـذان واسْتَرَاباذ والدِّينَوَر وقرميسين والايغارين وأعمال أذْرَبيجان وأرّان والسحانين

وموقان ، وَاثِقاً منه باستقبال [النعمة و] استدامتها ، والاستزادة بالشكر منها ، والتَّجَنُّب لغمطها وجحودها ، والتنكب لإيحاشها وتنفيرها ، والتعمد لما يمكن له الحُظْوَة والزُّلْفَى ، ويحرس عليه الأثرة والقربى ، بما يظهره ويضمره من الوفاء الصحيح ، والولاء الصريح ، والغيب الأمين ، والصدر السليم ، والمقاطعة لكل من قَطَع العصمة ، وفَارق الجملة ، والمواصلة لكل من حمى البيضة ، وأخلص النية ، والسكون تحت ظل أمير المؤمنين وذمته ، ومع عز الدولة أبى منصور وفى حوزته ، والله جل اسمه يعرف لأمير المؤمنين حُسْنَ العقبى فيما أبْرَمَ ونَقَضَ ، وسَدَادَ الرأى فيمن رفع وخفض ، ويجعل عزائمه مقرونة بالسلامة ، محجوبة عن موارد الندامة ، وحسب أمير المؤمنين اللهُ ونعم الوكيل .

أمره بتقوى الله التى هى العصمة المتينة ، والجنة الحصينة ، والطود الأرفع ، والمعاذ الأمنع ، والجانب الأعَزّ ، والملجأ الأحرز ، وأن يستشعرها سرا وجهراً ، ويستعملها قولا وفعلا ، ويتّخذها ذُخْراً دافعاً لنوائب القدر ، وكهفاً حاميا من حوادث الغير ؛ فإنها أوجب الوسائل ، وأقرب الذرائع ، وأعودها على العبد بمصالحه ، وأدعاها إلى كل مَناجحه ، وأولاها بالاستمرار على هدايته ، والنجاة من غوايته ، والسلامة فى دنياه حين تُوبِق موبقاتها ، وتُرْدِى مُرْدِيَاتها ، وفى آخرته حين تروع رائعاتها ، وتخيف مخيفاتها ، وأن يتأدَّبَ بأدب الله فى التواضع والإخبات والسكينة ، وصدق اللهجة إذا نطق ، وغَضّ الطرف إذا رَمَق ، وكظم الغيظ إذا أحفظ ، وضبط اللسان إذا أغضب ، وكفّ اليد عن المآثم ، وصَوْن النفس عن المحارم . وأن يذكر الموت الذى هو نازل به ، والموقف الذى هو صائر إليه ، ويَعلم أنه مسئول عما اكتسب ، مجزى عما تَزَمَّلَ واحْتَقَب ، ويتزود من هذا المَمَرّ لذلك المَقَر ، ويستكثر من أعمال البرلتنفعه ، ومن مساعى الخير لتنقذه ، ويأتمر بالصالحات قبل أن يأمر بها ، ويزدجر عن السَّيِّئات قبل أن يزجر عنها ،

ويبتدئ بإصلاح نفسه قبل إصلاح رعيته ، فلا يبعثهم على مايأتى ضِدّه ، ولا ينهاهم عما يقترف مثله ، ويجعل ربه رقيباً عليه فى خلواته ، ومُرُوأته مانعة له من شَهَوَاته ، فإن أحق من غلب سلطان الشهوة ، وأوْلَى من ضرع لغذاء[1] الحمية ؛ مَنْ ملك أزمة الأمور ، واقتدر على سياسة الجمهور ، وكان مُطَاعاً فيما يرى ، مُتَّبَعاً فيما يشاء ، يلى على الناس ولا يلون عليه ، ويقتصّ منهم ولا يَقْتَصُّون منهُ ، فإذا اطلع الله منه على نقَاء جَيْبه ، وطهارة ذَيْله ، وصحة سريرته ، واستقامة سيرته ، أعانه على حفظ ما استحفظه ، وأنهضَه بثقل ما حَمَّله ، وجعل له مَخْلَصًا من الشُّبْهَة ، ومَخْرَجًا من الحَيْرَة ، فقد قال الله تعالى : (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ) وقال عزَّ مِنْ قائل : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) وقال : (اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) إلى آيٍ كثيرة حَضَّنا بها على أكرم الخلق ، وأسلم الطرق ، فالسعيد من نَصَبَهَا إزاء ناظره ، والشقى من نَبَذَها وراء ظهره ، وأشقى منهما من بَعَثَ عليها وهو صادفٌ عنها ، وأهاب إليها وهو بعيد منها ، وله ولأمثاله يقول الله تعالى ذكره : (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) .

وأمره أن يتخذ كتاب الله إماماً مُتَّبَعًا ، وطريقاً مُتَوَقَّعاً ، ويكثر من تلاوته إذا خلا بذكره ، ويملأ بتأميله أرْجَاء صَدْره ، فيذهب معه فيما أباح وحظر ، ويقتدى به إذا نهى وأمر ، ويستبين ببيِّناته إذا استغلقت دونه المعضلات ، ويستضىء بمصابيحه إذا غُمَّ عليه فى المشكلات ؛ فإنه عُرْوَة الإسلام الوُثْقَى ، ومَحَجَّته الوسطى ، ودليله المقنع ، وبرهانه المرشد ، والكاشف لِظُلَم الخطوب ، والشافى من مرض القلوب ، والهادى لمن ضَلّ ، والمتلافى لمن زَلَّ ؛ فمن نجا به فقد فاز وسلم ، ومن لها عنه فقد خاب وندم ، قال الله تعالى :

(١) فى رسائل الصحابى (ص ١٠١) « من أضرع خد الحمية » .

(وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) .

وأمره أن يحافظ على الصَّلَوات ، ويدخل فيها فى حقائق الأوقات ، قائماً على حدودها ، متبعاً لرسومها ، جامعاً فيها بين نيته ولفظه ، متوقياً لمطامح سهوه ولحظه ، منقطعاً إليها عن كل قاطع لها ، مشغولا بها عن كل شاغل عنها ، متثبتاً فى ركوعها وسجودها ، مستوفياً عَدَدَ مفروضها ومسنونها ، موفِّراً عليها ذِهْنَه ، صارفا إليها همه ، عالما بأنه واقف بين يدى خالقه ورازقه ، ومحييه ومميته ، ومعاقبه ومثيبه ، لا تُسْتَر دونه خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فإذا قضاها على هذه السبيل منذ تكبيرة الإحرام إلى خاتمة التسليم أتبعها بدعاء يرتفع بارتفاعها ، ويستمع باستماعها ، لا يتعدّى فيه مسائل الأبرار ، ورغائب الأخيار ، مِنَ استصفاح واستغفار ، واستقالة واسترحام ، واستدعاء لمصالح الدين والدنيا ، وعوائد الآخرة والأولى ؛ فقد قال الله تعالى : (إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا) وقال تعالى : (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) .

وأمره بالسعى فى أيام الجمع إلى المساجد الجامعة ، وفى الأعياد إلى المصلّيات الضاحية ، بعد التقدم فى فرشها وكسوتها ، وجمع القوام والمؤذنين والمكبرين فيها ، واستسعاء الناس إليها ، وحَضّهم عليها ، آخذين الأُهْبَة ، متنظفين فى الْبِزَّة ، مؤدِّين لفريضة الطهارة ، وبالغين فى ذلك أقصى الاستقصاء ، معتقدين خشية الله وخيفته ، مُدَّرعين تَقْواه ومراقبته ، مكثرين من دعائه عز وجل وسؤاله ، مصلين على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، بقلوب على اليقين موقوفة ، وهمم إلى الدين مصروفة ، وأَلْسُن بالتقديس والتسبيح فصيحة ، وآمال فى المغفرة والرحمة فسيحة ؛ فإن هذه المُصَلَّيات والمتعبَّدات بيوتُ الله التى فضلها ، ومناسكه التى

شرفها ، وفيها يُتْلى القرآن الكريم ، ويتعوذ العائذون ، ويتعبد المتعبدون ، ويتهجد المتهجدون ، وحَقيقٌ على المسلمين أجمعين مِنْ وَالٍ ومولى عليه أن يَصُونها ويَعْمُرَها ، ويواصلها ولا يهجرها ، وأن يقيم الدعوة على منابرها لأمير المؤمنين ثم لنفسه ، على الرسم الجارى فيها ؛ قال الله تعالى فى هذه الصلاة : (يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ) وقال فى عمارة المساجد : (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) .

وأمره أن يراعى أحوال مَنْ يليه من طبقات جند أمير المؤمنين ومواليه ، ويطلق لهم الأرزاق ، فى أوقات الوجوب والاستحقاق ، وأن يُحْسِن فى معاملتهم ، ويُجمِل فى استخدامهم ، ويتصرَّف فى سياستهم بين رِفْقٍ من غير ضَعْف ، وخُشُونة فى غير عُنْف ، مثيباً لمحسنهم مازاد بالإثابة فى حسن الأثر ، وسلم معها من دواعى الأشَر ، ومتغمداً لمسيئهم ما كان التغمد له نافعاً ، وفيه ناجعاً ، فإن تكرَّرَت زَلَّاته ، وتتابعت عَثَرَاته ، تناولته من عقوبته بما يكون له مصلحاً ، ولغيره واعظاً ، وأن يختص أكابرَهُمْ وأماثلهم وأهل الرأى والخطر منهم بالمشاورة فى المُلِم ، والإطْلَاع على بعض المهم ، مستخلصاً مخايل صدورهم بالبسط والإدناء ، ومُسْتَشْحذاً بصائرهم بالإكرام والاجتباء ؛ فإن فى مُشَاوَرَة هذه الطبقة استدلالاً على مواقع الصواب ، وتحرُّزاً عن غلط الاستبداد ، وأخذا بمجامع الْحَزَامة ، وأمْناً من مفارقة الاستقامة ، وقد حض الله عز وجل على الشورى حيث قال لرسوله عليه الصلاة والسلام : (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) .

وأمره بأن يصمد بما يتصل[1] بنواحيه من ثغور المسلمين ، ورباط المرابطين ، ويقسم لها قسماً وافراً من عنايته ، ويصرف إليها طرفاً بل شطراً من رعايته ، ويختار لها أهل الجَلَد والشدة ، وذوى البأس والنجدة ، ممن مَجَّمَتْه الخطوب ، وعرَكَتْه الحروب ، واكتسب دِرْبة بخُدَع المتنازلين ، وتجربة بمكايد المتقارعين ، وأن يستظهر بكشف عددهم ، واعتبار عددهم ، وانتخاب خيلهم ، واستجادة أسلحتهم ، غَيْرَ مجمر بعثاً إذا بعثه ، ولا مستكرهه إذا وجّهه ، بل يناوب بين رجاله مناوبَةً تُريحهم ولا تمدهم ، وتُرَفِّهُم ولا تئودهم ؛ فإن فى ذلك من فائدة الإجمام ، والعدل فى الاستخدام ، زَيْنا ، فَلْيُسَوِّ بين رجال النوب فيما عاد عليهم بعز الظفر والنصر ، وبعد الصيت والذكر ، وإحراز النفع والأجر ، مايحق أن يكون الولاة به عاملين ، وللناس عليه حاملين ، وأن يكرر فى أسماعهم ، ويثبت فى قلوبهم؛ مواعيدَ الله تعالى لمن صبر ورابط وسامح بالنفس من حيث لايقدمون على تورط غرة ، ولا يحجمون عن انتهاز فرصة ، ولا ينكصون عن تَوَرُّد معركة ، ولا يُلقُونَ بأيديهم إلى التَّهْلُكة ، فقد أخذ الله ذلك على خلقه ، والمرء أمين على دينه ، وأن يريح الْعَمَلَة فيما يحتاج إليه من راتب نفقات هذه الثغور وحادثها وبناء حصونها ومعاقلها ، واستطراق طرقها ومسالكها ، وإفاضة الأقوات والعلوفة فيها للمترتبين بها ، والمترددين إليها ، والحامين لها ، وأن يبذل أمانه لمن طلبهُ ، ويعرضه على من لم يطلبه ، ويفى بالعهد إذا عاهد . وبالعقد إذا عاقد ، غير مُخْفِرٍ ذِمَّةً ، ولا جارح أمانة ، فقد أمر الله تعالى بالوفاء ، فقال عز وجل : (يأَيُّها الذينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالعُقُودِ) ونهى عن النَّكْثِ ؛ فقال عَزَّ مِنْ قائل: (فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِه) .

وأمره أن يعرض مَنْ فى حبوس عمله على جرائمهم ، فمن كان إقراره واجباً أقره ، ومن كان إطلاقه سائغاً أطلقه ، وأن ينظر فى الشُّرْطَة والأحداث نَظَرَ

(١) كذا فى ا ، ب ، ج ؛ وفى رسائل الصابى « بأن يضم مايتصل بنواحيه » .

عدل و إنصاف ، ويختار لها من يخاف الله ويتقيه ، ولا يحابى ولا يراقب فيه ، و يتقدم إليهم بقَمْع الجهال ، وردع الضُّلاَّل ، وتتبع الأشرار ، وطلب الدُّعّار ، مستدلين على أماكنهم ، متوغّلين إلى مَكامنهم ، مُتوَلجين عليهم فى مظانهم ، متوثقين ممن يجدونه منهم ، منفذين أحكام الله تعالى فيهم ، بحسب الذى يتبين من أمرهم ، و يصح من فعلهم ، فى كبيرة ارتكبوها ، وعظيمة احْتَقَبُوها ، ومهجة إن أفاظوها واستهلكوها ، وحرمة إن استباحوها وانتهكوها ؛ فمن استحق حداً من حدود الله المعلومة أقاموه عليه غير مُخَفِّفين منه ، وأحَلُّوه به غير مقصرين عنه ، بعد ألاَّ يكون عليهم فى الذى يأتونه حجة ، ولا يعترضهم فى وجو به شبهة ، فإن الواجب فى الحدود أن تقام بالبينات ، وأن تدرأ بالشبهات ، فأولى ما توخَّاهُ رُعاة الرعايا فيها ألاَّ يقدموا عليها مع نقصان ، ولا يتوقفوا عنها مع قيام الدليل ، ومَنْ وَجَب عليه القتل احتاط بما يحتاط به على مثله من الحبس الحصين ، والتوثق الشديد ، وكتب إلى أمير المؤمنين بخبره ، وشرح جنايته وثبوتها بإقرار يكون منه أو بشهادة تقع عليه ، ولينتظر مِنْ جَوَابه ما يكون عمله بحسبه ؛ فإن أمير المؤمنين لا يطلق سفك دم مسلم أومعاهد ، إلا ماأحاط به علماً ، وأتقنه فَهْماً ، وكان مايمضيه فيه عن بصيرة لا يخالجها شك ، ولا يشوبها ريب ، ومن ألَمَّ بصغيرة من الصغائر ، ويَسِيرة من الجرائر ، من حيث لم يعرف له مثلها ، ولم يتقدم له أختها ، وعَظَه وزجره ، ونهاه وحَذَّره ، واستتابه وأقاله ، مالم يكن عليه خصم فى ذلك يطالب بقِصَاصٍ منه ، وجزاء له ، فإن عاد تناوله من التقويم والتهذيب والتعزير والتأديب بما يرى أن قد كفى فيما اجترم ، ووفى بما قدم ؛ فقد قال الله تعالى : (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) .

وأمره أن يعطل ما فى أعماله من الحانات والمواخير ، و يطهرها من القبائح والمناكير ، و يمنع من يجمع أهل الخنا فيها ، و يؤلف شملهم بها ، فإنه شمل يصلحه التشتيت ، وجمع يحفظه التفريق ، وما زالت هذه المواطن الذميمة ، والمطارح

الدنية ، داعيةً مَنْ يَأوى إليها ، ويعكف عليها ، إلى ترك الصلوات ، وإهمال المفترضات ، وركوب المنكرات ، واقتراف المحظورات ، وهى بيوت الشيطان التى فى عمارتها لله معصية ، وفى إخرابها للخير مجلبة ، والله تعالى يقول لنا معشر المؤمنين : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ) ويقول عَزَّ مِنْ قائل لغيرنا من المذمومين : (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا) .

وأمره أن يولى الحماية فى هذه الأعمال ، أهْلَ الكفاية والعناية من الرجال ، وأن يضم إليهم كلَّ من خَفَّ ركابه ، وأسرع عند الصريخ ، مرتّبا لهم فى المسالح وسادا بهم ثغر المسالك ، وأن يوصيهم بالتيقظ ، ويأخذهم بالتحفظ ، ويزيح عللهم فى علوفة خيلهم ، والمقرر من أزوادهم وميرهم ، حتى لا تثقل لهم على البلاد وطأة ولا يدعوهم إلى تحنقهم[1] وثلمهم حاجة ، وأن يحوطوا السابلَة بادئة وعائدة ، ويُبَذْرِقوا القوافل صادرة وواردة ، ويحرسوا الطريق ليلاً ونهاراً ، ويتفَصَّوْها رواحاً وغُدُوًّا ، وينصبوا لأهل العبث الأرصاد ، ويتكمنوا لهم بكل واد ، ويتفرقوا عليهم حيث يكون التفرق مضيقاً لفضائهم ، ومؤدياً إلى انفضاضهم ، ويجتمعوا حيث يكون الاجتماع مطفئاً لجمرتهم ، وصادعاً لِمَرْوَتهم ، ولا يُخْلُوا هذه السبل من حماة لها ، وسيارة فيها ، يترددون فى جَوَادِّها ، ويتعسفون فى عواديها[2] ، حتى تكون الدماء مَحْقونة ، والأموال مَصُونة ، والفتن محسومة ، والغارات مأمونة ، ومَنْ حَصَل فى أيديهم من لِصٍّ خاتل ، وصُعْلوك خارب ، ومخيف لسبيل ، ومنتهك لحريم ؛ امتثل فى أمره أمْرَ أمير المؤمنين الموافق لقول الله عز وجل : (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا

(١) فى رسائل الصابى « تحيفهم » .

(٢) فيها « عوادلها » .

مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) .

وأمره بوضع الرَّصَد على من يجتاز فى أعماله من أُبَّاق العبيد ، والاحتياط عليهم وعلى ما يكون معهم ، والبحث عن الأماكن التى فارقوها ، والطرق التى استطرقوها ، ومواليهم الذين أبقوا منهم ، ونشزوا عنهم ، وأن يردُّوهم عليهم قهرا ، ويعيدوهم إليهم صُغْرا ، وأن ينشد الضالة ما أمكن أن تنشد ، ويحفظوها على ربها بما جاز أن تحفظ ، وَيتجَنَّبُوا الامتطاء لظهورها ، والانتفاع بأوبارها ، وألبان ما يجز ويحلب ، وأن يعرّفوا اللُّقَطَة ، ويتَّبعوا أثرها ، ويشيعوا خبرها ؛ فإذا حضر صاحبها وعلم أنه مستوجبها سُلّمت إليه ، ولم يعترض فيها عليه ، والله عز وجل يقول : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا) ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ حَرَقُ النَّار » .

وأمره أن يوصى عماله بالشد على يد الحكام ، وتنفيذ ما يصدر عنهم من الأحكام ، وأن يحضروا مجالسهم حضور الموقرين لها الذَّابّين عنها المقيمين لرسوم الهيبة وحدود الطَّوَاعية فيها ، ومن خرج عن ذلك من ذى عقل ضعيف وحلم سخيف ، نالوه بما يردعه ، وَأَحَلُّوا به ما يَزَعه ، ومتى تقَاعَسَ مُتَقَاعِسٌ عن حضور مع خصم يستدعيه بأمر يوجبه الحكم إليه ، أو الْتَوَى مُلْتَوٍ بحق يحصل عليه ودين يستقر فى ذمته ؛ قَادُوه إلى ذلك بأزِمَّةِ الصَّغار وخزائم الاضطرار ، وأن يحبسوا ويطلقوا بأقوالهم ، ويثبتوا الأيدى فى الأملاك والفروج ، وينزعوا بقضاياهم ؛ فإنهم أُمَناء الله فى فَصْل مايقضون ، وبث مايَبُثُّون ، وعن كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم يوردون ويصدرون ، وقد قال الله عزّ وجل : (يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) .

وأن يَتَوَخَّى بمثل هذه المعاملة عمال الخراج فى استيفاء حقوق ما استعملوا عليه ، واستنطاف بقاياهم فيه ، والرياضة لمن تسوء طاعته من معامليهم ، وإحضارهم طائعين أو كارهين بين أيديهم ؛ فمن آداب الله تعالى للعبد الذى يحق عليه أن يتخذها ويجعلها للرضا عنه سبباً قوله تعالى : (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) .

وأمره أن يجلس للرعية جلوساً عامًّا ، وينظر فى مظالمها نظراً تامًّا ؛ يساوى فى الحق بين خاصها وعامها ، ويوازى فى المجالس بين عزيزها وذليلها ، ويُنْصِف المظلوم من ظالمه ، والمغصوبَ من غاصبه، بعد الْفَحْص والتأمل ، والبحث والتبين ، حتى لايحكم إلا بعدل ، ولا ينطق إلا بفَصْل ، ولا يثبت يداً إلا فيما وَجَبَ تثبيتها فيه ، ولا يقبضها إلا عما وجب قبضها عنه ، وأن يسهل الإذن لجماعتهم ، ويرفع الحجاب بينه وبينهم ، ويوليهم من حَصَانة الْكَنَف ، ولين المنعطف ، والاشتمال والعناية ، والصون والرعاية ؛ ما تَتَعَادَلُ به أقسامهم ، وتتوازى منه أقساطهم ، ولا يصل الركين منهم إلى استضامة ما تأخر عنه ، ولا ذو السلطان إلى هضيمة من حل دونه ، وأن يدعوهم إلى أحسن العادات والخلائق ، ويحضهم على أحمد المذاهب والطرائق ، ويحمل عنهم كله ، ويمد عليهم ظله ، ولا يَسُومهم عَسْفاً ، ولايلحق بهم حَيفاً ، ولايكلفهم شَطَطاً ، ولا يجشمهم مُضْلِعاً ، ولا يثلم لهم معيشة ، ولا يداخلهم فى جريمة ، ولا يأخذ بريئا بسقيم ، ولا حاضراً بعديم ؛ فإن الله عز وجل ينهى أن تزرَ وازرة وزر أخرى ، ويرفع عن هذه الرعية ماعسى أن يكون سُنَّ عليها من سنة ظالمة ، وسُلِكَ بها من محجة جائرة ، وَيَسْتَقْرِى آثار الولاة قبله عليها، فيما أزلفوه[1] من خير أو شر إليها ؛ فيقر من ذلك ماطاب وحسن ، ويزيل ماخبث وقبح فإنَّ مَنْ غَرَس الخير يحظى بمعسول ثمره ،

(١) فى أ ، ب ، ج « فيما رجوه » وفى رسائل الصابى « فيما أزلوه » .

ومن زرع الشر يَصْلَى بمرور رَيْعِهِ[(١)] ، والله تعالى يقول : (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِى خَبُثَ لَايَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً كَذٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ) .

وأمره بأن يصون مال الخراج وأثمان الغلات ووجوه الجبايات مُوفَّراً ، ويزيد ذلك مثمراً ، بما يستعمله من الإنصاف لأهلها ، وإجرائهم على صحيح الرسوم فيها؛ فإنه مال الله الذى به قُوَّة عباده ، وحماية بلاده ، ودُرُور حَلَبه ، واتصال مدده ، وبه يحاط الحريم ، ويدفع العظيم ، ويحمى الذِّمار ، ويُذاد الأشرار ، وأن يجعل افتتاحه إياه بحسب إدراك أصنافه ، وعند حضور مَوَاقيته وأحْيانه ، غير متسلف شيئاً قبلها ، ولا مؤخر لها عنها ، وأن يَخُصَّ أهل الطاعة والسلامة بالترقية لهم ، وأهل الاستصعاب والامتناع بالتشديد عليهم ؛ لئلا يقع إرهاق لمذعِنٍ ، أو إهمال لطامع ، وعلى المتولى لذلك أن يضع كلاًّ من الأمرين موضعه ، ويوقعه موقعه ، متجنباً إحلال الغلظة بمن لايستحقها ، وإعطاء الفسحة من ليس أهلها ، والله تعالى يقول : (وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَاسَعَى ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى) .

وأمره أن يَتَخَيَّرَ عماله على الخراج والأعشار والضياع والجهبذة والصدقات والجوالى من أهل الظلف والنزاهة ، والضبط والصيانة ، والجزالة والشهامة ، وأن يستظهر مع ذلك عليهم بوصية تعيها أسماعهم ، وعهود يقلدها أعناقهم ، بألاَّ يضيعوا حقًّا ، ولا يأكلوا سُحْتاً ، ولا يستعملوا ظلما ، ولا يقارفوا غشما ، وأن يقيموا العمارات ، ويحتاطوا ويتحرزوا من إتْوَاءِ حق لازم ، أو تعطيل رسم عادل ، مؤدِّين فى جميع ذلك الأمانة ، مجتنبين للخيانة ، وأن يأخذوا جَهَابذتهم باستيفاء وزن المال على تمامه ، واستجادة نقده على عياره ، واستعمال الصحة فى قبض

(١) فى ا ، ب ، ج « يصلى بمرور زينه » والتصويب عن رسائل الصابى .

مايقبضون ، و إطلاق مايطلقون ، وأن يوعزوا إلى سُعاة الصدقات فى أخذ الفرائض من سائمة مواشى المسلمين دون عاملتها ، وكذلك الواجب فيها ، وألاّ يجمعوا فيها متفرقاً ، ولا يفرقوا مجتمعاً ، ولا يدخلوا فيها خارجاً عنها ، ولا يضيفوا إليها ماليس منها ، من فَحْل إبل ، وأكولة راع ، أو عقيلة مال ؛ فإذا اجْتَبَوْها على حقها ، واستوفوها على رسمها ؛ أخرجوها فى سبيلها ، وقسموها على أهلها الذين ذكرهم الله عز وجل فى كتابه العزيز ، إلاّ المؤلَّفة قلوبهم الذين ذكرهم الله عز وجل فى كتابه الكريم وسقط سهمهم ؛ فإن الله تعالى يقول : (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) ؛ وإلى جُبَاة أهل الذمة أن يأخذوا منهم الجزية فى المحرم من كل سنة ، بحسب منازلهم فى الأحوال ، وذات أيديهم فى الأموال ، وعلى الطبقات المطبقة فيها ، والحدود المعهودة لها ، وألاّ يأخذوها من النساء ، ولا ممن لم يبلغ الحلم من الرجال ، ولا من ذى سِنٍّ عالية ، ولا ذى عِلَّةٍ بادية ، ولا فقير معدم ، ولا مترهب متبتل ، وأن يراعى جماعة هؤلاء العمال مراعاة يُسِرُّها ويُظهرها ، ويلاحظهم ملاحظة يخفيها ويبديها ؛ لئلا يزولوا عن الحق الواجب ، أو يعدلوا عن السَّنَن اللاحب ، فقد قال الله تعالى : (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً) .

وأمره بأن ينْدب لعرض الرجال وإعطائهم ، وحفظ جراياتهم ، وأوقات إطعامهم ، مَنْ يعرفه بالثقة فى متصرفه ، والأمانة فيما يجرى على يده ، والبعد عن الإسفاف إلى الدَّنِيَّة ، والاتباع للدناءة[1] ، وأن يبعثه على ضَبْط الرجال ، وشيات الخيل ، وتجديد العرض بعد الاستحقاق ، وإيقاع الاحتياط فى الإنفاق ، فمن صَحَّ عرضه ولم يبق فى نفسه شيء منهم من شك يعرض له أو ريبة يتوهمها أطلق أموالهم موفورة ، وحصلها فى أيديهم غير مثلومة ، وأن يرد على بيت المال أرزاق

(١) كذا فى ا ، ب ، ج . وفى رسائل الصابى «والاتباع للديانة» عطفا على الثقة.

من سقط بالوفاة والاخلال ، ناسباً ذلك إلى جهته ، مورداً له على حقيقته ، وأن يطالب الرجال بإحضار الخيل المختارة ، والآلات المستكملة ، على ما توجبه مبالغ أرزاقهم ، وحسب منازلهم ومراتبهم ، فإنْ أخَّر أحدهم شيئاً من ذلك قاصه به من رزقه ، وأغرمه مثل قيمته ، فان المقصِّر فيه خائن لأمير المؤمنين ، ومخالف لرب العالمين ؛ إذ يقول سبحانه : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ) .

وأمره أن يعتمد فى أسواق الرقيق ودور الضرب والطرز والحسبة على من تجتمع فيه آلات هذه الولايات من ثقة ودراية ، وعلم وكتابة ، ومعرفة ورواية ، وتجربة وحنكة ، وحصافة ومسكة ، فانها أحوال تضارع الحكم وتناسبه ، وتدانيه وتقاربه ، وأن يتقدم إلى وُلاةِ أسواق الرقيق بالتحفظ فيمن يطلقون بيعه ، ويمضون أمره ، والتحرز من وقوع تخوُّن فيه ، أو إهمال له ؛ إذ كان ذلك عائداً بتحصين الفروج ، وتطهير الأنساب ، وأن يبعدوا عنه أهل الريبة ، ويقربوا أهل العفة ، ولا يمضوا بيعاً على شبهة، ولا عقداً على تهمة ، وإلى ولاة العيار ، بتخليص عين الدرهم والدينار؛ ليكونا مضروبين على البراءة من الغش، والنزاهة من المش[1] ، وبحسب الإمام المقدر بمدينة السلام ، وحراسة السكك من أن تتداولها الأيدى المزغلة، وتتناقلها الجهات المنبية ، وإثبات اسم أمير المؤمنين على ما يضرب ذهباً وفضة ، وإجراء ذلك على الرسم والسنة ؛ وإلى ولاة الطرز أن يجروا الاستعمال فى جميع المناسج على أتم النيقة ، وأسلم الطريقة ، وأحكم الصنعة ، وأفضل الصحة ، وأن يكتبوا اسم أمير المؤمنين على طرر الكسا والفرش ، والأعلام والبنود ، وإلى وُلَاة الحسبة بتصفح أحوال العوام فى حرفهم ومتاجرهم ، ومجتمع أسواقهم ومعاملاتهم ، وأن يعايروا الموازين والمكاييل ، ويفرزوها على التعديل والتكميل ، ومَنِ اطلعوا منه على حيلة أو تلبيس ، أو غيلة أو تدليس ، أو بخس ما يوفيه ،

(١) كذا فى ب ، ج . وفى ا «من المس» . وفى الرسائل «والتهذيب من اللبس».

واستفضال فيما يستوفيه ؛ نالوه بغليظ العقوبة وعظمها ، وخصوه بوجيعها وألمها ، واقفين فى ذلك عند الحد الذى يَرَوْنَه لذنبه مجازيا ، وفى تأديبه كافيا ، فقد قال الله تعالى : (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) .

هـذا عهد أمير المؤمنين إليك ، وحجته عليك ، وقد وقفك على سواء السبيل ، وأرشدك إلى واضح الدليل ، وأوسعك تعليما وتحكيما ، وأقنعك تعريفا وتفهيما[1] ، ولم يألك جُهْدًا فيما عصمك وعصم على يدك ، ولم يدخرك ممكنا فيما أصلح بك وأصلحك ، ولا تَرَكَ لك عذراً فى غلط تغلطه ، ولا طريقاً إلى تورط تتورطه ، بَالِغاً بك فى الأوامر والزواجر إلى حيث يلزم الأئمـة أن يندبوا الناس إليـه ، ويَحُثُّوهم عليه ، مقيما لك على مُنْجِيات الْمسالك ، صارفاً لك عن مُرْدِيات المَهالك ، مريداً فيك مايسلمك فى دينك ودنياك ، ويعود بالحظ عليك فى آخرتك وأولاك ، فإن اعتدلت وعَدَلت فقد فزت وغنمت ، وإن تَجانَفْتَ واعوججت فقد فسدت وندمت ، والأوْلَى بك عند أمير المؤمين مع مَغْرِسِك الزاكى ، ومنبتك النامى ، وعودك الأنجب ، وعنصرك الأطيب ، أن تكون لظَنَّه مُحَقِّقا ، ولمخيلته فيك مُصَدِّقا ، وأن تستزيده بالأثر الجميل قرباً [من رب العالمين] وثواباً يوم الدين ، وزلفى عند أمير المؤمنين ، وثناء حسناً من المسلمين ، فخذ ما نبذ إليك أمير المؤمنين من معاذيره ، وأمسك بيدك على ما أعطى من مواثيقه ، واجعل عهده مثالاً تحتذيه ، وإماماً تقتفيه ، واسْتَعِنْ بِالله يُعِنْك ، واستهده يَهْدِك ، وأخلص إليـه فى طاعته يخلص لك الحظ فى معونتك ، ومهما أشكل عليك من خطب ، أو أعضل عليك من صعب ، أو بهرك من باهر ، أو بَهَظَك من باهظ ، فاكتب إلى أمير المؤمنين مُنْهِياً ، وكن إلى ما يرد عليك [من جوابه متطلعا] إن شاء الله تعالى ؛ والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

(١) فى ا ، ب ، ج «تعليما وتحكيما وأقنعك تعليما وتفهيما» وما أثبتناه عن الرسائل.

وأما التقليد الذى أنشأته أنا فهو هذا : أما بعد ، فإن أمير المؤمنين يبدأ بحمد الله الذى يكون لكل خطبة قياداً ، ولكل أمر مهاداً ، ويستزيده من نعمه التى جعلت التقوى له زادا ، وحملته عبء الخلافة فلم يضعف عنهُ طوقا ولم يأل فيه اجتهادا ، وصغرت لديه أمر الدنيا فما تَسَوَّرت له محرابا ولا عرضت عليه جيادا ، وحققت فيه قول الله تعالى : (تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فى الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً) ، ثم يصلى على من أنزلت الملائكة لنصره أَمداداً ، وأسرى به إلى السماء حتى ارتقى سبعاً شداداً ، وتجلى له ربهُ فلم يزغ منه بصراً ولا أكذب منه فؤادا ، ثم من بعده على أُسْرَته الطاهرة التى زكت أوراقاً وأعوادا ، وورثت النور المتين تلادا ، ووصفت بأنها أحد الثقلين هِدَايَةً وإرشادا ، وخصوصاً عمه العباس المدعو له بأن يُحْفَظ نفساً وأولادا ، وأن تبقى كلمة الخلافة فيهم خالدة لا تخاف دركا ولا تخشى نفادا .

وإذا استوفى القلم مداده من هذه الحمدلة ، وأسند القول فيها عن فصاحته المرسلة ، فإنه يأخذ فى إنشاء هذا التقليد الذى جعله حليفاً لقرطاسه ، واستدام سجوده على صفحته حتى لم يكد يرفع من راسه ، وليس ذلك إلا لإفاضته فى وصف المناقب التى كثرت فحسن لها مقام الإكثار ، واشتبه التطويل فيها بالاختصار ، وهى التى لا يفتقر واصفها إلى القول المعاد ، ولا يستوعر سلوك أطوادها ومن العجب وجود السهل فى سلوك الأطواد ، وتلك مناقبك أيها الملك الناصر الأجل السيد الكبير العالم العادل المجاهد المرابط صلاح الدين أبو المظفر يوسف ابن أيوب ، والديوان العزيز يتلوها عليك تحدثا بشكرك ، ويُبَاهى بك أولياءه تنويها بذكرك ، ويقول : أنت الذى تستكفى فتكون للدولة سهمها الصائب ، وشهابها الثاقب ، وكنزها الذى تذهب الكنوز وليس بذاهب ، وما ضرها وقد حضرت فى نصرتها إذا كان غيرك هو الغائب ، فاشكر إذاً مساعيك التى

أهلتك لما أهلتك ، وفضلتك على الأولياء بما فضلتك ، ولئن شُورِكت فى الولاء بعقيدة الإضمار ، فلم تُشَارَك فى عزمك الذى انتصر للدولة فكان له بسطة الانتصار ، وفَرْقٌ بين مَنْ أمد بقلبه و بين من أمد بيده فى درجات الأمداد ، وما جعل الله القاعدين كالذين قالوا لوأمرتنا لضربنا أكبادها إلى بَرْك الغماد ، وقد كفاك من المساعى أنك كفيت الخلافة أمر منازعيها ، وطمست على الدعوة الكاذبة التى كانت تدعيها ، ولقد مضى عليها زمن ومحراب حقها محفوف من الباطل بمحرابين ، ورأت ما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم من السوارين اللذين أوّلهما كذابين ، فبمصر منهما واحدٌ تاه بمجرى أنهارها من تحته ، ودعا الناس إلى عبادة طاغوته وجِبْتِهِ ، ولعب بالدين حتى لم يدر يوم جمعته من يوم أحده ولا يوم سبته ، وأعانه على ذلك قوم رمى الله بصائرهم بالعمى والصمم ، واتخذوه صنما بينهم ولم تكن الضلالة هناك إلا بِعِجْلٍ أو صَنَم ، فقمت أنت فى وجه باطله حتى قعد ، وجعلت فى جيده حبلا من مَسَد ، وقلت ليده تبت فأصبح وهو لا يسعي بقدم ولا يبطش بيد ، وكذلك فعلت بالآخر الذى نجمت باليمن نَاجِمَتُه ، وسامت فيه سائمته ، فوضع بنية موضع الكعبة اليمانية ، وقال هذا ذو الخلصة الثانية ، فأى مقاميك يعترف الإسلام بسبقه ؟ أم أيها يقوم بأداء حقه ؟ وههنا فليصبح القلم للسيف من الحساد ، وليقصر مكانته عن مكانته وقد كان له من الأنْدَاد ، ولم يحظ بهذه المزية إلا لأنه أصبح لك صاحبا ، وفَخَر بك حتى طال فَخراً عما عزَّ جانبا ، وقضى بولايتك فكان بها قاضياً لما كان حَدُّه قاضبا .

وقد قلدك أمير المؤمنين البلاد المصرية واليمنية غوراً ونجدا ، وما اشتملت عليه رعية وجنداً ، وما انتهت إليهِ أطرافها براً و بحرا ، وما يستنقذ من مجاوريها مسالمة وقهرا ، وأضاف إليها بلاد الشام ، وما تحتوى عليه من المدن الممدنة ، والمراكز

المحصنة ، مستثنياً منها ماهو بيد نور الدين إسمعيل بن نور الدين محمود رحمه الله ، وهو حلب وأعمالها ، فقد مضى أبوه عن آثار فى الإسلام ترفع ذكره فى الذاكرين ، وتخلفه فى عقبه فى الغابرين ، وولده هذا قد هَذَّبته الفطرة فى القول والعمل ، وليست هذه الرَّبْوَة إلا من ذلك الجبل ، فليكن له منك جار يدنو منه وداداً كما دنا أرضا ، ويُصْبح وهو له كالبنيان يشد بعضه بعضا .

والذى قدمناه من الثناء عليك ربما تجاوز بك درجة الاقتصاد ، ولفتك عن فضيلة الازدياد ، فإياك أن تنظر سعيك بالإعجاب ، وتقول هـــذه بلاد أنا فتحتها بعد أن أضرب عنها كثير من الأضراب ، ولكن اعلم أن الأرض لله ولرسوله ثم لخليفته من بعده ، ولا منةَّ للعبد بإسلامه بل المنة لله بهداية عبده ، وكم سلف من قبلك مَنْ لورَامَ مارمته لدنا شاسعه ، وأجاب مانعه ، لكن ذَخَرَهُ الله لك لتحظى فى الآخرة بمفازه ، وفى الدنيا برقم طرازه ، فألق بيدك عند هذا القول إلقاء التسليم ، وقل لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ .

وقد قرن تقليدك هذا بخلعة تكون لك فى الاسم شعاراً ، وفى الوسم فخاراً ، وتناسب محل قلبك و بصرك وخير ملابس الأولياء ماناسب قلوباً وأبصاراً ، ومن جملتها طوق يوضع فى عنقك موضع العهد والميثاق ، ويشير إليك بأن الإنعام قد أطاف بك إطافة الأطواق بالأعناق ، ثم إنك خوطبت بالملك وذلك خطاب يقضى لصدرك بالانشراح ، ولأملك بالانفساح ، وتؤمر معه بمد يدك إلى العليا لابضمها إلى الجناح ، وهذه الثلاثة المشار إليها هى التى تكمل بها أقسام السيادة ، وهى التى لامزيد عليها فى الإحسان فيقال إنها الحسنى وزيادة ، فإذا صارت إليك فانصب لها يوماً يكون فى الأيام كريم الأنساب ، واجعله لها عيداً وقل هذا عيد الخلعة والتقليد والخطاب .

هذا ، ولك عند أمير المؤمنين مكانة تجعلك لديه حاضراً وأنت ناء عن الحضور ، وتضنّ أن تكون مشتركة بينك و بين غيرك والضنة من شيم الغيور ، وهذه المكانة قد عرفتك نفسها وما كنت تعرفها ، وما نقول إلا أنها لك صاحبة وأنت يوسفها ، فاحرسها عليك حراسة تقضى بتقديمها ، واعمل لها فإن الأعمال بخواتيمها .

واعلم أنك قد تقلدت أمراً تعين به نفى الحلوم ، ولا ينفك صاحبه عن عهدة اللوم ، وكثيراً مايرى حسناته يوم القيامة وهى مقتسمة بأيدى الخصوم ، ولا ينجو من ذلك إلا من أخذ أهبة الحذار ، وأشفق من شهادة الأسماع والأبصار ، وعلم أن الولاية ميزان إحدى كفتيه فى الجنة والأخرى فى النار ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ياأبا ذر ، إنى أحبُّ لك ماأحب لنفسى ، لاتأمَّرَنَّ على اثنين ، ولا تولين مال يتيم » ، فانظر إلى هذا القول النبوى نظر من لم يخدع بحديث الحرص والآمال ، ومَثِّل الدنيا وقد سيقت إليك بحذافيرها أليس مصيرها إلى زوال ، والسعيد إذا جاءته قضى بها أرب الأرواح لاأرب الجسوم ، واتخذ منها وهى السم دواء وقد تتخذ الأدوية من السموم ، وما الاغتباط بما يختلف على تلاشيه المساء والصباح ، وهو كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح ، والله يعصم أمير المؤمنين وولاة أمره من تباعتها التى لابستهم ولابسوها ، وأحصاها الله عليهم ونسوها ، ولك أنت من هذا الدعاء حظ على قدر محلك من العناية التى جذبت بضبعك ، ومحلك من الولاية التى بسطت من درعك ، فخذ هذا الأمر الذى تقلدته أخذ من لم يتعقبه بالنسيان ، وكن فى رعايته ممن إذا نامت عيناه كان قلبه يقظان .

وملاك ذلك كله فى إسباغ العدل الذى جعله الله ثالث الحديث والكتاب ، وأغنى بثوابه وَحْدَه عن أعمال الثواب ، وقدر يومًا منه بعبادة ستين عامًا فى الحساب ، ولم يأمر به آمر إلا زيد قوة فى أمره ، وتحصن به من عدوه ومن

دهره ، ثم يجاء به يوم القيامة وفى يديه كتابا أمان ، ويجلس على منبر من نور عن يمين الرحمن ، ومع هذا فإن مركبه صعب لايستوى على ظهره إلا من أمسك عنان نفسه قبل إمساك عنانه ، وغلبت لَمَّة ملـكه على لمة شيطانه ، ومن أوكد فروضه أن تمحى السنن السيئة التى طالت مدد أيامها ، وييئس الرعايا من رفع ظلاماتها فلم يجعلوا أمداً لانحسار ظلامها ، وتلك السنن هى المـكوس التى أنشأتها الهمم الحقيرة ، ولا غنى للأيدى الغنية إذا كانت ذات نفوس فقيرة ، وكلما زيدت الأموال الحاصلة منها قدراً زادها الله محقاً ، وقد استمرت عليها العوائد حتى ألحقها الظالمون بالحقوق الواجبة فَسَمَّوْها حقاً ، ولولا أن صاحبها أعظم الناس جرمًا لما أغلظ فى عقابه ، ومثلت توبة المرأة الغامدية بمتابه ، وهل أشقى ممن يكون السواد الأعظم له خصما ، ويصبح وهو مطالب بهم بما يعلم وبما لم يُحِطْ به علماً ؟ وأنت مأمور بأن تأتى هذه الظلامات فتنتحى على أبطالها[1] ، وتلحق أسماءها فى المحو بأفعالها ، حتى لايبقى لها فى العيان صور منظورة ، ولا فى الألسنة أحاديث مذكورة ، فإذا فعلت ذلك كنت قد أزلت عن الماضى سنة سوء سنتها يداه ، وعن الآتى متابعة ظلم وجده نهجاً مسلوكاً فجرى على مَدَاه ، فبادر إلى ماأمرت به مبادرة من لم يضق ذِراعاً ، ونظر إلى الحياة الدنيا بعينه فرآها فى الآخرة متاعاً ، واحمد الله تعالى على أن قيض للإمام هدى يقف بك على هُدَاكَ ، ويأخذ بحُجُزَتك عن خطوات الشيطان الذى هو أعدى عِدَاك .

وهـــذه البلاد المنوطة بطرفك تشتمل على أطراف متباعدة ، وتفتقر فى سياستها إلى أيدٍ متساعدة ، ولهذا يكثر بها قضاة الأحكام ، وأولو تدبيرات السيوف والأقلام ، وكل من هؤلاء ينبغي أن يقف على باب الاختيار ، ويسلط عليه شاهدا عدل من أمانة الدرهم والدينار ، فمـا أضلَّ الناس شىء كحب المـال الذى فورقت من أجله الأديان ، وهجرت بسببه الأولاد والإخوان ، وكثيراً

(١) فى ا ، ب ، ج « فتنتجى على أبطالها » .

مانرى الرجل الصائم القائم وهو عابد له عبادة الأوثان ، فإذا استعنت بأحد منهم على شيء من أمرك فاضرب عليه بالأرصاد ، ولا ترض بما عرفته من مبدإ حاله فإن الأحوال تنتقل مُنْتَقَلَ الأجساد ، وإياك أن تخدع بصلاح الظاهر كما خدع عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالربيع بن زياد . وكذلك أؤمر هؤلاء على اختلاف طبقاتهم بأن يأمروا بالمعروف مواظبين ، وينهوا عن المنكر محاسبين ، ويعلموا أن ذلك من دأب حزب الله الذين جعلهم الله الغالبين ، وليبدءوا أولا بأنفسهم فيعدلوا بها عن هواها ، ويأمروها بما يأمرون به سواها ، ولا يكونوا ممن هَدَى إلى طريق البر وهو عنه حائد ، وانتصب لطلب المرضى وهو محتاج إلى طبيب وعائد ، فما تنزل بركات السماء إلا على من خاف مقام ربه ، وألزم التقوى أعمال يده ولسانه وقلبه ، وإذا صلحت الولاة صلحت الرعية بصلاحهم ، وهم لهم بمنزلة المصابيح ولا يستضىء كل قوم إلا بمصباحهم ، ومما يؤمرون به أن يكونوا لمن تحت أيديهم إخواناً فى الاصطحاب ، وجيراناً فى الاقتراب ، وأعواناً فى توزع الحمل الذى يثقل على الرقاب ، فالمسلم أخو المسلم وإن كان عليه أميراً ، وأولى الناس باستعمال الرفق من كان فضل الله عليه كثيراً ، وليست الولاية لمن يستجدُّ بها كثرة اللفيف ، ويتولاها بالوطء العنيف ، ولكنها لمن يمال على جوانبه ، ويوءُ كل من أطايبه ، ولمن إذا أُغضب لم يُرَ للغضب عنده أثر ، وإذا أُلحف فى سؤاله لم يلق الإلحاف بخلق الضجر ، وإذا حضر الخصوم بين يديه عدل بينهم فى قسمة القول والنظر ، فذلك الذى يكون فى أصحاب اليمين ، والذى يدعى بالحفيظ العليم والقوىّ الأمين ، ومن سعادة المرء أن تكون ولاته متأدبين بآدابه ، وجارين على نهج صوابه ، وإذا تطايرت الكتب يوم القيامة كانوا حسناتٍ مثبتة فى كتابه .

وبعد هذه الوصية فإن هٰهنا حسنة هى للحسنات كالأم الولود ، ولطالما أغنت

عن صاحبها إغناء الجنود ، وتيقظت لنصره والعُيُونُ رقود ، وهى التى تسبغ لها الآلاء ، ولا يتخطاها البلاء ، ولأمير المؤمنين بها عناية تبعثها الرحمة الموضوعة فى قلبه ، والرغبة فى المغفرة لما تقدم وتأخر من ذنبه ، وتلك هى الصَّدَقَة التى فضل الله بها بعض عباده لمزية إفضالها ، وجعلها سبباً إلى التعويض عنها بعشر أمثالها ، وهو يأمرك أن تتفقد أحوال الفقراء الذين قُدِرَت عليهم مادة الأرزاق ، وألبسهم التعفف ثوب الغنى وهم فى ضيق من الإملاق ، فأولئك أولياء الله الذين مَسَّتهم الضراء فصبروا ، وكثرت الدنيا فى يد غيرهم فما نظروا إليها إذ نظروا ، وينبغى أن يهيىء لهم من أمرهم مرْفقاً ، ويضرب بينهم و بين الفقر مَوْبِقاً ، وما أطلنا لك القول فى هذه الوصية إلا إعلاما بأنها من المهمّ الذى يستقبل ولا يستدبر ، ويستكثر منه ولا يستكثر ، وهذا يعد من جهاد النفس فى بذل المال ، و يتلوه جهاد العدو الكافر فى مواقف القتال ، وأمير المؤمنين يعرفك من ثوابه ما تجعل السيف فى ملازمته أخا ، وتَسْخُو له بنفسك إن كان أحد بنفسه سخا ، ومن صفاته أنه العمل المحبوّ بفضل الكرامة ، الذى ينمى أجره بعد صاحبه إلى يوم القيامة ، وبه تمتحن طاعة الخالق على المخلوق ، وكل الأعمال عاطلة لا خلوق لها وهو المختص دونها برتبة الخلوق ، ولولا فضله لما كان محسوباً بشطر الإيمان ، ولما جعل الله الجنة له ثمنا وليست لغيره من الأثمان ، وقد علمت أن العدو هو جارك الأدنى ، والذى يبلغك وتبلغه عيناً وأذناً ، ولا تكون للإسلام نعم الجار حتى تكون له بئس الجار ، ولا عذر لك فى ترك جهاده بنفسك ومالك إذا قامت لغيرك الأعذار ، وأمير المؤمنين لا يرضى منك بأن تلقاه مُكافحا ، أو تطرق أرضه مماسياً أو مُصابحا ، بل يريد أن تقصد البلاد التى فى يده قصد المستنقذ لا قصد المغير ، وأن تحكم فيها بحكم الله الذى قضاه على لسان سعد فى بنى قُرَيْظَة والنَّضير ، وعلى الخصوص البيت المقدس فإنه تلاد الإسلام القديم ، وأخو البيت الحرام فى شرف

التعظيم ، والذى توجَّهتْ إليه الوجوه من قبل بالسجود والتسليم ، وقد أصبح وهو يشكو طول المدة فى أسر رقبته ، وأصبحت كلمة التوحيد وهى تشكو طول الوحشة فى غربتها عنه وغربته ، فانْهَضْ إليه نَهْضَة توغل فى قرحه ، وتُبَدِّل صَعْب قياده بسمحه ، وإن كان له عام حديبية فأتبعه بعام فتحه ، وهذه الاستزادة إنما تكون بعد سَدَاد ما فى اليد من ثغر كان مهملا فخميت موارده ، أو متهدمًا فرفعت قواعده ، ومن أهمها ما كان حاضر البحر فإنه عورة مكشوفة ، وخطة مخوفة ، والعدو قريب منه على بُعْدِه ، وكثيراً ما يأتيه فجأة حتى يسبق برقه برَعْده ، فينبغى أن يرتب بهذه الثغور رابطة تكثر شجاعتها وتقل أقرانها ، ويكون قتالها لأن تكون كلمة الله هى العليا لا لأن يرى مكانها ، وحينئذ يصبح كل منها وله من الرجال أسْوَار ، ويعلم أهله أن بناء السيف أمنع من بناء الأحجار ، ومع هذا لا بد لها من أصطول يكثر عدده ، ويقوى مدده ، فإنه العدة التى تستعين بها على كشف الغَمَّاء ، والاستكثار من سبايا العبيد والإماء ، وجيشه أخو الجيش السليمانى فذاك يسير على متن الريح وهذا على متن الماء ، ومن صفات خيله أنها جمعت بين العوم والمطار ، وتساوت أقدار خلقها على اختلاف مدة الأعمار ؛ فإذا أشرعت قيل جبال متعلقة بقطع من الغيوم ، وإذا نظر إلى أشكالها قيل إنها أهلة غير أنها تهتدى فى مسيرها بالنجوم ، ومثل هذه الخيل ينبغى أن يغالى فى جيادها ، ويستكثر من قيادها ، وليؤمر عليها أمير يلقى البحر بمثله من سعة صدره ، ويسلك طرقه سلوك من لم تقتله بجهلها ولكن قتلها بخُبْره ، وكذلك فليكن ممن أفنت الأيام تجاربه وزحمتها منا كِبُهْ ، وممن يذل الصعب إذا هو ساسه وإن لان جانبه ، وهذا هو الرجل يرأس على القوم فلا يجد هزة بالرياسة ، وإن كان فى الساقة فنى الساقة أو كان فى الحراسة فنى الحراسة ، ولقد أفلحت عصابة اعتصبت من ورائه وأيقنت بالنصر من رايته كما أيقنت بالنصر من رأيه .

واعلم أنه قد أخل من الجهاد بركن يقدح فى عمله ، وهو تمامه الذى يأتى فى آخره كما أن صدق النية تأتى فى أوله ، وذلك هو قَسْم الغنائم فإن الأيدى قد تداولته بالإجحاف ، وخلطت جهادها فيه بغلوها فلم ترجع بالكَفَاف ، والله قد جعل الظلم فى تعدّى حدوده المحدودة ، وجعل الاُستئثار بالمغنم من أشراط الساعة الموعودة ، ونحن نعوذ به أن يكون زماننا هذا زمانه و بأسُه شر بأس ، ولم يستخلفنا على حفظ أركان دينه ثم نُهْمِله إهمالَ مُضيع ولا إهْمَال ناس ، والذى نأمرك به أن تجرى هذا الأمر المنصوص من حكمه ، وتبرىء ذمتك مما يكون غيرك الفائز بفوائده وأنت المطالب بإثمه ، وفى أرزاق المجاهدين بالديار المصرية والشامية ما يغنيهم عن هذه الأكلة التى تكون غداً أنكالاً وجحيماً ، وطعاماً ذا غصة وعـذاباً أليماً .

فتصفح ما سطرنا لك فى هذه الأساطير التى هى عزائم مُبرَمات ، بل آيات محكمات ، وتحبب إلى الله و إلى أمير المؤمنين باقتفاء كلماتها ، وابْنِ لك منها مَجْداً يبقى فى عقبك إذا أصيبت البيوت فى أعقابها ، وهذا التقليد ينطق عليك بأنه لم يأل فى الوصايا التى أوصاها ، وأنه لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ثم إنه قد ختم بدعوات دعا بها أمير المؤمنين عند ختامه ، وسأل فيها خيرة الله التى تتنزل من كل أمر بمنزلة نظامه ، ثم قال : اللهم إنى أشهدك على من قلدته شهادةً تكون عليه رقيبة ، وله حسيبة ، فانى لم آمره إلا بأوامر الحق التى فيها موعظة وذكرى ، وهى لمن تبعها هدى ورحمة و بشرى ، و إذا أخذ بها بَلَجَ بحجته يوم يسأل عن الحجج ، ولم يختلج دون رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحوض فى جملة من يختلج ، وقيل لاحرج عليك ولا إثم إذ نجوت من وَرَطات الاسم والحرج ، والسلام .

وهذا الذى ذكرته من كلامى وكلام الصابى فى هذه التقاليد الأربعة لم أقصد به الْوَضْع من الرجل ، و إنما ذكرت ماذكرته لبيان موضع السجع الذى

يثبت على المحك ، ولا شك أن هذا الوصف المشار إليه فى فقر الأسجاع لم يكن مقصوداً فى الزمن القديم ، إما لمكان عسره ، أو لأنه لم يتنبه له ، وكيف أضع من الصابى وعلم الكتابة قد رفعه وهو إمام هذا الفن والواحد فيه ؟ ولقد اعتبرت مكاتباته فوجدته قد أجاد فى السلطانيات كل الإجادة ، وأحسن كل الإحسان ، ولولم يكن له سوى كتابه الذى كتبه عن عز الدولة بختيار بن بويه إلى سبكتكين عند خروجه عليه ومجاهرته إياه بالعصيان لاستحق بِهِ فضيلة التقدم ، كيف وله من السلطانيات ما أتى فيه بكل عجيبة ؟ لكنه فى الإخوانيات مُقَصّر وكذلك فى كتب التعازى .

وعندى فيه رأى لم يره أحد غيرى ، ولى فيه قول لم يقله أحد سواى ، وذاك أن عقل الرجل فى كتابته زائد على فصاحته وبلاغته ، وسأبين ذلك فأقول : لينظر الناظر فى هذين التقليدين اللذين أوردتهما له ، فإنه يرى وصايا وشروطا واستدراكات ، وأوامر مابين أصل وفرع وكل وجزء وقليل وكثير ، ولا نرى ذلك فى كلام غيره من الكتاب ، إلا أنه عَبَّرَ عن تلك الوصايا والأوامر والشروط والاستدراكات بعبارة فى بعضها ما فيه من الضعف والركة ، وقد قيل : إن زيادة العلم عَلَى المنطق هجنة ، وزيادة المنطق على العلم خدعة ، ومع هذا فإنى أقِرُّ للرجل بالتقدم ، وأشهد له بالفضل .

وإذ فرغت مما أردت تحقيقه فى هذا الموضع ، فانى أرجع إلى ما كنت بصدد ذكره من الكلام على السجع ، وقد تقدم من ذلك ماتقدم ، وبقى ما أنا ذاكر ههنا . وهو أن السجع قد ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : أن يكون الفصلان متساويين لا يزيد أحدهما على الآخر ، كقوله تعالى : (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ) وقوله تعالى : (وَالْعَادِيَاتِ

ضَبْحًا ، فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ، فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ، فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا) ألا ترى كيف جاءت هذه الفصول متساوية الأجزاء حتى كأنها أفرغت فى قالب واحد ، وأمثال ذلك فى القرآن الكريم كثيرة ، وهو أشرف السجع منزلة ؛ للاعتدال الذى فيه .

القسم الثانى : أن يكون الفصل الثانى أطول من الأول ، لاطولا يخرج به عن الاعتدال خروجاً كثيراً ؛ فإنه يقبح عند ذلك ويستكره ويعد عيباً .

فما جاء من ذلك قوله تعالى : (بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ؛ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ، وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا) ألا ترى أن الفصل الأول ثمان لفظات ، والفصل الثانى والثالث تسع تسع .

ومن ذلك قوله تعالى فى سورة مريم : (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ، تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا) . وأمثال هذا فى القرآن كثيرة .

ويستثنى من هذا القسم ما كان من السجع على ثلاثة فِقَر ؛ فإن الفقرتين الأوليين يُحْسَبان فى عدة واحدة ، ثم باقى الثلاثة فينبغى أن تكون طويلة طولا يزيد عليهما ؛ فإذا كانت الأولى والثانية أربع لفظات أربع لفظات تكون الثالثة عشر لفظات أو إحدى عشرة .

مثال ذلك ماذكرته فى وصف صديق فقلت : الصديق من لم يَعْتَضْ عنك بخالف ، ولم يُعَامِلك معاملة حالِف ، وإذا بَلَّغَته أذنه وِشَايَةً أقام عليها حد سارق أو قاذف ؛ فالأولى والثانية ههنا أربع لفظات أربع لفظات لأن الأولى «لم يعتض عنك بخالف» والثانية «ولم يعاملك معاملة حالف» وجاءت الثالثة عشر لفظات ؛ وهكذا ينبغى أن يستعمل ما كان من هذا القبيل ؛ وإن زادت الأولى والثانية

عن هذه العدة فتزاد الثالثة بالحساب ، وكذلك إذا نقصت الأولى والثانية عن هذه العدة ، فافهم ذلك وقس عليه .

إلا أنه لاينبغى أن تجعله قياساً مطرداً فى السجعات الثلاث أين وقعت من الكلام ، بل تعلم أن الجواز يعم الجانبين من التساوى فى السجعات الثلاث ومن زيادة السجعة الثالثة ، ألا ترى أنه قد ورد ثلاث سجعات متساويات فى القرآن الكريم ، كقوله تعالى : (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَاأَصْحَابُ الْيَمِينِ ، فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ، وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ، وَظِلٍّ مَمْدُودٍ) فهذه السجعات كلها من لفظتين لفظتين ، ولو جعلت الثالثة منها خمس لفظات أو ستا لما كان ذلك معيبها .

القسم الثالث : أن يكون الفصل الآخرأقصر من الأول ، وهو عندى عيب فاحش ، وسبب ذلك أن السجع يكون قد استوفى أمده من الفصل الأول بحكم طوله ، ثم يجىء الفصل الثانى قصيرا عن الأول ، فيكون كالشىء المبتور ؛ فيبقى الإنسان عند سماعه كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها .

وإذ انتهينا إلى ههنا وَبَيَّنَّا أقسام السجع ولُبَّه وقُشُوره فسنقول فيه قولا كُلِّيًّا ، وهو أن السجع على اختلاف أقسامه ضربان :

أحدهما : يسمى السجع القصير ، وهو أن تكون كل واحدة من السجعتين مؤلفة من ألفاظ قليلة ، وكلما قلت الألفاظ كان أحسن ، لقرب الفواصل المسجوعة من سمع السامع ، وهذا الضرب أوعر السجع مذهباً ، وأبعده مُتَنَاوَلا ، ولا يكاد استعماله يقع إلا نادراً .

والضرب الآخر : يسمى السجع الطويل ، وهو ضد الأول ؛ لأنه أسهل مُتَنَاوَلا .

وإنما كان القصير من السجع أوعر مسلكا من الطويل لأن المعنى إذا صيغ بألفاظ قصيرة عَزَّ مُوَاتاة السجع فيه ؛ لقصر تلك الألفاظ ، وضيق المجال

فى استجلابه ، وأما الطويل فإن الألفاظ تطول فيه ويستجلب له السجع من حيث وليس ، كما يقال ، وكان ذلك سهلا .

وكل واحد من هذين الضربين تتفاوت درجاته فى عدة ألفاظ .

أما السجع القصير فأحسنه ما كان مؤلفاً من لفظتين لفظتين ، كقوله تعالى : (وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ، فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا) وقوله تعالى : (يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) ، ومنه ما يكون مؤلفاً من ثلاثة ألفاظ وأربعة وخمسة ، وكذلك إلى العشرة .

وما زاد على ذلك فهو من السجع الطويل .

فمما جاء منه قوله تعالى : (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ، مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ، وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى) وقوله تعالى : (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ، وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ، وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ) .

وأما السجع الطويل فإن درجاته تتفاوت أيضاً فى الطول ؛ فمنه مايقرب من السجع القصير ، وهو أن يكون تأليفه من إحدى عشرة إلى اثنتى عشرة لفظة ، وأكثره خمس عشرة لفظة ؛

كقوله تعالى : (وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ، وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ) فالأولى إحدى عشرة لفظة ، والثانية ثلاث عشرة لفظة

وكذلك قوله تعالى : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) .

ومن السجع الطويل ما يكون تأليفه من العشرين لفظة فما حولها ؛ كقوله تعالى : (إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ، وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) .

ومن السجع الطويل أيضا مايزيد على هذه العدة المذكورة ، وهو غير مضبوط .

واعلم أن التصريع فى الشعر بمنزلة السجع فى الفصلين من الكلام المنثور ، وفائدته فى الشعر أنه قبل كمال البيت الأول من القصيدة تعلم قافيتها ، وشبه البيت المُصَرَّع بباب له مصراعان متشاكلان .

وقد فعل ذلك القدماء والمحدثون ، وفيه دلالة على سعة القدرة فى أفانين الكلام ؛ فأما إذا كثر التصريع فى القصيدة فلستُ أراه مختاراً ؛ إلا أنّ هذه الأصناف من التصريع والترصيع والتجنيس وغيرها إنما يحسن منها فى الكلام ماقلّ وجرى مَجْرَى الغُرَّة من الوجه ، أو كان كالطراز من الثوب ، فأما إذا تواترت وكثرت فإنها لا تكون مرضية ؛ لما فيها من أمارات الكلفة وهو عندى ينقسم إلى سبع مراتب ، وذلك شيء لم يذكره على هذا الوجه أحد غيرى :

فالمرتبة الأولى ــ وهى أعلى التصريع درجة ــ أن يكون كل مصراع من البيت مستقلاً بنفسه فى فهم معناه غير محتاج إلى صاحبه الذى يليه ، ويسمى التصريع الكامل ، وذلك كقول امرئ القيس (١) :

---

(١) هو بيت من معلقته المعروفة التى أولها «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل» وسيأتى هذا المطلع بعد هذا البيت ، وقد استعمل امرؤ القيس التصريع كثيرا فى أوائل قصائده وفى أثنائها .

أَفَاطِمَ مَهْلاً بَعْضَ هٰـــذَا التَّدَلُّلِ   وَإِنْ كُنْتِ قَدْ أَزْمَعْتِ هَجْراً فَأَجْمِلِي

فإن كل مصراع من هذا البيت مفهوم المعنى بنفسه غير محتاج إلى مايليه .

وعليه ورد قول المتنبي(١) :

إِذَا كَانَ مَدْحٌ فَالنَّسِـيبُ الْمُقَدَّمُ   أَكُلُّ فَصِيحٍ قَالَ شِـــعْراً مُتَيَّمُ

المرتبة الثانية : أن يكون المصراع الأول مستقلاً بنفسه غير محتاج إلى الذى يليه ، فإذا جاء الذى يليه كان مرتبطاً به ، كقول امرئ القيس (٢) :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ   بِسُقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

فالمصراع الأول غير محتاج إلى الثانى فى فهم معناه ، لـكن لما جاء الثانى صار مرتبطاً به .

وكذلك ورد قول أبى تمام(٣) :

أَلَمْ يَأْنِ أَنْ تُرْوَى الظِّمَاءُ الْحَوَائِمُ   وَأَنْ يَنْظِمَ الشَّــمْلَ الْمبَدَّدَ نَاظِمُ

وعليه ورد قول المتنبي(٤) :

الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّــجْعانِ   هُوَ أَوَّلٌ وَهِيَ الْمَحَـــــلُّ الثَّانِي

المرتبة الثالثة : أن يكون الشاعر مخيراً فى وضع كل مصراع موضع صاحبه ، ويسمى التصريع الموجّه ، وذلك كقول ابن الحجاج البغدادى :

---

(١) هو مطلع قصيدة من مدائحه فى سيف الدولة .

(٢) هذا مطلع القصيدة المعلقة التى تقدم بيت منها .

(٣) هذا مطلع قصيدة يمدح فيها أحمد بن أبى دواد ، و يقول فيها :

إِلَى أَحْمَدَ الْمَحْمُودِ أَمَّتْ بِنَا السُّرَى   نَوَاعِبُ فِي عُرْضِ الْفَــلاَ وَرَوَاسِمُ

(٤) هو مطلع قصيدة من مدائحه فى سيف الدولة ، و بعده قوله :

فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَـــا لِنَفْسٍ مِرَّةٍ   بَلَغَتْ مِنَ الْعَلْيَاءِ كُلَّ مَكَانِ

مِنْ شُرُوطِ الصَّبُوحِ فِى الْمِهْرَجَانِ   خِفَّةُ الشُّرْبِ مَعْ خُلُوِّ الْمَكَانِ

فإن هذا البيت يجعل مصراعه الأول ثانياً ومصراعه الثانى أولا ؛ وهذه المرتبة كالثانية فى الجودة .

المرتبة الرابعة : أن يكون المصراع الأول غير مستقل بنفسه ، ولا يفهم معناه إلا بالثانى ، ويسمى التصريع الناقص ، وليس بمرضى ولا حسن .

فمما ورد منه قول المتنبى (١) :

مَغَانِى الشِّعْبِ طِيباً فِى الْمَغَانِى   بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ

فإن المصراع الأول لايستقل بنفسه فى فهم معناه دون أن يذكر المصراع الثانى .

المرتبة الخامسة : أن يكون التصريع فى البيت بلفظة واحدة وسطاً وقافية ، ويسمى التصريع المكرر ، وهو ينقسم قسمين : أحدهما : أقرب حالا من الآخر ، فالأول أن يكون بلفظة حقيقية لا مجاز فيها ، وهو أنزل الدرجتين ؛ كقول عَبيد بن الأبرص (٢) :

فَكُلُّ ذِى غَيْبَةٍ يَئُوبُ   وَغَائِبُ الْمَوْتِ لاَ يَئُوبُ

---

(١) هو مطلع قصيدة يمدح فيها عضد الدولة وولديه أبا الفوارس وأبا دلف ، ويصف فيها شعب بوان وبعده قوله :

وَلٰكِنَّ الْفَتَى الْعَرَبِىَّ فِيهَا   غَرِيبُ الْوَجْهِ وَالْيَدِ وَاللِّسَانِ

مَلاَعِبُ جِنَّةٍ لَوْ سَارَ فِيهَا   سُلَيْمَانٌ لَسَارَ بِتَرْجُمَانِ

(٢) هو من أثناء قصيدة له تعتبر من المطولات المسماة بالمعلقات ، وذلك عند من يعدها عشرا ، وأولها :

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبُ   فَالْقُطَّبِيَّاتُ فَالذَّنُوبُ

القسم الآخر : أن يكون التصريع بلفظة مجازية يختلف المعنى فيها ؛ كقول أبي تمام (١) :

فَتًى كَانَ شُرْبًا لِلْعُفَاةِ وَمَرْتَعَا   فَأَصْبَحَ لِلْهِنْدِيَّةِ الْبِيضِ مَرْتَعَا

المرتبة السادسة : أن يذكر المصراع الأول ويكون معلقاً على صفة يأتى ذكرها فى أول المصراع الثانى ، ويسمى التصريع المعلّق ؛ فمما ورد منه قول امرىء القيس (٢) :

أَلاَ أَيُّها اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلاَ انْجَلِي   بِصُبْحٍ وَمَا الإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ

فإن المصراع الأول معلق على قوله « بصبح » ؛ وهذا معيب جداً .

وعليه ورد قول المتنبى (٣) :

قَدْ عَلَّمَ الْبَيْنُ مِنَّا الْبَيْنَ أَجْفَانَا   تَدْمَى وَأَلَّفَ فِى ذَا الْقَلْبِ أَحْزَانَا

فإن المصراع الأول معلق على قوله « تدمى » .

المرتبة السابعة : أن يكون التصريع فى البيت مخالفاً لقافيته ، ويسمى التصريع المشطور ، وهو أنزل درجات التصريع وأقبحها .

فمن ذلك قول أبي نواس :

أَقِلْنِى قَدْ نَدِمْتُ عَلَى الذنُوبِ   وَبِالْإِقْرَارِ عُذْتُ عَنِ الْجُحُودِ

---

(١) هو من أثناء قصيدة له يرثى فيها أبا نصر محمد بن حميد الطائى ، وأولها قوله :

أَصَمَّ بِكَ النَّاعِى وَإِنْ كَانَ أَسْمَعا   وَأَصْبَحَ مَغْنَى الْجُودِ بَعْدَكَ بَلْقَعا

(٢) هو من أثناء طويلته المعلقة وقد تقدم مطلعها و بيت منها قريبا .

(٣) هذا مطلع قصيدة له يمدح فيها أبا سهل سعيد بن عبد الله ، والبين : الفراق والبعد ، والأجفان : جمع جفن ، و « تدمى » فى محل نصب صفة لأجفانا ، كأنه قال : أجفانا دامية ، وذهب الخطيب إلى أن تدمى على حذف أن المصدرية فيكون مفعولا ثانيا لعلم : أى علم أجفاننا أن تدمى .

فصرع بحرف الباء فى وسط البيت ، ثم قفاه بحرف الدال ، وهذا لا يكاد يستعمل إلا قليلا نادراً .

النوع الثانى : فى التجنيس ؛ اعلم أن التجنيس غُرَّة شادخة فى وجه الكلام ، وقد تصرّف العلماء من أرباب هذه الصناعة فيه فَغَرَّبوا وشَرَّقوا ، لاسيما المحدثين منهم ، وصنف الناس فيه كتباً كثيرة ، وجعلوه أبوابا متعددة ، واختلفوا فى ذلك ، وأدخلوا بعض تلك الأبواب فى بعض ؛ فمنهم عبد الله بن المعتز ، وأبو على الحاتمى ، والقاضى أبو الحسين الْجُرْجَانى ، وقُدَامة بن جعفر الكاتب ، وغيرهم .

وإنما سمى هذا النوع من الكلام مجانساً لأن حروف ألفاظه يكون تركيبها من جنس واحد .

وحقيقته أن يكون اللفظ واحداً والمعنى مختلفاً ، وعلى هذا فإنه هو : اللفظ المشترك ، وما عداه فليس من التجنيس الحقيقى فى شىء ، إلا أنه قد خرج من ذلك ما يسمى تجنيساً ، وتلك تسمية بالمشابهة ، لا لأنها دالة على حقيقة المسمى بعينه .

وعلى هذا فإنى نظرت فى التجنيس وما شُبِّه به فأجرى مجراه فوجدته ينقسم إلى سبعة أقسام : واحد منها يدل على حقيقة التجنيس؛ لأن لفظه واحد لا يختلف ، وستة أقسام مشبهة .

فأما القسم الأول فهو أن تتساوى حروف ألفاظه فى تركيبها ووزنها ، كقوله تعالى (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ) وليس فى القرآن الكريم سوى هذه الآية ، فاعرفها ، ويروى فى الأخبار النبوية أن الصحابة نازعوا جرير بن عبد الله البجلى زمامه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خَلُّوا بَيْنَ جَرِيرٍ والْجَرِير » أى : دعوا زِمَامه .

ومما جاء منه فى الشعر قول أبى تمام (١) :

فأصْبَحَتْ غُرَرُ الأَيَّامِ مُشْرِقَةً ... بِالنَّصْرِ تَضْحَكُ عَنْ أَيَّامِكَ الْغُرَرِ

فالغرر الأولى استعارة من غرر الوجه ، والغرر الثانية مأخوذة من غرة الشىء أكرمه ؛ فاللفظ إذاً واحد والمعنى مختلف .

وكذلك قوله (٢) :

مِنَ الْقَوْمِ جَعْدٌ أَبْيَضُ الْوَجْهِ وَالنَّدَى ... وَلَيْسَ بَنَانٌ يُجْتَدَى مِنْهُ بِالْجَعْدِ

فالجعد : السيد ، والبنان الجعد : ضد السَّبْط ؛ فأحدهما يوصف به السخى ، والآخر يوصف به البخيل .

وكذلك قوله (٣) :

بِكُلِّ فَتًى ضَرْبٍ يُعَرِّضُ لِلْقَنَا ... مُحَيًّا مُحَلًّى حَلْيُهُ الطَّعْنُ وَالضَّرْبُ

فالضَّرْب : الرجل الخفيف ، والضَّرْب بالسيف فى الحرب .

وكذلك قوله (٤) :

---

(١) لم أجد هذا البيت فى ديوان أبى تمام ، ولا فى أخباره التى ألفها الصولى ، ولا فى مختار شعره للجرجانى :

(٢) من قصيدة له يمدح فيها حفص بن عمر الأزدى ، ومطلعها قوله :

عَفَتْ أَرْبُعُ الْحَلَّاتِ لِلْأَرْبُعِ الْمُلْدِ ... لِكُلِّ هَضِيمِ الْكَشْحِ مَجْدُولَةِ الْقَدِّ

وانظر الديوان (١٣٠ بيروت) .

(٣) من قصيدة له يمدح فيها خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى ، وأولها قوله :

لَقَدْ أَخَذَتْ مِنْ دَارِ مَاوِيَّةَ الْحُقْبُ ... أَنُحْلُ الْمَغَانِى لِلْبِلَى هِىَ أَمْ نَهْبُ

وانظر الديوان (ص ٣٠ بيروت) .

(٤) من قصيدته التى يمدح فيها المعتصم ويهنئه بفتح عمورية ، والتى أولها :

السيف أصدق أنباء منَ الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب

وعداك : صرفك ، والثغور الثانية : مواضع المخافة فى البلاد ، والثغور الأولى : جمع

عَدَاكَ حَرُّ الثُّغُورِ الْمُسْتَضَامَةِ عَنْ بَرْدِ الثُّغُورِ وَعَنْ سَلْسَالِهَا الْحَصِبِ

فالثغور : جمع ثغر ، وهو واحد الأسنان ، وهو أيضاً البَلَد الذى على تخوم العدو .

ثم قال فى هذه القصيدة :

كَمْ أَحْرَزَتْ قُضُبُ الهِنْدِىِّ مُصْلَتَةً تَهْتَزُّ مِنْ قُضُبٍ تَهْتَزُّ فى كُثُبِ
بِيضٌ إِذَا انْتُضِيَتْ مِنْ حُجْبِهَا رَجَعَتْ أَحَقَّ بِالْبِيضِ أَبْدَانًا مِنَ الْحُجُبِ

فالقُضُب : السيوف ، والقُضُب : القدود على حكم الاستعارة ، وكذلك البيض : السيوف ، والبيض : النساء ، وهذا من النادر الذى لايتعلق به أحد .

وكذلك قوله [١] :

إِذَا الْخَيْلُ جَابَتْ قَسْطَلَ الْحَرْبِ صَدَّعُوا صُدُورَ الْعَوَالِى فى صُدُورِ الْكَتَائِبِ

فلفظ الصدور فى هذا البيت واحد ، والمعنى مختلف .

وكذلك قوله [٢] :

عَامِى وَعَامُ الْعِيسِ بَيْنَ وَدِيقَةٍ مَسْجُورَةٍ وَتَنُوفَةٍ صَيْهُودِ [٣]

ثغر ، وهو الفم ، والحصب : وقع فى بعض نسخ الديوان بالخاء المعجمة ، وفى بعضها بالحاء المهملة ، وفسرت تفسيرا بعيدا .

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا دلف القاسم بن عيسى العجلى ، وأولها قوله :

عَلَى مِثْلِهَا مِنْ أَرْبُعٍ وَمَلَاعِبٍ تُذَالُ مَصُونَاتُ الدُّمُوعِ السَّوَاكِبِ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أبا عبد الله أحمد بن أبى دواد ، وأولها قوله :

أَرَأَيْتَ أَىَّ سَوَالِفٍ وَخُدُودِ عَنَّتْ لَنَا بَيْنَ اللِّوَى فَزَرُودِ

(٣) الوديقة : شدة الحر ، ومسجورة : متقدة ، والتنوفة : الفلاة البعيدة الأطراف . وصيهود ــ بالهاء ــ الفلاة التى لاينال ماؤها . وفى بعض نسخ الديوان « صيخود » بالخاء المعجمة ــ وهى المحماة كثيرا من شدة الحر .

حَتَّى أُغَادِرَ كُلَّ يَوْمٍ بِالْفَلَا ... لِلطَّيْرِ عِيداً مِنْ بَنَاتِ الْعِيدِ[١]

فالعيد : فحل من فحول الإبل ، والعيد : اليوم المعروف من الأيام .

وقد أكثر أبو تمام من التجنيس فى شعره ؛ فمنه ما أغرب فيه فأحسن ؛ كالذى ذكرته ، ومنه ماأتى به كريها مستثقلا ، كقوله[٢] :

وَيَوْمَ أَرْشَقَ وَالْهَيْجَاءُ قَدْ رَشَقَتْ ... مِنَ الْمَنِيَّةِ رَشْقًا وَابِلًا قَصِفَا[٣]

وكقوله[٤] :

يَا مُضْغِناً خَالِدًا لَكَ الثُّـكْلُ إِنْ ... خَلَّدَ حِقْدًا عَلَيْكَ فِى خَلَدِهْ[٥]

وكقوله[٦] :

---

(١) أغادر : أترك . عيدا : يعنى به وليمة ، و بنات العيد : النوق المنسوبة إلى عيد ، وهو فحل منجب .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أبا دلف القاسم بن عيسى العجلى ، وأولها قوله :

أَمَّا الرُّسُومُ فَقَدْ أَذْكَرْنَ مَاسَلَفَا ... فَلَا تَـكُفَّنَّ عَنْ شَأْنَيْكَ أَوْ يَكِفَا

(٣) أرشق : اسم موضع وقعت فيه واقعة مشهورة ضد بابك . ورشق السهم : رماه . والوابل: المطرالغزير . وقصفا : شديدا كقصف الرعد ، يريد أنه رشق سهامه على العدو فى هذه الواقعة كوابل المطر .

(٤) من قصيدة له يمدح فيها خالد بن يزيد الشيبانى ، وأولها قوله :

مَالِـكَثِيبِ الْحِمَى إِلَى عَقِدِهْ ... مَابَالُ جَرْعَائِهِ إِلَى جَرَدِهْ

والكثيب : ما ارتفع من الرمل ، والعقد : الرمل المنعقد ، والجرعاء : الأرض فيها انبساط ، والجرد : السهل .

(٥) المضغن : الحاقد ؛ والثكل : الفقد ، والخلد ـ بفتح الخاء واللام ـ النفس والقلب .

(٦) من قصيدة له يمدح فيا أبا سعيد محمد بن يوسف الطائى ، وأولها قوله :

يَابُعْدَ غَايَةِ دَمْعِ الْعَيْنِ إِنْ بَعُدُوا ... هِيَ الصَّبَابَةُ طُولَ الدَّهْرِ وَالسُّهُدُ

وَأَهْلُ مُوقَانَ إِذْ مَاقُوا فَلاَ وَزَرٌ ... أَنْجَاهُمُ مِنْكَ فِي الْهَيْجَا وَلاَ سَنَدُ(١)

وكقوله(٢) :

مَهْلاً بَنِي مَالِكٍ لاَ تَجْلُبُنَّ إِلَى ... حَيِّ الْأَرَاقِمِ دُؤْلُولَ ابْنَةَ الرَّقِمِ(٣)

ثم قال فيها :

مِنَ الرُّدَيْنِيَّةِ اللاَّئِي إِذَا عَسَلَتْ ... تُشِمُّ بَوَّ الصَّغَارِ الْأَنْفَ ذَا الشَّمَمِ(٤)

وكقوله(٥) :

قَرَّتْ بِقُرَّانَ عَيْنُ الدِّينِ وَاشْتَتَرَتْ ... بِالْأَشْتَرَيْنِ عُيُونُ الشِّرْكِ فَاصْطُلِمَا(٦)

وله من هذا الغث البارد المتكلف شيء كثير لا حاجة إلى استقصائه ، بل قد أوردنا منه قليلا يستدلّ به على أمثاله .

ومن الحسن في هذا الباب قول أبي نُوَاس :

(١) ماقوا : حمقوا وجهلوا ، والوزر : الملجأ والحصن ، والهيجاء : الحرب .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها مالك بن طوق ، وأولها قوله :

سَلِّمْ عَلَى الرَّبْعِ مِنْ سَلْمَى بِذِي سَلَمِ ... عَلَيْهِ وَسْمٌ مِنَ الْأَيَّامِ وَالْقِدَمِ

(٣) وقع هذا البيت في ا ، ب ، ج محرفا غاية في التحريف ؛ فقد جاء فيها هكذا :

مَهْلاً بَنِي مالِكٍ لاتحلنن إلى ... حَيِّ الْأَرَاقِمِ دؤلول الله الرقم

والأراقم : من بني تغلب ، والدؤلول والرقم : من أسماء الداهية .

(٤) الردينية : الرماح ، منسوبة إلى ردينة . ووقع في ا ، ب ، ج «إن الردينية» وما أثبتناه عن الديوان . وعسلت : اشتد اهتزازها . والبو : ولد الناقة ، أو جلده يحشى تبنا ثم يقرب من أمه لتدر عليه . والشمم : ارتفاع قصبة الأنف ، وهو من علامة العظمة عندهم .

(٥) من قصيدة له يمدح فيها إسحاق بن إبراهيم المصعبي ، وأولها قوله :

أَصْغَى إِلَى الْبَيْنِ مُغْتَرًّا فَلاَ جَرَمَا ... إِنَّ النَّوَى أَسْأَرَتْ فِي عَقْلِهِ لَمَمَا

(٦) قران : اسم مكان . واشتترت : انشقت . واصطلم : قطع من أصله .

عَبَّاسُ عَبَّاسٌ إِذَا احْتَدَمَ الْوَغَى وَالْفَضْلُ فَضْلٌ وَالرَّبِيعُ رَبِيعُ

وكذلك قوله :

فَقُلْ لِأَبِي الْعَبَّاسِ إِنْ كُنْتُ مُذْنِباً فَأَنْتَ أَحَقُّ النَّاسِ بِالْأَخْذِ بِالْفَضْلِ

فَلَا تَجْحَدُونِي وُدَّ عِشْرِينَ حِجَّةً وَلَا تُفْسِدُوا مَا كَانَ مِنْكُمْ مِنَ الْفَضْلِ

وعلى هذا النَّهج ورد قول البحترى (١) :

إِذَا الْعَيْنُ رَاحَتْ وَهْيَ عَيْنٌ عَلَى الْهَوَى فَلَيْسَ بِسِرٍّ مَا تُسِرُّ الْأَضَالِعُ

فالعين : الجاسوس ؛ والعين : معروفة .

وكذلك ورد قول بعضهم :

وَتَرَى سَوَابِقَ دَمْعِهَا فَتَوَا كَفَتْ سَاقَ تجاوب فَوْقَ سَاقٍ سَاقَا

فالساق : ساق الشجرة ، والساق : القمرى من الطيور .

وعلى هذا الأسلوب جاء قول بعض المتأخرين ، وهو الشاعر المعروف بالْمَعَرِّى فى قصيدة قصد بها التجنيس فى كثير من أبياتها ، فمن ذلك ماأورده فى مطلعها :

لَوْ زَارَنَا طَيْفُ ذَاتِ الْخَالِ أَحْيَانَا وَنَحْنُ فِي حُفَرِ الْأَجْدَاثِ أَحْيَانَا

ثم قال فى أبياتها :

تَقُولُ : أَنْتَ امْرُؤٌ جَافٍ مُغَالَطَةً فَقُلْتُ : لَاهَوَّمَتْ أَجْفَانُ أَجْفَانَا (٢)

وكذا قال فى آخرها :

لَمْ يَبْقَ غَيْرُكَ إِنْسَاناً يُلَاذُ بِهِ فَلَا بَرِحْتَ لِعَيْنِ الدَّهْرِ إِنْسَانَا

ورأيت الغانمى قد ذكر فى كتابه بابا ، وسماه « رد الأعجاز على الصدور »

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها الفتح بن خاقان ، وأولها قوله :

أَلَمَّتْ ، وَهَلْ إِلْمَامُهَا لَكَ نَافِعُ ؟ وَزَارَتْ خَيَالاً وَالْعُيُونُ هَوَاجِعُ

(٢) الأجفان : جمع جفن العين . و « أجفانا » هو أفعل تفضيل من الجفاء مضاف إلى « نا » .

خارجاً عن باب التجنيس ، وهو ضرب منه ، وقسم من جملة أقسامه ، كالذى نحن بصدد ذكره هٰهنا ، فمما أورده الغانمى من الأمثلة فى ذلك قول بعضهم :

وَنَشْرِى بِجَمِيلِ الصُّنْـــعِ ذِكْراً طَيِّبَ النَّشْرِ
وَنَفْرِى بِسُيُوفِ الْهِنْـــدِ مَنْ أَسْرَفَ فِى النَّفْرِ
وَبَحْرِى فِى شِرَى الْحَمْدِ عَلَى شَاكِلَةِ الْبَحْـــرِ

وكذلك قول بعضهم فى الشيب :

يَا بَيَاضاً أَذْرَى دُمُوعِىَ حَتَّى عَادَ مِنْهَا سَـــوَادُ عَيْنِى بَيَاضَا

وكذلك قول البحترى :

وَأَغَرَّ فِى الزَّمَنِ الْبَهِيمِ مُحَجَّلٍ قَدْ رُحْتُ مِنْهُ عَلَى أَغَرَّ مُحَجَّلِ
كَالْهَيْكَلِ الْمَبْنِىِّ إِلَّا أَنَّهُ فِى الْحُسْنِ جَاءَ كَصُورَةٍ فِى هَيْكَلِ

وليس الأخذ على المعانى فى ذلك مناقشة على الأسماء ، وإنما المناقشة على أن ينصب نفسه لإيراد علم البيان وتفصيل أبوابه ، ويكون أحد الأبواب التى(١) ذكرناها داخلاً فى الآخر ؛ فيذهب عليه ذلك ، ويخفى عنه ، وهو أشهر من فلَق الصباح .

وربما جهل بعض الناس فأدخل فى التجنيس ماليس منه ؛ نظراً إلى مساواة اللفظ دون اختلاف المعنى ؛ فمن ذلك قول أبى تمام(٢) :

أَظُنُّ الدَّمْعَ فِى خَدِّى سَيُبْقِى رُسُوماً مِنْ بُكَائِى فِى الرُّسُومِ

وهذا ليس من التجنيس فى شىء ؛ إذ حَدُّ التجنيس هو اتفاق اللفظ واختلاف

(١) ورد فى ب ، ج «الذى ذكرناها» وهو تحريف .
(٢) من قصيدة له يمدح فيها بعض بنى عبد الكريم الطائيين ، وأولها قوله :

أَرَامَةُ ، كُنْتِ مَأْلَفَ كُلِّ رِيمٍ لَوِ اسْتَمْتَعْتِ بِالْأُنُسِ الْمُقِيمِ

المعنى ، وهذا البيت المشار إليه هو اتفاق اللفظ والمعنى معاً ، وهذا مما ينبغى أن ينبه عليه ليعرف .

ومن علماء البيان من جعل له اسما سَمَّاه به ، وهو الترديد : أى أن اللفظة الواحدة رُدِّدَت فيه .

وحيث نبهت عليه ههنا فلا أحتاج أن أعقد له بابا أفرده بالذكر فيه .

وأما الأقسام الستة المشبهة بالتجنيس؛ فالقسم الأول منها: أن تكون الحروف متساوية فى تركيبها مختلفة فى وزنها ، فمما جاء من ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم : « اَللَّهُمَّ كما حَسَّنْتَ خَلْقِي حَسِّنْ خُلُقِي » ألا ترى أن هاتين اللفظتين متساويتان فى التركيب ، مختلفتان فى الوزن ؛ لأن تركيب الْخَلْق والخُلُق من ثلاثة أحرف ، وهى الخاء واللام والقاف ، إلا أنهما قد اختلفا فى الوزن ، إذ وزن الْخَلْق فَعْلٌ بفتح الفاء ، ووزن الخُلُق فعل بضم الفاء .

ومن هذا القسم قول بعضهم : « لاتُنَالُ غُرَرُ الْمَعَالِي إلاَّ بِرُكُوبِ الْغَرَر وَاهْتِبَالِ الغرر » .

وقال البحترى(١) :

وَفَرَّ الْحَائِنُ الْمَغْرُورُ يَرْجُو ... أَمَانًا أىُّ سَاعَـةِ مَا أَمَانِ(٢)
يَهَابُ الإِلْتِفَاتَ وَقَدْ تَهَيَّا ... لِلَحْظَةِ طَرْفِهِ طَرَفُ السِّنَانِ(٣)

وكذلك ورد قول الآخر :

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها الهيثم الغنوى ، وأولها قوله :

رُوَيْدَكَ ؛ إنَّ شَأْنَكَ غَيْرُ شانِي ... وَقَصْرُكَ لَسْتُ طاعَةَ مَنْ نَهَانِي

(٢) فى ا ، ب، ج «الخائن» بالخاء المعجمة ، وصوابه «الحائن» بالحاء المهملة ، وهو كذلك فى الديوان ، والحائن : الذى قرب حينه ، وهو الموت .

(٣) قطع همزة الوصل فى « الالتفات » حين اضطر لاقامة الوزن .

قَدْ ذُبْتُ بَيْنَ حُشَاشَةٍ وذَمَاءِ مَا بَيْنَ حَرِّ هَوًى وَحَرِّ هَوَاءِ

القسم الثانى من المشبه بالتجنيس ، وهو أن تكون الألفاظ متساوية فى الوزن مختلفة فى التركيب بحرف واحد لاغير ، وإن زاد على ذلك خرج من باب التجنيس .

فمما جاء منه قوله تعالى : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) فإن هاتين اللفظتين على وزن واحد ؛ إلا أن تركيبهما مختلف فى حرف واحد ، وكذلك قوله تعالى : (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ) وكذلك قوله تعالى : (ذَٰلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ) .

وعلى نحو من هذا ورد قول النبى صلى الله عليه وسلم : « الْخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرُ » وقال بعضهم : لاَتُنَالُ الْمَكَارِمُ إلاَّ بِالْمَكَارِهِ .

وقال أبو تمام(١) :

يَمُدُّونَ مِنْ أَيْدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ تَصُولُ بِأَسْيَافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبِ(٢)

وقال البحترى(٣) :

مِنْ كُلِّ سَاجِي الطَّرْفِ أَغْيَدَ أَجْيَدٍ وَمُهَفْهَفِ الْكَشْحَيْنِ أَحْوَى أَحْوَرِ(٤)

---

(١) من قصيدته التى يمدح فيها أبا دلف العجلى ، والتى أولها :

عَلَى مِثْلِهَا مِنْ أَرْبُعٍ وَمَلاَعِبِ تُذَالُ مَصُونَاتُ الدُّمُوعِ السَّوَاكِبِ

وقد تقدم بيت منها قريبا (انظر ص ٢٤٨) .

(٢) فى ب ، ج « قواض قواضم » وهو تحريف ؛ فقد عرفت أن القصيدة بائية ، وانظر الديوان (ص ٤٣ بيروت) ، وقد ورد فى ا على الصواب .

(٣) هو ثانى بيت فى قصيدة له يمدح فيها المتوكل على الله ، ومطلعها قوله :

إِنَّ الظِّبَاءَ غَدَاةَ سَفْحِ مُحَجَّرٍ هَيَّجْنَ حَرَّ جَوًى وَفَرْطَ تَذَكُّرِ

(٤) فى ا ، ب ، ج «أغيد أحيد» بالحاء المهملة ، والصواب «أغيد أجيد» بالجيم.

وكذلك قوله(١) :

شَــوَاجِرُ أَرْمَاحٍ تُقَطِّعُ بَيْنَهُمْ ... شَــوَاجِنَ أَرْحامٍ مَلُومٍ قَطُوعُهَا

القسم الثالث من المشبه بالتجنيس ، وهو أن تكون الألفاظ مختلفة فى الوزن والتركيب بحرف واحد ، كقوله تعالى : (وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ) وقوله تعالى : (وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) وكذلك ورد قوله صلى الله عليه وسلم : « الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسانِهِ وَيَدِهِ » .

ودخل ثعلب صاحب كتاب الفصيح على أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ، ومجلسه غَاصٌّ ، فجلس إلى جانبه ، ثم أقبل عليه ، وقال : أخاف أن أكون ضَيَّقْتُ عليك ، عَلَى أنه لا يضيق مجلس بمتحابين ولا تسع الدنيا بأسرها متباغضين ؛ فقال له أحمد : الصَّدِيق لا يُحَاسَب والعَدُوُّ لا يحتسب له ، وهذا كلام حسن من كلا الرجلين ، والتجنيس فى كلام أحمد رحمه الله فى قوله : « يحاسب ويحتسب له » .

وقد جاءنى شىء من ذلك عليه خِفَّةُ الطبع ؛ لا ثقل التطبع .

فمنه ماذكرته فى فصل من كتاب إلى ديوان الخلافة يتضمن ذكر الجهاد

(١) من قصيدة له يمدح فيها التوكل على الله ، وأولها قوله :

مُنَى النَّفْسِ فى أَسْمَاءَ لَوْ تَسْتَطِيعُهَا ... بِهَا وَجْدُها مِنْ غَادَةٍ وَوَلُوعُهَا

وقبل البيت المستشهد به قوله :

وَفُرْسَانِ هَيْجَاءَ تَجِيشُ صُدُورُهَا ... بِأَحْقَادِها حَتَّى تَضِيقَ دُرُوعُهَا

تُقَتِّلُ مِنْ وِتْرٍ أَعَــزَّ نُفُوسِهَا ... عَلَيْهَا بِأَيْدٍ مَاتَــكَادُ تُطِيـــعُهَا

إِذَا احْتَرَبَتْ يَوْماً فَفَاضَتْ دِمَاؤُهَا ... تَذَكَّرَتِ الْقُرْبَى فَفَاضَتْ دُمُوعُهَا

فقلت: وخيل الله قد اشتاقت أن يقال لها اركبى، وسيوفه قد تَطَلَّعَتْ أن يقال لها اضربى ، ومواطن الجهاد قد بَعُدَ عهدها باستسقاء شآبيب النحور ، و إنبات ربيع الذباب والنسور ، وما ذاك إلا لأن العدو إذا طاب تقمص ثوب إذلاله ، وتَنَصَّل من صحة نصاله ، واعتصم بمَاقله التى لا فرق بينها و بين عِقَاله .

ومن ذلك ماذكرته فى وصف كريم ؛ فقلت : وقد جعل الله حرمه مَلْقَى الجِفان ، وَمُلْتَقى الأجفان ، فهو حِمًى لمن جَنَى عليه زَمَانُه ، وجَارٌ لمن بعد عنه جيرَانُه .

ومن ذلك ماذكرته فى فصل من كتاب إلى ديوان الخلافة ، وهو : ولقد استبان الخادم من بَرَكة طاعته ما يعمى عنه غيره فما يراه ، ووَجَد من أثره فى صلاح دنياه ماستدل به على صلاح أُخْرَاه ، فهو المركب المُنَجِّى ، والعمل المَرْجُوُّ لا المُرَجِّى ، والمعنى المراد بهداية الصراط المستقيم ، وتأويل قوله تعالى : (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

ومن ذلك ماذكرته فى أثناء كتاب إلى بعض الإخوان وذلك وصف بعض المنعمين ، فقلت : نحن من حُسْن شِيَمه وفَوَاضِل إحسانه بين هِنْد وهُنَيْدة ، ومن يُمْن نقيبته وأمانة غَيْبه بين أمِّ مَعْبَد وأبى عبيدة .

ومن ذلك ماذكرته فى مطلع كتاب إلى بعض الإخوان ، فقلت : الكُتُبُ وإن عَدَّهَا قوم عرضاً من الأعراض ، وتَقَالَوْهَا حتى قالوا هى سَواد فى بياض ؛ فإن لها عند الإخوان وَجْهاً وَسِيما ، ومحلا كريماً ، وهى تمائم القلوب إذا فارق حميمٌ حميا ، ومن أحسنها كتاب سيدنا . . . ثم مضيت على هذا النهج إلى آخر الكتاب .

ومن هذا القسم قول أبي تمام (١) :

أيَّامَ تُدْمِي عَيْنَهُ تِلْكَ الدُّمَا فِيها وَتقْمِرُ لُبَّهُ الأَقْمارُ

وكذلك قوله (٢) :

بيضٌ فهُنَّ إذا رُمِقْنَ سَوَافِراً صُوَرٌ وهُنَّ إذَا رُمِقْنَ صِوَارُ (٣)

وكذلك قوله (٤) :

بَدْرٌ أطالَتْ فيكَ بادِرَةَ النَّوَى وَلَعاً وَشمْسٌ أُولِعَتْ بِشِماس (٥)

وكذلك قوله (٦) :

---

(١) من قصيدة يمدح فيها أبا سعيد الثغرى ، وأولها قوله :

لاَ أَنْتَ أَنتَ وَلاَ الدِّيَارُ دِيَارُ خَفَّ الْهَوَى وَتَوَلَّتِ الأَوْطَارُ

(٢) هذا البيت والذى قبله من قصيدة واحدة وليس بينهما إلا بيت واحد ، وهو :

إذْ لاَصَدُوقَ وَلاَ كَنُودَ اسْمَاهُما كَالْمَعْنَيَيْنِ وَلاَ النَّوَارُ نَوَارُ

(٣) رمقن : أطيل النظر إليهنّ ، وسوافر : جمع سافرة ، وهى التى لم تستتر . والصوار : القطيع من بقر الوحش .

(٤) من قصيدة له يمدح فيها أحمد بن المعتصم ، وأولها قوله :

ما فى وُقُوفِكَ ساعَةً مِنْ بَاسِ تَقْضِى ذِمامَ الأَرْبُعِ الأَدْرَاسِ

(٥) قبل هذا البيت قوله :

إنَّ المَنازِلَ ساوَرَتْها فُرْقَةٌ أَخْلَتْ مِنَ الآرَامِ كُلَّ كِناسِ

مِنْ كُلِّ ضاحِكَةِ التَّرائِبِ أُرْهِفَتْ إرْهافَ خوطِ الْبانَةِ المَيَّاسِ

وفى الديوان « خطأ وشمس أولعت بشماس » . وبادرة النوى : أول ماخطر فى بالها من الهجران . والشماس : النفار وعدم الانقياد .

(٦) من قصيدة له يمدح فيها المعتصم ويذكر إحراق الأفشين ، وأولها قوله :

الْحَقُّ أَبْلَجُ وَالسُّيُوفُ عَوَارِ فَحَذَارِ مِنْ أُسْدِ الْعَرِينِ حَذَارِ

كَادُوا النُّبُوَّةَ وَالهُدَى فَتَقَطَّعَتْ أَعْنَاقُهُمْ فِى ذَلِكَ المِضْمَارِ
جَهِلُوا فَلَمْ يَسْتَكْثِرُوا مِنْ طَاعَةٍ مَعْرُوفَةٍ بِعِمَارَةِ الأَعْمَارِ

وكذلك قوله(١) :

إِنَّ الرِّمَاحَ إِذَا غُرِسْنَ بِمَشْهَدٍ فَجَنَى العَوَالِى فى ذُرَاهُ مَعَالِى

وكذلك قوله(٢) :

إِذَا أَحْسَنَ الأَقْوَامُ أَنْ يَتَطَاوَلُوا بِلاَ نِعْمَةٍ أَحْسَنْتَ أَنْ تَتَطَوَّلاَ(٣)

وكذلك قوله(٤) :

أَىُّ رَبْعٍ يُكَذِّبُ الدَّهْرُ عَنْهُ وَهْوَ مُلْقٍ عَلَى طَرِيقِ اللَّيَالِى
بَيْنَ حَالٍ جَنَتْ عَلَيْهِ وَحَوْلٍ فَهْوَ نِضْوُ الأَحْوَالِ وَالأَحْوَالِ
شَدَّ مَا اسْتَنْزَلَتْكَ عَنْ دَمْعِكَ الأَظْعَانُ حَتَّى اسْتَهَلَّ صَوْبُ العَزَالِى
أَىُّ حُسْنٍ فِى الذَّاهِبِينَ تَوَلَّى وَجَمَالٍ عَلَى ظُهُورِ الجِمَالِ
وَدَلاَلٍ مُخَيِّمٍ فِى ذُرَى الخَيْمِ وَحِجْلٍ مُقَصَّمٍ فِى الحِجَالِ

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها المعتصم ، ويذكر أخذ بابك ، وأولها قوله :

آلَتْ أُمُورُ الشِّرْكِ شَرَّ مَآلِ وَأَقَرَّ بَعْدَ تَخَمُّطٍ وَصِيَالِ

وآلت : رجعت ، والتخمط : التكبر ، والصيال : المصاولة ، وأراد التسلط والغلبة .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها محمد بن عبد الملك الزيات ، وأولها قوله :

لَهَانَ عَلَيْنَا أَنْ نَقُولَ وَتَفْعَلاَ وَنَذْكُرَ بَعْضَ الفَضْلِ مِنْكَ فَتُفْضِلاَ

(٣) فى الديوان (ص ٢٥٢) « بلا منة » . والتطاول : الاعتداد والامتنان ، والتطول : التفضل والإنعام .

(٤) فى الديوان قطعة فيها من هذه الأبيات الخمسة ثلاثة أبيات وهى الثالث والرابع والخامس ، وترتيبها فيه غير هذا الترتيب ، وهاك القطعة كلها برواية الديوان:

شَدَّ مَا اسْتَنْزَلَتْكَ مِنْ رَبْعِكَ الأَظْعَانُ حَتَّى اسْتَهَلَّ دَمْعُ الغَزَالِ

فالبيت الثانى والخامس هما المقصودان بالتمثيل ههنا ، والأبيات الباقية جاءت تبعاً .

ومما جاء من ذلك قول على بن جَبَلَةَ :

وَكَمْ لَكَ مِنْ يَوْمٍ رَفَعْتَ بِناءَهُ بِذَاتِ جُفُونٍ أوْ بِذَاتِ جِفانِ

وكذلك قول محمد بن وهيب الحميرى :

قَسَمْتَ صُرُوفَ الدَّهْرِ بأْسًا وَنَائِلاً فَمَالُكَ مَوْتُورٌ وَسَيْفُكَ وَاتِرُ

وهذا من المليح النادر .

ومن هذا القسم قول البحترى[1] :

جَدِيرٌ بِأَنْ تَنْشَقَّ عَنْ ضَوْءِ وَجْهِهِ ضَبَابَةُ نَقْعٍ تَحْتَهَا المَوْتُ نَاقِعُ

وكذلك قوله[2] :

نَسِيمُ الرَّوْضِ فى رِيحٍ شَمَالٍ وَصَوْبُ المُزْنِ فى رَاحٍ شَمُولِ

أىُّ حُسْنٍ فِى الذَّاهِبِينَ تَوَلَّى وَجَمَالٍ عَلَى ظُهُـــورِ الجِمَالِ

وَدَلَالٍ مُخَـــيِّمٍ فِى ذُرَى الخيـــمِ وَحِجْلٍ مُعَـــذَّبٍ فِى الحِجَالِ

وَمَهاً مِنْ مَهَا الخُـــدُورِ وَآجَا لِ ظِبَاءٍ يُسْرِعْنَ فِى الآجَالِ

عَادَكَ الزَّوْرُ لَيْلَةَ الرَّمْلِ من رَمْـــلَةَ بَيْنَ الحِمَى وَبَـيْنَ الطَالِ

نَمْ فَمَا زَارَكَ الخَيَالُ وَلٰكِنَّـــكَ بِالفِكْرِ زُرْتَ طَيْفَ الخَيَالِ

(١) من قصيدة له فى مدح الفتح بن خاقان أولها قوله :

أَلَمَّتْ وَهَلْ إِلْمَامُهَا لَكَ نَافِـعُ وَزَارَتْ خَيَالاً وَالعُيُونُ هَوَاجِـعُ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها المتوكل ، وأولها :

أَ كُنْتَ مُعَنِّفِى يَوْمَ الرَّحِيـــلِ وَقَـدْ لَجَّتْ دُمُوعِى فِى الهُمُولِ

وقبل البيت المستشهد به قوله :

وَذِكْرَنِيكِ وَالذِّكْرَى عَنـاءٌ مَشَابِهُ فِيكِ بَيِّنَةُ الشُّكُولِ

وذم أعرابى رجلا فقال : كان إذا سأل أَلْحَفَ ، وإذا سُئل سَوَّف ، يَحْسُدُ على الفضل ، ويَزْهَدُ فى الإفضال .

القسم الرابع من المشبه بالتجنيس ، ويسمى المعكوس ، وذلك ضربان : أحدهما : عكس الألفاظ ، والآخر عكس الحروف .

فالأول كقول بعضهم : عادَاتُ السَّادَاتِ ساداتُ الْعادَاتِ ؛ وكقول الآخر : شِيَمُ الْأَحْرَارِ أحْرَارُ الشيم .

ومن هذا النوع مما ورد شعراً قول الأضبط بن قُرَيْع من شعراء الجاهلية(١) :

قَدْ يَجْمَعُ الْمَالَ غَيْرُ آكِلِهِ وَيَأْكُلُ الْمَالَ غَيْرُ مَنْ جَمَعَهْ
وَيَقْطَعُ الثَّوْبَ غَيْرُ لاَبِسِهِ وَيَلْبَسُ الثَّوْبَ غَيْرُ مَنْ قطعَهْ

وكذلك ورد قول أبى الطيب المتنبى(٢) :

فَلاَ مَجْدَ فِى الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ وَلاَ مَالَ فى الدُّنْيا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ

وكذلك قول الشريف الرضى من أبيات يذم فيها الزمان :

أَسَفَّ بِمَنْ يَطِيرُ إِلَى المَعَالِى وَطَارَ بِمَنْ يُسِفُّ إِلَى الدَّنَايَا

وكذلك قول الآخر :

إِنَّ اللَّيَالِيَ لِلْأَنَامِ مَنَاهِلٌ تُطْوَى وَتُنْشَرُ بَيْنَهَا الْأَعْمَارُ
فَقِصَارُهُنَّ مِنَ الْهُمُومِ طَوِيلَةٌ وَطِوَالُهُنَّ مِنَ السُّرُورِ قِصَارُ

---

(١) من كلمة له أولها :

لِكُلِّ هَمٍّ مِنَ الْهُمُومِ سَعَهْ وَالصُّبْحُ وَالْمُسْىُ لاَ فَلاَحَ مَعَهْ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها كافورا ، وأولها قوله :

أَوَدُّ مِنَ الْأَيَّامِ مَالاَ تَوَدُّهُ وَأَشْكُو إِلَيْهَا بَيْنَنَا وَهْيَ جُنْدُهُ

وأحسن من هذا كله وألطف قول ابن الزقاق الأندلسى :

غَيَّرَتْنَا يَدُ الزَّما نِ فَقَدْ شِبْتُ وَالْتَحَى
فَاسْتَحَالَ الضُّحَى دُجًا وَاسْتَحَالَ الدُّجَا ضُحَى

وهذا الضرب من التجنيس له حلاوة ، وعليه رَوْنَق ، وقد سماه قُدَامة ابن جعفر الكاتب التَّبْديل ، وذلك اسم مناسب لمسماه ؛ لأن مُؤلِّف الكلام يأتى بما كان مقدَّمًا فى جزء كلامه الأول مؤخَّراً فى الثانى ، وبما كان مؤخراً فى الأول مقدَّمًا فى الثانى ، ومثله قدامة بقول بعضهم : اشْكُرْ لمن أنْعَمْ عليك وأنْعِمْ على من شكرك .

ومن هذا القسم قوله تعالى : (يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ) وكذلك ورد قول النبى صلى الله عليه وسلم : « جَارُ الدَّارِ أحَقُّ بدَارِ الجارِ » .

وكتب على بن أبى طالب رضى الله عنه إلى عبد الله بن عباس رضى الله عنه كتابًا ؛ فقال : أما بعد فإن الإنسان يَسُرُّه دَرَكُ مالم يكن لِيفُوتَه ، ويسوءه فَوْتُ مالم يكن ليدركه ؛ فلا تكن بما نِلْتَ من دُنْياك فَرِحًا ، ولا بما فاتك منها تَرِحًا ، ولا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ، ويؤخر التوبة بطول أمل ، وكأنْ قَدِ ؛ والسلام .

وروى عن أبى تمام أنه لما قصد عبد الله بن طاهر بن الحسين بخُرَاسان وامتدحه بقصيدته المشهورة التى مطلعها :

* أهُنَّ عَوَادِى يُوسُفٍ وَصَوَاحِبُهُ *

أنكر عليه أبو سَعيد الضَّرِيرُ وأبو الْعَمَيْثَل هذا الابتداء ، وقالا : لم لايقول ما يفهم ؟ فقال : لم لا يفهمان ما يقال ؟ فاستحسن منه هذا الجواب على الْفَوْر ، وهو من التجنيس المشار إليه .

وقد جاءنى شىء منه ، كقولى فى فصل من كتاب يتضمن فتحاً ، وهو : فكم كان فى افتراع عُذْرَة الحِصْنِ من افتراع عذرة حَصَان ، وكم حِيزَ به من سِنَان لَحْظٍ اسْتَرَقَّهُ لَحْظُ سنان .

وكذلك قولى فى صدر كتاب إلى ديوان الخلافة ، وهو : الخادم يبلغ خدمته إلى ذلك الجناب التى تمطره الشفاه قُبَلاً ، وتوسعه الْعُفَاةُ أَمَلاً ، وترى الخَوَلَ به ملوكاً والملوكَ خَوَلا ، وطاعته هى مِحَكُّ الأعمال التى أشير إليها بقوله تعالى : (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) .

وكذلك ورد قولى أيضاً ، وهو فصل من تقليد وزير ، فقلت : وقد صَدَّق الله لَهْجَةَ المثْنِي عليك أن يقول : إنك الرجل الذى تضرب به الأمثال ، والمهذب الذى لايقال معه : أىُّ الرجال ، و إذا وازرت مملكة فقد حظيت منك بشد أزرها ، وسد ثغرها ، وأصبَحَتْ وأنت صدر لِقَلْبِهَا وقلب لصدرها ، فهى مُزْدَانة منك بالفضل المتين ، مُعَانة بالقَوِىِّ الأمين .

وأما الضرب الثانى من هذا القسم ، وهو عكس الحروف ، فهو كقول بعضهم :

أَهْدَيْتُ شَيْئًا يَقِلُّ لَوْلاَ أُحْدُوثَةُ الْفَالِ وَالتَّبَرُّكْ
كُرْسِى تَفَاءَلْتُ فِيهِ لَمَّا رَأَيْتُ مَقْلُوبَه يَسُرُّكْ

وكذلك قول الآخر :

كَيْفَ السُّرُورُ بِإِقْبَالٍ وَآخِرُهُ إِذَا تَأَمَّلْتَهُ مَقْلوبُ إِقْبَالِ[1]

وأجود من هذا كله قول الآخر :

جَاذَبْتُهَا وَالرِّيحُ تَجْذِبُ عَقْرَبًا مِنْ فَوْقِ خَدٍّ مِثْلَ قَلْبِ الْعَقْرَبِ
وَطَفِقْتُ أَلْثِمُ ثَغْرَهَا فَتَمنَّعَتْ وَتَحَجَّبَتْ عَنِّى بِقَلْبِ الْعَقْرَبِ

• إذا قلب لفظ عقرب صار بُرْقُعا

(١) مقلوب الإقبال هو قولك «لاَبَقاء»

وهذا الضرب نادر الاستعمال(١) ؛ لأنه قَلَّ ما يقع كلمة تقلب حروفها فيجيء معناها صوابًا .

القسم الخامس من المشبه بالتجنيس ، ويسمى المُجَنَّب ، وذاك أن يجمع مؤلف الكلام بين كلمتين إحداهما كالتبع للأخرى والجنيبة لها ، كقول بعضهم :

أَبَا الْعَبَّاسِ لاَ تَحْسَبْ بِأَنِّى لِشَىْءٍ مِنْ حُلَى الْأَشْعارِ عارِى

فَلِى طَبْعٌ كَسَلْسَالٍ مَعِينٍ زُلاَلٍ مِنْ ذُرَا الْأَحْجَارِ جَارِى

وهــذا القسم عندى فيه نظر ؛ لأنه بلزوم مالا يلزم أولى منه بالتجنيس ، ألا ترى أن التجنيس هو اتِّفاقُ اللفظ واختلاف المعنى ، وههنا لم يتفق إلا جزء من اللفظ ، وهو أقله ، وأما اللزوم فى الكلام المنثور فهو تَسَاوِى الحروف التى قبل الفواصل المسجوعة ، وهذا هو كذلك ؛ لأن العين والراء تساويَا فى البيت الأول فى قوله الأشعار وعار والجيم والراء فى البيت الثانى فى قوله الأحجار وجار .

القسم السادس من المشبه بالتجنيس ، وهو ما يساوى وزنه تركيبه غير أن حُروفه تتقدم وتتأخر ، ، وذلك كقول أبى تمام(٢) :

بيضُ الصَّفَائحِ لاَسُودُ الصَّحَائِفِ فِى مُتُونِهِنَّ جِلاَءُ الشَّكِّ وَالرِّيَبِ

فالصفائح والصحائف مما تقدمت حروفه وتأخرت ،

وقد ورد فى الكلام المنثور ، كقوله صلى الله عليه وسلم فى فضيلة تلاوة القرآن الكريم : « يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ : اقْرَأْ وَارْقَ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِى الدُّنْيَا فإنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ » فقوله صلى الله عليه وسلم « اقرأ وارق » من التجنيس المشار إليه فى هذا القسم .

---

(١) للمرحوم الشيخ الحلوانى الخليجى رساله جمع فيها الشىء الكثير من هذا النوع

(٢) من قصيدته التى يمدح فيها المعتصم ويهنئه بفتح عمورية ، وقد سبق ذكرها مرارا .

النوع الثالث في الترصيع

وهو مأخوذ من ترصيع العقد ، وذاك أن يكون فى أحد جانبي العقد من اللآلىء مثل ما فى الجانب الآخر ، وكذلك نجعل هذا فى الألفاظ المنثورة من الأسجاع ، وهو أن تكون كل لفظة من ألفاظ الفصل الأول مساويةً لكل لفظة من ألفاظ الفصل الثانى فى الوزن والقافية ، وهذا لا يوجد فى كتاب الله تعالى ؛ لما هو عليه من زيادة التكلف ؛ فأما قول من ذهب إلى أن فى كتاب الله منه شيئاً ومثله بقوله تعالى : (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) فليس الأمر كما وقع له ؛ فإن لفظة (لفى) قد وردت فى الفقرتين معاً ، وهذا يخالف شرط الترصيع الذى شرطناه ، لكنه قريب منه ، وأما الشعر فإنى كنت أقول : إنه لا يَتَّزِن على هذه الشريطة ، ولم أجده فى أشعار العرب ؛ لما فيه من تَعَمُّق الصنعة وتعسف الكلفة ، وإذا جيء به فى الشعر لم يكن عليه مَحْضُ الطلاوة التى تكون إذا جيء به فى الكلام المنثور ، ثم إنى عثرت عليه فى شعر المحدثين ، ولكنه قليل جداً ؛ فمن ذلك قول بعضهم :

فَمَكَارِمٌ أَوْلَيْتَهَا مُتَبَرِّعاً وَجَرَائِمٌ أَلْغَيْتَهَا مُتَوَرِّعا(١)

فمكارم بإزاء جرائم ، وأوليتها بإزاء ألغيتها ، ومتبرعاً بإزاء متورعاً .

وقد أجاز بعضهم أن يكون أحد ألفاظ الفصل الأول مخالفاً لما يقابله من الفصل الثانى ، وهذا ليس بشىء ؛ لمخالفته حقيقة الترصيع .

فمما جاء من هذا النوع منثوراً قول الحريرى فى مقاماته : « فَهُوَ يَطْبَعُ الْأَسْجَاعَ بِجَوَاهِرِ لَفْظِهِ ، وَيَقْرَعُ الْأَسْمَاعَ بِزَوَاجِرِ وَعْظِهِ » ؛ فإنه جعل ألفاظ الفصل الأول مساوية لألفاظ الفصل الثانى وَزْناً وقافية ؛ فجعل يَطْبع بإزاء يَقرع ،

(١) « ألغيتها » بالغين المعجمة فى ا ، وفى ب ، ج « ألفيتها » بالفاء وهو تحريف ، وفى د « ألقيتها » بالقاف ، ولها وجه .

والأسجاع بإزاء الأسماع ، وجواهر بإزاء زواجر ، ولفظه بإزاء وعظه .

ومما جاءني من هذا النوع ماذكرته في جواب كتاب إلى بعض الإخوان ، وهو : قد أعدت الجواب ولم أَسْتَعِرْ له نظماً مُلَفَّقا ، ولا جلبت إليه حُسْناً مُنَمَّقاً، بل أخرجته على رسله ، وغنيت بصِقَال حسنه عن صَقْله ، فجاء كما تراه غير ممشوط ولا مخطوط ، فهو يَرفُلُ في أثواب بِذْلَتِهِ ، وقد حَوَى الجمال بجُمْلَته ، والحسن ماوَشَّته فِطْرة التصوير ، لا ماحشته فكرة التزوير .

والترصيع في قولي : «وَشَّته فطرة التصوير» و « حَشَّته فكرة التزوير » .

وكذلك ورد قولي في فصل من الكلام يتضمن تثقيف الأولاد ؛ فقلت : مَنْ قَوَّمَ أَوَدَ أولاده ، ضَرَّمَ كَمَدَ حُسَّاده ؛ فهذه الألفاظ متكافئة في ترصيعها ، فقوّم بإزاء ضَرّم ، وأودَ بإزاء كَمَد ، وأولاده بإزاء حساده .

وكذلك قول بعضهم في الأمثال المولدة التي لم ترد عن العرب ، وهو : مَنْ أطَاعَ غَضَبَه أضَاعَ أدَبه ؛ فأطاع بإزاء أضاع ، وغضبه بإذاء أدبه .

وقد ورد هذا الضرب كثيراً في الخطب التي أنشأها الشيخ الخطيب عبد الرحيم بن نُباتة رحمه الله :

فمن ذلك قوله في أول خطبة : الحمدُ لله عاقدِ أزِمَّة الأمور بعزائم أمره ، وحاصدِ أئمة الغرُور بقَوَاصِمِ مَكْره ، ومُوَفِّق عبيده لمغانم ذكره ، ومُحَقِّق مواعيده بلوازم شكره ؛ فالألفاظ التي جاءت في الفصلين الأولين متساوية وزناً وقافية ، والتي جاءت في الفصلين الآخرين فيها تخالف في الوزن ؛ فإن مواعيد تخالف وزن عبيد ، ولا تخالف قافيتها التي هي الدال .

ومن ذلك قوله أيضاً في جملة خطبة : أُولئِكَ الذين أَفَلُوا فَنَجَمْتُمْ ، ورَحَلُوا فأقمتم ، وأَبَادَهُمُ الموت كما علمتم ، وأنتم الطامعون في البقاء بعدهم كما زعمتم ، كلا ! والله ماأُشْخِصُوا لتقروا ، ولا نُغِّصُوا لتُسَرُّوا ، ولا بد أن تمروا حيث مروا ، فلا

تَثِقُوا بِخُدَعِ الدنيا ولا تغتروا ؛ وهذا الكلام فيه أيضاً مافى الذى قبله من صحة الوزن والقافية وصحة القافية دون الوزن .

وكذلك قوله أيضاً فى خطبة أخرى : أيها الناس ، أسِيمُوا القُلُوبَ فى رياض الحِكَمَ ، وأَدِيمُوا النَّحِيبَ على ابيضاض اللِّمَم ، وأطيلوا الاعتبار بانتقاص النعم ، وأجيلوا الأفكار فى انقراض الأمم .

وأما ماورد فى الشعر على مخالفة بعض الألفاظ بعضاً فكقول ذى الرمة[(١)] :

كَحْلاءُ فى بَرَجٍ صَفْراءُ فى دَعَجٍ كَأَنَّهَا فِضَّةٌ قَدْ مَسَّها ذَهَبُ[(٢)]

وصدر هذا البيت مرصع ، وعجزه خال من الترصيع ؛ وعذر الشاعر فى ذلك واضح ؛ لأنه مقيد بالوقوف مع الوزن والقافية ، ألا ترى أن ذا الرمة بنى قصيدته على حرف الباء ، ولو رصع هذا البيت الترصيع الحقيقى لكان يلزمه أن يأتى بألفاظه على حرفين أحدهما الباء ، أو كان يقسم البيت نصفين ويماثل بين ألفاظ هذا النصف وهذا النصف ، وذلك مما يعسر وقوعه فى الشعر .

وأرباب هذه الصناعات قد قسموا الترصيع إلى هذين القسمين المذكورين ، وهذه القسمة لا أراها صوابا ؛ لأن حقيقة الترصيع موجودة فى القسم الأول دون الثانى .

ومما جاء من هذا القسم الثانى قول الخنساء[(٣)] :

---

(١) من قصيدة له مطلعها قوله :

مَابَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الْمَاءُ يَنْسَكِبُ كَأَنَّهُ مِنْ كُلَى مَفْرِيَّةٍ سَرِبُ

(٢) رواية الديوان :

كَحْلاءُ فِي دَعَجٍ صَفْراءُ فِي نَعَجٍ كَأَنَّهَا فِضَّةٌ قَـدْ مَسَّهَا ذَهَبُ

(٣) من قصيدتها التى ترثى فيها أخاها صخرا ، والتى أولها قولها:

قَذًى بِعَيْنِكِ أَمْ بِالْعَيْنِ عُوَّارُ أَمْ أَقْفَرَتْ إِذْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا الدَّارُ

حَامِي الحَقِيقَةِ مَحْمُودُ الْخَلِيقَةِ مَهْ دِيُّ الطَّرِيقَةِ نَفَّاعٌ وَضَرَّارُ

وكذلك قول الآخر(١) .

سُودٌ ذَوَائِبُهَا بِيضٌ تَرَائِبُهَا مَحْضٌ ضَرَائِبُهَا صِيغَتْ مِنَ الْكَرَمِ

النوع الرابع فى لزوم مالا يلزم

وهو من أشقِّ هذه الصناعة مذهباً ، وأبْعَدِها مسلكا ، وذاك لأن مؤلفه يلتزم ما لا يلزمه ، فإن اللازم فى هذا الموضع وما جرى مجراه إنما هو السجع الذى هو تساوى أجزاء الفواصل من الكلام المنثور فى قوافيها ، وهذا فيه زيادة على ذلك ، وهو أن تكون الحروف التى قبل الفاصلة حرفاً واحداً ، وهو فى الشعر أن تتساوى الحروف التى قبل روى الأبيات الشعرية .

وقد جمع أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان فى ذلك كتابا ، وسماه كتاب اللزوم ، فأتى فيه بالجيد الذى يحمد ، والردىء الذى يذم ؛

وسأذكر فى كتابى هذا فى هذا الموضع أمثلة من المنثور والمنظوم يهتدى بها .

فمن ذلك ما ذكرته فى جملة كتاب فى فصل يتضمن ذم جبان ، فقلت : إذَا نَزَلَ به خَطْب مَلَكه الْفَرَق ، وإذا ضلَّ فى أمْرٍ لم يُؤْمِن إلا إذا أدركه الْغَرَق .

ومن ذلك ما ذكرته فى مبدأ كتاب إلى بعض الإخوان ، فقلت : الخادم

و بعد البيت الذى ذكره المؤلف قولها :

جَوَّابُ قَاصِيَةٍ جَزَّازُ نَاصِيَةٍ عَقَّادُ أَلْوِيَةٍ لِلْخَيْلِ جَرَّارُ

حُلْوٌ حَلَاوَتُهُ فَصْلٌ مَقَالَتُهُ فَاشٍ حِمَالَتُهُ لِلْعَظْمِ جَبَّارُ

وهما من شواهد المسألة .

(١) البيت لأبى صخر الهذلى .

يُهْدى من دعائه وثنائه ما يسلك أحدهما سماء والآخر أرضاً ، ويَصُون أحدهما نفساً والآخر عِرْضاً ، وأعجبُ ما فيهما أنهما تَوْأمَان ، غير أن هذا مُسْتَنْتَج من ضمير القلب وهذا من نُطْقِ اللسان ؛ فاللزوم ههنا فى الراء والضاد .

وكذلك ورد قولى فى جملة كتاب إلى ديوان الخلافة ، فقلت : وقد علم من شيم الديوان العزيز أنه يُسَرُّ بامتداد الأيْدِى إلى بابه ، وإذا أغبّ أحدها فى المسألة نهاه عن إغْبَابه ، حتى لايخلو حَرَمُه الكريم من المَطاف ، ولا يَدُه الكريمة من الإسعاف ؛ فاللزوم ههنا فى لفظتى « بابه » و « إغبابه » .

ومن ذلك ما كتبته فى جملة كتاب إلى ديوان الخلافة أيضاً ، وهو : وَمَهْما شُدَّ به عضد الخادم من الإنعام فإنه قوة لليد التى خوَّلَتْه ، ولا يقوى تَصَعُّد السحب إلا بكثرة غَيْثها الذى أنْزَلَتْه ، وغير خاف أن عبيد الدولة لها كالعُمُد من طِرَافِهَا ، ومركز الدائرة من أطرافها ، ولا يؤيَّدُ السيف إلا بقائمه ، ولا ينهض الجناح إلا بقوادمه ؛ فاللزوم فى هذا الموضع فى الراء والفاء فى قولى « طراف » و « أطراف » .

ومن ذلك ما كتبته فى صدر كتاب إلى الملك الأفضل على بن يوسف أهنئه بملك مصر فى سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، فقلت : المملوك يهنئ مولانا بنعمة الله المؤذنة باستخلاصه واجتبائه ، وتمكينه حتى بلغ أشُدَّه واسْتَخْرَج كنز آبائه ، ولو أنصف لَهَنَّأ الأرض منه بوابلها ، والأمة بكافلها ، وخصوصاً أرض مصر التى خصت بشرف سُكْناه ، وغدت بين بحرين من فيض البحر وفيض يمناه .

وكل هذه الفصول المذكورة من هذه المكتوبات التى أنشأتها لا كلفة على كلمات اللزوم فيها .

وقرأت فى كتاب الأغانى لأبى الفرج : أن لَقيط بن زُرَارة تزوج بنت قَيْس ابن خالد بن ذى الجدين ، فحظيت عنده وحظى عندها ، ثم قتل فآمَتْ بعده

وتزوجت زوجاً غيره ، فكانت كثيراً ماتذكر لقيطا ، فلامها على ذلك ؛ فقالت : إنه خَرَج فى يوم دَجْن وقد تَطَيَّب وشرب ، فطرد البقر فصرع منها . ثم أتانى وبه نضح دم ، فضمَّنى ضمةً ، وشمَّنِى شمَّة ، فليتنى مِتُّ ثَمَّة ، فلم أر مَنْظَراً كان أحسن من لقيط ، فقولها «ضمنى ضمة ، وشمنى شمة ، فليتنى مت ثمة» من الكلام الحلو فى باب اللزوم ، ولا كلفة عليه .

وهكذا فليكن ؛ فإن الكلفة وحشة تذهب برَوْنَق الصنعة ، وما ينبغى لمؤلف الكلام أن يستعمل هذا النوع حتى يجىء به متكلفاً ؛ ومثاله فى هذا المقام كمن أخذ موضوعاً رديئاً فأجاد فيه صنعته ؛ فإنه يكون عند ذلك قد راعى الفرع وأهمل الأصل ، فأضاع جودة الصنعة فى رداءة الموضوع .

وقد سلك ذلك أبو العلاء المعرى أحمد بن عبد الله بن سليمان ؛ فما جاء من ذلك قوله فى حرف التاء مع الخاء :

بِنْتُ عَنِ ٱلدُّنْيَا وَلاَ بِنْتَ لِى ... فِيهَا وَلاَ عِرْسَ وَلاَ أُخْتُ
وَقَدْ تَحَمَّلْتُ مِنَ ٱلْوِزْرِ مَا ... تَعْجِزُ أَنْ تَحْمِلَهُ الْبُخْتُ
إِنْ مَدَحُونِى سَاءَنِى مَدْحُهُمْ ... وَخِلْتُ أَنِّى فِى الثَّرَى سِخْتُ

وله من ذلك الجيد ، كقوله :

لاَ تَطْلُبَنَّ بِآلَةٍ لَكَ حَاجَةً ... قَلَمُ الْبَلِيغِ بِغَيْرِ جَدٍّ مِغْزَلُ
سَكَنَ السِّمَاكَانِ السَّمَاءَ كِلاَهُمَا ... هٰذَا لَهُ رُمْحٌ وَهٰذَا أَعْزَلُ

وهذا بين الاسترسال و بين الكلفة .

وأما ماتكلف له تكلفاً ظاهراً و إن أجاد فقوله :

تُنَازِعُ فى ٱلدُّنْيا سِوَاكَ وَمَا لَهُ ... وَلاَ لَكَ شَىْءٌ فى ٱلْحَقِيقَةِ فِيهَا[1]

---

(١) فى اللزوميات « ولا لك شىء بالحقيقة » .

وَلـٰكِنَّها مِلْكٌ لِرَبٍّ مُقَدِّرٍ ... يُعِيرُ جنوبَ الْأَرْضِ مُرْتَدِفِيهَا
وَلَمْ تَحْظَ مِنْ ذَاكَ النِّزَاعِ بِطَائِلٍ ... مِنَ الْأَمْرِ إِلَّا أَنْ تُعَدَّ سَفِيهَا(١)
فَيَا نَفْسُ لَا تَعْظُمْ عَلَيْكِ خُطُوبُهَا ... فَمُتَّفِقُوهَا مِثْلُ مُخْتَلِفِيهَا(٢)
تَدَاعَوْا إِلَى النَّزْرِ الْقَلِيلِ فَجَالَدُوا ... عَلَيْهِ وَخَلَّوْهَا لِمُغْتَرِفِيهَا
وَمَا أُمُّ صِلٍّ أَوْ حَلِيلَةُ ضَيْغَمٍ ... بِأَظْلَمَ مِنْ دُنْيَاكِ فَاعْتَرِفِيهَا
تُلَاقِي الْوُفُودَ الْقَادِمِيهَا بِفَرْحَةٍ ... وَتَبْكِي عَلَى آثَارِ مُنْصَرِفِيهَا(٣)
وَمَا هِيَ إِلَّا شَوْكَةٌ لَيْسَ عِنْدَهَا ... وَجَدِّكَ إِرْطَابٌ لِمُخْتَرِفِيهَا(٤)
كَمَا نَبَذَتْ لِلطَّيْرِ وَالْوَحْشِ رَازِمٌ ... فَأَلْقَتْ شُرُوراً بَيْنَ مُخْتَطِفِيهَا
تَنَاءَتْ عَنِ الْإِنْصَافِ مِنْ ضَيمٍ لَمْ يَجِدْ ... سَبِيلاً إِلَى غَايَاتِ مُنْتَصِفِيهَا(٥)
فَأَطْبِقْ فَمًا عَنْهَا وَكَفًّا وَمُقْلَةً ... وَقُلْ لِغَوِيِّ النَّاسِ فَاكَ لِفِيهَا(٦)

---

(١) فى اللزوميات «ولم تحظ فى ذاك النزاع» .

(٢) سقط بيت بين هذا البيت والذى بعده ، وهو فى اللزوميات :

وَصَفْتِ لِقَوْمٍ رَحْمَةً أَزَلِيَّةً ... وَلَمْ تُدْرِكِي بِالْقَوْلِ أَنْ تَصِفِيهَا

(٣) فى ب «على آثارها» وهو خطأ ، والذى أثبتناه عن ا ، ج واللزوميات و بين هذا البيت والذى بعده بيتان ، وهما عن اللزوميات :

وَلَمْ يَتَوَازَنْ فِى الْقِيَاسِ نَعِيمُهَا ... وَسَيِّئَةٌ أَوْدَتْ بِمُقْتَرِفِيهَا
وَأَرْزَاقُهَا تَغْشَى أُنَاساً بِفَتْرَةٍ ... وَتَقْصُرُ حِيناً دُونَ مُحْتَرِفِيهَا

(٤) فى اللزوميات «وما هى إلا شاكة» ، و بين هذا البيت والذى بعده بيت وهو:

فَقَالَتْ عَلَى الْخَضْرَاءِ شُرْبُ كُمَيْتِهَا ... وَغَالَتْ عَلَى الْغَبْرَاءِ مُعْتَسِفِيهَا

(٥) فى ب ، ج «يبات عن الإنصاف» وما أثبتناه عن اللزوميات و يحتمله ما فى ا .

(٦) فى ج «فأطبقوا فما عنها» وهو تحريف وما أثبتناه عن ا ، ب واللزوميات.

ومن ذلك(١) :

أَرَى الدُّنْيا وَما وُصِفَتْ بِبِرٍّ ... إِذَا أَغْنَتْ فَقِيرًا أَرْهَقَتْهُ(٢)

إِذَا خُشِيَتْ لِشَرٍّ عَجَّلَتْهُ ... وَإِنْ رُجِيَتْ لِخَيْرٍ عَوَّقَتْهُ(٣)

حَيَاةٌ كَالْحِبَالَةِ ذَاتُ مَكْرٍ ... وَنَفْسُ الْمَرْءِ صَيْدٌ أَعْلَقَتْهُ

فَلَا يَخْدَعْ بِحِيلَتِهَا أَرِيبٌ ... وَإِنْ هِيَ سَوَّرَتْهُ وَنَطَّقَتْهُ(٤)

أَذَاقَتْهُ شَهِيًّا مِنْ جَنَاهَا ... وَصَدَّتْ فَاهُ عَمَّا ذَوَّقَتْهُ

وقد ورد للعرب شيء من ذلك إلا أنه قليل ؛ فمما جاء منه قول بعضهم فى أبيات الحماسة(٥) :

إِنَّ الَّتِي زَعَمَتْ فُؤَادَكَ مَلَّهَا ... خُلِقَتْ هَوَاكَ كَمَا خُلِقْتَ هَوًى لَهَا

بَيْضَاءُ بَاكَرَهَا النَّعِيمُ فَصَاغَهَا ... بِلَبَاقَـــــةٍ فَأَدَقَّهَا وَأَجَلَّهَا

حَجَبَتْ تَحِيَّتَهَا فَقُلْتُ لِصَاحِبِي ... ما كَانَ أَكْثَرَهَا لَنَا وَأَقَلَّهَا

وَإِذَا وَجَدْتُ لَهَا وَسَاوِسَ سَلْوَةٍ ... شَفَعَ الضَّمِيرُ إِلَى الفُؤَادِ فَسَلَّهَا

وهذا من اللطافة على مايشهد لنفسه .

ومما يجرى هذا المجرى قول حُجْر بن حَيَّة العَبْسى من شعر الحماسة أيضاً(٦) .

وَلَا أُدَوِّمُ قِدْرِي بَعْدَمَا نَضِجَتْ ... بُخْلًا فَتَمْنَعَ مَا فِيهَا أَثَافِيهَا(٧)

---

(١) هذه الأبيات فىاللزوميات غيرمتصلة كما هنا فانظر (ج ٢ ص ٣٣٨ مصر).

(٢) فى اللزوميات « متى أغنت فقيرا » .

(٣) عوقته : أخرته .

(٤) سورته : ألبسته السوار ، ونطقته : ألبسته المنطقة أو النطاق .

(٥) الأبيات لعروة بن أذينة ، وقد سبق ذكرها فى هذا الكتاب (انظر الجزء الأول ص ١٧٤) .

(٦) انظر شرح التبريزى (٤ — ٢٠٠) .

(٧) فى الحماسة « بخلا لتمنع » .

حَتَّى تُقَسَّمَ شَتَّى بَيْنَ مَا وَسِعَتْ ... وَلاَ يُؤَنَّبُ تَحْتَ اللَّيْلِ عَافِيها

ومما ورد من ذلك أيضاً قول طَرَفَةَ بن العَبْدِ البَكْرِى[1] :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ المَالَ يَكْسِبُ أَهْلَهُ ... فُضُوحًا إِذَا لَمْ يُعْطَ مِنْهُ نَوَاسِبُهْ

أَرَى كُلَّ مَالٍ لا مَحَالَةَ ذَاهِبًا ... وَأَفْضَلُهُ مَا وُرِّثَ الحَمْدَ كَاسِبُهْ

وكذلك قول الفرزدق[2] .

وَغَيَّرَ لَوْنَ رَاحِلَتِى وَلَوْنِى ... تَرَدِّىَّ الهَوَاجِرَ وَاعْتِيَامِى[3]

أَقُولُ لَهَا إِذَا ضَجِرَتْ وَعَضَّتْ ... بِمَوْرِكَةِ الوِرَاكِ مَعَ الزِّمَامِ[4]

عَلاَمَ تَلَفَّتِينَ وَأَنْتِ تَحْتِى ... وَخَيْرُ النَّاسِ كُلِّهِمِ أَمَامِى[5]

وكذلك قوله أيضاً[6] :

---

(١) لم أجد هذين البيتين فى ديوان طرفة بن العبد، ولا عثرت على نسبتهما إليه فى مرجع آخر، وقد وجدت أبياتا نحلت طرفة على هذا الروى وأولها :

فَكَيْفَ يُرَجِّى الْمَرْءُ دَهْراً مُخَلَّداً ... وَأَعْمَالُهُ عَمَّا قَلِيلٍ تُحَاسِبُهْ

انظر (شعراء النصرانية ص ٣١٧) .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها هشام بن عبد الملك بن مروان ؛ وأولها قوله :

أَلَسْتُمْ عَائِجِينَ بِنَا لَعَنَّا ... نَرَى الْعَرَصَاتِ أَوْ أَثَرَ الْخِيَامِ

والبيت الأول مما هنا غير متصل بالثانى فى رواية الديوان

(٣) فى ا « واعتمادى » وهو تحريف .

(٤) فى ا ، ب ، ج « أقول لها إذا ضجرت وغصت » وفى الديوان « أقول لها إذا عطفت وعضت » ولعله أنسب بقوله « علام تلفتين ـ إلخ » .

(٥) فى الديوان « إلام تلفتين وأنت ـ إلخ » .

(٦) روى أبو الفرج هذين البيتين مع ثالث ، وهو :

خَرَجَتْ إِلَيْكَ وَلَمْ تَكُنْ خَرَّاجَةً ... فَأَصِيبَ صَدْعُ فُؤَادِكَ انْهَاضِ

مَنَعَ الحَياةَ مِنَ الرِّجَالِ وَنَفعَهَا حَدَقٌ تُقَلِّبُهَا النِّسَاءُ مِرَاضُ
وَكَأَنَّ أَفْئِدَةَ الرِّجَالِ إذَا رَأَوْا حَدَقَ النِّسَاءِ لِنَبْلِهَا أَغْرَاضُ

وإذا شئت أن تعلم مقادير الكلام وكان لك ذَوْق صحيح فانظر إلى هذا العربي فى كلامه السهل الذى كأنه ماء جار ، وانظر إلى ماأوردته لأبى العلاء المعرى ؛ فإن أثر الكلفة عليه باد ظاهر .

وممن قصد من العرب قصيده كله على اللزوم كُثَيِّر عَزَّة ، وهى القصيدة التى أولها :

خَلِيلَيَّ هَـٰذَا رَبْعُ عَزَّةَ فَاعْقِلاَ قَلُوصَيْكُمَا ثُمَّ احْلُلاَ حَيْثُ حَلَّتِ (١)

وهذه القصيدة تزيد على عشرين بيتاً ، وهى مع ذلك سهلة لينة تكاد تترقرق من لينها وسهولتها ، وليس عليها من أثر الكلفة شىء ، ولولا خوف الإطالة لأوردتها بجملتها .

وقد ذكر بعضهم من هذا النوع ماورد فى أبيات الحماسة ، وهو(٢) :

وَفَيْشَةٍ لَيْسَتْ كَهَٰذِى الْفَيْشِ قَدْ مُلِئَتْ مِنْ تَرَفٍ وَطَيْشِ (٣)
إذَا بَدَتْ قُلْتَ أَمِيرُ الْجَيْشِ مَنْ ذَاقَهَا يَعْرِفُ طَعْمَ الْعَيْشِ

---

(١) كذا وقع هذا البيت فى ا ، ب ، ج ، وفى الديوان وغيره « ثم انزلا حيث حلت » وهو خير مما فى أصول الكتاب ؛ فانه لايقال « احللا » ولا « اشددا » ولا « اظللا » وهكذا من كل مضعف أسند إلى ألف الاثنين ، وإنما يقال « حلا » و « شدا » و « ظلا » ، وما أشبه ذلك .

(٢) انظر التبريزى (٤ — ٣٤٠) .

(٣) فى الحماسة :

* قَدْ مُلِئَتْ مِنْ خُرُقٍ وَطَيْشِ *

وهذا ليس من باب اللزوم ؛ لأن اللزوم هو أن يلتزم الناظم والناثر مالا يلزمه؛ كقولنا : شرق ، وفرق ؛ مثلا ؛ فانه لو قيل بدلا من ذلك شرق وحنق لجاز ذلك ، وفى هذه الأبيات لايقع الأمر كذلك ؛ لأنه لو قيل : طَيْش وعَرْش لماجاز، وهذا يقال له الردف فى الشعر ، وهو الياء والواو قبل حرف الروى ، وإذا جيء بذلك فى الشعر وفى الكلام المنثور لايقال إنه التزام مالا يلزم ؛ لأن الملتزم مالا يلزم له مندوحة فى العدول إلى غيره ، وههنا لا مندوحة .

ومن لطيف ذلك مايروى لامرأة من البصرة مَجَنَتْ بأبى نواس ، فقالت :

إنَّ حِرِى حزنبل حزابيه   إذَا قَعَدْت فَوْقَهُ نبَا بِيَهْ

* كَالأَرْنَبِ الْجَاثِمِ فَوْقَ الرَّابِيَهْ *

وكذلك ورد قول أبى تمام (١) ، وهو :

خَدَمَ الْعُلاَ فَخَدَمْنَهُ وَهْىَ الَّتِى   لاَتخْدِمُ الْأَقْوَامَ مَالَمْ تَخْدِمِ

فَإذَا ارْتَقَى فِى قُلَّةٍ مِنْ سُودَدٍ   قَالَتْ لَهُ الْأُخْرَى بَلَغْتَ تَقَدَّمِ

وعلى هذا الأسلوب قوله أيضاً (٢) :

وَلَوْ جَرَّبْتَنِى لَوَجَدْتَ خَرْقًا   يُصَافِى الأَكْرَمِينَ وَلاَ يُصَادِى (٣)

جَدِيراً أَنْ يَكُرَّ الطَّرْفَ شَزْراً   إِلَى بَعْضِ الْمَوَارِدِ وَهْوَ صَادِى (٤)

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شبابة ، وأولها :

نَثَرَتْ فَرِيدَ مَدَامِعٍ لَمْ تُنْظَمِ   وَالدَّمْعُ يَحْمِلُ بَعْضَ شَجْوِ الْمُغْرَمِ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أبا عبد الله أحمد بن أبى دواد ، وأولها قوله :

سَقَى عَهْدَ الْحِمَى سَيْلُ الْعِهَادِ   وَرَوْضٌ حَاضِرٌ مِنْـهُ وَبَادِ

(٣) الخرق : السخى ، أو الظريف . ويصادى : يعارض :

(٤) جدير : خليق . وصاد : عطشان .

وله من أبيات تتضمن مرثية(١) :

لَقَدْ فُجِعَتْ عَتَّابُهُ وَزُهَـيْرُهُ ... وَتَغْلِبُهُ أُخْرَى اللَّيَالِي وَوَائِلُهْ(٢)
وَمُبْتَدِرُ الْمَعْرُوفِ تَسْرِى هِبَاتُهُ ... إِلَيْهِمْ وَلاَ تَسْرِى إِلَيْهِمْ غَوَائِلُهْ
طَوَاهُ الرَّدَى طَيَّ الرِّدَاءِ وَغُيِّبَتْ ... فَضَائِلُهُ عَنْ قَوْمِهِ وفَوَاضِلُهْ
طوَى شِيَماً كَانَتْ تَرُوحُ وتَغْتَدِى ... وَسَائِلَ مَنْ أَعْيَتْ عَلَيْهِ وَسَائِلُهْ
فَيَاعَارِضاً لِلعُرْفِ أَقْلَعَ مُزْنُهُ ... وَيَاوَادِيًا لِلْجُودِ جَفَّتْ مَسَايِلُهْ
أَلَمْ تَرَنِي أَنْزَفْتُ عَيْنِي عَلَى أَبِي ... مُحَمَّدٍ النَّجْمِ الْمُشَرِّقِ آفِلُهْ(٣)
وَأَخْضَلْتُهَا فِيهِ كَمَالَوْ أَتَيْتُهُ ... طَرِيدَ اللَّيَالِي أَخْضَلَتْنِي نَوَافِلُهْ(٤)

وهذا من أحسن ما يجيء فى هذا الباب ، وليس بمتكلف كشعر أبى العلاء ؛ فإن حسن هذا مطبوع ، وحسن ذاك مصنوع ، وكذلك أقول فى غير اللزوم من الأنواع المذكورة أولا ؛ فإن الألفاظ إذا صدرت فيها عن سهولة خاطر وسلاسة طبع وكانت غير مُسْتَجْلَبة ولا متكلفه جاءت غير محتاجة إلى التأنق ، ولا شك أن صورة الخلقة غير صورة التخلق .

فان قيل : ماالفرق بين المتكلَّف من هذه الأنواع وغير المتكلف ؟ .

قلت فى الجواب : أما المتكلف فهو الذى يأتى بالفكرة والروية ، وذلك أن يُنْضَى الخاطر فى طلبه ، ويُبْعَث على تتبعه واقتصاص أثره ، وغير المتكلف يأتى

---

(١) هى مرثية يرثى فيها القاسم بن طوق ، وأولها قوله :

جَوًى سَاوَرَ الْأَحْشَاءَ وَالْقَلْبُ وَاغِلُهْ ... وَدَمْعٌ يضِيمُ الْعَيْنَ وَالْجَفْنُ هَامِلُهْ

(٢) « وتغلبه » كذا فى الديوان . وفى ا ، ب ، ج « وثعلبة » وهو تحريف .

(٣) فى الديوان « المغيب آفله » .

(٤) كذا فى الديوان ، وفى ا ، ب ، ج «وأخلصتها» و «وأخلصتنى» وهو تحريف.

مستريحاً من ذلك كله ، وهو أن يكون الشاعر فى نظم قصيدته أو الخطيب أو الكاتب فى إنشاء خطبته أو كتابته ، فبينا هو كذلك إذ سنح له نوع من هذه الأنواع بالاتفاق لا بالسعى والطلب ؛ ألا ترى إلى قول أبى نُوَاس فى مثل هذا الموضع :

اتْرُكِ الْأَطْلَالَ لاَ تَعْبَأْ بِهَا   إِنَّهَا مِنْ كُلِّ بُؤْسٍ دَانِيَهْ
وَانْعَتِ الرَّاحَ عَلَى تَحْرِيمِهَا   إِنَّمَا دُنْيَاكَ دَارٌ فَانِيَهْ
مِنْ عُقَارٍ مَنْ رَآهَا قَالَ لِي   صِيدَتِ الشَّمْسُ لَنَا فِى آنِيَهْ

وعلى هذه السهولة واللطافة ورد قوله أيضاً :

كَمْ مِنْ غُلَامٍ ذِى مَحَاسِين   أَفْسَدَهُ نَاطِفُ يَاسِين

وهذا ياسين كان يبيع الناطف ببغداد .

وحكى إبراهيم البندنيجى قال : رأيت شيخاً ضعيفاً يبيع ناطفاً ، فقلت له : ياشيخ ، أما زلت فى هذه الصناعة ؟ قال : مذ كنت ، ولكن الحال كانت واسعة والسلعة نافقة ، وكنت ممن يشار إلىّ ، حتى قال أبو نواس فىّ ، وأنشدهذا البيت.

فانظر أيها المتأمل ما أحلى لفظ أبى نواس فى لزومه ، وما أعراه عن الكلفة ، وكذلك فلتكن الألفاظ فى اللزوم وغيره .

واعلم أنه إذا صُغِّرَتْ الكلمة الأخيرة من الشعر أو من فواصل الكلام المنثور فإن ذلك ملحق باللزوم ، ويكون التصغير عوضاً عن تساوى الحروف التى قبل روى الأبيات الشعرية والحروف التى قبل الفاصلة من النثر ؛ فمن ذلك قول بعضهم :

عَزَّ عَلَى لَيْلَى بِذِى سُدَيْرٍ   سُوءُ مَبِيتِى لَيْلَةَ الْغُمَيْرِ

مُقَضَّباً نَفْسِيَ فِي طُمَيْرِ   تَنْتَهِزُ الرِّعْدَةُ فِي ظُهَيْرِى (١)

يَهْفُو إِلَىَّ الزَّوْرُ مِنْ صُدَيْرِى   ظَمْآنَ فِي رِيحٍ وَفِي مُطَيْرِ

وَازِرَ قَرٍّ لَيْسَ بِالْغُرَيْرِ   مِنْ لَدُ مَا ظُهْرٍ إِلَى سُحَيْرِ (٢)

حَتَّى بَدَتْ لِي جَبْهَةُ الْقُمَيْرِ   لِأَرْبَعٍ خَلَوْنَ مِنْ شُهَيْرِ

وهذا من محاسن الصنعة فى هذا الباب فاعرفه .

وأحسن منه ماورد عن أبى نواس وعن عنان جارية النطاف ، وله معها حكايات كثيرة غير هذه ، فقال أبو نواس :

أَمَا تَرِقِّي لِصَبٍّ   يَكْفِيهِ مِنْكِ نُظَيْرَهْ (٣)

فقالت عنان :

إِيَّاىَ تَعْنِي بِهٰذَا   عَلَيْكَ فَاجْلِدْ عُمَيْرَهْ

فقال أبو نواس :

أَخافُ إِنْ رُمْتُ هٰذَا   عَلَى يَدِى مِنْكِ غَيْرَهْ

فالبيتان الأول والثانى من هذا الباب ، والثالث جاء تبعاً .

وقد ورد فى القرآن الكريم شىء من اللزوم إلا أنه يسير جداً .

فمن ذلك قوله تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ ، الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ) وقوله تعالى : (وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ) وكذلك ورد قوله تعالى فى

---

(١) هذا البيت ورد فى شواهد العينى :

* تَنْتَهِضُ الرِّعْدَةُ فى ظُهَيْرِى *

(٢) ورد فى شواهد العينى :

* مِنْ لَدُنِ الظُّهْرِ إلى الْعُصَيْرِ *

(٣) فى ا ، ب ، ج « قطيره » .

هذه السورة : (فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ ، أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ) .

وربما وقع بعض الجهال في هذا الموضع ؛ فأدخل فيه ماليس منه ؛ كقوله تعالى : (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ، فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) وهذا لايدخل في باب اللزوم ؛ لأن الأصل فيه نعم وجحم . والياء هي من حروف المد واللين ، فلا يعتد بها ههنا .

ومن هذا الباب قوله تعالى : (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ، فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ، وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ) .

وكذلك ورد قوله تعالى : (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَى لاَتَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ) .

وعلى هذا الأسلوب جاء قوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام : (يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ، قالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَاإِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا) .

وعلى نحو هذا جاء قوله تعالى : (قالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ ، قالَ لاَ تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ) .

ولا تجد أمثال ذلك في القرآن إلا قليلا .

النوع الخامس : في الموازنة

وهي أن تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية في الوزن ، وأن يكون صدر البيت الشعري وعجزه متساوي الألفاظ وزناً ، وللكلام بذلك طلاوة

ورونق ، وسببه الاعتدال ؛ لأنه مطلوب فى جميــع الأشياء ، وإذا كانت مقاطع الـكلام معتدلةً وقعت من النفس موقع الاستحسان ، وهذا لامراء فيه لوضوحه .

وهذا النوع من الكلام هو أخو السجع فى المعادلة دون المماثلة ؛ لأن فى السجع اعتدالا وزيادة على الاعتدال ، وهى تماثل أجزاء الفواصل لورودها على حرف واحد ، وأما الموازنة ففيها الاعتدال الموجود فى السجع ، ولا تماثل فى فواصلها ؛ فيقال إذاً : كل سجع موازنة ، وليس كل موازنة سجعاً ، وعلى هذا فالسجع أخص من الموازنة .

فما جاء منها قوله تعالى (وَآتَيْنَاهُمَا الْـكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ، وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) فالمستبين والمستقيم على وزن واحد .

وكذلك قوله تعالى فى سورة مريم عليها السلام : (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا، كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ، أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْـكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ، فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا) .

وكذلك قوله تعالى فى سورة طه : (مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ، خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً) .

وكذلك ورد قوله تعالى فى سورة حم عسق : (وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اُسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْـكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ، يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلاَ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ ، اللهُ

لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ، مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ، أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَالَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) ، وهذه الآيات جميعها على وزن واحد ؛ فإن « شديد » و « قريب » و « بعيد » و « عزيز » و « نصيب » و « أليم » و « كبير » كل ذلك على وزن فَعيل ، وإن اختلف حروف المقاطع التى هى فواصلها .

وأمثال هذا فى القرآن كثير ، بل معظم آياته جارية على هذا النهج ، حتى إنه لا تخلو منه سورة من السور ، ولقد تَصَفَّحْتُه فوجدته لايكاد يخرج منه شىء عن السجع والموازنة .

وأما ماجاء من هذا النوع شعراً فقول ربيعة بن ذؤابة[1] :

إِنْ يَقْتُلُوكَ فَقَدْ ثَلَلْتَ عُرُوشَهُمْ ... بِعُتَيْبَةَ بْنِ الْحَرِثِ بْنِ شِهَابِ
بِأَشَدِّهِمْ بَأْساً عَلَى أَصْحَابِهِ ... وَأَعَزِّهِمْ فَقْداً عَلَى الأَصْحَابِ[2]

فالبيت الثانى هو المختص بالموازنة ؛ فإن بأسا وفَقْدا على وزن واحد .

---

(١) كذا وقع فى ا ، ب ، ج . والذى فى شرح الحماسة للتبريزى (٢ ـ ٣٢٢) أن اسم الشاعر رُبَيِّعَة بن عُبَيْد بن سعد بن جذيمة بن مالك من نصر بن قُعَيْن ، وهو أبو ذؤاب الأسدى .

(٢) فى الحماسة :

* بِأَشَدِّهِمْ كَلَباً عَلَى أَعْدَائِهِمْ *

النوع السادس : فى اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها

وهو من هذه الصناعة بمنزلة علية ، ومكانة شريفة ، وجُلّ الألفاظ اللفظية مَنُوطة به ، ولقد لقيت جماعة من مدعى فن الفصاحة ، وفاوضتهم وفاوضونى ، وسألتهم وسألونى ، فما وجدت أحداً منهم تَيَقَّنَ معرفة هذا الموضع كما ينبغى ، وقد استخرجت فيه أشياء لم أسبق إليها ، وسيأتى ذكرها هٰهنا .

أما اختلاف صيغ الألفاظ فإنها إذا نقلت من هيئة إلى هيئة ؛ كنقلها مثلا من وزن من الأوزان إلى وزن آخر وإن كانت اللفظة واحدة ، أو كنقلها من صيغة الاسم إلى صيغة الفعل، أو من صيغة الفعل إلى صيغة الأسم ، أوكنقلها من الماضى إلى المستقبل أو من المستقبل إلى الماضى ، أو من الواحد إلى التثنية أو إلى الجمع أو إلى النسب أو إلى غير ذلك ؛ انتقل قُبْحُها فصار حسناً ، وحسنها صار قبحاً .

فمن ذلك لفظة « خَوْد » فإنها عبارة عن المرأة الناعمة ، وإذا نقلت إلى صيغة الفعل قيل خَوَّدَ على وزن فَعَّل ـ بتشديد العين ـ ومعناها أسرع ، يقال : خَوَّدَ البعيرُ ؛ إذا أسرع ؛ فهى على صيغة الاسم حسنة رائقة ، وقد وردت فى النظم والنثر كثيراً ، وإذا جاءت على صيغة الفعل لم تكن حسنة ، كقول أبى تمام(١) :

وَإِلَى بَنِى عَبْدِ الْكَرِيمِ تَوَاهَقَتْ ... رَتَكَ النَّعَامِ رَأَى الظَّلَامَ فَخَوَّدَا

وهذا يقاس عليه أشباهه وأنظاره ، إلا أن هذه اللفظة التى هى خود قد

(١) من قصيدة له يمدح فيها أحمد بن عبد الكريم ، وأولها قوله :

يَادَارُ دَارَ عَلَيْكِ إِرْهَامُ النَّدَى ... وَاُهْتَزَّ رَوْضُكِ فى الثَّرَى فَتَأَوَّدَا

نقلت عن الحقيقة إلى المجاز ، فخف عنها ذلك القبح قليلا ؛ كقول بعض شعراء الحماسة (١) :

أقولُ لِنَفْسِي حِينَ خَوَّدَ رَأْلُهَا رُوَيْدَكِ لَمَّا تُشْفِقِي حِينَ مُشْفَقِ
رُوَيْدَكِ حَتَّى تَنْظُرِي عَمَّ تَنْجَلِي غَيابَةُ هٰذَا الْبَارِقِ الْمُتَأَلِّقِ (٢)

والرَّأْل : النعام ، والمراد به ههنا أن نفسه فرّت وفزعت ، وشبه ذلك بإسراع النعام فى فراره وفزعه ، ولما أورده على حكم المجاز خفَّ بعضُ القبح الذى على لفظة خَوَّد ، وهذا يدرك بالذوق الصحيح ، ولا خفاء بما بين هذه اللفظة فى إيرادها ههنا و إيرادها فى بيت أبى تمام ؛ فإنها وردت فى بيت أبى تمام قبيحة سمجة ، ووردت ههنا بين بين .

ومن هذا النوع لفظة وَدَعَ وهى فعل ماض ثلاثى لاثقل بها على اللسان ، ومع ذلك فلا تستعمل على صيغتها الماضية إلا جاءت غير مستحسنة ، ولكنها تستعمل مستقبلة ، وعلى صيغة الأمر ، فتجيء حسنة ، أما الأمر فكقوله تعالى : (فَدَعْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا) (٣) ولم تأت فى القرآن الكريم إلا على هذه الصيغة ؛ وأما كونها مستقبلة فكقول النبى صلى الله عليه وسلم وقد واصل فى شهر رمضان فواصل معه قوم : « لَوْ مُدَّ لَنَا الشَّهْرُ لَوَاصَلْنَا وِصَالاً يَدَعُ لَهُ الْمُتَعَمِّقُونَ تَعَمُّقَهُمْ » وقال أبو الطيب المتنبى (٤) :

---

(١) نسبهما أبو تمام لرجل من بنى أسد ولم يعينه (انظر شرح التبريزى : ١ ــ ١٤١)
(٢) فى الحماسة :

* عَمَايَةُ هٰذَا الْعَارِضِ الْمُتَأَلِّقِ *

(٣) القرآن الكريم : (فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا) .
(٤) من قصيدة له يمدح فيها سيف الدولة ، وأولها قوله :

غَيْرِى بِأَكْثَرِ هٰذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ إِنْ قَاتَلُوا جَبُنُوا أَوْ حَدَّثُوا شَجُعُوا

تَشُقُّكُمْ بِقَنَاهَا كُلُّ سَلْهَبَةٍ وَالضَّرْبُ يَأْخُذُ مِنْكُمْ فَوْقَ مَا يَدَعُ(١)

وأما الماضى من هذه اللفظة فلم يستعمل إلا شاذًّا ولا حسن له ، كقول أبى العتاهية :

أَثْرَوْا فَلَمْ يُدْخِلُوا قُبُورَهُمُ شَيْئًا مِنَ الثَّرْوَةِ الَّتِى جَمَعُوا
وَكَانَ مَا قَدَّمُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ نَفْعًا مِنَ الَّذِى وَدَعُوا

وهذا غير حسن فى الاستعمال ، ولا عليه من الطلاوة شىء ، وهذه لفظة واحدة لم يتغير من حالها شىء ، سوى أنها نقلت من الماضى إلى المستقبل لاغير

وكذلك لفظه وذَرَ ، فإنها لاتستعمل ماضية ، وتستعمل على صيغة الأمر ، كقوله تعالى : (ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا) وتستعمل مستقبلة أيضاً ، كقوله تعالى:(سَأُصليِهِ سَقَرَ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَاسَقَرُ ، لاَتُبْقِى وَلاَ تَذَرُ) فهى لم ترد فى القرآن إلا على هاتين الصيغتين ، وكذلك فى فصيح الكلام غير القرآن ، وأما إذا جاءت على صيغة الماضى فإنها لاتستعمل ، وهى أقبح من لفظة ودع ، لأن لفظة وَدَعَ قد استعملت ماضية ، وهذه لم تستعمل .

وههنا فلينعم الخائضون فى هذا الفن نظرهم ، ويعلموا أن فى الزوايا خبايا ، وإذا أنعموا الفكر فى أسرار الألفاظ عند الاستعمال ، وأغرقوا فى الاعتبار والكشف ؛ وجدوا غرائب وعجائب .

ومن هذا النوع لفظة الأَخْدَع ، فإنها وردت فى بيتين من الشعر ، وهى فى أحدها حسنة رائقة ، وفى الآخر ثقيلة مستكرهة ، كقول الصِّمَّة بن عبد الله من شعراء الحماسة(٢) .

---

(١) وقع فى ا ، ب ، ج «يشقكم بفتاها» وهو تحريف ، والذى أثبتناه عن الديوان.
(٢) وقع فى ا ، ب ، ج «ابن الصمة عبد الله» والصواب أنه « الصمة بن عبد الله

تَلَفَّتُّ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتُنِي وَجِعْتُ مِنَ الإصْغَاءِ لِيتاً وَأَخْدَعا(١)

وكقول أبى تمام(٢) :

يَادَهْرُ قَوِّمْ مِنْ أَخْدَعَيْكَ فَقَدْ أَضْجَجْتَ هٰذَا الْأَنَامَ مِنْ خُرُقِكْ

ألا ترى أنه وجد لهذه اللفظة فى بيت أبى تمام من الثقل على السمع والكراهة فى النفس أضعاف ماوجد لها فى بيت الصمة بن عبد الله من الروح والخفة والإيناس والبهجة ، وليس سبب ذلك إلا أنها جاءت مُوَحَّدَة فى أحدها مُثَنَّاه فى الآخر ، وكانت حسنة فى حالة الإفراد ، مستكرهة فى حالة التثنية ، و إلا فاللفظة واحدة ، و إنما اختلاف صيغتها فعل بها ماترى .

ومن هذا النوع ألفاظ يعدل عن استعمالها من غير دليل يقوم على العدول عنها ، ولا يستفتى فى ذلك إلا الذوق السليم ، وهذا موضع عجيب لايعلم كنه سره .

فمن ذلك لفظة اللب الذى هو العقل ، لا لفظة اللب الذى تحت القشر ، فإنها لاتحسن فى الاستعمال إلا مجموعة ، وكذلك وردت فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة وهى مجموعة ، ولم ترد مفردة ، كقوله تعالى : (وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبابِ) و (إنَّ فى ذٰلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الأَلْبابِ) وأشباه ذلك ، وهذه اللفظة ثلاثية خفيفة على النطق ، ومخارجها بعيدة ، وليست بمستثقلة ولا مكروهة

القشيرى » والبيت من أبيات اختارها أبو تمام فى باب النسيب من ديوان الحماسة ، وأول هذه الأبيات قوله :

حَنَنْتَ إِلَى رَيَّا وَنَفْسُكَ بَاعَدَتْ مَزَارَكَ مِنْ رَيَّا وَشَعْبَا كُمَا مَعَا

(١) وقع فى ب ، ج ، « لينا وأخدعا » وهو تحريف .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها محمد بن الهيثم ، وأولها قوله :

قَدْ مَاتَ مُحْلُ الزَّمَانِ مِنْ فَرَقِكْ وَاكْتَنَّ أَهْلُ الإِعْدَامِ مِنْ وَرِقِكْ

وقد تستعمل مفردة بشرط أن تكون مضافة أو مضافا إليها : أما كونها مضافا إليها فكقولنا : لايعلم ذلك إلا ذو لُبٍّ ، وإن فى ذلك لعبرة لذى لب ، وعليه ورد قول جرير :

إنَّ الْعُيُونَ الَّتِى فى طَرْفِها حَوَرٌ قَتَلْنَنا ثُمَّ لَمْ يُحْيِينَ قَتْلاَنَا
يَصْرَعْنَ ذَا اللُّبِّ حَتَّى لاَ حِرَاكَ بِهِ وَهُنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ اللهِ أَرْكَانَا

وأما كونها مضافة فكقول النبى صلى الله عليه وسلم فى ذكر النساء : « مَا رَأَيْتُ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ » ؛ فإن كانت هذه اللفظة عارية عن الجمع أو الإضافة فإنها لاتأتى حسنة ؛ ولا تجد دليلا على ذلك إلا مجرد الذوق الصحيح ، وإذا تأملت القرآن الكريم ودققت النظر فى رموزه وأسراره وجدت مثل هذه اللفظة قد روعى فيها الجمع دون الإفراد كلفظة كُوب ، فإنها وردت فى القرآن مجموعة ، ولم ترد مفردة ، وهى وإن لم تكن مستقبحة فى حال إفرادها فإن الجمع فيها أحسن ، لكن قد ترد مفردة مع ألفاظ أخر تندرج معهن فيكسوها ذلك حسناً ليس لها ؛ وذلك كقولى فى جملة أبيات أصف بها الخمر وما يجرى معها من آلاتها :

ثَلاَثَةٌ تُعْطِى الْفَرَحْ كَأْسٌ وَكُوبٌ وَقَدَحْ
مَا ذَبَحَ الذَّوْقُ بِهَا إلاَّ وَلِلْهَمِّ ذَبَحْ

فلما وردت لفظة الكوب مع الكأس والقدح على هذا الأسلوب حسنها ، وكأنه جلاها فى غير لباسها الذى كان لها إذ جاءت بمفردها .

وكذلك وردت لفظة رَجَا بالقصر ، والرَّجَا : الجانب ، فإنها لم تستعمل مُوَحَّدَة وإنما استعملت مجموعة ، كقوله تعالى : (وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ) فلما وردت هذه اللفظة مجموعة ألبسها الجمع

ثوبا من الحسن لم يكن لها فى حال كونها مُوَحَّدة ، وقد تستعمل موحدة بشرط الإضافة ، كقولنا : رَجَا الْبِئْرِ .

ولربما أخطأ بعض الناس فى هذا الموضع وقاسَ عليه ماليس بمقيس ؛ وذلك أنه وقف على ماذكرته ههنا واقف ؛ فقال : وكذلك قد وردت لفظة الصوف فى القرآن الكريم ، ولم ترد إلا مجموعة ، كقوله تعالى : (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَومَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِها أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ) وهذا بخلاف ماوردت عليه فى شعر أبى تمام(١)

كانُوا بُرُودَ زَمانِهِمْ فَتَصَدَّعُوا فَكأَنَّما لَبِسَ الزَّمانُ الصُّوفا

وهذا ليس كالذى أشرت إليه ؛ فإن لفظة الصوف لفظة حسنة مفردة ومجموعة ، وإنما أزْرَى بها فى قول أبى تمام أنها جاءت مجازيَّة فى نسبتها إلى الزمان .

وعلى هذا النهج وردت لفظة خبر وأخْبَار ؛ فان هذه اللفظة مجموعة أحسن منها مفردة ، ولم ترد فى القرآن إلا مجموعة .

وفى ضد ذلك ماورد استعماله من الألفاظ مفرداً ولم يرد مجموعا ، كلفظة الأرض ؛ فإنها لم ترد فى القرآن إلا مفردة فإذا ذكرت السماء مجموعة جيء بها مفردة معها فى كل موضع من القرآن ، ولما أريد أن يؤتى بها مجموعة قيل : (وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) فى قوله تعالى : (اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) .

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد محمد يوسف ، وأولها قوله :

أَطْلاَلُهُمْ سُلِبَتْ دُمَاهَا الْهِيفَا وَاسْتَبْدَلَتْ وَحْشاً بِهِنَّ عُكُوفا

ومما ورد من الألفاظ مفرداً فكان أحسن مما يرد مجموعا لفظة البُقْعة ، قال الله تعالى فى قصة موسى عليه السلام : (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شاطِيءِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ) والأحسن استعمالها مفردة لامجموعة ، و إن استعملت مجموعة فالأولى أن تكون مضافة كقولنا : بِقاع الأرض ، أو ماجرى مجراها .

وكذلك لفظة طَيْف ، فى ذكر طَيْفِ الخيال ؛ فإنها لم تستعمل إلا مفردة ، وقد استعملها الشعراء قديماً وحديثاً فلم يأتوا بها إلا مفردة ، لأن جمعها جمع قبيح ؛ فإذا قيل طُيُوف كان من أقبح الألفاظ وأشدها كراهة على السمع ، ويالله للعجب من هذه اللفظة ومن أختها عدة ووزنا وهى لفظة ضَيْف ؛ فإنها تستعمل مفردة ومجموعةً ، وكلاهما فى الاستعمال حسن رائق ، وهذا مما لايعلم السر فيه ؛ والذوق السليم هو الحاكم فى الفرق بين هاتين اللفظتين وما يجرى مجراهما .

وأما جمع المصادر فإنه لا يجيء حسناً ، والإفراد فيه هو الحسن ، ومما جاء فى المصادر مجموعاً قول عنترة(١) :

فإنْ يَبْرَأْ فَلَمْ أَنْفِثْ عَلَيْهِ ... وَإنْ يُفْقَدْ فَحُقَّ لهُ الفُقُودُ

قوله الفقود جمع مصدر من قولنا فَقَدَ يفقِدُ فَقْدًا ، واستعمال مثل هذه اللفظة غير سائغ ولالذيذ، و إن كان جائزاً ، ونحن فى استعمال ما نستعمله من الألفاظ واقفون مع الحسن ، لا مع الجواز .

وهذا كله يرجع إلى حاكم الذوق السليم ؛ فإن صاحب هذه الصناعة يصرف الألفاظ بضروب التصريف ، فما عذب فى فَمِهِ منها استعمله ، وما لَفَظَه فَمُهُ

(١) من أبيات له أولها قوله :

تركْتُ بَنِي الْهُجَيْمِ لَهُمْ دَوَارٌ ... إِذَا تَمْضِي جَمَاعَتُهُمْ تَعُودُ

تركه، ألا ترى أنه يقال : الأُمَّة بالضم عبارة عن الجمع الكثير من الناس ، ويقال الإمة بالكسر وهى النعمة ، فإن الأُمة بالضم لفظة حسنة ، وبالكسر ليست بحسنة ، واستعمالها قبيح .

ورأيت صاحب كتاب الفصيح قد ذكرها فيما اختاره من الألفاظ الفصيحة؛ ويا ليت شعرى ! ما الذى رآه من فصاحتها حتى اختارها ؟ وكذلك قد اختار ألفاظاً أخر ليست بفصيحة ، ولا لوْمَ عليه ؛ لأن صدور مثل ذلك الكتاب عنه كثير ، وأسرار الفصاحة لا تؤخذ من علماء العربية ، وإنما تؤخذ منهم مسألة نحوية أو تصريفية ، أو نقل كلمة لغوية ، وما جرى هذا المجرى ؛ وأما أسرار الفصاحة فلها قوم مخصوصون بها . وإذا شذ عن صاحب كتاب الفصيح ألفاظ معدودة ليست بفصيحة فى جملة كثيرة ذكرها من الفصيح فإن هذا منه كثير .

ومما يذكر فى هذا الباب أنه يقال : سَهْم صائب ؛ فإذا جمع الجمع الحسن الذى يعذب فى الفم قيل : سِهَام صَوَائب وصَائِبات وصُيَّب ؛ فإذا جمع الجمع الذى يقبح قيل : سهام صُيُب ، على وزن كُتُب ، قال أبو نواس :

مَا أَحَلَّ اللهُ مَا صَنَعَتْ عَيْنُهُ تِلْكَ الْعَشِيَّةَ بِي
قَتَلَتْ إِنْسَانُهَا كَبِدِي بِسِهَامٍ لِلرَّدَى صُيُبِ

فقوله « سهامٍ صُيُبِ » من اللفظ الذى ينبو عنه السمع ، ويحيد عنه اللسان ، ومثله ورد قول عُوَيف القوافى[1] من أبيات الحماسة :

ذَهَبَ الرُّقَادُ فَمَا يُحَسُّ رُقَادُ مِمَّا شَجَاكَ وَنَامَتِ الْعُوَّادُ
لَمَّا أَتَانِي مِنْ عُيَيْنَةَ أَنَّهُ أَمْسَتْ عَلَيْهِ تَظَاهَرُ الأَقْيَادُ[2]

---

(١) فى ا ، ب ، ج « عريف القوافى » وهو تحريف . والبيتان فى ديوان الحماسة وليسا بمتصلين (انظر شرح التبريزى : ١ — ٢٥٣) .

(٢) فى ا ، ب ، ج « بظاهر أقياد » وهو تحريف ، والتصويب عن الحماسة .

فقوله « أقياد » فى جمع قَيْد مما لايحسن استعماله ، بل الحسن أن يقال فى جمعه : قُيُود ، وكذلك قول مرة بن مَحْكَان التميمى من أبيات الحماسة ، وذلك من جملة الأبيات المشهورة التى أولها(١) :

يَارَبَّةَ الْبَيْتِ قُومِى غَيْرَ صَاغِرَةٍ ضُمِّى إِلَيْكِ رِحَالَ الْقَوْمِ وَالْقُرُبَا

فقال فيها :

مَاذَا تَرَيْنَ أَنُدْنِيهِمْ لِأَرْحُلِنَا فِى جَانِبِ الْبَيْتِ أَمْ نَبْنِى لَهُمْ قُبَبَا

فإنه جمع قُبَّةً على قُبَب ، وذلك من المستبشع الكريه ، والأحسن المستعمل هو قِبَاب لاقُبَب ، وكذلك يجرى الأمر فى غير هذا .

ومن المجموع مايختلف استعماله ، و إن كان متفقاً فى لفظة واحدة ، كالعين الناظرة وعين الناس وهو النبيه فيهم ؛ فإن العين الناظرة تجمع على عُيُون ، وعَيْن الناس تجمع على أعْيَان ، وهذا يرجع فيه إلى الاستحسان ، لا إلى جائز الوضع اللغوى .

وقد شذ هذا الموضع عن أبى الطيب المتنبى فى قوله(٢) :

وَالْقَوْمُ فِى أَعْيَانِهِمْ خَزَرٌ وَالْخَيْلُ فى أَعْيَانِهَا قَبَلُ

فجمع العين الناظرة على أعيان ، وكان الذوق يأبى ذلك ، ولا تجد له على اللسان حلاوة و إن كان جائزا .

ولولا خوف الإطالة لأوردت من هذا النوع وأمثاله أشياء كثيرة ، وكشفت

(١) انظر شرح التبريزى على الحماسة (٤ ـ ١٢٣) .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها عضد الدولة ، وأولها قوله :

إِثْلِثْ فَإِنَّا أَيُّهَا الطَّلَلُ نَبْكِى وَتُرْزِمُ تَحْتَنَا الْإِبِلُ

عن رموز وأسرار تخفى على كثير من متعاطى هذا الفن ؛ لـكن فى الذى أشرت إليه مُنَبِّه لأهل الفطانة والذكاء أن يحملوه على أشباهه وأنظاره .

وأعجب من ذلك كله أنك ترى وزناً واحداً من الألفاظ ؛ فتارةً تجد مفرده حسناً ، وتارة تجد جمعه حسناً ، وتارة تجدهما جميعاً حسنين ؛ فالأول نحو حُبْرُور وهو فَرْخُ الْحُبارَى ؛ فإن هذه اللفظة يحسن مفردها لا مجموعها ؛ لأن جمعها على حَبَارِير ، وكذلك طُنْبُور وطنابير ، وعرقوب وعراقيب ؛ وأما الثانى فنحو بُهْلُول وبَهالِيل ، ولُهْمُوم ولَهَاميم ، وهذا ضد الأول؛ وأما الثالث فنحو جُمْهُور وجماهير، وعُرْجُون وعَرَاجين ، فانظر إلى الوزن الواحد كيف يختلف فى أحواله مفرداً ومجموعا ؟ وهذا من أعجب مايجيء فى هذا الباب .

وهكذا قد جاءت ألفاظ على وزن واحد ثلاثية مسكنة الوسط وجميعها حسن فى الاستعمال ، وإذا أردنا أن نثقل وسطها حسن منها شيء دون شيء .

فمن ذلك لفظة الثُّلْث والرُّبْع إلى العُشْر فإن الجميع على وزن واحد ، وإذا ثقلنا أوساطها فقلنا ثُلُث ورُبُع وخُمُس ، وكذلك إلى عُشُر ؛ فإن الْحَسَن من ذلك جميعه ثلاثة ، وهى الثُّلُث والْخُمُس والسُّدُس ، والباقى وهو الرُّبُع والسُّبُع والثُّمُن والتُّسُع والعُشُر ، ليس كالأول فى حسنه ، هذا ، والجميع على وزن واحد وصيغة واحدة ، والجميع حسن فى الاستعمال قبل أن يثقل وسطه ، ولما ثقل صار بعضه حسناً وبعضه غير حسن .

وكذلك تجد الأمر فى أسماء الفاعلين كالثلاثى منها نحو فَعَل بفتح الفاء والعين وفَعِلَ بفتح الفاء وكسر العين وفَعُل بفتح الفاء وضم العين ، فإن هذه الأوزان الثلاثة لها أسماء فاعلين ، أما فَعَل بفتح الفاء والعين فليس له إلا اسم واحد أيضاً وهو فاعِل ، لاغير ، ولا يقع فيه اختلاف ، وكذلك فَعُل بفتح الفاء وضم العين فليس له إلا اسم واحد أيضاً ، وهو فَعِيل ، ولا يقع فيه اختلاف إلا

ماشذ ، لكن فَعِل بفتح الفاء وكسر العين يقع فى اسم فاعله الاختلاف استحسانا واستقباحا ، لأن له ثلاثة أوزان نحو فاعِل وفَعِل وفَعْلان ، تقول منه : حَمِدَ فهو حَامِد وحَمِد وحَمْدَان ، وقد جاء على وزنه فَرِحَ ، تقول منه : فَرِحَ زيد فهو فَرِح ، وهو الأحسن ، ولا يحسن أن يقال : فارِح ، ولا فَرْحَان ، وإن كان جائزا ، لكن فَرْحان أحسن من فارح ، وقد وردت هذه اللفظة فى القرآن الكريم فلا تستعمل إلا على فَرِحٍ لا غير ، كقوله تعالى : (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) وكقوله تعالى : (إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ) وقد جاءت هذه اللفظة فى شعر بعض شعراء الحماسة فى باب المراثى[١] :

فَمَا أَنَا مِنْ حُزْنٍ وَإِنْ جَلَّ جَازِعٌ   وَلاَ بِسُرُورٍ بَعْدَ مَوْتِكَ فَارِحُ

وهذا غير حسن ، وإن جاز استعماله .

وعلى نحو منه يقال : غَضِب وهو غَضْبَان ، ولا يقال : غَاضِب ، وإن كان جائزاً ، وقد تقدم القول أنّا فى تأليف الكلام بصَدَد استعمال الحسن والأحسن. لا بصدد استعمال الجائز وغير الجائز .

ومما يجرى هذا المجرى قولنا فَعَلَ وافْتَعَلَ ، فإن لفظة فعل لها موضع تستعمل فيه ، ألا ترى أنك تقول : قَعَدْت إلى فلان أحَدِّثه ، ولا تقول : اقْتَعَدْت إليه ، وكذلك تقول : اقْتَعَدْتُ غاربَ الجمل ، ولا تقول : قَعَدْت عَلَى غارِب الجمل ، وإن جاز ذلك ، لكن الأول أحسن ، وهذا لا يحكم فيه غير الذوق السليم ، فإنه لا يمكن أن يقام عليه دليل .

وأما فعل وافْعَوْعَلَ فإنا نقول : أَعْشَبَ الْمَكَانُ[٢] ، فإذا كثر عشبه

---

(١) البيت لأشجع بن عمرو السلمى ، من كلمة اختارها أبو تمام فى الحماسة وأولها قوله :

مَضَى ابْنُ سَعِيدٍ حِينَ لَمْ يَبْقَ مَشْرِقٌ   وَلاَ مَغْرِبٌ إِلاَّ لَهُ فِيهِ مَادِحُ

(انظر شرح التبريزى : ٢ – ٣٢٨) .

(٢) كذا فى جميع أصول الكتاب ، وهو صحيح لغة ، ولكنه لايوافق ماقبله .

قلنا : اعْشَوْشَبَ ، فلفظة افْعَوْعَل للتكثير ، على أنى استقريت هذه اللفظة فى كثير من الألفاظ فوجدتها عَذبة طيبة على تكرار حروفها ، كقولنا : اخْشَوْشَنَ المكان ، واغرَوْرَقَت العين ، واحْلَوْلَى الطعم ، وأشباهها .

وأما فُعَلَة نحو هُمَزَة ولُمَزَة وجُثَمَة ونُوَمَة ولُكَنَة ولُحَنَة ، وأشباه ذلك ؛ فالغالب على هذه اللفظة أن تكون حسنة ، وهذا أخذته بالاستقراء ، وفى اللغة مواضع كثيرة هكذا لا يمكن استقصاؤها .

فانظر إلى ما يفعله اختلاف الصيغة بالألفاظ ، وعليك أن تَتَفَقَّد أمثال هذه المواضع ، لتعلم كيف تضع يدك فى استعمالها ، فكثيراً مايقع لفحول الشعراء والخطباء فى مثلها ، ومؤلف الكلام من كاتب وشاعر إذا مرّت به ألفاظ عَرَضَها على ذوقه الصحيح ، فما يجد الحسن منها موحداً وَحّده ، وما يجد الحسن منها مجموعا جمعه ، وكذلك يجرى الحكم فيما سوى ذلك من الألفاظ .

النوع السابع : فى المعاظلة اللفظية

والمعاظلة معاظلتان : لفظية ، ومعنوية .

أما المعنوية فسيأتى ذكرها فى باب التقديم والتأخير من المقالة الثانية ، فليؤخذ من هناك .

وأما المعاظلة اللفظية — وهى المخصوصة بالذكر ههنا فى باب صناعة الألفاظ — وحقيقتها مأخوذة من قولهم : تَعَاظَلَتِ الجرادتان ؛ إذا ركبت إحداهما الأخرى ، فسمى الكلام المتراكب فى ألفاظه أو فى معانيه المعاظلة مأخوذاً من ذلك ، وهو اسم لائق بمسماه .

ووصف عمر بن الخطاب رضى الله عنه زُهَيْر بن أبى سلمى فقال : كَانَ لاَيُعَاظِلُ بَيْنَ الْكَلاَمِ .

وقد اختلف علماء البيان فى حقيقة المعاظلة :

فقال قدامة بن جعفر الكاتب[١] : التعاظل فى الكلام هو أن يدخل بعض الكلام فيما ليس من جنسه ، ولا أعرف ذلك إلا فاحش الاستعارة ، كقول أوْس بن حجر[٢] :

وَذَاتِ هِدْمٍ عَارٍ نَوَاشِرُهَا تُصْمِتُ بِالْمَاءِ تَوْلَبًا جَدِعَا[٣]

فسمى الظبى تولباً ، والتولب : ولد الحمار .

هذا ماذكره قدامة بن جعفر ، وهو خطأ ؛ إذ لوكان ماذهب إليه صوابًا لكانت حقيقة المعاظلة دخول الكلام فيما ليس من جنسه ، وليست حقيقتها هذه ، بل حقيقتها ماتقدم ، وهو التراكب ، من قولهم : تَعَاظَلَتِ الجرادتان ، إذا ركبت إحداهما الأخرى ، وهذا المثال الذى مثل به قدامة لاتركّب فى ألفاظه ولا فى معانيه .

وأما غير قدامة فإنه خالفه فيما ذهب إليه ، إلا أنه لم يقسم المعاظلة إلى لفظية ومعنوية ، ولكنه ضرب لها مثالاً ، كقول الفرزدق[٤] :

وَمَا مِثْلُهُ فى النَّاسِ إِلَّا مُمَلَّكًا أَبُو أُمِّهِ حَىٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ

---

(١) انظر نقد الشعر لقدامة بن جعفر الكاتب (ص ٦٩ الجوائب) .

(٢) البيت من قصيدة له يمدح فيها فضالة بن كلدة فى حياته و يرثيه بعد وفاته وهى فى كثير من مراجع الأدب (انظر ذيل الأمالى ٣٤ دار الكتب) وأول هذه القصيدة قوله :

أَيَّتُهَا النَّفْسُ أَجْمِلِى جَزَعًا إِنَّ الَّذِى تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا

(٣) الهدم — بكسر فسكون — الأخلاق من الثياب ، والنواشر : عروق ظاهر الكف . والجدع — بفتح الجيم وكسر الدال — السيء الغذاء . ولهذا البيت قصة ظريفة انظرها فى ترجمة المفضل الضبى .

(٤) من قصيدة له يمدح فيها إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومى خال هشام ابن عبد الملك بن مروان . كذا قاله العباسى فى معاهد التنصيص (ص٢١ بولاق) ولم أعثر على هذه القصيدة فى الديوان .

وهذا من القسم المعنوى ، لامن القسم اللفظى ، ألا ترى إلى تراكب معانيه بتقديم ما كان يجب تأخيره وتأخير ما كان يجب تقديمه ؛ لأن الأصل فى معناه : وما مثله فى الناس حىٌّ يقاربه إلا مملكا أبو أمه أبوه ، وسيجىء شرح ذلك مستوفى فى بابه من المقالة الثانية ؛ إن شاء الله تعالى .

وإذ حققت القول فى بيان المعاظلة والكشف عن حقيقتها فإنى أتبع ذلك بتقسيم القسم اللفظى منها الذى أنا بصدد ذكره هٰهنا ، فأقول :

إنى تأملته بالاستقراء من الأشعار قديمها وَمُحْدَثِها ، ومن النظر فى حقيقتها نفسها ، فوجدتها تنقسم إلى خمسة أقسام :

الأول منها : يختص بأدوات الكلام ، نحو مِنْ وإلى وعَنْ وعلى ، وأشباهها؛ فإن منها مايسهل النطق به إذا ورد مع أخواته ، ومنها مالا يسهل ، بل يرد ثقيلا على اللسان ، ولكلٍّ موضعٌ يخصه من السبك .

فمما جاء منه قول أبى تمام (١) :

إِلَى خَالِدٍ رَاحَتْ بِنَا أَرْحَبِيَّةٌ ... مَرَافِقُهَا مِنْ عَنْ كَرَاكِرِهَا نُكْبُ (٢)

فقوله : « من عن كراكرها » من الكلام المتعاظل الذى يثقل النطق به ، على أنه قد وردت هاتان اللفظتان ، وهما مِنْ وعَنْ ، فى موضع آخر فلم يثقل النطق بهما ، كقول القائل : مِنْ عَنْ يَمِينِ الطَّرِيق ، والسبب فى ذلك أنهما وردتا فى بيت أبى تمام مضافتين إلى لفظة الكَرَاكر ، فثقّلت منهما ، وجعلتهما

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى ، وأولها قوله :

لَقَدْ أَخذَتْ مِنْ دَارِ مَاوِيَّةَ الْحُقْبُ ... أَنُحْلُ الْمَغَانِي لِلْبِلَى هِيَ أَمْ نَهْبُ

(٢) الأرحبية : ناقة منسوبة إلى أرحب ، وهو فحل من فحولة الإبل الكريمة ، والكراكر : جمع كركرة ، وهى رحى صدرها وخواصرها ، والنكب : جمع ، نكباء ، وهى المائلة .

مكروهتين كما ترى ، وإلا فقد وردتا فى شعر قَطَرِىّ بن الفُجَاءة فكانتا خفيفتين ، كقوله(١) :

وَلَقَدْ أَرَانِي لِلرِّمَاحِ دَرِيئَةً مِنْ عَنْ يَمِينِي مَرَّةً وَأَمَامِي

والأصل فى ذلك راجع إلى السبك ، فإذا سبكت هاتان اللفظتان أو مايجرى مجراهما مع ألفاظ تسهل منهما لم يكن بهما من ثقل ، كما جاءتا فى بيت قطرى ، وإذا سبكتا مع ألفاظ تثقل منهما جاءتا كما جاءتا فى بيت أبى تمام .

ومن هذا القسم قول أبى تمام أيضاً(٢) :

كَأَنَّه لاجْتِمَاعِ الرُّوحِ فِيهِ لَهُ فِي كُلِّ جارِحَةٍ مِنْ جِسْمِهِ رُوحُ

فقوله فى بعد قوله فيه له مما لايحسن وروده .

وكذلك ورد قول أبى الطيب المتنبى :

وَتُسْعِدُنِي فِي غَمْرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ سَبُوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ

فقوله « لها منها عليها » من الثقيل الثقيل الثقيل .

وكذلك قوله(٣) :

تَبِيتُ وُفُودُهُمْ تَسْرِي إِلَيْهِ وَجَدْوَاهُ الَّتِي سَأَلُوا اغْتِفَارُ
فَخَلَّفَهُمْ بِرَدِّ الْبِيضِ عَنْهُمْ وَهَامُهُمُ لَهُ مَعَهُمْ مُعَارُ

---

(١) من كلمة له اختارها أبو تمام فى الحماسة (انظر شرح التبريزى : ١ ــ ١٣٠) وأولها قوله :

لاَيَرْكَنَنْ أَحَدٌ إِلَى الْإِحْجَامِ يَوْمَ الْوَغَى مُتَخَوِّفاً لِحِمَامِ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف الثغرى ، وأولها قوله :

قُلْ لِلأَمِيرِ لَقَدْ قَلَّدْتَنِي نِعَماً فُتَّ الثَّنَاءَ بِهَا مَاهَبَّتِ الرِّيحُ

(٣) من قصيدة له فى سيف الدولة ، وأولها قوله :

طِوَالُ قَناً تُطَاعِنُهَا قِصَارُ وَقَطْرُكَ فِى نَدًى وَوَغًى بِحَارُ

وقوله « وهامهم له معهم » مما يثقل النطق به ، ويتعثَّر اللسان فيه ، لكنه أقرب حالاً من الأول .

ومن الحسن فى هذا الموضع قول أبى تمام[(١)] :

دَارٌ أُجِلُّ ٱلْهَوَى عَنْ أَنْ أُلِمَّ بِها ... فِي ٱلرَّكْبِ إلاَّ وَعَيْنِي مِنْ مَنائحِهَا

فقوله « عن أن » فى هذا البيت من الخفيف الحسن الذى لابأس به .

القسم الثانى من المعاظلة اللفظية ، تختص بتكرير الحروف ، وليس ذلك مما يتعلق بتكرير الألفاظ ، ولا بتكرير المعانى ، مما يأتى ذكره فى باب التكرير فى المقالة الثانية ، وإنما هو تكرير حرف واحد أو حرفين فى كل لفظة من ألفاظ الكلام المنثور أو المنظوم ، فيثقل حينئذ النطق به .

فمن ذلك قول بعضهم[(٢)] :

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرٍ ... وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

فهذه القافات والراآت كأنها فى تتابعها سلسلة ، ولاخفاء بما فى ذلك من الثقل .

وكذا ورد قول الحريرى فى مقاماته :

وَازْوَرَّ مَنْ كَانَ لَهُ زَائِراً ... وَعَافَ عَافِي ٱلْعُرْفِ عِرْفَانَهُ

فقوله « وعاف عافى العرف عرفانه » من التكرير المشار إليه .

وكذلك ورد قوله أيضاً فى رسالتيه اللتين صاغهما على حرفى السين والشين ، فإنه أتى فى إحداهما بالسين فى كل لفظة من ألفاظها وأتى فى الأخرى بالشين فى كل لفظة من ألفاظها ، فجاءتا كأنهما رُقَى الْعقَارب ، أو خُذْرُوفَة العزائم ، وما

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها الفضل بن صالح الهاشمى ، وأولها قوله :

أَهْدِى الدُّمُوعَ إِلَى دَارٍ وَمَاصِحِهَا ... فَالْمنازِلِ سَهْمٌ مِنْ سَوَافِحِهَا

(٢) زعموا أن الجنّ قتلوا حرب بن أمية بن عبد شمس فى بادية بعيدة وأنهم قالوا هذا البيت فيه .

أعلم كيف خفى مافيهما من القبح على مثل الحريرى مع معرفته بالجيد والردىء من الكلام .

ويحكى عن بعض الوعاظ أنه قال فى جملة كلام أورده : جَنَى جَنَّاتِ وَجَنَاتِ الْحَبِيبِ ، فصاح رجل من الحاضرين فى المجلس وماد وتغاشى ، فقال له رجل كان إلى جانبه : ما الذى سمعت حتى حدث بك هذا ؟ فقال: سمعت جيما فى جيم فى جيم فصحت .

وهذا من أقبح عيوب الألفاظ .

ومما جاء منه قول أبى الطيب المتنبى فى قصيدته التى مطلعها :

* أَتُرَاهَا لِكَثْرَةِ الْعُشَّاقِ(١) *

كَيْفَ تَرْثِى الَّتِى تَرَى كُلَّ جَفْنٍ   رَاءَهَا غَيْرَ جَفْنِهَا غَيْرَ رَاقِ(٢)

وهذا وأمثاله إنما يعرض لقائله فى نوبة الصرع التى تنوب فى بعض الأيام .

ومن هذا القسم قول الشاعر المعروف بكُشَاجم فى قصيدته التى مطلعها :

* دَاوِ خُمَارِى بِكَأْسِ خَمْرِ(٣) *

وَالزَّهْرُ وَالْقَطْرُ فِى رُبَاهَا   مَابَيْنَ نَظْمٍ وَبَيْنَ نَثْرِ(٤)

---

(١) هذا صدر البيت ، وعجزه قوله :

* تَحْسَبُ الدَّمْعَ خِلْقَةً فِى الْمَآقِى *

(٢) « راءها » أراد رآها ، فقلب الكلمة قلبا مكانيا

(٣) هذا صدر البيت ، وعجزه قوله :

* وَأَحْيِ سُكْرَ الْهَوَى بِسُكْرِ *

(٤) رواية الديوان :

فَالنَّوْرُ وَالطَّلُّ فِى رُبَاهُ   مَابَيْنَ نَظْمٍ وَبَيْنَ نَثْرِ

حَدَائِقُ كَفُّ كُلِّ رِيحٍ ... حَلَّ بِهَا خَيْطُ كُلِّ قَطْرٍ (١)

وهذا البيت يحتاج الناطق به إلى بركار يضعه فى شدقه حتى يديره له .

وعلى هذا الأسلوب ورد قول بعضهم وهو البيت المشهور الذى يتذاكره الناس

مَلِلْتُ مِطَالَ مَوْلُودٍ مُفَدًّى ... مَلِيحٍ مَانِعٍ مِنِّى مُرَادِى

وهذه الميمات كأنها عقد متصلة بعضها ببعض .

وكان بعض أهل الأدب من أهل مصرنا هذا يستعمل هذا القسم فى ألفاظه كثيراً فى كلامه نثراً ونظماً ، وذلك لعدم معرفته بسلوك الطريق .

وأنا أذكر نبذة من ذلك ، كقوله فى وصف رجل سخى : أنت المديح كبداً تريح ، والمليح إن تجهّم المليح بالتّكليح ، عند سائل تلوح ، بل يفوق إذ يروق مرأى لوح ، يامَغْبُوقَ كأس الحمد يامصبوح ، ضاق عن نداك اللوح ، وببابك المفتوح تستريح ، وتريح ذا التبريح ، وترفّه الطليح .

فانظر إلى حرف الحاء كيف قد لزمه فى كل لفظة من هذه الألفاظ فجاء كما تراه من الثقل والغثاثة ؟ .

واعلم أن العرب الذين هم الأصل فى هذه اللغة قد عَدَلوا عن تكرير الحروف فى كثير من كلامهم ، وذاك أنه إذا تكرر الحرف عندهم أدغموه استحسانا فقالوا فى جَعَلَ لَكَ : جَعَلَّكَ ، وفى تضربونَنِي : تَضْرِبونِّى ، وكذلك قالوا : اسْتَعَدَّ فلان للأمر ؛ إذا تأهَّبَ له ، والأصل فيه اسْتَعْدَدَ ، واسْتَتَبَّ الأَمر ؛ إذا تهيأ ، والأصل فيه اسْتَتْبَبَ ، وأشباه ذلك كثير فى كلامهم ، حتى إنهم لشدة كراهتهم لتكرير الحروف أبدلوا أحد الحرفين المكررين حرفا آخر غيره ،

---

(١) رواية الديوان :

حَكَتْ أَكُفُّ الرِّيَاحِ لَيْلاً ... بِرَوْضِه خيط كُلِّ قَطْرِ

فقالوا : أَمْلَيْتُ الـكتابَ ، والأصل فيه أَمْلَلْتُ ، فأبدلوا اللام ياء طلباً للخفة ، وفراراً من الثقل ، و إذا كان قد فعلوا ذلك فى اللفظة الواحدة فما ظنك بالألفاظ الـكثيرة التى يتبع بعضها بعضاً ؟ .

القسم الثالث من المعاظلة : أن ترد ألفاظ على صيغة الفعل يتبع بعضها بعضاً ؛ فمنها مايختلف بين ماض ومستقبل ، ومنها ما لايختلف .

فالأول كقول القاضى الأَرَّجَانى فى أبيات يصف فيها الشمعة ، وفيها مَعْنًى هو له مُبْتَدَع ، ولم يسمع من غيره ، وذلك أنه قال عن لسان الشمع : إنه ألف العسل وهو أخوه الذى ربى معه فى بيت واحد ، و إن النار فرقت بينه و بينه ، و إنه نذر أن يقتل نفسه بالنار أيضاً من ألم الفراق ، إلا أنه أساء العبارة ؛ فقال(١) .

بالنَّارِ فَرَّقَتِ الحَوَادِثُ بَيْنَنَا ... وَبِهَا نَذَرْتُ أَعُودُ أَقتُلُ رُوحِى

فقوله « نذرت أعود [أقتل] » من المعاظلة المشار إليها .

وأما ما يرد على نهج واحد من الصيغة الفعلية : فـكقول أبى الطيب المتنبى(٢) :

---

(١) قبل هذا البيت من أول الـكلمة قوله :

وَلَقَدْ أَقُولُ لِشَمْعَةٍ نُصِبَتْ لَنَا ... وَسُتُورُ جُنْحِ ٱللَّيْلِ ذَاتُ جُنُوحِ

أَنَا مَنْ يَحِنُّ إِلَى ٱلْأَحِبَّةِ قَلْبُهُ ... وَلَكِ ٱلْبُكَاءُ بِدَمْعِكِ المَسْفُوحِ

قَالَتْ : عَجِلْتَ إِلَى المَلَامِ مُسَارِعًا ... فَٱسْمَعْ بَيَانَ حَدِيثِيَ المَشْرُوحِ

أُفْرِدْتُ مِنْ إِلْفٍ شَهِيٍّ وَصْلُهُ ... حُلْوِ الجَنَى عَذْبِ المَذَاقِ صَرِيحِ

و بعده البيت ، وهو آخر القطعة ، وانظر الديوان (ص ٨٣ بيروت) .

(٢) من قصيدة له أولها قوله :

أَجَابَ دَمْعِى وَمَا ٱلدَّاعِى سِوَى طَلَلِ ... دَعَا فَلَبَّاهُ قَبلَ الرَّكْبِ وَالْإِبِلِ

أَقِلْ أَنِلْ أَقْطِعِ احْمِلْ عَلِّ سَلِّ أَعِدْ زِدْ هَشَّ بَشَّ تَفَضَّلْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ (١)

فهذه ألفاظ جاءت على صيغة واحدة ، وهى صيغة الأمر ، كأنه قال افعَلْ افعلْ ، هكذا إلى آخر البيت ، وهذا تكرير للصيغة وإن لم يكن تكريراً للحروف ، إلا أنه أخوه ، ولا أقول ابن عمه ، وهذه ألفاظ متراكبة متداخلة ، ولو عطفها بالواو لكانت أقرب حالا ، كما قال عبد السلام بن رَغْبَان (٢) :

فَسَدَ النَّاسُ فاطْلُبِ الرِّزْقَ بالسَّيْـــفِ وَإلاَّ فَمُتْ شَدِيدَ الهُزَالِ

احْلُ وَامْرُرْ وَضُرَّ وَانفَعْ وَلِنْ وَاخْــشُنْ وَأَبْرِ زْ ثُمَّ انتَدِبْ لِلمَعَالِي

ألا ترى أنه لما عطف ههنا بالواو لم تتراكب الألفاظ كتراكبها فى بيت أبى الطيب المتقدم ذكره .

فإن قيل : إنك جعلت ما كان وارداً على صيغة واحدة على سبيل التكرار معاظلةً ، وقد ورد ذلك فى القرآن الكريم ، كقوله تعالى : (فإِذَا انْسَلَخَ

---

(١) هكذا ورد فى الديوان وفى أصول الكتاب ، ويروى على وجه آخر ، وهو هكذا :

أَقِلْ أَنِلْ أَنْ صُنِ احْمِلْ عَلِّ سَلِّ أَعِدْ

زِدْ هَشَّ بَشَّ هَبِ اغْفِرْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ

وله بيت آخر من هذا القبيل ، وهو قوله :

عِشِ ابْقَ اسْمُ سُدْ قُدْ جُدْ مُرِ انْهَ رِفِ اسْرِ نِلْ

غِظِ ارْمِ صِبِ احْمِ اغْزُ اسْبِ رُعْ زَعْ دِلِ اثْنِ نُلْ

وَهٰذَا دُعَاء لَوْ سَكَتُّ كُفِيتَهُ لِأَنِّى سَأَلْتُ اللهَ فِيكَ وَقَدْ فَعَلْ

وبديع الزمان الهمذانى يسمى هذا « حماقات المتنبى » .

(٢) هو المعروف بديك الجن ، ووقع فى ا ، ب ، ج « بن رعبان » بالعين المهملة فى اسم أبيه ، وصوابه بالغين المعجمة ، وانظر (ص ١١٤ هـ ١ من هذا الجزء) .

الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ) ولو كان معاظلة لما ورد فى القرآن الكريم مثله .

فالجواب عن ذلك أنى أقول : هذه الآية ليست كالذى أنكرته ؛ فإن هذا الموضع ينظر فيه إلى الكثير والقليل ، فإذا كثر كان تعاظلا ؛ لتراكبه وثقله على النطق ، وقد عرّفتك أن ما يفصل بين صيغه بواو العطف يكون أقل ثقلا مما لايفصل ، والذى أنكرته من ذلك هو أن تأتى ألفاظ مكررة على صيغة واحدة كأنها عُقَد متصلة ، فحينئذ يثقل النطق بها ، ويكره موقعها من السمع ، كبيت أبى الطيب المتنبى ، وأما هذه الآية المشار إليها فإنها خارجة عن هذا الحكم ، ألا ترى أنها لما وردت ألفاظها على صيغة واحدة فرق بينها بواو العطف ، ثم مع التفريق بينها بواو العطف لم يرد التكرير فيها إلا بين ثنتين ، وهما (خُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ) ، وأما الصيغة الأولى فانها أضيف إليها كلام آخر ، فقيل : (اقتلوا المشركينَ حيثُ وَجدتموهُمْ) ولم يقل اقتلوا المشركين وخذوهم ، ثم لما جاءت الصيغة الرابعة أضيف إليها كلام آخر أيضاً فقيل : (وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ) لاجَرَم أن الآية جاءت غير ثقيلة على النطق مع توارد صيغة الأمر فيها أربع مرار ، وهذه رموز ينبغى أن يتنبه لها فى استعمال الألفاظ إذا جاءت هكذا .

القسم الرابع من المعاظلة : وهو الذى يتضمن مضافات كثيرة ، كقولهم : سَرْجُ فَرَسِ غُلَامِ زَيْدٍ ، وإن زِيدَ على ذلك قيل : لبدُ سرْجِ فرس غُلَامِ زَيْدٍ، وهذا أشد قبحاً وأثقل على اللسان ، وعليه ورد قول ابن بابك الشاعر فى مُفْتَتَح قصيدة له :

حَمَامَةَ جَرْعَا حَوْمَةِ الْجَنْدَلِ اسْجَعِى ... فَأَنْتِ بِمَرْأًى مِنْ سُعَادَ وَمَسْمَعِ

القسم الخامس من المعاظلة : أن ترد صفات متعددة على نحو واحد ، كقول أبى تمام فى قصيدته التى مطلعها :

* مَا لِكَثِيبِ الْحِمَى إلَى عقدِهْ[١] *

فقال يصف جملا :

سَأَخْرِقُ الْخَرْقَ بِابْنِ خَرْقاءَ كالْـهَيْقِ إذَا مَا اسْتَحَمَّ مِنْ نَجَدِهْ[٢]
مُقَابَلٌ فِي الْجَدِيلِ صُلْبُ الْقَرَا لَوْ حُكَّ مِنْ عَجْبِهِ إلَى كَتَدِهْ[٣]
تَامِكِهِ نَهْدِهِ مُدَاخَلِهِ مَلْمُومِهِ مُحْزَئِلِّهِ أُجُدِهْ[٤]

فالبيت الثالث من المعاظلة التى قَلْع الأسنان دون إيرادها .

وكذلك قال من هذه القصيدة يصف رمحاً :

وَمَرَّ تَهْفُو ذُؤَابَتَاهُ عَلَى أَسْمَرَ مَتْنٍ يَوْمَ الْوَغَى جَسِدِهْ[٥]
مَارِنِهِ لَدْنِهِ مُثَقَّفِهِ عَرَّاصِهِ فِى الْأَكُفِّ مُطَّرِدِهْ[٦]

---

(١) هذا صدر مطلع القصيدة ، وعجزه قوله :

* مَا بَالُ جَرْعَائِهِ إلَى جَرَدِهْ *

وهى قصيدة يمدح فيها خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى (انظر الديوان ٩١ بيروت).

(٢) سأخرق : يريد سأقطع ، والخرق ــ بفتح فسكون ــ الفلاة الواسعة ، وابن الخرقاء : الجمل ، والخرقاء : الناقة التى تشبه بالريح ؛ والهيق : ذكر النعام ، والنجد : العرق .

(٣) مقابل : يريد كريم الأبوين ، والجديل : فحل نجيب مشهور عند العرب ، والقرا : الظهر ، والعجب : طرف السلسلة الفقارية مما يلى الذنب ، والكتد : مجتمع الأكتاف ، والمراد بقوله « لوحك إلخ » أنه لو امتحن وجرب .

(٤) التامك : السنام ، والنهد : الشدى ، والمداخل : المحكم الجدل ، والملموم : المجتمع ، والمحزئل : المرتفع فى سيره . والأجد : فقار الظهر .

(٥) تهفو : تخفق ، والذؤابة : ضفيرة الشعر المرسلة ، وجسد ــ بفتح فكسر صفة مشبهة من قولك : جسد الدم يجسد فهو جاسد وجسد ؛ إذا لصق ، وأراد بالأسمر الرمح الذى عليه اللواء .

(٦) مارنه : هو من أوصاف الرمح ، وهو الصلب اللين ، واللدن : اللين ،

وهذا كالأول فى قبحه وثقله ، فقاتله الله ! ! ماأمتن شعره ! وما أسخفه فى بعض الأحوال ! .

وعلى هذا جاء من هذه القصيدة أيضاً يصف الممدوح :

إِلَيْكَ عَنْ سَيْلٍ عَارِضٍ خَضِلِ الشُّؤْبُوبِ يَأْتِي الْحِمَامُ مِنْ نَضَدِهْ (١)
مُسِفِّهِ ثَرِّهِ مُسَحْسِحِهِ وَابِلِهِ مُسْتَهِلِّهِ جَرِدِهْ (٢)

ولولم يكن لأبى تمام من القبيح الشنيع إلا هذه الأبيات لَحَطَّت من قدره .

وعلى هذا ورد قول أبى الطيب المتنبى (٣) :

دَانٍ بَعِيدٍ مُحِبٍّ مُبْغِضٍ بَهِجٍ أَغَرَّ حُلْوٍ مُمِرٍّ لَيِّنٍ شَرِسِ (٤)

والمثقف : المهذب المقوم بالثقاف ، والعراص : الذى يهتز أو يضطرب ، والمطرد : الذى أنابيبه بنسبة واحدة ، ووقع «عراضه» بكسر العين المهملة و بعد الألف ضاد معجمة ، فى بعض نسخ الديوان ، وهو صفحته ، وما أثبتناه أليق بما قبله و بما بعده ، وهو موافق لنسخة من الديوان وهو الثابت فى ا ، ب ، ج .

(١) الخضل : الندىّ ، والشؤبوب : الدفعة القوية من المطر ، والحمام : الموت ، والنضد : المتراكم . يصفه بالشدة والقوة العظيمة التى تجلب الموت لمن حلت به .

(٢) المسف : القريب من الأرض ، والثر : الكثير الماء ، والمسحسح : الذى يسيل من فوق ، والوابل : المطر الغزير ، والمستهل : المنصب ، وكل هذه نعوت للعارض فى البيت الذى قبله .

(٣) من قصيدة له يمدح فيها عبيد الله الطرابلسى ، وأولها قوله :

أَظَبْيَةَ الْوَحْشِ لَوْلاَ ظَبْيَةُ الْأَنَسِ لَمَا غَدَوْتُ بِجَدٍّ فِي الْهَوَى تَعِسِ

(٤) البهج ــ بالباء الموحدة ــ الفرح، وورد فى ا ،ب ، ج «نهج» بالنون ، والشرس الصعب ، و يراد به السيىء الخلق فى غير هذا المكان ، يريد أنه قريب ممن يقصده، بعيد عمن ينازله ، محب للفضل وأهله ، ومبغض للنقص وأهله ، يبهج بالقصاد ، حلو لاوليائه مر على أعدائه ، لين حسن الخلق على الأولياء صعب الشكيمة على الأعداء .

نَدٍ أَبِيٍّ غَرٍ وَافٍ أَخِي ثِقَةٍ جَعْدٍ سَرِيٍّ نَهٍ نَدْبٍ رِضًى نَدُسٍ (١)

وهذا كأنه سلسلة بلا شك ، وقليلا مايوجد فى أشعار الشعراء ، ولم أجده كثيراً إلا فى شعر الفرزدق ، وتلك معاظلة معنوية ، وسيأتى بيانها فى بابها ، وهذه معاظلة لفظية ، وهى توجد فى شعر أبى الطيب كثيراً .

النوع الثامن : فى المنافرة بين الألفاظ فى السبك

وهذا النوع لم يحقق أحد من علماء البيان القول فيه ، وغاية ما يقال : إنه ينبغى ألاّ تكون الألفاظ نافرة عن مواضعها ، ثم يكتفى بهذا القول ، من غير بيان ولا تفصيل ، حتى إنه قد خلط هذا النوع بالمعاظلة ، وكل منهما نوع مفرد برأسه له حقيقة تخصّه ، إلا أنهما قد اشتبها على علماء البيان ، فكيف على جاهل لايعلم .

وقد بَيَّنْتُ هذا النوع وفَصَّلته عن المعاظلة ، وضربت له أمثلة يستدلّ بها على أخواتها وما يجرى مجراها .

وجملة الأمر أن مَدَار سَبْك الألفاظ على هذا النوع والذى قبله دون غيرها من تلك الأنواع المذكورة ؛ لأن هٰذين النوعين أصْلاَ سَبْكِ الألفاظ ، وما عداهما فرع عليهما ، وإذا لم يكن الناثر أو الناظم عارفاً بهما فإن مَقَاتِلَه تبدو كثيراً .

وحقيقة هذا النوع الذى هو المنافرة : أن يذكر لفظ أو ألفاظ يكون غيرها مما هو فى معناها أولى بالذكر .

(١) الندى : الجواد ، والأبى : الذى يمتنع من الدنايا ، والوافى : الذى يفى بما يؤمل فيه ، والغرى: المولع بفعل الجميل ، والجعد : الماضى فى الأمر ههنا ، والسرى: الشريف ذوالمروءة ، والنهى : ذوالنهية وهى العقل ، والندب : السريع فيا ينتدب له من الأمور ، والندس ـ بضم الدال أو كسرها ـ الذى يعرف حقائق الأمور لكثرة مايبحث عنها .

وعلى هذا فإن الفرق بينه وبين المعاظلة أن المعاظلة هى التراكب والتداخل إما فى الألفاظ أو فى المعانى ، على ماأشرت إليه ، وهذا النوع لاتراكب فيه ، وإنما هو إيراد ألفاظ غير لائقة بموضعها الذى ترد فيه .

وهو ينقسم قسمين : أحدهما يوجد فى اللفظة الواحدة ، والآخر فى الألفاظ المتعددة .

فأما الذى يوجد فى اللفظة الواحدة فإنه إذا ورد فى الكلام أمكن تبديله بغيره مما هو فى معناه ، سواء كان ذلك الكلام نثراً أو نظما .

وأما الذى يوجد فى الألفاظ المتعددة فإنه لايمكن تبديله بغيره فى الشعر ، بل يمكن ذلك فى النثر خاصة ؛ لأنه يعسر فى الشعر من أجل الوزن .

فمما جاء من القسم الأول قول أبى الطيب المتنبى(١) :

فَلاَ يُبْرَمُ الْأَمْرُ الَّذِى هُوَ حَالِلٌ وَلاَ يُحْلَلُ الْأَمْرُ الَّذى هُوَ يُبْرِمُ

فلفظة « حالل » نافرة عن موضعها ، وكانت له مَنْدُوحة عنها ؛ لأنه لو استعمل عوضاً عنها لفظة « ناقض » فقال :

فَلاَ يُبْرَمُ الْأَمْرُ الَّذى هُوَ نَاقِضٌ وَلاَ يُنْقَضُ الْأَمْرُ الَّذى هُوَ يُبْرِمُ

لجاءت اللفظة قارَّةً فى مكانها ، غير قلقة ولا نافرة .

وبلغنى عن أبى العلاء بن سليمان المعرّى أنه كان يَتعَصَّب لأبى الطيب ، حتى إنه كان يسميه « الشاعر » ويسمى غيره من الشعراء باسمه ، وكان يقول :

(١) من قصيدة له يمدح فيها عمر بن سليمان الشرابى ، وأولها قوله :

نَرَى عِظَماً بِالْبَيْنِ ، وَالصَّدُّ أَعْظَمُ وَنَتَّهِمُ الْوَاشِينَ ، وَالدَّمْعُ مِنْهُمُ

ليس فى شعره لفظة يمكن أن يقوم عنها ماهو فى معناها فيجىء حسناً مثلها ؛ فياليت شعرى أماوقف على هذا البيت المشار إليه ، لكن الْهَوَى كما يقال أعمى ؛ وكان أبو العلاء أعمى العين خِلْقَةً وأعماها عَصَبِيَّةً ، فاجتمع له العمى من جهتين .

وهذه اللفظة التى هى « حالل » وما يجرى مجراها قبيحة الاستعمال ، وهى فكّ الْإِدغام فى الفعل الثلاثى ، ونقله إلى اسم الفاعل ، وعلى هذا فلا يحسن أن يقال : بَلَّ الثوب فهو بَالِل ، ولا سَلَّ السيفَ فهو سَالِل ، ولا أن يقال : هَمّ بالأمر فهو هامم ، ولا خَطَّ الكتابَ فهو خاطِط ، ولا حَنَّ إلى كذا فهو حَانِن ، وهذا لو عرض على من لاذوق له لأدركه وفهمه ، فكيف من له ذوق صحيح كأبى الطيب ، لكن لابد لكل جواد من كَبْوَة .

وأنشد بعض الأدباء بيتاً لِدِعْبِل ، وهو :

شَفِيعُكَ فَاشكُرْ فى الْحَوَائِجِ إِنَّهُ ... يَصُونُكَ عَنْ مَكْرُوهِهَا وَهْو يخْلَقُ

فقلت له : عجز هذا البيت حسن ، وأما صدره فقبيح ؛ لأنه سبكه قلقاً نافراً ، وتلك الفاء التى فى قوله « شفيعك فاشكر » كأنها ركبة البعير ، وهى فى زيادتها كزيادة الكرش ، فقال : لهذه الفاء فى كتاب الله أشباه ، كقوله تعالى : (يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) فقلت له : بين هذه الفاء وتلك الفاء فرق ظاهر يدرك بالعلم أولا ، وبالذوق ثانياً ؛ أما العلم فإن الفاء فى (وربك فكبر وثيابك فطهر) هى الفاء العاطفة ؛ فإنها واردة بعد (قم فأنذر) وهى مثل قولك : امْشِ فَأَسْرِع ، وَقُلْ فَأَبْلِغ ، وليست الفاء التى فى « شفيعك فاشكر » كهذه الفاء ؛ لأن تلك زائدة لاموضع لها ، ولو جاءت فى السورة كما جاءت فى قول دعبل ـ وَحَاشَ لِلهِ من ذلك ـ لابتدىء الكلام ، فقيل : ربك فكبر وثيابك فطهر ؛ لكنها لما جاءت بعد (قم فأنذر) حسن ذكرها فيما يأتى بعدها من (وربك فكبر وثيابك فطهر) ؛ وأما الذوق فإنه ينبو عن الفاء الواردة

فى قول دعبل ويستثقلها ، ولا يوجد ذلك فى الفاء الواردة فى السورة ، فلما سمع ماذكرته أذْعَنَ بالتسليم .

ومثل هذه الدقائق التى ترد فى الكلام نظماً كان أونثراً لا يتفطن لها إلا الراسخ فى علم الفصاحة والبلاغة .

ومن هذا القسم وَصْلُ همزة القطع ، وهو محسوب من جائزات الشعر التى لا تجوز فى الكلام المنثور ، وكذلك قطع همزة الوصل ، لكن وصل همزة القطع أقبح ؛ لأنه أثقل على اللسان .

فمما ورد من ذلك قول أبى تمام[1] :

قَرَانِى اللُّهَا وَالوُدَّ حَتَّى كَأَنَّمَا ... أَفَادَ الْغِنَى مِنْ نَائِلِي وَفَوَائِدِي

فَأَصْبَحَ يَلْقَانِي الزَّمَانُ مِنَ اُجْلِهِ ... بِإِعْظَامِ مَوْلُودٍ وَرَأْفَةِ وَالِدِ[2]

فقوله « مِنَ اُجله » وصل لهمزة القطع .

وعليه ورد قول أبى الطيب المتنبى[3] :

تُوَسِّطُهُ الْمَفَاوِزَ كُلَّ يَوْمٍ ... طِلَابُ الطَّالِبِينَ لَا اُلِانْتِظَارُ

فقوله « لا الانتظار » كلام نافر عن موضعه .

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها محمد بن الهيثم بن شبابة ، وأولها قوله :

قِفُوا جَدِّدُوا مِنْ عَهْدِكُمْ بِالْمَعَاهِدِ ... وَإِنْ هِيَ لَمْ تَسْمَعْ لِنِشْدَانِ نَاشِدِ

(٢) فى جميع نسخ الديوان التى بين يدى :

☆ فأَصْبَحَ يَلْقَانِي الزَّمَانُ لِأَجْلِهِ ☆

ولا شىء فى هذه الرواية .

(٣) من قصيدة له فى سيف الدولة ، وأولها قوله :

طِوَالُ قَنًا تُطَاعِنُهَا قِصَارُ ... وَقَطْرُكَ فِي نَدًى وَوَغًى بِحَارُ

ومن هذا القسم أن يفرق بين الموصوف والصفة بضمير من تقدم ذكره ، كقول البحترى(١) :

حَلَفْتُ لَهَا بِاللهِ يَوْمَ التَّفَرُّقِ وَبِالْوَجْدِ مِنْ قَلْبِي بِهَا الْمُتَعَلِّقِ

تقديره « من قلبي المتعلق بها » فلما فصل بين الموصوف الذى هو قلبي والصفة التى هى المتعلِّق بالضمير الذى هو بها قبح ذلك ، ولو كان قال « من قلبٍ بِهَا مُتَعَلِّق » لزال ذلك القبح وذهبت تلك الهجنة .

ومن هذا القسم أيضاً أن تزاد الألف واللام فى اسم الفاعل ، ويقام الضمير فيه مقام المفعول ، كقول أبى تمام(٢) :

فَلَوْ عَايَنْتَهُمْ وَالزَّائِرِيهِمْ لَمَا مِزْتَ الْبَعِيدَ مِنَ الْحَمِيمِ(٣)

فقوله « الزائرى » اسم فاعل ، وقوله « هم » الذى هو الضمير فى موضع المفعول ، تقديره الزائرين أرضهم أو دارهم أو الزائرين إياهم ؛ فاستعمال هذا مع الألف واللام قبيح جداً ، وإذا حذفتا زال ذلك القبح ، وقد استعملها الشعراء المتقدمون كثيراً .

---

(١) هذا مطلع قصيدة له يمدح فيها الفتح بن خاقان ، وبعده قوله :

وَبِالْعَهْدِ مَا الْبَذْلُ الْقَلِيلُ بِضَائِعٍ لَدَيَّ وَلَا الْعَهْدُ الْقَدِيمُ بِمُخْلَقِ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها بنى عبد الكريم الطائيين ، وأولها قوله :

أَرَامَةُ ، كُنْتِ مَأْلَفَ كُلِّ رِيمٍ لَوِ اسْتَمْتَعْتِ بِالْأُنُسِ الْمُقِيمِ

(٣) الذى فى نسخ الديوان :

* فَلَوْ عَايَنْتَهُمْ مَعَ زَائِرِيهِمْ *

ولا شيء فى هذه الرواية .

ومما جاء من القسم الثانى الذى يوجد فى الألفاظ المتعددة قول أبى الطيب أيضاً(١) :

لَا خَلْقَ أَكْرَمُ مِنْكَ إِلَّا عَارِفٌ … بِكَ رَاءَ نَفْسَكَ لَمْ يَقُلْ لَكَ هَاتِهَا(٢)

فإن عجز هذا البيت نافر عن مواضعه ، وأمثال هذا فى الأشعار كثير .

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا أيوب أحمد بن عمران ، وأولها قوله :

سِرْبٌ مَحَاسِنُهُ حُرِمْتُ ذَوَاتِهَا … دَانِى الصِّفَاتِ بَعِيدُ مَوْصُوفَاتِهَا

(٢) فى رواية الديوان «لاخلق أسمح منك» ؛ وقد سمع أبو الطيب قول أبى تمام فى مدح المعتصم :

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِى كَفِّهِ غَيْرُ نَفْسِهِ … لَجَادَ بِهَا فَلْيَتَّقِ اللهَ سَائِلُهْ

فأخذ منه هذا المعنى .

المقالة الثانية

فى الصناعة المعنوية

وهى تنقسم إلى قسمين : الأول منها فى الكلام على المعانى مجملا ، والثانى فى الكلام عليها مفصلا .

وقبل الكلام على ذلك لا بد من توطِئة تكون شاملةً لما نحن بصدد ذكره ههنا ، فأقول :

أعلم أن المعانى الْخَطَابية قد حصرت أصولها ، وأول من تكلم فى ذلك حُكماء اليونان ، غير أن ذلك الْحَصْرَ كلىٌّ لا جزئى ، ومحال أن تحصر جزئيات المعانى وما يتفرع عليها من التفريعات التى لا نهاية لها ، لا جَرَم أن ذلك الحصر لا يستفيد بمعرفته صاحب هذا العلم ، ولا يفتقر إليه ؛ فان البدوى البادى رَاعِىَ الإبل ما كان يمرُّ شىء من ذلك بفهمه ، ولا يخطر بباله ، ومع هذا فانه كان يأتى بالسحر الحَلَال إن قال شعراً أو تكلم نثراً .

فان قيل : إن ذلك البدوىّ كان له ذلك طَبْعاً وخليقةً ، والله فطره عليه كما فطر ضروبَ نوع الآدمى على فِطَرٍ مختلفة هى لهم فى أصل الخلقة ؛ فإنه فطر الترك على الإحسان فى الرمى والإصابة فيه من غير تعليم ، وكذلك فطر أهل الصين على الإحسان فى صنعة اليد فيما يباشرونه من مَصُوغ أوخشب أو فخّار أو غير ذلك ، وكذلك فطر أهل المغرب على الشجاعة ، وهذا لا نزاع فيه ، فإنه مشاهد .

فالجواب عن ذلك أنى أقول : إن سلمت إليك أن الشعر والخطابة كانا للعرب بالطبع والفطرة فماذا تقول فيمن جاء بعدهم من شاعر وخطيب تحضَّرُوا وسكنوا البلاد ، ولم يَرَوُا البادية ولا خلقوا بها ، وقد أجادوا فى تأليف النظم والشعر ، وجاءوا بمعانٍ كثيرة ماجاءت فى شعر العرب ولا نطقوا بها .

فان قلت : إن هؤلاء وقفوا على ماذكره علماء اليونان وتعلموا منه .

قلت لك فى الجواب : هذا شئ لم يكن ، ولا عَلِمَ أبو نواس شيئاً منــه ، ولا مسلم بن الوليد ، ولا أبو تمام ، ولا البحترى ، ولا أبو الطيب المتنبى ، ولا غيرهم ، وكذلك جرى الحكم فى أهل الكتابة كعبدالحميد ، وابن العميد ، والصابى ، وغيرهم ، فإن ادعيت أن هؤلاء تعلموا ذلك من كتب علماء اليونان قلت لك فى الجواب : هذا باطل بى أنا ؛ فإنى لم أعلم شيئا ممـا ذكره حكماء اليونان ، ولا عرفته ، ومع هذا فانظر إلى كلامى ، فقد أوردت لك نبذة منه فى هـــــذا الـكتاب ، وإذا وقفت على رسائلى ومكاتباتى وهى عِدَّةُ مجلدات ، وعَرَفْتَ أنى لم أتعرض لشىء ممـا ذكره حكماء اليونان فى حصر المعانى عَلِمْتَ حينئذ أن صاحب هذا العلم من النظم والنثر بنَجْوَةٍ من ذلك كله ، وأنه لا يحتاج إليه أبداً ؛ وفى كتابى هذا مايغنيك ، وهو كافٍ .

ولقد فاوضنى بعض المتفلسفين فى هذا ، وانساق الـكلام إلى شىء ذكر لأبى على بن سينا فى الخطابة والشعر ، وذكر ضربا من ضروب الشعر اليونانى يسمى اللاغوذيا ، وقام فأحضر كتاب الشفاء لأبى على ، ووَقفَنى على ماذكره ، فلما وقفت عليه استجهلته ؛ فإنه طَوَّل فيه وعرض ، كأنه يخاطب بعض اليونان ، وكل الذى ذكره لَغْوٌ لا يستفيد به صاحب الـكلام العربى شيئاً ، ثم مع هذا جميعه فإن مُعَوَّل القوم فيما يذكر من الـكلام الخطابى أنه يورد على مقدمتين ونتيجة ، وهذا ممـا لم يخطر لأبى على بن سينا ببال فيما صاغه من شعر أو كلام مسجوع ، فإن له شيئاً من ذلك فى كلامه ، وعند إفاضته فى صوغ ماصاغه لم تخطر المقدمتان والنتيجة له ببال ، ولو أنه أفـكر أولا فى المقدمتين والنتيجة ثم أتى بنظم أو نثر بعد ذلك لمـا أتى بشىء ينتفع به ، ولطال الخطب عليه ، بل أقول شيئاً آخر ، وهو : أن اليونان أنفسهم لمـا نظموا مانظموه من أشعارهم لم ينظموه فى وقت نظمه وعندهم فـكرة فى مقدمتين ولا نتيجة ، وإنمـا هذه أوضاع توضع

ويطول بها مصنفات كتبهم فى الخطابة والشعر ، وهى كما يقال : فقاقع ليس لهـا طائل ، كأنها شعر الأبِيوَرْدِى .

وحيث أوردت هذه المقدمة قبل الخوض فى تقسيم المعانى فإنى راجع إلى إلى شرح ما أجملته ، فأقول :

أما القسم الأول فإن المعانى فيه على ضربين : أحدهما : يبتدعه مؤلف الـكلام من غير أن يقتدى فيه بمن سبقه ، وهذا الضرب ربمـا يعثر عليه عند الحوادث المتجددة ، ويتنبه له عند الأمور الطارئة ، ولنشر فى هذا الموضع إلى نبذة لتكون مثالا للمتوشح لهذه الصناعة .

فمن ذلك ماورد فى شعر أبى تمـام فى وصف مصلبين(١) :

بَكَرُوا وَأَسْرَوْا فِى مُتُونِ ضَوَامِرٍ   قِيدَتْ لَهُمْ مِنْ مَرْبِطِ النَّجَّارِ
لاَ يَبْرَحُونَ وَمَنْ رَآهُمْ خَالَهُمْ   أَبَدًا عَلَى سَـفَرٍ مِنَ الْأَسْفَارِ

وهذا المعنى ممـا يعثر عليه عند الحوادث المتجددة ، والخاطر فى مثل هذا المقام ينساق إلى المعنى المخترع من غير كبير كلفة ؛ لشاهد الحال الحاضرة .

وكذلك قال فى هذه القصيدة فى صفة من أحرق بالنار :

مَا زَالَ سِرُّ الْـكُفْرِ بَيْنَ ضُلُوعِهِ   حَتَّى اصْطَلَى سِرَّ الزِّنَادِ الْوَارِى
نَاراً يُسَاوِرُ جِسْمَهُ مِنْ حَرِّهَا   لَهَبٌ كَمَا عَصْفَرْتَ شِقَّ إِزَارِ
طَارَتْ لَهَـا شُعَلٌ يُهَدِّمُ لَفْحُهَا   أَرْكَانَهُ هَدْمًا بِغَيْرِ غُبَارِ
فَصَّلْنَ مِنْهُ كُلَّ مَجْمَعِ مَفْصِلٍ   وَفَعَلْنَ فَاقِرَةً بِكُلِّ فَقَارِ
مَشْبُوبَةً رُفِعَتْ لِأَعْظَمِ مُشْرِكٍ   مَا كَانَ يُرْفَعُ ضَوْءُهَا لِلسَّارِى
صَلَّى لَهَـا حَيًّا وَكَانَ وَقُودَهَا   مَيْتاً وَيَدْخُلُهَا مَعَ الْفُجَّارِ

---

(١) هذه الأبيات من قصيدة له يمدح فيها المعتصم ويذكر إحراق الأفشين ، وأولها قوله :

الْحَقُّ أَبْلَجُ وَالسُّيُوفُ عَوَارِ   فَحَذَارِ مِنْ أُسْدِ الْعَرِينِ حَذَارِ

وهذا مما يعين على استخراج المعانى فيه شاهد الحال .

وقد ذيل البحترى على ما ذكره أبو تمام فى وصف المصلبين فقال :

كَمْ عَزِيزٍ أَبَادَهُ فَغَدَا يَرْ كَبُ عُودًا مُرَكَّبًا فِي عُودِ

أَسْلَمَتْهُ إِلَى الرُّقَادِ رِجَالٌ لَمْ يَكُونُوا عَنْ وِتْرِهِمْ بِرُقُودِ

تَحْسُدُ الطَّيْرُ فِيهِ ضَبْعَ الْبَوَادِي وَهْوَ فِي غَيْرِ حَالَةِ الْمَحْسُودِ

غَابَ عَنْ صَحْبِهِ فَلاَ هُوَ مَوْجُو دٌ لَدَيْهِمْ وَلَيْسَ بِالْمَفْقُودِ

وَكَأَنَّ امْتِدَادَ كَفَّيْهِ فَوْقَ الْـ ـجِذْعِ فِي مَحْفِلِ الرَّدَى الْمَشْهُودِ

طَائِرٌ مَدَّ مُسْتَرِيحًا جَنَاحَيْـ ـهِ اسْتِرَاحَاتِ مُتْعَبٍ مَكْدُودِ

أَخْطَبُ النَّاسِ رَاكِبًا فَإِذَا أُرْ جِلَ خَاطَبْتَ مِنْهُ عَيْنَ الْبَلِيدِ

وهذه أبيات حسنة قد استوعبت أقسام هذا المعنى المقصود ، إلا أن فيها معنى مأخوذا من شعر مسلم بن الوليد الأنصارى ، وهو قوله[1] :

نَصَبْتَهُ حَيْثُ تُرْتَابُ الرِّيَاحُ بِهِ وَتَحْسُدُ الطَّيْرُ فِيهِ أَضْبُعَ الْبِيدِ[2]

لكن البحترى زاد فى ذلك زيادة حسنة ، وهى قوله « وهو فى غير حالة المحسود » .

ومن هذا الضرب ما جاء فى شعر أبى الطيب المتنبى فى وصفه الحمى ،

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها داود بن يزيد بن حاتم بن خالد بن المهلب ، وأولها قوله :

لاَ تَدْعُ بِي الشَّوْقَ إِنِّي غَيْرُ مَعْمُودِ نَهَى النُّهَى عَنْ هَوَى الْهِيفِ الرَّعَادِيدِ

انظر الديوان (ص ١٢١ ليدن) .

(٢) رواية الديوان « وضعته حيث ترتاب الرياح به » وذكر الناشر أنه يروى « نصبته » كما هنا ، وفى بعض روايات الديوان « ويحسد الطير » بياء المضارعة ، وفى بعضها « أسبع البيد » .

وهو قوله[١] :

وَزَائِرَتِي كَأَنَّ بِهَا حَيَاءً ... فَلَيْسَ تَزُورُ إِلاَّ فِي الظَّلاَمِ
بَذَلْتُ لَهَا المَطَارِفَ وَالحَشَايَا ... فَعَافَتْهَا وَبَاتَتْ فِي عِظَامِي
كَأَنَّ الصُّبْحَ يَطْرُدُهَا فَتَجْرِي ... مَدَامِعُهَا بِأَرْبَعَةٍ سِجَامِ
أُرَاقِبُ وَقْتَهَا مِنْ غَيْرِ شَوْقٍ ... مُرَاقَبَةَ المَشُوقِ المُسْتَهَامِ

وقد شرح أبو الطيب بهذه الأبيات حاله مع الحمى .

ومن بديع ما أتى به فى هذا الموضع أن سيف الدولة بن حَمْدَان كان مخيما بأرض ديار بكر على مدينة مَيَّافَارِقِين ، فعصفت الريح بخَيْمَته ، فتَطَيَّر الناس لذلك ، وقالوا فيه أقوالا ، فمدحه أبو الطيب بقصيدة يعتذر فيها عن سقوط الخيمة أولها :

* أَيَنْفَعُ فِي الْخَيْمَةِ الْعُذَّلُ[٢] *

فمنه ما أحسن فيه كل الإحسان ، وهو قوله :

تَضِيقُ بِشَخْصِكَ أَرْجَاؤُهَا ... وَيَرْكُضُ فِي الْوَاحِدِ الْجَحْفَلُ
وَتَقْصُرُ مَا كُنْتَ فِي جَوْفِهَا ... وَتُرْكَزُ فِيهَا الْقَنَا الذُّبَّلُ
وَكَيْفَ تَقُومُ عَلَى رَاحَةٍ ... كَأَنَّ الْبِحَارَ لَهَا أَنْمُلُ
فَلَيْتَ وَقَارَكَ فَرَّقْتَهُ ... وَحَمَّلْتَ أَرْضَكَ مَا تَحْمِلُ
فَصَارَ الْأَنَامُ بِهِ سَادَةً ... وَسُدْتَهُمُ بِالَّذِي يَفْضُلُ

---

(١) من قصيدة يذكر فيها الحمى التى كانت تنتا به وهو بمصر ، وأولها قوله :

مَلُومُكُمَا يَجِلُّ عَنِ المَلاَمِ ... وَوَقْعُ فَعالِهِ فَوْقَ الْكَلاَمِ

(٢) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* وَتَشْمَلُ مَنْ دَهْرَهَا يَشْمَلُ *

رَأَتْ لَوْنَ نُورِكَ فِي لَوْنِهَا كَلَوْنِ الغَزَالَةِ لاَيُغْسَلُ
وَأَنَّ لَهَا شَرَفاً بَاذِخاً وَأَنَّ الْخِيَامَ بِهَا تَخْجَلُ
فَلاَ تُنْكِرَنَّ لَهَا صَرْعَةً فَمِنْ فَرَحِ النَّفْسِ مَا يَقْتُلُ
وَلَوْ بُلِّغَ النَّاسُ مَابُلِّغَتْ لَخَانَتْهُمُ حَوْلَكَ الْأَرْجُلُ
وَلَمَّا أَمَرْتَ بِتَطْنِيبِهَا أُشِيعَ بِأَنَّكَ لاَ تَرْحَلُ
فَمَا اعْتَمَدَ اللّٰهُ تَقْوِيضَهَا وَلٰكِنْ أَشَارَ بِمَا تَفْعَلُ
وَعَرَّفَ أَنَّكَ مِنْ هَمِّهِ وَأَنَّكَ فِي نَصْرِهِ تَرْفُلُ
فَمَا الْعَانِدُونَ وَمَا أَمَّلُوا وَمَا الْحَاسِدُونَ وَمَا قَوَّلُوا
هُمُ يَطْلُبُونَ فَمَن أَدْرَكُوا وَهُمْ يَكْذِبُونَ فَمَنْ يَقْبَلُ
وَهُمْ يَتَمَنَّوْنَ مَا يَشْتَهُونَ وَمِنْ دُونِهِ جَدُّكَ الْمُقْبِلُ

هذه الأبيات قد اشتملت على معانٍ بديعة ، وكفى المتنبى فضلا أن يأتى بمثلها ، وهذا مقام يظهر فى مثله براعة الناظم والناثر .

وقرأت فى كتاب الروضة لأبى العباس المبرد ، وهو كتاب جمعه واختار فيه أشعار شعراء بدأ فيه بأبى نواس، ثم بمن كان فى زمانه ، وانسحب على ذيله، فقال فيما أورده من شعره : وله معنى لم يسبق إليه باجماع ، وهو قوله[(١)] :

تُدَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِى عَسْجَدِيَّةٍ حَبَتْهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ
قَرَارَتُهَا كِسْرَى وَفِى جَنَبَاتِهَا مَهاً تَدَّرِيهَا بِالْقِسِيِّ الْفَوَارِسُ[(٢)]
فَلِلرَّاحِ مَا زُرَّتْ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلاَنِسُ

---

(١) قد كرر المؤلف اختيار هذه الأبيات فى غير مامناسبة ، وأكثر من التمدح بها (انظر الجزء الثانى من هذا الكتاب ص ١٢٢) .

(٢) فى ا ، ب ، ج « نورتها بالعشىّ » وما أثبتناه عن الديوان ، وتدريها : تختلها لتصطادها .

وقد أكثر العلماء من وصف هذا المعنى وقولهم فيه : إنه معنى مبتدع .

ويحكى عن الجاحظ أنه قال : مازال الشعراء يتناقلون المعنى قديماً وحديثاً ، إلا هذا المعنى ، فإن أبا نواس انفرد بابداعه ، وما أعلم أنا ما أقول لها ولأبي[١] سوى أن أقول : قد تجاوز بهم حد الإكثار ، ومن الأمثال السائرة : بدون هذا يباع الحمار ، وفصاحة هذا الشعر عندى هى الموصوفة ، لا هذا المعنى ؛ فإنه لا كبير كلفة فيه ؛ لأن أبا نواس رأى كأساً من الذهب ذات تصاوير فحكاها فى شعره ، والذى عندى فى هذا أنه من المعانى المشاهدة ؛ فان هذه الخمر لم تحمل إلاماء يسيراً ، وكانت تستغرق صور هذا الكأس إلى مكان جيوبها ، وكان الماء فيها قليلا بقدر القلانس التى على رءوسها ، وهذا حكاية حال مشاهدة بالبصر .

وكذلك ورد قوله فى الخمر أيضاً :

يَاشَقِيقَ النَّفْسِ مِنْ حَكَمِ نِمْتَ عَنْ لَيْلِي وَلَمْ تَنِمِ
فَاسْقِنِي الْخَمْرَ الَّتِي اخْتَمَرَتْ بِخِمَارِ الشَّيْبِ فى الرَّحِمِ

وهذا معنى مخترع لم يسبق إليه ، وهو دقيق يكاد لدقته أن يلتحق بالمعانى التى تستخرج من غير شاهد حال متصور .

وبلغنى أنه اختلف فى هذا المعنى بحضرة الرشيد هرون رحمه الله ، فقيل : إنه يريد بخمار الشيب فى الرحم أن الخمر تكون فى جوانبها ذات زبد أبيض على وجهها ، فقال الأصمعى: إن أبا نواس ألطف خاطراً من هذا ، وأسد غرضاً ، فاسألوه ، فأحضر وسئل ، فقال : إن الكَرْم أول ما يجرى فيه الماء يخرج شبيهاً بالقطنة ، وهى أصل العنقود ؛ فقال الأصمعى : ألم أقل لكم إن الرجل ألطف خاطراً وأسد غرضاً .

---

(١) كذا ؛ ولعل أصل العبارة « لها ولأبى نواس »

وقد جاء لابن حَمْديس الصقلى فى الهلال لآخر الشهر مالم يأت به غيره ، وهو من الحسن واللطافة فى الغاية القصوى ، وذلك قوله :

كأَنَّما أدْهَمُ الظَّلْمَاءِ حِينَ نَجَا   مِنْ أشهَبِ الصُّبْحِ أَلْقَى نَعْلَ حَافِرِهِ

وهذا حكاية حال مشاهدة بالبصر ، إلا أنه أبدع فى التشبيه .

وأمثال هذا كثيرة فى أقوال المجيدين من الشعراء .

وجملة الأمر فى ذلك أن الشاعر أو الكاتب ينظر إلى الحال الحاضرة ثم يستنبط لها مايناسبها من المعانى ، كما فعل النابغة فى مدح النعمان وقد أتاه وفد من الوفود فمات رجل منهم قبل أن يرفدهم[1] ، فلما رفدهم جعل عطاء ذلك الميت على قبره ، حتى جاء أهله وأخذوه ، فقال النابغة فى ذلك[2] :

حِباءُ شَقِيق فَوْقَ أَحْجَارِ قَبْرِهِ   وَمَا كَانَ يُحْبَى قَبْلَهُ قَبْرُ وَافِدِ

وهذا بيت من جملة أبيات ، فانظر كيف فعل النابغة فى هذا المعنى ؟

وكذلك ورد قول أخت جَسَّاس زوجة كُلَيْب ؛ فإنه لما قَتَل جساسٌ كليبا اجتمع النساء إليها وندبنه ، فتحدث بعضهن إلى بعض ، وقلن : هذه ليست ثاكلة ، وإنما هى شامتة ؛ فإنَّ أخاها هو القاتل ، فنُمِ ذلك إليها ، فقالت :

يَا ابْنَةَ الْأَقْوَامِ إنْ شِئْتِ فَلاَ   تَعْجَلِى بِاللَّوْمِ حَتَّى تَسْأَلِى

فَإذَا أَنْتِ تَبَيَّنْتِ الَّذِى   يُوجِبُ اللوْمَ فَلُومِى وَاعْذِلِى

---

(١) فى ا ، ب ، ج « يوفدهم فلما وفدهم » بالواو ، ورفده : أعطاه ، ولعل أدنى تأمل يدل على أن الصواب ما أثبتناه .

(٢) قبل هذا البيت قوله :

أَبْقَيْتَ لِلعَبْسِىِّ فَضْلاً وَنِعْمَةً   وَمَحْمَدَةً مِنْ بَاقِيَاتِ الْمَحَامِدِ

و بعده قوله :

أَتَى أَهْلَهُ مِنْهُ حِبَاءٌ وَنِعْمَةٌ   وَرُبَّ امْرِئٍ يَسْعَى لآخَرَ قَاعِدِ

إِنَّ أُخْتاً لِامْرِئٍ لِيمَتْ عَلَى شَفَقٍ مِنْهَا عَلَيْهِ فَافْعَلِي(١)
جَلَّ عِنْدِي فِعْلُ جَسَّاسٍ فَوَا حَسْرَتَا عَمَّ انْجَلَتْ أَوْ تَنْجَلِي
فِعْلُ جَسَّاسٍ عَلَى وَجْدِي بِهِ قَاطِعٌ ظَهْرِي وَمُدْنٍ أَجَلِي
لَوْ بِعَيْنٍ فُقِئَتْ عَيْنٌ سِوَى أُخْتِهَا فَانْفَقَأَتْ لَمْ أَحْفِلِ
يَاقَتِيلاً قَوَّضَ الدَّهْرُ بِهِ سَقْفَ بَيْتَيَّ جَمِيعاً مِنْ عَلِ
هَدَّمَ الْبَيْتَ الَّذِي اسْتَحْدَثْتُهُ وَانْثَنَى فِي هَدْمِ بَيْتِي الْأَوَّلِ
يَشْتَفِي الْمُدْرِكُ بِالثَّأْرِ وَفِي دَرَكِي ثَارِيَ ثُكْلٌ مُثْكِلِي
إِنَّنِي قَاتِلَةٌ مَقْتُولَةٌ وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يَرْتَاحَ لِي

وهذه الأبيات لو نطق بها الفحول المعدودون من الشعراء لاستعظمت ، فكيف امرأة وهى حزينة فى شرح تلك الحال المشار إليها .

واعلم أنه قد يستخرج من المعنى الذى ليس بمبتدع معنى مبتدع ؛ فمن ذلك قول الشاعر المعروف بابن السراج فى الفهد :

تَنافَسَ اللَّيْلُ فِيهِ وَالنَّهارُ مَعاً فَقَمَّصَاهُ بِجِلْبَابٍ مِنَ الْمُقَلِ

وليس هذا من المعانى الغريبة ، ولكنه تشبيه حسن واقع فى موقعه .

وقد جاء بعده شاعر من أهل الموصل يقال له ابن مسهر فاستخرج من هذا البيت معنى غريباً ، فقال :

وَنَقَّطَتْهُ حِبَاءً كَيْ يُسَالِمَهَا عَلَى الْمَنَايَا نِعَاجُ الرَّمْلِ بِالْحَدَقِ

وهذا معنى غريب لم أسمع بمثله فى مقصده الذى قصد من أجله ، وقليلا

---

(١) فى أخبار كليب وائل ، وفى أخبار المهلهل أخيه ، يروى هذا البيت :

إِنْ تَكُنْ أُخْتُ امْرِئٍ لِيمَتْ عَلَى شَفَقٍ مِنْهَا عَلَيْهِ فَافْعَلِي

وهى أوضح مما فى أصل هذا الكتاب .

ما يقع هذا فى الكلام المنظوم والمنثور ، وهو موضع ينبغى أن توضع اليد عليه ، و يتنبه له ، وكذلك فلتكن سياقة ماجرى هذا المجرى .

وقدجاءنى شىء من ذلك فى الكلام المنثور .

فمن ذلك ما ذكرته فى وصف نساء حسان ، وهو : أقبلت رَبائبُ الكِناس، فى مُخْضَرِّ اللِّباس ، فقيل : إنما يَخْتَرْنَ الخضرة من الألوان ، ليصح تشبيههن بالأغصان .

وهذا معنى غريب ، وربما يكون قد سبقت إليه ، إلا أنه لم يبلغنى ، بل ابتدعته ابتداعاً .

ومن ذلك ماذكرته فى فصل من كتاب يتضمن منازلة بلد ؛ فذكرت القتال بالمنجنيق ، وهو : فنزلنا بمَرْأًى منه ومسمع ، واستَدَرْنَا به استدارة الخاتم بالإصبَع ، ونصبت المنجنيقات فأنشأت سُحُباً صعبة القياد ، مختصَّة بالرُّبا دون الوِهَاد ، فلم تزل تقذف السور بوَبْلٍ من جُلْمُودِها ، وتَفْجَؤُه برعودها قبل بروقها و بروقُ السحب قبل رعودها ، حتى غادرت الحزْنَ منه سَهْلاَ ، والعامر بَلْقَعاً مَحلى .

وفى هذا معنيان غريبان : أحدهما أن هذه السحب تخصُّ الربا دون الوهاد ، والآخر أن رعودها قبل بروقها ، وكل ذلك يتفطن له بالمشاهدة .

ومن ذلك ما ذكرته فى فصل من كتاب ، فقلت : إذا تَخَلَّق المرء بخلق البأس والندى لم يخف عرضُه دَنَسا ، كما أن الماء إذا بلغ قُلَّتَين لم يحمل نجسَا .

وهذا المعنى مبتدع لى ، وهو مستخرج من الحديث النبوى فى قوله صلى الله عليه وسلم «إذَا بَلَغَ المـاء قُلَّتَيْنِ لَمْ يحْمِلْ خَبثاً » .

ومن ذلك ماذكرته فى وصف مَفازة ، فقلت: مَفازة لا توطأ بأجفان ساهر ، ولا تقتل باقتحام خابر ، ولولا مسير الهلال من فوقها لما عرفت تمثال حافر .

ومن ذلك ماذكرته فى كتاب أصف فيه نزول العدو على حصار بلد من بلاد المكتوب عنه ، وكان ذلك فى زمن الشتاء فسقط على العدو ثلج كثير صار به محصوراً ، فقلت :

وقد عاجله قِتال البروق قبل البَوَارق ، وأحاط به الثلجُ فصار خَنادق تحول بينه وبين الخنادق ، والشتاء قد لقى عسكره من البرد بعسكره ، والسماء قد قابلته بأغبر وجهها لا بأخضره ، والأرض كأنها قُرْصةُ النَّقىّ وعسى أن تكون أرض محشره .

والمعنى المخترع من هذا الكلام قولى «والأرض كأنها قُرْصةُ النَّقىّ وعسى أن تكون أرض محشره» وهو مستخرج من الحديث النبوى فى قوله صلى الله عليه وسلم « إنَّكُمْ تُحْشَرُونَ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ كَقُرْصَةِ النَّقِىِّ » يريد الخبزة البيضاء[1] ولما كان الثلج على الأرض مُمَاثِلاً لذلك ومشابها له استنبطت أنا له هذا المعنى المخترع ، فجاء كما تراه ، وهو من المعانى التى يدل عليها شاهد الحال .

وأحسن من هذا كله ما كتبته فى فصل من كتاب إلى ديوان الخلافة ببغداد ، فقلت : ودولته هى الضاحكة وإن كان نَسَبُهَا إلى العَبَّاس ، وهى خير دولة أخرجت للزمن كما أن رعاياها خير أمة أخرجت للناس ، ولم يجعل شعارها من لون الشَّبَاب إلا تفاؤلا بأنها لا تَهْرَم ، وأنها لا تزال مَحْبُوَّة من أبكار السعادة بالحبِّ الذى لا يُسْلَى والوصْلِ الذى لا يُصْرَم . وهذا معنى استنبطه الخادم للدولة وشعارها ، وهو مما لم تخطّ به الأقلام فى خطها ولا أجالته الخواطر فى أفكارها .

وغرابة هذا المعنى ظاهرة ، ولم يأت بها أحد قبلى .

وبلغنى من المعانى المخترعة أن عبد الملك بن مروان بنى بابا من أبواب

---

(١) فى النهاية (ن ق ى) بعد ذكر الحديث قال : « هو الخبز الحوارى » .

المسجد الأقصى بالبيت المقدس ، و بنى الحجاج بابا إلى جانبه ، فجاءت صاعقة فأحرقت الباب الذى بناه عبد الملك ، فتطير لذلك ، وشق عليه ، فبلغ ذلك الحجاج فكتب إليه كتابا : بلغنى كذا وكذا ، فليهن أمير المؤمنين أن الله تَقَبَّل منه ، وما مَثَلى ومَثَلُه إلا كابْنَىْ آدم إذْ قَرَّبا قُرْبَاناً فتقُبِّلَ مِنْ أحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخر ؛ فلما وقف عبد الملك على كتابه سُرِّىَ عنه . وهذا معنى غريب استخرجه الحجاج من القرآن الكريم ، وهو من المعانى المناسبة لما ذكرت فيه ؛ و يكفى الحجاج من فطانة الفكرة أن يكون عنده استعداد لاستخراج مثل ذلك .

وأما المعانى التى تستخرج من غير شاهد حال متصورة فإنها أصعب مثالا مما يستخرج بشاهد الحال ، ولأمرٍ مّا كان لأبكارها سِرٌّ لا يهجم على مكامنه إلا جَنَان الشَّهْم ، ولا يفوز بمحاسنه إلا من دَقَّ فهمه حتى جَلَّ عن دقة الفهم، ولَلْهُجُومُ على عَذَارَى المعانى المحميَّة بحُجُب الْبَوَاتر أيْسَرُ من الهجوم على عذارى المعانى المحمية بحجب الخواطر ، وما ذلك مما يلقيه إليك الأستاذ ، وليس يقوم به إلا الفذ ولا أقول الأفذاذ ، وأين الذى ينشىء فيحسن فيها الإنشاء ، و يبرز فيها صُوَراً يركبها كيف يشاء ؟ ومن نظر إلى هذا الموضع حق النظر ، وأخذ فيه بالعين دون الأثر ، عَلِمَ أنه مقام يزلق بمعارف الأفهام ، فكيف بمواقف الأقدام، وليست المعانى فيه إلا كالأرواح ، ولا الألفاظ إلا كالأجسام ، فمن شاء أن يخلق خلقاً من الكلام فليأت به على صورة الأناسىّ لا على صورة الأنعام ، فإن من القول الغانية التى هى أحسن من الغانية ، ومنه البهيمة التى لا تشبه إلا بالسانية .

فما جاء فى هذا الباب قول أبى نواس[1] :

---

(١) لم أجد هذين البيتين فى باب الهجاء من ديوان أبى نواس .

شَرَابُكَ فِي السَّرَابِ إِذَا عَطِشْنَا وَخُبْزُكَ عِنْدَ مُنْقَطَعِ التُّرَابِ
وَمَا رَوَّحْتَنَا لِتَذُبَّ عَنَّا وَلٰكِنْ خِفْتَ مَرْزِئَةَ الذُّبَابِ

فالبيت الثانى من هذين البيتين هو المشار إليه بأنه معنى مبتدع ، ويُحْكَى عن الرشيد هرون رحمه الله أنه قال : لم يُهْجَ بادٍ ولا حاضر بمثل هذا الهجاء .

ومن هذا الباب قول مسلم بن الوليد(١) :

تَنَالُ بِالرِّفْقِ مَا تَعْيَا الرِّجَالُ بِهِ كَالْمَوْتِ مُسْتَعْجِلاً يَأْتِي عَلَى مَهَلِ

ومن هذا الباب قول على بن جبلة :

تَكَفَّلَ سَاكِنَ الدُّنْيَا حُمَيْدٌ فَقَدْ أَضْحَتْ لَهُ الدُّنْيَا عِيَالاَ
كَأَنَّ أَبَاهُ آدَمَ كَانَ أَوْصَى إِلَيْهِ أَنْ يَعُولَهُمُ فَعَالاَ

وهذا معنى دَنْدَن حوله الشعراء، وفاز على بن جبلة بالإفصاح عنه .

وقد قيل : إن أبا تمـام أكثر الشعراء المتأخرين ابتداعا للمعانى ، وقد عُدَّت معانيه المبتدعة فوجدت مايزيد على عشرين معنى .

وأهل هذه الصناعة يكبرون ذلك ، وما هذا من مثل أبى تمـام بكبير ؛ فإنى أنا عددت معَانِيَّ المبتدعة التى وردت فى مكاتباتى فوجدتها أكثر من هذه العدة ، وهى ممـا لا أنازع فيه ، ولا أدافع عنه ؛ فأما ماورد لأبى تمام فمن ذلك قوله(٢) :

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها يزيد بن مزيد الشيبانى ، وأولها قوله :

أَجْرَرْتُ حَبْلَ خَلِيعٍ فِى الْهَوَى غَزِلِ وَشَمَّرَتْ هِمَمُ الْعُذَّالِ فى الْعَذَلِ

(٢) البيتان من أربعة أبيات يعاتب فيها أبا دلف العجلى ، واللذان قبلهما قوله :

صَبْراً عَلَى المَطْلِ مَالَمْ يَتْلُهُ الْكَذِبُ فَلِلْخُطُوبِ إِذَا سَامَحْتَهـا عَقِبُ
عَلَى الْمَقَادِيرِ لَوْمٌ إِنْ مُنِيتُ بِهِ مِنْ عَاذِلٍ وَعَلَيَّ السَّعْىُ وَالطَّلَبُ

وانظر الديوان (ص ٢٢ بيروت) .

يأيُّهَا الْمَلِكُ النَّائِي بِرُؤْيَتِهِ ... وَجُودُهُ لِمُرَاعِي جُودِهِ كَثَبُ
لَيْسَ الْحِجَابُ بِمُقْصٍ عَنْكَ لِي أَمَلاً ... إِنَّ السَّمَاءَ تُرَجَّى حِينَ تَحْتَجِبُ

وكذلك قوله[1] :

رَأَيْنَا الْجُودَ فِيكَ وَمَا عَرَضْنَا ... لِسَجْلٍ مِنْـــهُ بَعْدُ وَلاَ ذَنُوبِ
وَلٰكِنْ دَارَةُ الْقَمَرِ اسْتَتَمَّتْ ... فَدَلَّتْنـــــا عَلَى مَطَرٍ قَرِيبِ

وكذلك قوله فى الهجاء[2] :

وَأَنْتَ تُدِيرُ قُطْبَ رَحًا عَلِيًّا ... وَلَمْ تَرَ لِلرَّحَا الْعَلْيـــاءِ قُطْبَا
تَرَى ظَفَراً بِكُلِّ صِرَاعِ قِرْنٍ ... إِذَا مَا كُنْتَ أَسْفَلَ مِنْهُ جَنْبَا[3]

وكذلك قوله[4] :

وَإِذَا أَرَادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيـــلَةٍ ... طُوِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ
لَوْلاَ اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ ... مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ الْعُودِ

وكذلك قوله[5] :

---

(١) لم أجد هذين البيتين فى ديوان أبى تمام .

(٢) من كلمة له يهجو فيها عتبة بن أبى عاصم ، وأولها قوله

أَعُتْبَةُ أَجْبَنَ الثَّقَلَيْنِ عُتْبَا ... بِجَهْلِكَ صِرْتَ لِلْمَكْرُوهِ نُصْبَا

(٣) فى ا ، ب ، ج « ترى قطر بكل صراع قرن » وما أثبتناه عن الديوان (ص ٤٨٦ بيروت) .

(٤) من قصيدة له يمدح فيها أبا عبد الله أحمد بن أبى دواد ، وأولها قوله :

أَرَأَيْتَ أَيَّ سَوَالِفٍ وَخُدُودِ ... عَنَّتْ لَنَا بَيْنَ اللِّوَى فَزَرُودِ

(٥) من قصيدة له يمدح فيها أحمد بن المعتصم ، وأولها قوله :

مَا فِي وُقُوفِكَ سَاعَةً مِنْ بَاسِ ... نَقْضِي ذِمَامَ الْأَرْبُعِ الْأَدْرَاسِ

لَاتُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَهُ مَثَلاً شَرُوداً فِى النَّدَى وَالْبَاسِ
فَاللهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقَلَّ لِنُورِهِ مَثَلاً مِنَ الْمِشْكَاةِ وَالنِّبْرَاسِ

وكذلك قوله[1]

لَاتُنْكِرِي عَطَلَ الْكَرِيمِ مِنَ الْغِنَى فَالسَّيْلُ حَرْبٌ لِلْمَكَانِ الْعَالِي

وكذلك له فى الشيب[2] :

شُعْلَةٌ فِي الْمَفَارِقِ اسْتَوْدَعَتْنِي فِي صَمِيمِ الْفُؤَادِ ثُكْلاً صَمِيماَ
يَسْتَثِيرُ الْهُمُومَ مَا اكْتَنَّ مِنْهَا صُعُداً وَهْيَ تَسْتَثِيرُ الْهُمُومَا

فالبيت الثانى من المعانى المخترعة ، وقد تفقه فيه فجعله مسألة من مسائل الدور ، وهذا من إغراب أبى تمام المعروف .

وهذا القدر كاف من جملة معانيه ؛ فإنا لم نستقصها ههنا .

ومن هذا الباب قول ابن الرومى[3] :

(١) من قصيدة له يمدح فيها الحسن بن رجاء ، وأولها قوله :

يَكْفِي وَغَاكَ فَإِنَّنِي لَكَ قَالِ لَيْسَتْ هَوَادِي عَزْمَتِي بِتَوَالِ

انظر الديوان (ص ٢٤٦ بيروت) .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد ، وأولها قوله :

إِنَّ عَهْدًا لَوْ تَعْلَمَانِ عَظِيماَ أَنْ تَنَامَا عَنْ لَيْلَتِي أَوْ تُنِيماَ

انظر الديوان (ص ٢٩٠ بيروت) .

(٣) البيتان من أربعة أبيات فى الديوان (ص ٩٧ ج ١) و بعدهما قوله :

غَيْرِي فَإِنِّي لَا أُطِيلُ مَدَائِحِي إِلَّا لِأُوفِيَ مَنْ مَدَحْتُ ثَنَاءَهُ
وَأَعُدُّ ظُلْماً أَنْ أُقِلَّ مَدِيحَهُ عَمْدًا ، وَأَسْخَطُ أَنْ أُقِلَّ عَطَاءَهُ

وهذا المعنى مما كثر فى شعر ابن الرومى ؛ فمن ذلك قوله فى إسماعيل بن بلبل :

كُلُّ امْرِئٍ مَدَحَ امْرَأً لِنَوَالِهِ ... وَأَطَالَ فِيهِ فَقَدْ أَسَاءَ هِجَاءَهُ
لَوْ لَمْ يُقَدِّرْ فِيهِ بُعْدَ الْمُسْتَقَى ... عِنْدَ الْوُرُودِ لَمَا أَطَالَ رِشَاءَهُ

وكذلك قوله(١) :

عَدُوُّكَ مِنْ صَدِيقِكَ مُسْتَفَادٌ ... فَلَا تَسْتَكْثِرَنَّ مِنَ الصِّحَابِ
فَإِنَّ الدَّاءَ أَكْثَرُ مَا تَرَاهُ ... يَكُونُ مِنَ الطَّعَامِ أَوِ الشَّرَابِ

وكذلك قوله :

لِمَا تُؤْذِنُ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا ... يَكُونُ بُكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةَ يُولَدُ

أَتَيْتُكَ لَمْ أَشْفَعْ إِلَيْكَ بِشَافِعٍ ... وَلَوْ شِئْتُ كَانَ النَّاسُ لِي شُفَعَاءَ
وَلَـكِنَّنِي وَفَّرْتُ حَمْدِي بِأَسْرِهِ ... عَلَيْكَ وَلَمْ أُشْرِكْ بِهِ الشُّرَكَاءَ
نَدَاكَ مَعِينٌ كَالَّذِي قَدْ عَلِمْتَهُ ... وَلَوْ كَانَ غَوْراً لَالْتَمَسْتُ رِشَاءَ
وَهٰذَا شِتَاءٌ قَدْ أَظَلَّ رِوَاقُهُ ... وَجَارُكَ جَارٌ لَا يَخَافُ شِتَاءَ

وكقوله يعتذر إلى صاعد من طول قصيدته :

لَمْ أُطِلْهَا كَمَا أَطَالَ رِشَاءً ... مَائِحٌ سَاءَ ظَنُّهُ بِقَلِيبِ
حَاشَ لِلّٰهِ ! لَيْسَ مِثْلِي تَظَنَّى ... ظَنَّ سُوءٍ بِمُشْتَقَاكَ الْقَرِيبِ
غَيْرَ أَنِّي امْرُؤٌ وَجَدْتُ مَقَالاً ... مُسْتَتِبًّا فِي كُلِّ قَرْمٍ نَجِيبِ
فَأَطَلْتُ الْمَدِيحَ مَا طَالَ فِيهِمْ ... مَعَ أَنِّي قَصَّرْتُ غَيْرَ مَعِيبِ

(١) البيتان أول كلمة له فى الحث على مجانبة الناس (انظر الديوان : ١ — ٣١٣). و بعدهما قوله :

إِذَا انْقَلَبَ الصَّدِيقُ غَدَا عَدُوًّا ... مُبِينًا وَالْأُمُورُ إِلَى انْقِلَابِ
وَلَوْ كَانَ الْكَثِيرُ يَطِيبُ كَانَتْ ... مُصَاحَبَةُ الْكَثِيرِ مِنَ الصَّوَابِ

وَإلا فما يُبْكِيهِ مِنْهَا وَإِنَّهُ لأَوْسَعُ مِمَّا كَانَ فِيهِ وَأَرْغَدُ
إِذَا أَبْصَرَ الدُّنْيَا اسْتَهَلَّ كَأَنَّهُ بِمَا هُوَ لَاقٍ مِنْ أَذَاهَا يُهَدَّدُ

وكذلك قوله :

رَدَدْتَ عَلَيَّ مَدْحِي بَعْدَ مَطْلٍ وَقَدْ دَنَّسْتَ مَلْبَسَهُ الْجَدِيدَا
وَقُلْتَ امْدَحْ بِهِ مَنْ شِئْتَ غَيْرِي وَمَنْ ذَا يَقْبَلُ الْمَدْحَ الرَّدِيدَا
وهَلْ لِلحَيِّ فِي أَكْفَانِ مَيْتٍ لَبُوسٌ بَعْدَمَا امْتَلأَتْ صَدِيدَا

وقد ورد لأبي الطيب المتنبي من ذلك كقوله(١) :

أَجِزْنِي إِذَا أُنْشِدْتَ مَدْحًا فَإِنَّمَا بِشِعْرِي أَتَاكَ الْمَادِحُونَ مُرَدَّدَا
وَدَعْ كُلَّ صَوْتٍ بَعْدَ صَوْتِي فَإِنَّنِي أَنَا الصَّائِحُ الْمَحْكِيُّ وَالآخَرُ الصَّدَى

فالبيت الأول قد توارد على معناه الشعراء قديماً وحديثاً ، لكن البيت الثاني في التمثيل الذي مثله ليس لأحد إلا له .

وكذلك قوله(٢) :

تَمَنَّى الطُّلَى أَنْ تَكُونَ الْغُمُودَا(٣) بِهَجْرِ سُيُوفِكَ أَغْمَادَهَا
تَرَى صَدَراً عَنْ وُرُودٍ وُرُودَا(٤) . إِلَى الْهَامِ تَصْدُرُ عَنْ مِثْلِهِ

(١) البيتان من قصيدة له يمدح فيها سيف الدولة ويهنئه بعيد الأضحى ، وأولها قوله :
لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا وَعَادَاتُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنُ فِي الْعِدَى

(٢) البيتان من قصيدة له يمدح فيها بدر بن عمار الأسدي ، وأولها قوله :
أَحُلْماً نَرَى أَمْ زَمَاناً جَدِيداً أَمِ الْخَلْقُ فِي شَخْصِ حَيٍّ أُعِيدَا

(٣) تمنى : أصله تتمنى ، فحذف إحدى التاءين ، والطلى : الأعناق ، والغمود : جمع غمد ، وهو قراب السيف .

(٤) الهام : اسم جنس جمعي ، واحده هامة ، وهي الرأس ، والصدر : الخروج من الماء بعد الري ، والورود : الدخول إلى الماء للشرب منه .

وكذلك قوله فى بدر بن عمار يهنيه ببرئه من مرض(١) :

قُصِدْتَ مِنْ شَرْقِهَا وَمَغْرِبِهَا حَتَّى اشْتَكَتْكَ الرِّكَابُ وَالسُّبُلُ
لَمْ تُبْقِ إِلاَّ قَلِيلَ عَافِيَةٍ قَدْ وَفَدَتْ تَجْتَدِيكَهَا الْعِلَلُ

وقد وقفت على ما شاء الله من أشعار الفحول من الشعراء قديماً وحديثاً فلم أجد لأحد منهم فى ذكر المرض ما يعدّ معنًى مخترعاً ، لا ، بل لم أجد من أقوالهم شيئاً مرضيا ، ماعدا المتنبى ؛ فإنه ذكر المرضَ فى عدة مواضع من شعره فأجاد ، وهذ البيت الثانى من هذين البيتين معنًى مخترع له ؛ وقد أحسن فيه كل الإحسان .

ومما ابتدعه بإجماعٍ قولُه فى مدح عَضُد الدولة فى قصيدته النونية التى مطلعها :

* مَغَانِى الشِّعْبِ طِيبًا فى المَغَانِى(٢) *

قال عند ذكره :

فَعَاشَا عِيشَةَ الْقَمَرَيْنِ يُحْيَا بِضَوْئِهِمَا وَلاَ يَتَحَاسَدَانِ
وَلاَ مَلَكَا سِوَى مُلْكِ الْأَعَادِى وَلاَ وَرِثَا سِوَى مَنْ يَقْتُلاَنِ
وَكَانَ ابْنَا عَدُوٍّ كَاثَرَاهُ لَهُ يَاءَىْ حُرُوفِ أُنَيْسِيَانِ

أى : جعل الله ابنى عدو كاثراه يعنى ابنى عضد الدولة كياءى حروف تصغير إنسان ؛ فإن ذلك زيادة ، وهو نقص فى المقدار ، إلا أن سبك هذا البيت قد شوّهه وأذهب طلاوة المعنى المندرج تحته .

---

(١) البيتان من قصيدة له يمدح فيها بدر بن عمار ، وأولها قوله :

أَبْعَدُ نَأْىِ الْمَلِيحَةِ الْبَخَلُ فى الْبُعْدِ مَالاَ تُكَلَّفُ الْإِبِلُ

(٢) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ *

ومن معانيه المبتدعة قوله(١) :

فَإِنْ تَفُقِ الْأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ ... فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

وأحسن من ذلك قوله(٢) :

صَدَمْتَهُمْ بِخَمِيسٍ أَنْتَ غُرَّتُهُ ... وَسَمْهَرِيَّتُهُ فِي وَجْهِهِ غَمَمُ

فَكَانَ أَثْبَتَ مَا فِيهِمْ جُسُومُهُمُ ... يَسْقُطْنَ حَوْلَكَ وَالْأَرْوَاحُ تَنْهَزِمُ

وهذا من أعاجيب أبى الطيب التى بَرَّز فيها على الشعراء .

ومن الإحسان فى هذا الباب قول بعضهم :

وَقَدْ أَشُقُّ الْحِجَابَ الصَّعْبَ مَأْرَبُهُ ... دُونِي وَآبَى وُلُوجًا فِيهِ إِنْ طُرِقَا(٣)

كَالطَّيْفِ يَأْبَى دُخُولَ الْجَفْنِ مُنْفَتِحًا ... وَلَيْسَ يَدْخُلُهُ إِلَّا إِذَا انْطَبَقَا

ورأيت ابن حمدون البغدادى صاحب كتاب التذكرة قد أورد هذين البيتين فى كتابه ، وقال : قد أغرب هذا الشاعر ، ولكنه خلط وجرى على عادة الشعراء ؛ لأن الطيف لايدخل الجفن ، وإنما يتخيل إلى النفس ؛ وهذا كلام من لم يَطْعَمْ من شجرة الفصاحة والبلاغة ، وليس مثله عندى إلا كما يحكى عن

---

(١) البيت آخر قصيدة له يرثى فيها والدة سيف الدولة ، وأولها قوله :

نُعِدُّ الْمَشْرَفِيَّةَ وَالْعَوَالِي ... وَتَقْتُلُنَا الْمَنُونُ بِلَا قِتَالِ

وقبل البيت الذى أنشده المؤلف قوله :

وَحَالَاتُ الزَّمَانِ عَلَيْكَ شَتَّى ... وَحَالُكَ وَاحِدٌ فِي كُلِّ حَالِ

فَلَا غِيضَتْ بِحَارُكَ يَاجَمُومًا ... عَلَى عَلَلِ الْغَرَائِبِ وَالدِّخَالِ

رَأَيْتُكَ فِي الَّذِينَ أَرَى مُلُوكًا ... كَأَنَّكَ مُسْتَقِيمٌ فِي مُحَالِ

(٢) البيتان من قصيدة له هى آخر ماقاله بحضرة سيف الدولة ، وأولها قوله :

عُقْبَى الْيَمِينِ عَلَى عُقْبَى الْوَغَى نَدَمُ ... مَاذَا يَزِيدُكَ فِي إِقْدَامِكَ الْقَسَمُ

(٣) فى ا ، ب ، ج « الصعب مأذيه » وهو تحريف .

ملك الروم إذ أنشد عنده بيت المتنبي الذى هو(١) :

كأنَّ العِيسَ كانَتْ فَوْقَ جَفْنِي مُنَاخَاةً فَلَمَّا ثُرْنَ سَالاَ

فسأل عن المعنى ففسر له ، فقال : ما سمعت بأكذب من هذا الشاعر : أرأيت من أناخ الجمل على عينه لا يهلكه .

ومن محاسن هذا القسم قول بعضهم :

تَحَيَّرَهُ اللهُ مِنْ آدَمٍ فَمَا زَالَ مُنْحَدِرًا يَرْتَقِي

وكذلك قول الآخر :

بِأَبِي غَزَالٌ غَازَلَتْهُ مُقْلَتِي بَيْنَ الْغُوَيْرِ وَبَيْنَ شَطَّىْ بَارِقِ
عَاطَيْتُهُ وَاللَّيْلُ يَسْحَبُ ذَيْلَهُ صَهْبَاءَ كَالْمِسْكِ الْفَتِيقِ لِنَاشِقِ
وَضَمَمْتُهُ ضَمَّ الْكَمِيِّ لِسَيْفِهِ وَذُؤَابَتَاهُ حَمَائِلٌ فِي عَاتِقِي
حَتَّى إِذَا مَالَتْ بِهِ سِنَةُ الْكَرَى زَحْزَحْتُهُ شَيْئًا وَكَانَ مُعَانِقِي
أَبْعَدْتُهُ عَنْ أَضْلُعٍ تَشْتَاقُهُ كَيْ لاَ يَنَامَ عَلَى وِسَادٍ خَافِقِ

وهذا من الحسن والملاحة بالمكان الأقصى ، ولقد خفَّت معانيه على القلوب حتى كادت ترقص رقصاً ، والبيت الأخير منه هو الموصوف بالإبداع ، وبه و بأمثاله أقرّت الأبصار بفضل الأسماع .

ومن هذا الضرب قولُ بعض المصريين يهجو إنسانا يقال له ابن طليل احترقت داره :

انْظُرْ إِلَى الْأَيَّامِ كَيْفَ تَسُوقُنَا طَوْعًا إِلَى الْإِقْرَارِ بِالْأَقْدَارِ
مَا أَوْقَدَ ابْنُ طُلَيْلٍ قَطُّ بِدَارِهِ نَارًا وَكَانَ هَلاَكُهَا بِالنَّارِ

(١) البيت من قصيدة له يمدح فيها بدر بن عمار ، وأولها قوله :

بَقَائِي شَاءَ لَيْسَ هُمُ ارْتِحَالاَ وَحُسْنَ الصَّبْرِ زَمُّوا لاَ الْجِمَالاَ

وكذلك ورد قول ابن قلاقس من شعراء مصر :

زِدْ رِفعةً إنْ قِيلَ أنغـــضَ وَانْخَفِضْ إنْ قِيلَ أثْرَى
كالغُصْنِ يَدْنُو مَا اكْتَسَى ثمَراً وَيَنْأى مَا تَعَرَّى

وهذا من المعانى الدقيقة .

ومن هذا الأسلوب قول الشاعر المعروف بالحافظ فى تشبيه البهار ، وهو :

عُيُونُ تِبْرٍ كَأنَّمـا سَرَقَتْ سَوَادَ أحْدَاقِهَا مِنَ الْغَسَقِ
فَإنْ دَجَا لَيْلُهَا بِظُلْمَتِهِ ضَمَمْنَ مِنْ خَوْفِهَا عَلَى السَّرَقِ

وهذا تشبيه بديع لم يسمع بمثله ، وهو من اللطافة على مالا خفاء به .

ومن هذا القسم قول بعض المتأخرين من أهل زماننا :

لاَتَضَعْ مِنْ عَظِيمِ قَدْرٍ وَإنْ كُنْـــتَ مُشَاراً إلَيْهِ بِالتَّعْظِيمِ
فَالشَّرِيفُ الْعَظِيمُ يَنْقُصُ قَدْراً بِالتَّعَدِّى عَلَى الشَّرِيفِ الْعَظِيمِ
وَلَعُ الْخَمْرِ بِالْعُقُولِ رَمَى الْخَمْـــرَ بِتَنْجِيسِها وَبالتَّحْرِيمِ

ومن غريب ما سمعته فى هذا الباب قول بعض الشعراء المغاربة يرثى قتيلا :

غَدَرَتْ بِهِ زُرْقُ الأسِنَّةِ بَعْدَ مَا قَدْ كُنَّ طَوْعَ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ
فَلْيَحْذَرِ الْبَدْرُ الْمُنِيرُ نُجُومَهُ إذْ بَانَ غَدْرُ مِثَالِها بِمِثَالِهِ

وكذلك جاء قول بعض المغاربة فى الخمر وكاساتها :

ثَقُلَتْ زُجَاجَاتٌ أَتَتْنـا فُرَّغًا حَتَّى إذَا مُلِئَتْ بِصَرْفِ الرَّاحِ
خَفَّتْ فَكَادَتْ أَنْ تَطِيرَ بِمَا حَوَتْ وَكَذَا الْجُسُومُ تَخِفُّ بِالأرْوَاحِ

وهذا معنى مبتدع أشهد أنه يفعل بالعقول فعل الخمر سكراً ، ويروق كما رقت لطفاً ، ويفوح كما فاحت نشراً .

وكذلك ورد قول ابن حمديس الصقلي :

يَاسَالِباً قَمَرَ السَّماءِ جَمَالَهُ أَلْبَسْتَنِي لِلحُزْنِ ثَوْبَ سَمائِهِ
أَضْرَمْتَ قَلْبِي فَارْتَمَى بِشَرَارَةٍ وَقَعَتْ بِخَدِّكَ فَانْطَفَتْ مِنْ مَائِهِ

وهذا المعنى دقيق جداً .

وقد سمعت فى الحال ماشاء الله أن أسمع ، فلم أجد مثل هذا .

وقد جاءنى فى الكلام المنثور من هذا الضرب شىء ، وسأذكر ههنا منه نبذة .

فمن ذلك ماذكرته فى وصف صورة مليحة ، فقلت : ألبس من الحسن أنضر لباس ، وخلق من طينة غير طينة الناس ، وكما زاد حسناً فكذلك ازداد طيباً ، واتفقت فيه الأهواء حتى صار إلى كل قلب حبيباً ، فلو صافح الورد لتعطرت أوراقه ، أو مر على النَّيْلوفر ليلا لتفتحت أحداقه .

والمعنى الغريب ههنا أن الشمس إذا طلعت على النيلوفر تفتَّح أوراقه ، وإذا غربت عنه انضم ، ثم إنى سمعت هذا فى شعر الفرس لبعض شعرائهم ، فحصل عندى منه تعجب .

ومن ذلك ماذكرته فى ذم الشيب ، فقلت : الشيب إعدام للإيسار ، وظَلَام للأنوار ؛ وهو الموت الأول الذى يصلى ناراً من الهم أشد وقوداً من النار ، ولئن قال قوم إنه جَلاَلة فانهم دَقّوا به وماجَلّوا ، وأَفْتَوا فى وصفه بغير علم فَضَلُّوا وأضَلّوا ، وما أُرَاه إلا محراثا للعمر ولم تدخل آلة الحرث دار قوم إلا ذَلّوا ، ومن عجيب شأنه أنه المملول الذى يشفق من بُعْدِهِ ، والخلق الذى يكره نزع برده ، ولما فقد الشباب كان عنه عوضاً ولا عوض عنه فى فقده .

والمعنى المخترع ههنا فى قولى « وماأُرَاه إلا محراثا للعمر ولم تدخل آلة الحرث دار قوم إلا ذلوا » وهو مستنبط من الحديث النبوى ، وذاك أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى آلة حرث فقال : « مادَخَلَتْ هذه دَارَ قَوْمٍ إِلاَّ ذَلُّوا » فأخذت

أنا هذا ونقلته إلى الشيب ، فجاء كما تراه فى أعلى درجات الحسن ، وذلك لما بينه و بين الشيب من المناسبة الشبيهة ؛ لأن الشيب يفعل فى البدن ما يفعله المحراث فى الأرض ، و إذا نزل بالإنسان أحدث عنده ذلا .

ومن هذا الباب ماذكرته فى فصل من كتاب إلى بعض الناس أعبث به ، فقلت : و إذا كتبتُ مَثَالبه فى كتاب اجتمع عليه بنات وردان ، وحرم على أن أبدأ فيه بالبسملة لأنها من القرآن .

وهذا معنى لطيف فى غاية اللطافة ، وهو مخترع لى .

وكذلك كتبت إلى بعض الناس كتاباً من هذا الجنس أهزل معه ، فقلت فى فصل منه ما أذكره ، وهو : ينبغى له أن يشكرنى على وسْمِه بهجائى دون امتداحى ، فانى لم أسمه إلا لتحرم به الأضحية فى يوم الأضاحى ، ولا شك أن سيدنا معدود فى جملة الأنعام ، غير أنه من ذوات القرون والقرن عـدوه عند الحصام .

وهذا معنى ابتدعته ابتداعاً ، ولم أسمعه لأحد من قبلى .

ومن ذلك ماذكرته فى جملة كتاب يتضمن هزيمة الـكفار ، وذلك فصل منه ، فقلت : وكانت الوقعة يوم الأحد منتصف شهر كذا وكذا ، وهذا هو اليوم الذى تخيره الـكفار من أيام الأسبوع ، ونصبوه موسما لشرع كفرهم المشروع ، فحصل ارتيابهم به إذ تضمَّن للاسلام مزيدا ، وقالوا : هذا يوم قد أسلم فلا نجعله لنا عيدا ، وقد أفصح لهم لسانه لو كانوا يعلمون ، بأن الدين عند الله هو الإسلام وأن أولياءه هم المسلمون .

وهذا معنى انفردت بابتداعه ، ولم يأت به أحد ممن تقدمنى .

ومن ذلك ماذكرته فى فصل من كتاب إلى ديوان الخلافة ببغداد ، وهو فى وصف القلم ، فقلت : و قَلَمُ الديوان العزيز هو الذى يخفض و يرفع ، ويعطى

ويمنع ، وهو المطاع لِجَدْعِ أنفه وسواد لباسه وقد ورد الأمر بطاعة الحبشى الأجدع ، ومن أحسن صفاته أن شِعَاره من شعار مولاه ، فهو يخلع على عبيده من الكرامة مايخلع .

فى هذه الأوصاف معانٍ حسنة لطيفة ، ومنها معنى غريب لم أسبق إليه ، وهو قولى « إنه المطاع لجدع أنفه وسواد لباسه وقد ورد الأمر بطاعة الحبشى الأجدع » فإن هذا مما ابتكرته ، وهو مستخرج من الحديث النبوى فى ذكر الطاعة والجماعة ، فقال صلى الله عليه وسلم « أَطِعْ وَلَوْ عَبْدًا حَبَشِيًّا مُجَدَّعًا مَاأَقَامَ عَلَيْكَ كِتَابَ اللهِ » فاستخرجت أنا للقلم معنى من ذلك ، وهو أن القلم يجدع ويقمص لباس السواد فصار حبشيا أجدع ، وهذا كما فعل أبو تمام حبيب بن أوس الطائى فى قصيدته السينية ، فإنه استخرج المعنى المخترع من القرآن الكريم ، وأنا استخرجت المعنى من الخبر النبوى كما أريتك ، وهذا المعنى المشار إليه فى وصف القلم أوردته بعبارة أخرى على وجه آخر ونبهت عليه فى كتاب « الوشى المرقوم فى حل المنظوم » وهذا كتاب ألفته فى صناعة حل الشعر وغيره .

وبعد هذا فسأقول لك فى هذا الموضع قولاً لم يقله أحد غيرى ، وهو أن المعانى المبتدعة شبيهة بمسائل الحساب المجهول من الجبر والمقابلة ، فكما أنك إذا وردت عليك مسألة من المجهولات تأخذها وتقلبها ظهراً لبطن ، وتنظر إلى أوائلها وأواخرها ، وتعتبر أطرافها وأوساطها ، وعند ذلك تخرج بك الفكرة إلى معلوم ؛ فكذلك إذا ورد عليك معنًى من المعانى ينبغى لك أن تنظر فيه كنظرك فى المجهولات الحسابية ، إلا أن هذا لايقع فى كل معنى ؛ فإن أكثر المعانى قد طرق وسبق إليه ، والإبداع إنما يقع فى معنى غريب لم يطرق ، ولا يكون ذلك إلا فى أمر غريب لم يأت مثله ، وحينئذ إذا كتب فيه كتاب أو نظم فيه شعر فإن

الـكاتب والشاعر يعثران على مظنة الإبداع فيه ، وقد لأَبَسْتُ ذلك فى مواضع كثيرة وسأورد ههنا مايُحْذَى حذوه لمن استطاع إليه سبيلاً .

ومن ذلك ما كتبته عن نفسى إلى بعض ملوك الشام ، وأهديت إليه رطباً ، وهو: خَلَّدَ الله دولة مولانا ، وعَمَرَ لها مجداً وجنانا ، وخَوّلها السعادة عطاء حسابا، وأنشأ الليالى لخدمتها عُرُباً أَتْرَابا ، وأبقى شبيبتها بقاء لا يستحدث معه خِضَابا ، ولا جَعَلَ لها فى محاسن الدول السابقة أشباها ولا أَضْرَابا ، وألقى البأسَ بين أعدائها وحسادها حتى يبعث لهم فى الأرض غرابا ، إذا أراد العبيد أن يُهْدُوا لمواليهم قَصَّرَت بهم يَدُ وُجْدِهِم ، وعلموا أن كل ماعندهم من عندهم ، لـكن فى الأشياء المستطرفة مايهدى و إن كان قدره خفيفاً ، ولولا اختلاف البلاد فيما يوجد بها لما كان شىء من الأشياء طريفاً ، وقد أهدى المملوكُ من الرطب مايتجلّى فى صفة الوارس ، ويُزْهى بحسنه حتى كأنه لم يُدَنَّسْ بيد لامس ، وما سمى رطباً إلا لاشتقاقه من الرطب الذى هو ضد اليابس ، وقد أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه ثناء جما ، وفَضَّلَ شجرته على الشجر بأن سَمَّاها أمّا ، ولئن عدم عَرْفاً لذيذاً فإنه لم يعدم منظراً لذيذاً ولا طعماً ، وله أوصاف أخرى هى لفضله بمنزلة الشهود ، فمنها أنه أول غذاء يفطر عليه الصائم وأول غذاء يدخل بطن المولود ، وأحسن من ذلك أنه معدود من الحلواء و إن كان من ذوات الغراس، ولافرق بينهما سوى أنه من خلق الله وتلك من خلق الناس ، و إذا أنصف واصفه قال : ما من ثمرة إلا وهى عنه قاصرة ، ولو تفاخرت البلاد بمحاسن ثمارها لقامت أرض العراق به فاخرة ، وها قدسار إلى باب مولانا وهومجنى المنابت سار إلى مجنى الـكرم ، وملك الفاكهة وفد على ملك الشِّيَم ، ولما استقلّت به الطريق أنشأ الحسد لغيره من الفواكه أربا ، وما منها إلا من قال : ياليتنى كنت رطباً ، ولئن كان من الثمرات التى تختلف فى الصور والأسماء ، ويفضل بعضها على بعض ويسقى بشراب واحد

من المـاء ، فـكذلك تلك الشيم العريقة تتحد فى عنصرها وهى مختلفة الوتيرة ، ومن أفضلها شيمةُ السماح التى تَقْبَلُ القليلَ من عبيدها ، وتسمَحُ لهم بالعطايا الـكثيرة ، وقد ضرب لهـا الملوك مثالا فقال هى : كجَنَّة برَبْوَة ، بل ضرب لهـا ماضرب للمثل النبوى ، وهى نخلة بكبوة ، ولا يختم كتابه بأحسن من هذا القول الذى طاب سمراً ، وزكا أصلا وفرعا ، وتصرف فى أساليب البلاغة فجاء به وتراً وشفعاً ؛ والسلام .

وهذا كتاب غريب فى معناه ، وقد اشتمل على معان كثيرة ؛ فمن جملتها أن الرطب مشتق من الرطب الذى هوضد اليابس ، ومن جملتها أن النبى صلى الله عليه وسلم سمى النخلة أما فقال « أمكم النخلة » ، ومن جملتها أنه كان صلى الله عليه وسلم يفطر على رُطَبات فإن لم يجد فتمرات ، ومن جملتها أنه كان يَلُوكُ التمرةَ ويُحَنِّكُ بها المولود عند ميلاده ، ولمـا ولد عبد الله بن الزبير جاءت أمه أسماء بنت أبى بكر رضى الله تعالى عنه ووضعته فى حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم فلاك تمرة ووضعها فى فيه ، ومن جملتها أنه والحلواء شىء واحد ، إلا أنه من خلق الله وتلك من خلق الناس ، ومن جملتها أن العباس رضى الله عنه قال : يارسول الله ؛ إن قريشاً تذاكرت أحسابها فضربوا لك مثالا بنخلة بكبوة ، وكل هذه المعانى حسنة واردة فى موضعها ، ومن كتب فى معنى من المعانى فليكتبه هكذا ، وإلاّ فَلْيَدَعْ .

ومن ذلك رقعة كتبتها إلى بعض حُجّاب السلطان فى حاجة عرضت لى ، وأرسلت معها هدية من ثياب ودراهم ، وهى :

مَامِنْ صَدِيقٍ وَإِنْ صَحَّتْ صَدَاقَتُهُ ... يَوْماً بِأَنْجَحَ فى الْحَاجَاتِ مِنْ طَبَقِ

إِذَا تَلَثَّمَ بِالمِنْدِيلِ مُنْطَلِقاً ... لَمْ يَخْشَ نَبْوَةَ بَوّابٍ وَلاَ غَلَقِ

الهديَّةُ مشتقة من الهُدَى ، غير أنهـا تَرِفّ إلى القلب لا إلى الندى ، وصهارتها أنفع من الصهارة ، وكلما تردّدت كانت بكراً فهى لا تنفك عن البكارة ، ومن خصائصها أنها تمسك بمعروف أمِنَ من السراح ، وإذا رامت فتح باب لا تفتقر فى علاجه إلى مفتاح ، وقد قيل : إنها الحسناء المتأنقة فى عمارة بيتها ، التى توصَفُ بأن القِنْدِيل يضىء بزيْتها ، وقد أرسلتها إلى المولى وهي تَهادى فى إعجابها ، وتُدِلُّ بكثرة دراهمها وثيابها ، وتقول : أنا الكريمة فى قومها الشريفة فى أنسابها ، وأحسن مافيها أنها جاءت سِرًّا ، لم تعلم بها اليد اليمنى من اليسرى ؛ فخذها يامولاى واكشف نقابها ، وأمِطْ عنها جلْبَابَها ، وقد كانت منك حرة وهى الآن فى حيز المملكة ، ومن السنة فى مثلها أن تؤخذ بالناصية ويدعى[لها]بالبركة ، والسائربها فلان وهوفى الجهل بها حامل أسفار ، وناقل لهامن دار إلى دار ، ولربما نطق لسان حالها الذىهو أفصح من نطق اللسان ،وأذكرت بحاجة مرسلها وحاش فطانة الكريم من النسيان ، وليس المطلوب إلا فضيلة من الجاه تسفر بين السائل والمسئول ، وتَنْقُل البعيد إلى درجة القريب والممنوعَ إلى درجة المبذول ، فإذا فعل المولى ذلك كان له منة السِّفارة ومنة الإنعام ، وإن سمع بأن سعياً واحداً فاز بشكرين اثنين ففى مثل هذا المقام ، ومن الناس من يقول : ليس على جانب السلطان ثقل فى صنُعْه ، وهل هٰهنا إلا كلمات تقال والكلام مَاعُونٌ لارُخْصَةَ فى مَنْعِه ، ولم يَدْر أن ملاطفة الخطاب ضرب من الاحتيال ، وأن نقل الخطوات فيه أثقل من نقل الجبال ، وأن صاحب الحاجة يحظى بحلاوة النجاح والحاجب يلقى مرارة السؤال . وهذا يقوله الخادم إيجابا لإحسان المولى الذى هو إحسان شامل ، ولا يعلمه إلا عالم بفضله ولا يجهله إلا جاهل ، والله تعالى يجعل الحاجات مغدوقة ببابه ، حتى لاتنفك فى الدنيا من إمداد شكره وفى الآخرة من إمداد ثوابه ؛ والسلام .

فتأمل أيها الناظر فى كتابى هذا إلى ما اشتملت عليه هذه الرقعة من المعانى حتى تعلم كيف تضع يدك[١] فيما تكتبه .

ومن ذلك رقعة أخرى كتبتها فى هذا المعنى المتقدم ذكره ، وأرسلت معها هدية من المسك ، وهي : الهدية رَسُولٌ يخاطِبُ عن مرسله بغير لسان ، ويدخل على القلوب من غير استئذان ، وقد قيل أخت السحر فى ملاطفة قصدها ، غير أنها لا تحتاج إلى نَفْثِها ولا إلى عَقْدِها ، وما من قلب إلا وصورتها تجلى عليه فى سرَقَة ، ولولا شرف مكانها لما حُلِّلَتْ للنبى صلى الله عليه وسلم مع تحريم الصدقة ، ولها صفات غير هذه كريمة الأخطار ، حسنة لدى الأسماع والأبصار ، ومن أحسنها أنها تستجدّ وُدًّا ، وتجعل قرباً ما كان بعداً[٢] ، وتقول لنار الإحنة يا نار كونى برداً ، ولهذا قيل : تَهادَوْا تحابُّوا ، ولا شك أنها وُصْلَة بين المودات فإذا تواصل الناس تقاربوا ، وقد أرسل الخادم منها شيئاً إذا كتمه ذاع ، وإذا خزنه ضاع ، وقد شُبِّه به الجليس الصالح بعدد أسباب الأنتفاع ، ومما زاد مزية على مزيته أنه وَشِيمَ المولى توأمان ، غير أن شيمته تَنْتَمِى إلى كرم مَحْتِدِها وهو ينتمى إلى سُرَرَ الغزْلان ، فإذا ورد على مجلسه قيل : هذا عِطْر ورد على جونة عطار ، وعرف له حق المشاركة فإن أدنى الشرك فى الشيم جوَار ، وقد نطق الخبر النبوى بأنه أحد الثلاثة التى لا تُرَدّ على من أهْدَاها ، وإذا نظر إلى محصول بقائها وفائدتها وجد أطولها عمراً وأجْدَاها ، وهذا يحكم على المولى بقبول ما استرسل الخادم فى إرساله ، وإذا سأل غيره فى قبول هديته كفاه نص الخبر مؤنة سؤاله ؛ والسلام .

وهذه الرقعة أحسن من التى قبلها ؛ فمما اشتملت عليه من المعانى قولى « وما من قلب إلا وصورتها تجلى عليه فى سَرَقَة ، ولولا شرف مكانها لما حلت للنبى صلى الله عليه وسلم مع تحريم الصدقة » وهذان المعنيان مستخرَجان من خبرين

(١) فى ا ، ب ، ج «حتى تعلم كيف تصنع يدك» .

(٢) فى ب ، ج « وتجعل قربا مكان بعدا » وهو تحريف ، وما أثبتناه عن ا .

نبويين : أحدهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «جاءَنِي جبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ وَمَعَهُ سَرَقَةٌ مِنْ حَرِيرٍ » يعنى حريرة بيضاء « وَفِيها صُورَةُ عائشةَ » رضى الله تعالى عنها « وَقالَ : هٰذِهِ زَوْجَتُكَ فِى الدُّنْيا وَالآخِرَة » والخبر الآخر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «حُرِّمَتْ عَلَيَّ الصَّدَقَةُ ، وَأُحِلَّتْ لِي الهَدِيَّةُ » .

ومما اشتملت عليه أيضاً قولى « وقد أرسل الخادم منها شيئاً إذا كتمه ذاع وإذا خزنه ضاع » وهذه مغالطة حسنة ؛ لأن المسك إذا كتم ذاعت رائحته ، وإذا خُزِن ضَاعَ : أى فاحَ ، ويقال : ضاعَ الشيء ؛ إذا ذهب ، فالمغالطة ههنا فى الجمع بين الضدين .

وكذلك قولى « وقد شبه به الجليس الصالح » وهذا مستخرج من الخبر النبوى أيضاً ، وذاك أنه قال صلى الله عليه وسلم : « مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ مَثَلُ حامِلِ المِسْكِ ، إمَّا أَنْ يَحْذِيكَ ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتاعَ مِنْهُ ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ عَرْفاً طَيِّباً ، وَمَثَلُ جَلِيسِ السُّوءِ مَثَلُ نَافِخِ الْكِيرِ ، إمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثَوْبَكَ ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رَائِحَةً كَرِيهَةً » .

ومما اشتملت عليه من المعانى أيضاً قولى « إنه أحد الثلاثة التى لا ترد على من أهداها » وهذا مستخرج من الخبر النبوى أيضاً ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « ثَلاثَةٌ لاَ تُرَدُّ : الطِّيبُ ، والرَّيْحَانُ ، وَالدُّهْنُ » .

ومن ذلك رقعة كلفنى بعضُ أصدقائى إملاءها عليه ، وهى رقعة من عاشق إلى معشوق ، وهى :

وَإِذَا قِيلَ مَنْ تُحِبُّ تَخَطَّا كَ لِسانِي وَأَنْتَ فِى الْقَلْبِ ذَاكا

يامن لا أسميه ، ولا أكنيه ، وأذكر غَيْرَه وهو الذى أعنيه ، لا تكن ممن أوتى ملكا فلم ينظر فى زواله ، وعَرَفَ مكانه من القلوب فجار فى إدلاله ، ولا تغْتَرَّ بقول من رأى الْحُسْنَ للاساءة ماحياً(١) ، واعلم أن اللاحى يقول كفى بالتذلل

(١) مثل قول الشاعر :

وَإِذَا الحَبِيبُ أَتَى بِذَنْبٍ وَاحِدٍ تَأْتِي مَحَاسِنُهُ بِأَلْفِ شَفِيعِ

لاحيًا ، وكثيراً ما يزول العشق بجنايات الصدود ، والزيادةُ فى الحد نقصان فى المحدود ، وقد قيل : إن الحسن عليه زكاة كزكاة المال ، وليست زكاته عند علماء المحبة إلا عبارة عن الوصال ، وهذه صَدَقة تقسَّم على أربابها ، ولا ينتظر أن يحول الحول فى إيجابها ، فهى مستمرة على تجدد الأيام ، والمستحقُّون لها قِسْمٌ واحد ولا يقال إنهم ثمانية أقسام ، وهؤلاء هم المخصوصون بفك الرقاب ، ورقبة العشق أشدّ أسراً من رقبة تَتَحَرّرُ بالكتاب ، فأخْرِجْ يامولاى من هذا الحق الواجب ، وإلا فتأتٍّ لطالب مُنًى ومَطَالب ، ولا تقل هذا غريم أكثر عد الليالى فى مَطْلِهِ ، وأعِدْه والمواعيد زَادٌ لمثله ، فهذه سِلْعَة قد عاملتنى بها مرة ساخرا ومرة ساحرا ، ومن الأقوال السائرة أن الغر تجعله التجربة ماهرا ، ولعمرى إن ممارسة الحب تجدد لصاحبه علماً ، وتبصِّره وإن كان كما يقال أعمى ، وقد كذب القائل :

عَرِّضَنْ لِلَّذِى تُحِبُّ بِحُبٍّ ثُمَّ دَعْهُ يَرُوضُهُ إبْلِيسُ

فإنْ كانت الرياضة كما قيل لإبليس فما أراه صَنَعاً فى الذى صنع ، وأراك استعصيت عليه استعصاء القارح وأنْتَ جَذَع ، ولا شك أنك تهدم مايشيده من البناء ، أو أنك مستثنًى فى جملة من دخل فى حكم الاستثناء ، وأنا الآن له عائب ، وعليه عاتب ، فأين نَفَثَاته التى هى أخدع من الحبائل ، وأين قوله لآتِيَنَّهُمْ عَنِ الْأَيْمَانِ والشمائل ، وأين جنوده المسترقة مافى السَّماء ، التى تجرى من بنى آدم مجرى الدماء ، وكل هـذا قد بطل عندى خَبَرُه ، كما بطل عندى أثَرُه ؛ فإن أدركته النخوة بأنى أستهزىء بتصديق أفعاله ، فَلْيَحْلُلْ معقولَ حاجتى هذه حتى أعلم أنه قادر على حل عِقَاله ، وإلاّ فليخفض راسه ، وليمح وسواسه ، وإن كان له عرش على البحر فَلْيُقَوِّض من عرشه ، وليعلم أن السحر ليس فى عقده ونفثه ولكنه فى الأصفر ونَقْشِه ، وها أنا قد بعثت منه مايجعل العزم محاولا ، والود مبذولا ،

وما أقول إلا أنى بعثت معشوقاً إلى معشوق ، وكلاهما محلّه القلبُ بل القلب من حبهما مخلوق ، وما أكرمه وهو وسيلة إلى مثله ، وحسنه من حسنه وإن لم يكن شكله من شكله ، وما وصفه واصف إلا كان مارآه منه فوق مارواه ، ومن أغرب أوصافه وأحسنها أنه لم يُرَ ذو وجهين وَجيهاً سواه ، لاجرم أنه إذا سَفَرَ فى أمر[(١)] تلطّف فى فتح أبوابه ، وتناول وَعْرَه فبدَّله بسهله وبُعْدَه فبدله باقترابه ، ولو بعثت غيره لخفت ألاّ يكون فى سِفَارته صادقا ، أو أنه كان يمضى سفيرا ويعود عاشقا ، فليس على الحسن أمانة ، وفى مثله تُعذر الخيانة ، ولا لوم على العقول إذا نسيت هناك عزيمة رشدها ، ورأت مالا يحتمله كاهل جهدها ، ومَنِ الذى يَقْوَى درعه على تلك السهام ، أو يروم النجاة منها وقد حيل بينه وبين المرام ، وهذا الذى مَنَعَنى أن أرسل إلا كِيساً وكتابا ، فأحدهما يكون فى السفارة والآخر على السر حجابا ، والسلام إن شاء الله تعالى .

وفى هذه الرقعة من المعانى الغريبة ما أذكره ؛ فالأول : ماذكرته فى قَسْمِ الصدقات وفَكِّ الرقاب ، والثانى ماذكرته فى وصف الدينار وهو أنه وجيه ذو وجهين ؛ وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ذُو الْوَجْهَيْنِ لاَيَكُونُ وَجِيهاً » وهذا معنى لم يسبقنى أحد إليه ، وقد وصف الحريرى الدينار فى مقامة من مقاماته ولم يظفر بهذا المعنى ولا جاء من الأوصاف التى ذكرها بمثله ، والثالث أنى بعثت معشوقا إلى معشوق .

ومن ذلك ما كتبته ، وكان توفيت زوجة بعض الملوك وتوفى معها ولد لها وهو طفل صغير ، وكان بينهما يومان ، وتلك المرأة بنت ملك من الملوك أيضاً ، فكتب إليه من الأطراف المجاورة يعزونه ، وحضر عندى بعض الأدباء ممن يحب أن يكون كاتبا ، وعرض على نسخة ما كوتب به ذلك الملك فى التعزية بزوجته وولدها ، فوجدتها كتبا باردة غثة لاتعرب عن الحادثة ، بل بينها وبينها

(١) فى ا ، ب ، ج « إذا أسفر فى أمر » .

بعد المشرقين ، ومن شرط الكتابة أن يكون الكتاب مضمنا فض المعنى المقصود ، والتعازى مختلفة الأنحاء : فتعازى النساء غير تعازى الرجال ، وهى من مستصعبات فنّ الكتابة والشعر ، وتعازى الرجال أيضاً تختلف ، فلا يُعَزَّى بالميت على فراشه كما يعزى بالميت قتيلا ، ولا يعزى بالقتيل كما يعزى بالغريق ، وهكذا يجرى الحكم فى المعانى جميعها ، وهذا شىء لايتنبه له إلا الراسخون فى هذا الفن من أرباب النثر والنظم ، وسألنى ذلك الرجل عن هذه التعزية المشار إليها فى المرأة وولدها الصغير ، وقال : أحب أن أعلم كيف تكون ، فأمليت عليه ثلاثة كتب ، كل كتاب يتضمّن معنى لايتضمنه الكتاب الآخر .

فمما جاء منها كتاب أناذا كره ههنا ، وهو : أشْجَى التعازى ما أتبع فيه المفقود بمفقود ، لاسيما إذا جمع بين سعد الأخبية وسَعْد السُّعُود ، وكل منهما يعظم حزنا كما يعظم مكانا ، وهذا يحسر عن الوجوه خُمُرًا وهذا يلقى عن الرءوس تيجاناً ، ولم يوفّهما حَقَّهما مَنْ بَكَى ولا مَنْ نَدَب ، ولا من شعر ولا من كتب ، وليت فدى أحدهما بصاحبه فعاش درهما المفدى بالذهب .

وَلَوْ كَانَ خَطْباً وَاحِداً خَفَّ كَلْمُهُ ... وَلَـكِنَّهُ خَطْبٌ أُعِيدَ عَلَى خَطْبِ

وقد أصدر الخادم كتابه هذا ومن حقه أن يخرج فى ثوب من الحداد ، وأن يتعثر فى أذيال كلمه والكتابُ عنوان الفؤاد ، وغاية مايقول : أحسن الله عزاء المجلس السامى الملك الأجل السيد ، على أن هذا الدعاء قد شهدت الحال بلحنه ، وكيف يملك قلبه عزاء وقد أوثقه الهم فى سجنه ، وصار له ولدا دون ولده وخدنا دون خدنه ، لكن يُدْعَى له بامتداد البقاء ، وأن تعامله الحوادث بعد هذه معاملة الإبقاء ، ثم نتبع ذلك بطلب الجنة لمن نقلته المنايا عن أرائك الخدور ، وجعلته فى بطون القبور ، ولمن فاجأت الأيام غصنه فقصفته ، ولم يعش حتى عرف الدنيا ولا عرفته ؛ فَوَاهًا لهما وقد نزلا بمنزل عديم الإيناس ، وإن كان

مأهولاً بأكثر الناس؛ فهو القريب دارا ، البعيد مَزَارا ، الذى حجب من اليأس بأمنع حجاب ، وذهب عن الوجوه المنعمة لذل التراب ، فمن كان مُسْعِدًا للمجلس فليأخذ بوَلَه الجزع لا بعزيمة الاصطبار ، وليقل : هذا حادث بَانَ فيه تحامل الأقدار ، وجرت همومه مجرى الخواطر من القلوب والرقاد من الأبصار ، فالأُسْوَة إلا فيه معدودة من الإحسان ، والسَّلْوة إلا عنه داخلة فى حَيِّز الإمكان ، والخادم أولى من لقى المجلس فيه بالإسعاد ، وقام بما يجب من قضاء حق الوداد ، وفعل مايفعله القريب الحاضر وإن كان على شقة من البعاد ، وقد أرسل مَنْ ينوب عنه فى التعزية وإن لم يَكْفِ فيها المناب ، وكما رخص العذر فى قصر الصلاة فكذلك رخص فى الاقتصار على الرسول والكتاب ، وقد وَدَّ لو حضر بنفسه فاستسقى لذلك الضريح سحابا ، وعَقَرَ عنده ركابا ، وسأل الله له مغفرة وثوابا ؛ والسلام .

فى هذا الكتاب معنى غريب ، وهو قولى « سعد الأخبية » كناية عن المرأة ، و « سعد السعود » كناية عن ولدها ؛ لأن سعد الأخبية اسم منزلة من منازل القمر ، والأخبية : جمع خِبَاء ، ومن شأن المرأة أن تحتجب فى الأخبية ، فهى سعدها ، وهذا من المعانى الغريبة فى مثل هذا المقصد ، وقد اتفق سعد الأخبية وسعد السعود معا ، وهذا أيضا غريب .

ومن ذلك أنى كتبت كتابا عن الملك الأفضل على بن يوسف إلى أخيه الملك الظاهر غازى بن يوسف صاحب حلب ، فى أمر شخص كان أبوه صاحب مدينة تكريت ، وتكريت هذه كان يتولاها قديما الأمير أيوب جد الملك الأفضل والملك الظاهر ، وأولد بها ولده صلاح الدين يوسف أباهما ، وعلى عقب ولادته انتقل والده عن تكريت هو وعشيرته لأمر طرأ لهم ، وجاء إلى الموصل ، ثم إلى الشام ، وهناك سعدوا ، وكانت السعادة على يد صلاح الدين يوسف ، فلما

أردت أن أكتب هذا الكتاب علمت أنه مظنة المعانى المبتدعة ؛ لأن الأمر المكتوب فيه غريب لم يقع مثله ، فحينئذ كتبت هذا الكتاب ، وهو : رفع الله شأن مولانا الملك الظاهر ولازال الدهر فاخرا بمآثر سلطانه ، ناظما مناقبه فى جيده ومحامده فى لسانه ، ناسخاً بمساعى دولته ماتقدم من مساعى آل بويه وآل حَمْدَانه ، كتاب الخادم هذا واردٌ من يد الأمير شمس الدين ابن صاحب تكريت ، وهى أولُ أرض مَسَّ جلدُ الوالد تُرَابها ، ورقمت بها السعادة على جبينه كتابَها ، ومنها ظَهَرَ نور البيت الأيوبى مشرقا ، وأشام إذ خرج مُعْرِقا ، وكفاه بذلك وسيلة يكتنفها الإحسان والإرعاء ، ويكفى صاحبَها أن يقول لا أسْقى حتى يُصْدِر الرِّعاء ، وقد قرنها بوسيلة قصد الخدمة التى توجب لقاصدها ذِمَاما ، وتقول له سلاما إذا قال سلاما ، ثم ثلث هاتين الوسيلتين بكتاب الخادم أخْذًا بالسنة النبوية فى الدعاء وعدده ، وتفاؤلاً بتثليث النجوم فيما يقصده المرء من سعادة مقصده ، ولا قدح فى كرم الكريم إذا استكثر طالبه من الأسباب ؛ فإن الله على كرمه قد استكثر إليه من أعمال الثواب ، وكتاب الخادم على انفراده كافٍ لحامله ، ومكثر من حقوق وسائله ، وقد صدر مخاطبا عن فحوى ضميره ، فإنما تحقّ السفارة إذا قعد بكل طالبٍ سَعْىُ سفيره ، وهو مع ذلك خفيفة صَفْحَتُهُ ، وَجيزة لَمْحَتُهُ ، وإذا وجد لدى مولانا معولا ، فليس عليه أن يرد مطولا ، إذ التعويل على نجح مصدره ، لا على كثرة أسطره .

فانظر أيها المتأمل إلى هذا الكتاب ، وأعطه حقه من التأمل ، حتى ترى ما اشتمل عليه من المعانى ، وانظر كيف ذكرت الأول ، ثم الثانى ، ثم الثالث ؛ أما المعنى الأول فإنه يختص بذكر سعادة البيت الأيوبى ومنشئها وأنها ولدت بتكريت ، وهذا الرجل ينبغى أن يرعى بسببها ، إذ كان أبوه صاحبها ، وأما المعنى الثانى فإنه قصد الخدمة الظاهرية ، وهذا وسيلة ثانية توجب له ذماما ،

وأما المعنى الثالث فإنه حرمة الـكتاب الصادر على يده ، ثم إنى مثلت ذلك بالدعاء النبوى و بتثليت النجوم ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا دعا دعا ثلاثا ، و إنمـا مثلت ذلك بالدعاء لأمرين : أحدهما : أنه موضع سؤال وضراعة ، والآخر أن الـكتاب وسيلة ثالثة ، والدعاء ثلاث مرار ، وأما تثليث النجوم فإن التثليث سعد ، والتربيع نحس ، وأحسن المعانى الثلاثة التى تضمنها هذا الـكتاب هو الأول والثالث ، وأما الثانى فإنه متداول ، فتأمل ما أشرت إليه ، و إذا شئت أن تـكتب كتابا فافعل كما فعلت فى هذا الـكتاب إن كان الأمر الذى تكتب فيه غريب الوقوع .

واعلم أنه قد يقع المعنى المبتدع فى غير أمر غريب الوقوع ، وذلك يكون قليلا بالنسبة إلى الوقائع الغريبة التى هى مَظِنَّة المعانى المبتدعة .

ومن هذا الباب ماأوردته فى جملة رسالة طردية فى وصف قسى البندق وحامليها ، وهو : فإذا تناولوها فى أيديهم قيل: أهِلَّة طالعة من أكف أقمار ، و إذا مثل غناؤها وغناؤهم قيل: منايا مَسُوقة بأيدى أقدار ، وتلك قِسِىّ وضعت للَّعب لا للنضال ، ولرَدَى الأطيار لا لِرَدَى الرجال ، وإذا نعتها ناعت قال : إنها جمعت بين وصفى اللين والصلابة ، وصنعت من نوعين غريبين فحازت معنى الغرابة ، فهى مركبة من حيوان ونبات ، مؤلفة منهما على بعد الشَّتَات ، فهذا من سكان البحر وسواحله ، وهذا من سكان البر ومَجَاهله ، ومن صفاتها أنها لا تتمكن من البطش إلا حين تُشَدّ ، ولا تنطلق فى شأنها إلا حين تُعْطف وتُرَدّ ، ولها نثار أحكم تصويرها ، وصحح تدويرها ، فهى فى لونها صَنْدَلية الإهاب ، وكأنما صيغت لقوتها من حجر لامن تراب ، فإذا قذفتها إلى الأطيار قيل ويصعد من الأرض من جبال فيها من برد ، ولا يرى حينئذ إلا قتيل ولـكن بالمثقل الذى لا يجب فى مثله قَوَد ، فهى كافلة من تلك الأطيار بقبض نفوسها ، منزلة لها من جو السماء على أم رُءوسها .

هذا الفصل يشتمل على معان غريبة ، منها قولى « إنها لا تتمكن من البطش إلا حين تشد ، ولا تنطاق فى شأنها إلا حين تعطف وترد » ومنها قولى «ويصعد من الأرض من جبال فيها من برد» ؛ وكل هذا من المعانى التى تبتدع بالنظر إلى المقصد المكتوب فيه ، فإنَّ الكاتب إذا أفكر فيما لديه وتأمله وكان قادراً على استخراج المعنى والمناسبة بينه وبين مقصده جاء هكذا كما تراه ، إلا أن القادر على ذلك من أقدره الله عليه ؛ فما كل خاطر بحكيم ، ولا كل من أوحى إليه بكليم ، وفى الأقلام هاشم لمن ناوأه ومنها هَشِيم .

وسأنبه فى هذا الموضع على طريق يسلك إلى شىء من المعانى المخترعة ، وهو ما استخرجته وانفردت باستخراجه دون غيرى ، فإن المعانى المخترعة لم يتكلم فيها أحد بالإشارة إلى طريق يسلك فيها ؛ لأن ذلك مما لايمكن ، ومن ههنا أضرب علماء البيان عنه ، ولم يتكلموا فيه كما تكلموا فى غيره ، وكيف تتقيَّد المعانى المخترعة بقيد أو يفتح إليها طريق تسلك وهى تأتى من فَيْض إلٰهىٍّ بغير تعليم ؟ ولهذا اختص بها بعض الناثرين والناظمين دون بعض ، والذى يخص بها يكون فذًّا واحداً يوجد فى الزمن المتطاول ، ولما مارست أنا هذا الفن — أعنى فن الكتابة — وقلبته ظهراً لبطن ، وفتشت عن دفائنه وخباياه ، وأكثرت من تحصيل مواده والأسباب الموصلة إلى الغاية منه ؛ سَنَحَ لى فى شىء من المعانى المخترعة طريقٌ سلكته ، وهو يستخرج من كتاب الله تعالى وأحاديث نبيه صلوات الله عليه وسلامه ، وقد تقدَّم لى منه أمثلة فى هذا الكتاب ، وذلك أنه ترد الآية من كتاب الله ، أو الحديث النبوى ، والمراد بهما معنًى من المعانى ، فآخذ أنا ذلك وأنقله إلى معنى آخر ؛ فيصير مخترعاً لى .

وسأورد ههنا منه نبذة يسيرة يعلم منها كيف فعلت حتى يسلك إليها فى الطريق الذى سلكته .

فمن ذلك قصةُ أصحاب الكهف والرقيم ؛ فإنى أخذت ذلك ونقلته إلى الإحسان والشكر ، ألا ترى أن الإحسان يستعار له كَهْف وكَنَف وظِلٌّ ، وأشباه ذلك ، والشكر كلمات تقال فى التَّنْوِيه بذكر المحسن و إحسانه ؛ والرَّقيم هو الكتاب المكتوب ، فهو والشكر متماثلان ، والذى أتيت به قد أوردته ، وهو فصل من كتاب إلى بعض المنعمين :

الخادم يشكر إحسان المولى الذى ظلّ عنده مقيما ، وغدا بمطالبه زعيما ، وأصبح بتواليه إليه مغرما كما أَصبح له غريما ، ولما تَمَثَّل فى الاشتمال عليه كهفاً صار شكره فيه رقيما .

فانظر كيف فعلت فيه فى هذا الموضع ؛ لتعلم أنى قد فتحت لك فيه طريقاً تسلكه .

وأما الحديث النبوى فإنى أخذت قصة قَتْلَى بدر كأبى جهل وعُتْبة وشَيْبة وغيرهم ونقلتها إلى القلم ، وذاك أن النبى صلى الله عليه وسلم وَقف على القَلِيب الذى ألقاهم فيه وناداهم بأسمائهم فقال : ياعتبة ، ياشيبة ، ياأبا جهل ، يا فلان ، يافلان ؛ والحديث مشهور فلا حاجة إلى استقصائه ، والذى أتيت به فى وصف القلم هو أنى قلت :

ولقد مَرَحَ القلم فى يدى وحُقَّ له أن يَمْرَح ، وأبدع فيما أتى به وكُلُّ إناء بالّذِى فيهِ يَنْضَحُ ، ومن شأنه أن يستقل على أعواد المنبر فلا ينتهى من خطبتها إلى فَصْلها ، وَيقِفَ على جَانب القليب إلا أنه لاينادِى من المعانى أبا جَهْلها .

فالدَّوَاة قليبٌ ، والقلم يقف عليه ، والمعانى التى ينشئها من باب العلم ، لامن باب الجهل ؛ فتأمل هذه الكلمات التى ذكرتها فإنها لطيفة جداً ، وهى مخترعة لى .

وهذا القدر كافٍ فى طريق التعليم ؛ فليحذ حذوه إن أمكن ، والله الموفق للصواب .

وأما الضرب الآخر من المعانى ـ وهو الذى يُحْتَذى فيه على مثال سابق ، ومنهج مطروق ـ فذلك جلُّ مايستعمله أرباب هذه الصناعة ، ولذلك قال عنترة :

* هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ (١) *

إلا أنه لا ينبغى أن يرسخ هذا القول فى الأذهان ؛ لئلا يُؤْيِس من الترقى إلى درجة الاختراع ، بل يعول على القول المطمع فى ذلك ، وهو قول أبى تمام (٢) :

لَازِلْتَ مِنْ شُكْرِىَ فى حُلَّةٍ   لَابِسُهَا ذُو سَلَبٍ فاخِرِ
يَقُولُ مَنْ تَقْرَعُ أَسْمَاعَهُ   كَمْ تَرَكَ الْأَوَّلُ لِلآخِرِ

وعلى الحقيقة فإن فى زوايا الأفكار خبايا ، وفى أبكار الخواطر سَبَايا ، لكن قد تَقَاصَرَت الهِمَم ونَكَصت العزائم ، وصار قُصارى الآخر أن يتبع الأول ، وليته تَبِعه ولم يُقَصِّر عنه تقصيراً فاحشا .

ووقفت على كتاب يقال له « مقدمة ابن أفلح البغدادى » قد قصرَها على تفصيل أقسام علم الفصاحة والبلاغة ، وللعراقيين بها عناية ، وهم واصفون لها ، ومكبون عليها ، ولما تأمّلْتُها وجدتها قشوراً لالبَّ تحتها ؛ لأن غاية ماعند الرجل أن يقول : وأما الفصاحة فانها كقول النابغة مثلا ، أو كقول الأعشى ، أوغيرهما ، ثم يذكر بيتاً من الشعر أو أبياتا ، وما بهذا تعرف حقيقة الفصاحة ، حتى إذا

(١) هذا صدر مطلع معلقته ، وعجزه قوله :

* أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ *

(٢) من كلة له فى أبى سعيد ، وأولها قوله :

قُلْ لِلْأَمِيرِ الْأَرْيَحِيِّ الَّذِى   كَفَّاهُ لِلْبادِى وَلِلْحَاضِرِ
لِتَجْزِكَ الْأَيَّامُ مَنْدُوحَةً   وَنُصْرَةً عَنْ عُودِىَ النَّاضِرِ

وردت فى كلامٍ عرفنا أنه فصيح بمـا عرفنا من حقيقتها الموجودة فيه ، وكذلك يقول فى غير الفصاحة .

ومن أعجب ما وجدته فى كتابه أنه قال : أما المعانى المبتدعة فليس للعرب منها شيء ، وإنما اختصَّ بها المحدَثُون ، ثم ذكر للمحدثين معانيَ ، وقال : هذا المعنى لفلان ، وهو غريب ، وهذا القول لفلان ، وهو غريب ، وتلك الأقوال التى خَصَّ قائليها بأنهم ابتدعوها قد سُبِقوا إليها ؛ فإما أن يكون غير عارف بالمعنى الغريب ، وإما أنه لم يَقِفْ على أقوال الناظمين والناثرين ولا تَبَحَّرَ فيها حتى عرف ما قاله المتقدم ، مما قاله المتأخر ، وأما قوله « إنه ليس للعرب معنى مبتدع وإنما هو للمحدثين » فياليت شعرى مَنِ السابقُ إلى المعانى ؟ مَنْ تقدَّم زمانه أم من تأخر زمانه ؟! .

وأنا أورد ههنا ما يستدل به على بطلان ما ذكره ، وذلك أنه قد ورد من المعانى أن صُوَر المنازل تَمثَّلت فى القلوب فإذا عفت آثارها لم تَعْفُ صورها من القلوب ، وأول من أتى بذلك العرب ، فقال الحرث بن خالد من أبيات الحماسة[(١)] :

إنِّى وَمَا نَحَرُوا غَدَاةَ مِنًى ... عِنْدَ الجِمَارِ يَئُودُهَا العُقُلُ[(٢)]
لَوْ بُدِّلَتْ أَعْلَى مَسَاكِنِهَا ... سِفْلاً وَأَصْبَحَ سِفْلُها يَعْلُو
لَعَرَفْتُ مَغْنَاهَا بِمَا ضَمِنَتْ ... مِنِّى الضُّلُوعُ لِأَهْلِهَا قَبْلُ[(٣)]

---

(١) انظر شرح التبريزى على الحماسة (٣ – ٢٤٥) .

(٢) فى ا ، ب ، ج « إنى وإن نحروا » والتصويب عن الحماسة .

(٣) فى ج « معناها » بعين مهملة ، وهو تحريف ، وصوابه عن ا ، ب والحماسة . وفى الحماسة « لما ضمنت » ومعناهما واحد .

ثم جاء المحدثون من بعده فانسحبوا على ذَيْله وحَذَوْا حــذوه ؛ فقال أبو تمام(١) :

وَقَفْتُ وَأَحْشَائِى مَنَازِلُ لِلْأَسَى ... بِهِ وَهْوَ قَفْرٌ قَدْ تَعَفَّتْ مَنَازِلُهْ

وقال البحترى(٢) :

عَفَتِ الرُّسُومُ وَمَا عَفَتْ أَحْشَاؤُهُ ... مِنْ عَهْدِ شَوْقٍ مَا تَحُولُ فَتَذْهَبُ

وقال المتنبي(٣) :

لَكِ يَامَنَازِلُ فِى الْقُلُوبِ مَنَازِلُ ... أَقْفَرْتِ أَنْتِ وَهُنَّ مِنْكِ أَوَاهِلُ

وهـذا المعنى قد تداوله الشعراء ، حتى إنه ما من شاعر إلَّا ويأتى بهِ فى شعره .

وكذلك ورد لبعضهم من شعراء الحماسة(٤) :

---

(١) هو ثانى بيت من قصيدة له يمدح فيها المعتصم ، وقبله وهو المطلع قوله :

أَجَلْ أَيُّهَا الرَّبْعُ الَّذِى خَفَّ آهِلُهْ ... لَقَدْ أَدْرَكَتْ فِيكَ النَّوَى ما تُحَاوِلُهْ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها إسحاق بن إبراهيم بن مصعب ، وأولها قوله :

عَارَضْنَنا أُصُلاً فَقُلْنا الرَّبْرَبُ ... حَتَّى أَضَاءَ الْأُقْحُوَانُ الْأَشْنَبُ

(٣) هو مطلع قصيدة له يمدح فيها أبا الفضل أحمد بن عبد الله الأنطاكى ، و بعده قوله :

يَعْلَمْنَ ذَاكِ وَمَا عَلِمْتِ وَإِنَّمَا ... أَوْلاَ كُمَا يُبْكَى عَلَيْهِ الْعَاقِلُ

ومثل ذلك قول ابن المعتز :

بُؤْساً لِدَهْرٍ غَيَّرَتْكَ صُرُوفُهُ ... لَمْ يَمْحُ مِنْ قَلْبِى الْهَوَى وَمَحَا كَا

(٤) انظر شرح التبريزى (٤ ــ ١٠٠) فهما بيتان اختارها أبو تمام ولم ينسبهما التبريزى .

أَنَاخَ اللُّؤْمُ وَسْطَ بَنِي رِيَاحٍ مَطِيَّتَهُ وَأَقْسَمَ لاَ يَرِيمُ(١)
كَذَٰلِكَ كُلُّ ذِي سَفَرٍ إِذَا مَا تَنَاهَى عِنْدَ غَايَتِهِ يُقِيمُ

وهذان البيتان من أبيات المعانى المبتدعة ، وعلى أثرها مشى الشعراء .

وكذلك ورد لبعضهم فى شعر الحماسة(٢) :

تَرَكْتُ ضَأْنِي تَوَدُّ الذِّئْبَ رَاعِيَهَا وَأَنَّهَا لاَ تَرَانِي آخِرَ الْأَبَدِ
اَلذِّئْبُ يَطْرُقُهَا فِي الدَّهْرِ وَاحِدَةً وَكُلَّ يَوْمٍ تَرَانِي مُدْيَةٌ بِيَدِي

وكذلك ورد قول الآخر :

قَوْمٌ إِذَا مَاجَنَى جَانِيهِمُ أَمِنُوا لِلُؤْمِ أَحْسَابِهِمْ أَنْ يُقْتَلُوا قَوَدَا

وكم للعرب من هذه المعانى التى سبقوا إليها .

ومن أدل الدليل على فساد ماذهب إليه من أن المحدثين هم المختصون بابتداع المعانى أن أول من بكى على الديار فى شعره رجل يقال له ابن حزام ، وكان هو المبتدى لهذا المعنى أولا ، وقد ذكره امرؤ القيس فى شعره فقال :

عُوجَا عَلَى الطَّلَلِ الْمُحِيلِ لَعَلَّنَا نَبْكِي الدِّيَارَ كَمَا بَكَى ابْنُ حِزَامِ(٣)

وقد أجمع نقلة الأشعار أن لامرىء القيس فى صفات الفرس أشياء كثيرة لم يُسْبَق إليها ولا قيلت من قبله .

ويكفى من هذا كله ماقدمت القول فيه ، وهو أن العرب السابقون بالشعر ،

(١) فى ا ، ب ، ج « بنى رماح » بالميم ، والتصويب عن الحماسة .

(٢) هما بيتان مفردان اختارهما أبو تمام ولم ينسبهما ولا نسبهما شراحه (انظر شرح التبريزى : ٤ ــ ١٣٠) .

(٣) الطلل المحيل : المتغير ، وهو بالحاء المهملة ، ووقع فى ا ، ب ، ج « المخيل » بالخاء المعجمة ــ وهى غير المعروف فى رواية البيت ، ولكن لها وجها . وابن حذام قد اختلف فى ضبط اسمه على وجوه كثيرة .

وزمانُهُم هو الأول ، فكيف يقال : إن المتأخرين هم السابقون إلى المعانى ؟ وفى هذه الأمثلة التى أوردتها كفاية فى نقض ماذكره ، ولو قال : إن المحدثين أكثر ابتداعا للمعانى ، وألطف مأخذاً ، وأدق نظراً ؛ لـكان قوله صوابا ؛ لأن المحدثين عظم الملك الإسلامى فى زمانهم ، ورأوا مالم يره المتقدمون ، وقد قيل : إن اللُّهَا تَفْتَحُ اللَّهَا ؛ وهو كذلك فإن نَفَاق السوق جَلَّاب .

وقد رأيت جماعة من متخلقى هـذه الصناعة يجعلون هَمَّهم مقصوراً على الألفاظ التى لاحاصل وراءها ، ولا كبير معنى تحتها ، وإذا أتى أحدهم بلفظ مسجوع على أى وجه كان من الغَثَاثة والبرد يعتقد أنه قد أتى بأمر عظيم ، ولا يشك فى أنه صار كاتباً مُفْلقاً ، وإذا نظر إلى كُتَّاب زماننا وجدوا كذلك ؛ فقاتل الله القلم الذى يمشى فى أيدى الجهال الأغمار ، ولا يعلم أنه كجواد يمشى تحت حمار ، ولو أنه لايتطاول إليه إلا أهله لبَان الفاضل من الناقص ، على أنه كالرمح الذى إذا اعتقله حامله بين الصَّفَّيْن بَانَ به المقدم من الناكص ، وقد أصبح اليوم فى يدِ قومٍ هم أحوج من صبيان المكاتب إلى التعليم ، وقد قيل : إن الجهل بالجهل داء لاينتهى إليه سقم السقيم ، وهؤلاء لاذنب لهم ؛ لأنهم لو لم يستخدموا فى الدول و يستكتبوا ، و إلا ماظهرت جهالتهم ، وفى أمثال العوام : لاتُعِرِ الأحمق شيئاً فيظنه له ، وكذلك يجرى الأمر مع هؤلاء ؛ فإنهم استكتبوا فى الدول فظنوا أن الكتابة قد صارت لهم بأمر حق واجب .

ومن أعجب الأشياء أنى لا أرى إلا طامعاً فى هذا الفن ، مُدَّعيا له على خلوه عن تحصيل آلاته وأسـبابه ، ولا أرى أحداً يطمع فى فن من الفنون غيره ولا يدعيه ، هذا ، وهو بحر لاساحل له ، يحتاج صاحبه إلى تحصيل علوم كثيرة حتى ينتهى إليه ، ويحتوى عليه ؛ فسبحان الله ! هل يدعى بعض هؤلاء أنه فقيه أو طبيب أو حاسب أو غير ذلك من غير أن يحصل آلات ذلك و يتقن معرفتها ؟

فإذا كان العلم الواحد من هذه العلوم الذى يمكن تحصيله فى سنة أو سنتين من الزمان لايدعيه أحد من هؤلاء فكيف يجىء إلى فن الكتابة وهو مالا تحصل معرفته إلا فى سنين كثيرة فيدعيه وهو جاهل به ؟

ومما رأيته من المدَّعين لهذا الفن الذين حصلوا منه على القشور ، وقصروا معرفتهم على الألفاظ المسجوعة الغثة التى لاحاصل وراءها ؛ أنهم إذا أنكرت هذه الحال عليهم ، وقيل لهم : إن الكلام المسجوع ليس عبارة عن تواطؤ الفِقَر على حرف واحد فقط ؛ إذ لو كان عبارة عن هذا وحده لأمكن أكثر الناس أن يأتوا به من غير كلفة ، وإنما هو أمر وراء هذا ، وله شروط متعددة ؛ فإذا سمعوا ذلك أنكروه ؛ لخلوهم عن معرفته ، ثم لو عرفوه وأتَوْا به على الوجه الحسن من اختيار الألفاظ المسجوعة لاحْتَاجوا إلى شَرْط آخر قد نبهت عليه فى باب السجع ؛ وإذا أنكر عليهم الاقتصار على الألفاظ المسجوعة ، وهُدُوا إلى طريق المعانى ؛ يقولون : لنا أُسْوَة بالعرب الذين هم أرباب الفصاحة ، فإنهم إنما اعتنوا بالألفاظ ولم يعتنوا بالمعانى اعتناءكم بها ، فلم يكفهم جهلهم فيما ارتكبوه حتى ادّعَوا الأسوة بالعرب فيه ، فصارت جهالتهم جهالتين .

ولنذكر ههُنا فى الرد عليهم ماإذا تأمله الناظر فى كتابنا عرف منه مايؤنقه ، ويذهب به الاستحسان كل مذهب ؛ فنقول :

اعلم أن العرب كما كانت تعتنى بالألفاظ فتصلحها وتهذبها فإن المعانى أقوى عندها ، وأكرم عليها ، وأشرف قدراً فى نفوسها ؛ فأول ذلك عنايتها بألفاظها ، لأنها لما كانت عنوان معانيها وطريقهَا إلى أظهار أغراضها أصلحوها وزينوها ، وبالغوا فى تحسينها ؛ ليكون ذلك أوقع لها فى النفس ، وأذهب بها فى الدلالة على القصد ، ألا ترى أن الكلام إذا كان مسجوعا لَذَّ لسامعه فحفظه ، وإذا لم يكن مسجوعًا لم يأنس به أنسه فى حالة السجع ، فإذا رأيت العرب قد أصلحوا

ألفاظهم وحَسَّنُوها ، و رَقَّقوا حواشيها ، وصَقَلُوا أطرافها ، فلا تظن أن العناية إذ ذاك إنما هى بألفاظ فقط ، بل هى خدمة منهم للمعانى ، ونظير ذلك إبراز صورة الحسناء فى الحلل الْمَوْشِيَّة والأثواب الْمُحَبَّرة ؛ فإنا قد نجد من المعانى الفاخرة مايشوه من حسنه بذاذة لفظه وسوء العبارة عنه .

فإن قيل : إنا نرى من ألفاظ العرب ماقد حسنوه وزخرفوه ، ولسنا نرى تحته مع ذلك معنى شريفاً ، فما جاء منه قول بعضهم (١) :

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كُلَّ حَاجَةٍ وَمَسَّحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ
أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحُ

ألا ترى إلى حسن هذا اللفظ وصَقالته ، وتدبيج أجزائه ، ومعناه مع ذلك ليس مدانيا له ولا مقارباً ، فإنه إنما هو لما فرغنا من الحج ركبنا الطريق راجعين وتحدثنا على ظهور الإبل ، ولهذا نظائر كثيرة شريفة الألفاظ خسيسة المعانى .

فالجواب عن ذلك أنا نقول : هذا الموضع قد سبق إلى التشبث به من لم ينْعِمِ النظر فيه ، ولا رأى مارآه القوم ، و إنما ذلك لجفاء طبع الناظر ، وعدم معرفته ، وهو أن فى قول هذا الشاعر « كل حاجة » مما يستفيد منه أهل النسيب والرقة والأهواء والْمِقَة مالا يستفيده غيرهم ، ولا يشاركهم فيه من ليس منهم ، ألا ترى أن حوائج مِنًى أشياء كثيرة : فمنها التلاقى ، ومنها التشاكى ، ومنها

(١) بين البيتين بيت آخر ، وهو :

وَشُدَّتْ عَلَى دُهْمِ الْمَهَارَى رِحَالُنَا وَلَمْ يَنْظُرِ الْغَادِى الَّذِى هُوَ رَائِحُ

وللإمام عبد القاهر الجرجانى بحث فى هذه الأبيات وهو خليق بأن تعود إليه وتقرأه وتقارن بينه و بين ماذكره المؤلف ههنا (انظر أسرار البلاغة ص ١٥) والأبيات تنسب لكثير عزة ، وتنسب ليزيد بن الطثرية ، وتنسب لعقبة بن كعب بن زهير .

التخلي للاجتماع ، إلى غير ذلك مما هو تالٍ له ومعقود السكون به ، فكأنّ الشاعر صانعَ عن هذا الموضع الذي أومأ له وعقد غَرَضَه عليه بقوله في آخر البيت « ومَسّحَ بالأركان من هو ماسح » أي : إنما كانت حوائجنا التي قضيناها وآرابنا التي بلغناها من هذا النحو الذي هو مسح الأركان وما هو لاحق به وجارٍ في القربة من الله مَجْرَاه : أي لم نتعدَّ هذا القدر المذكور إلى مايحتمله أول البيت من التعريض الجاري مجرى التصريح ، وأما البيت الثاني فإن فيه « أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا » وفي هذا ماذكره لتعجب به وبمن تجب منه ووضع من معناه ، وذلك أنه لو قال أخذنا في أحاديثنا أو نحو ذلك لكان فيه مايكبره أهل النسيب ؛ فإنه قد شاع عنهم واتّسع في محاوراتهم علو قدر الحديث بين الإلْفَيْن والجذل بجمع شمل المتواصلين ، ألا ترى إلى قول بعضهم :

وَحَدَّثْتَنِي يَاسَعْدُ عَنْهَا فَزِدْتَنِي جُنُوناً فَزِدْنِي مِنْ حَدِيثِكَ يَاسَعْدُ

وقول الآخر :

وحَدِيثُهَا السِّحْرُ الْحَلَالُ لَوَ انَّهُ لَمْ يَجْنِ قَتْلَ الْمُسْلِمِ الْمُتَحَرِّزِ

فإذا كان قَدْرُ الحديث عندهم على ماترى فكيف به إذا قَيَّده بقوله « أخذنا بأطراف الأحاديث » ؟ فإن في ذلك وَحْياً خَفِيًّا ، ورَمْزًا حلواً ، ألا ترى أنه قد يريد بأطرافها ما يتعاطاه المحبون ويتفاوضه ذوو الصبابة من التعريض والتلويح والإيماء دون التصريح ، وذلك أحلى وأطيب ، وأغزل وأنسب ، من أن يكون كشفا ومصارحة وجهراً ، وإن كان الأمر كذلك فمَعْنَى هذين البيتين أعلى عندهم ، وأشد تقدما في نفوسهم ، من لفظهما ، وإن عذب ولذ مستمعه ، نعم في قول الشاعر :

* وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ المطِيِّ الْأَبَاطِحُ *

من لطافة المعنى وحسنه مالا خفاء به ، وسأنبه على ذلك فأقول : إن هؤلاء

القوم لما تحدَّثوا وهم سائرون على المَطَايا شغلتهم لذة الحديث عن إمساك الأَزِمَّة فاسْتَرْخَتْ عن أيديهم ، وكذلك شأن من يَشْرَه وتغلبه الشهوة فى أمر من الأمور ، ولما كان الأمر كذلك وارتخت الأَزِمَّة عن الأيدى أسرعت المطايا فى السير ، فشبهت أعناقها بمرور السيل على وجه الأرض فى سرعته ، وهذا موضع كريم حسن لامزيد على حسنه ، والذى لاينعم نظره فيه لايعلم ما اشتمل عليه من المعنى ، فالعرب إنما تحسِّن ألفاظها وتزخرفها عنايةً منها بالمعانى التى تحتها ، فالألفاظ إذاً خَدَمُ المعانى ، والمخدوم لاشك أشرف من الخادم ، فاعرف ذلك وقس عليه .

النوع الأول

فى الاستعارة

ولنقدم قبل الكلام فى هذا الموضع قولا جامعا ، فنقول : اعلم أن للفصاحة والبلاغة أوصافا خاصة ، وأوصافا عامة ؛ فالخاصة كالتجنيس فيما يرجع إلى اللفظ ، وكالمطابقة فيما يرجع إلى المعنى ، وأما العامة فكالسَّجْع فيما يرجع إلى اللفظ ، وكالاستعارة فيما يرجع إلى المعنى ، وهذا الموضع الذى نحن بصدد ذكره — وهو الاستعارة — كثير الإشكال ، غامض الخفاء .

وسأورد فى كتابى هذا ما استخرجته ، ولم أسمع فيه قولا لغيرى ، وكنت قدمت القول فى الفصل السابع من مُقَدِّمة الكتاب فيما يختص بإثبات المجاز ، والرد على من ذهب إلى أنّ الكلام كله حقيقة لامجاز فيه ، وأقمت الدليل على ذلك ، ولا حاجة إلى إعادته ههنا ، بل الذى أذكره ههنا هو مايختص بالاستعارة التى هى جزء من المجاز ، ولم سميت بهذا الاسم ، وكشفت عن حقيقتها ، وميزتها

عن التشبيه المضمر الأداة ، والكلام فى هذا يحتاج إلى إعادة ذكر المجاز ، وإدخاله فيه ، ليتقرر ويتبين .

والذى انكشف لى بالنظر الصحيح أن المجاز ينقسم قسمين : توسع فى الكلام، وتشبيه ، والتشبيه ضربان: تشبيه تام ، وتشبيه محذوف ؛ فالتشبيه التام : أن يذكر المشبه والمشبه به ، والتشبيه المحذوف : أن يذكر المشبه دون المشبه به ، ويسمى استعارة ، وهذا الاسم وضع للفرق بينه وبين التشبيه التام ، وإلا فكلاهما يجوز أن يطلق عليه أسم التشبيه ، ويجوز أن يطلق عليه أسم الاستعارة ؛ لاشتراكهما فى المعنى ، وأما التوسع فإنه يذكر للتَّصَرُّف فى اللغة ، لا لفائدة أخرى ، وإن شئت قلت : إن المجاز ينقسم إلى : توسع فى الكلام ، وتشبيه ، واستعارة ، ولا يخرج عن أحد هذه الأقسام الثلاثة ، فأيها وجد كان مجازاً .

فإن قيل : إن التوسع شامل لهذه الأقسام الثلاثة ؛ لأن الخروج من الحقيقة إلى المجاز اتساع فى الاستعمال .

قلت فى الجواب : إن التوسع فى التشبيه والاستعارة جاء ضمناً وتبعاً ، وإن لم يكن هو السبب الموجب لاستعمالهما ؛ وأما القسم الآخر الذى هو لاتشبيه ولا استعارة فإن السبب فى استعماله هو طلب التوسع لاغير ، وبيان ذلك أنه قد ثبت أن المجاز فرع عن الحقيقة ، وأن الحقيقة هى الأصل ، وإنما يعدل عن الأصل إلى الفرع لسبب اقتضاه ، وذلك السبب الذى يعدل فيه عن الحقيقة إلى المجاز : إما أن يكون لمشاركة بين المنقول والمنقول إليه فى وصف من الأوصاف ، وإما أن يكون لغير مشاركة ؛ فإن كان لمشاركة : فإما أن يذكر المنقول والمنقول إليه معاً ، وإما أن يذكر المنقول إليه دون المنقول ؛ فإن ذكر المنقول والمنقول إليه معاً كان ذلك تشبيهاً ، والتشبيه تشبيهان : تشبيه مظهر الأداة ؛ كقولنا : زيد

كالأسد ، وتشبيه مضمر الأداة ، كقولنا : زيد أسد ، وهذا التشبيه المضمر الأداة قد خَلَطَه قوم بالاستعارة ، ولم يفرقوا بينهما ، وذلك خطأ محض .

وسأوضح وجه الخطأ فيه ، وأحقق القول فى الفرق بينهما تحقيقاً جلياً ، فأقول : أما التشبيه المظهر الأداة فلا حاجة بنا إلى ذكره هٰهنا ؛ لأنه معلوم لاخلاف فيه ، لكن نذكر التشبيه المضمر الأداة الذى وقع فيه الخلاف ، فنقول : إذا ذكر المنقول والمنقول إليه على أنه تشبيه مضمر الأداة قيل فيه : زيد أسد ، أى كالأسد ، فأداة التشبيه فيه مضمرة ، وإذا أظهرت حسن ظهورها ، ولم تقدح فى الكلام الذى أظهرت فيه ، ولا تزيل عنه فصاحة ولا بلاغة ، وهذا بخلاف ما إذا ذكر المنقول إليه دون المنقول ، فإنه لايحسن فيه ظهور أداة التشبيه ، ومتى أظهرت أزالت عن ذلك الكلام ما كان متصفاً به من جنس فصاحة وبلاغة ، وهذا هو الاستعارة ، ولنضرب لك مثالا نوضحه ، فنقول : قد ورد هذا البيت لبعض الشعراء ، وهو :

فَرْعَاء إنْ نَهَضَتْ لِحَاجَتِهَا عَجِلَ الْقَضِيبُ وَأَبْطَأَ الدِّعْصُ

وهذا قد ذكر فيه المنقول إليه دون المنقول ؛ لأن تقديره عَجِلَ قَدٌّ كالقضيب وأبطأ رِدْفٌ كالدِّعْص ، وبين إيراده على هذا التقدير وبين إيراده على هيئته فى البيت بَوْنٌ بعيد فى الحسن والملاحة ، والفرق إذاً أنَّ التشبيه المضمر الأداة يحسن إظهار أداة التشبيه فيه ، والاستعارة لايحسن ذلك فيها ، وعلى هذا فإن الاستعارة لاتكون إلا بحيث يُطْوَى ذكر المستعار له الذى هو المنقول إليه ويكتفى بذكر المستعار الذى هو المنقول .

فإن قيل : لانسلم أن الفرق بين التشبيه وبين الاستعارة ماذهبت إليه ، بل الفرق بينهما أن التشبيه إنما يكون بأداته كالكاف وكأنَّ وما جرى مَجْرَاهما ؛ فما لم يظهر فيه أداة التشبيه لايكون تشبيهاً ، وإنما يكون استعارة ، فإذا قلنا :

زيد أسد ، كان ذلك استعارة ، وإذا قلنا : زيد كالأسد ، كان ذلك تشبيهاً .

قلت فى الجواب عن ذلك : إذا لم نجعل قولنا « زيد أسد » تشبيهاً مضمر الأداة استحال المعنى ؛ لأن زيداً ليس أسداً ، وإنما هو كالأسد فى شجاعته ؛ فأداة التشبيه تقدر هٰهنا ضرورة كى لايستحيل المعنى .

فإن قيل : وكذلك أيضاً إذا لم تقدّر أداة التشبيه فى الاستعارة استحال المعنى ؛ لأنا إذا قلنا « عَجِلَ القضيبُ وأبطأ الدِّعْصُ » فما لم نقدّر فيه أداة التشبيه وإلا استحال المعنى

قلت فى الجواب عن ذلك : تقدير أداة التشبيه لابد منه فى الموضعين ؛ لـكن يحسن إظهارها فى التشبيه ، دون الاستعارة ، وجملة الأمر أنا نرى أداة التشبيه يحسن إظهارها فى موضع دون موضع ؛ فعلمنا أن الموضع الذى يحسن إظهارها فيه غير الموضع الذى لايحسن إظهارها فيه ، فسمينا الموضع الذى يحسن إظهارها فيه تشبيهاً مضمر الأداة ، والذى لايحسن إظهارها فيه استعارة ، وإنما فعلنا ذلك لأن تسمية مايحسن إظهار أداة التشبيه فيه بالتشبيه أليق ، وتسمية ما لا يحسن إظهار أداة التشبيه فيه بالاستعارة أليق ، فإذا قلنا : « زيدٌ أسد » حسن إظهار أداة التشبيه فيه ، بأن نقول : زيد كالأسد ، وإذا قلنا كما قال الشاعر :

فَرْعاءُ إنْ نَهَضَتْ لِحَاجَتِهـــا عَجِلَ الْقَضِيبُ وَأَبْطأَ الدِّعْصُ

لايحسن إظهار أداة التشبيه فيه ، على ماتقدم من ذكر ذلك أولا .

فإن قيل : إذا أجزت إضمار أداة التشبيه وقدَّرت إظهارها فى قولك « زيد أسد » أى : كالأسد ، فنحن نضمر أيضاً المستعار له ونقدر إظهاره ؛ فإنه لما قال الشاعر « عجل القضيب وأبطأ الدعص » أضمر المستعار له ، وهو الْقَدُّ والرِّدْف ، وإذا أُظهر قيل : عجل قَدٌّ كالقضيب ، وأبطأ رِدْفٌ كالدِّعْص ، ولا فرق بين

الإضمارين ، فكما يسعُكَ إضمار أداة التشبيه فى قولك « زيد أسد » فكذلك يسعنا نحن إضمار المستعار له فى قول الشاعر .

فالجواب عن ذلك أنى أقول : نحن فى هذا المقام واقفون مع الاستحسان لا مع الجواز ، ولو تأملت ما أوردته فى أول كلامى بالعَيْن الصحيحة لما أوردت علىّ هذا الاعتراض ههنا ؛ فإنى قلت : التشبيه المضمر الأداة يحسن إظهار أداة التشبيه فيه ، والاستعارة لا يحسن إظهار أداة التشبيه فيها ، ولو قلت يجوز أو لا يجوز لوَرَدَ علىّ هذا الاعتراض الذى ذكرته ، وقد علم وتحقق أن من الواجب فى حكم الفصاحة والبلاغة ألاّ يظهرَ المستعار له ، و إذا أظهر ذهب ما على الكلام من الحسن والرونق ، ألا ترى أنا إذا أوردنا هذا البيت الذى هو :

فأمْطَرَتْ لُؤْلُؤًا مِنْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ ... وَرْدًا وَعَضَّتْ عَلَى الْعُنَّابِ بِالْبَرَدِ

وجد عليه من الحسن والرونق مالا خفاء به ، وهو من باب الاستعارة ، فإذا أظهرنا المستعار له صرنا إلى كلام غَثٍّ ، وذلك أنا نقول : فأمطرت دَمْعاً كاللؤلؤ من عين كالنرجس وسَقَتْ خداً كالورد وعضّت عَلَى أناملَ مخضوبةٍ كالعُنَّاب بأسنان كالبَرَدِ ، وفَرْقٌ بين هذين الكلامين للمتأمل واسع .

وهكذا يجرى الحكم فى البيت المتقدم ذكره الذى هو :

فرْعاء إنْ نَهَضَتْ لِحَاجَتِهَا ... عَجِلَ الْقَضِيبُ وَابْطَأَ الدِّعْصُ

فإن هذا البيت لاخفاء بما عليه من الحسن ، و إذا ظهر فيه المستعار له زال ذلك الحسن عنه ، لا ، بل تبدل بضده ، وليس كذلك التشبيه المضمر الأداة ، فإنا إذا أظهرنا أداة التشبيه وأضمرناها كان ذلك سواء ؛ إذ لا فرق بين قولنا « زيد أسد » و بين قولنا « زيد كالأسد » وهذا لا يخفى على جاهل بعلم الفصاحة والبلاغة ، فضلا عن عالم ، والمعوَّلُ عليه فى تأليف الكلام من المنثور والمنظوم إنما هو حسنه وطلاوته ، فإذا ذهب ذلك عنه فليس بشىء ، ونحن فى الذى

نورده فى هذا الكتاب واقفون مع الحسن ، لا مع الجواز .

ثم لو تنزّلنا معك أيها المعترض عن درجة الحسن إلى درجة الجواز لما استقام لك ماذكرته ، وذاك أن إضمار أداة التشبيه ظاهر فى قولنا « زيد أسد » أى كالأسد ، وهو مضمر واحد ، وأما قول الشاعر « فرعاء إن نهضت لحاجتها » فإنه لا يضمر فيه أداة التشبيه إلا بعد أن يظهر المستعار له ، وحينئذ يكون فيه إضماران : أحدهما : المستعار له ، والآخر أداة التشبيه ، وإضمار واحد أيسر من إضمارين أحدهما معلق على الآخر ، وإذا كان الأمر كذلك فالفرق بين الاستعارة والتشبيه هو ماقدمت القول فيه من أنّ الاستعارة لاتكون إلا بحيث يطوى ذكر المستعار له ، فتأمل ما أشرت إليه وتدبره حتى تعلم أنى ذكرت مالم يذكره أحد غيرى على هذا الوجه .

وإنما سمى هذا القسم من الكلام استعارة لأن الأصل فى الاستعارة المجازية مأخوذ من العارية الحقيقية التى هى ضرب من المعاملة ، وهى أن يستعير بعض الناس من بعض شيئاً من الأشياء ، ولا يقع ذلك إلا من شَخْصَيْن بينهما سبب معرفةٍ مَايقتضى استعارةَ أحدهما من الآخر شيئاً ، وإذا لم يكن بينهما سبب معرفة بوجه من الوجوه فلا يستعير أحدهما من الآخر شيئاً ؛ إذ لا يعرفه حتى يستعير منه ، وهذا الحكم جار فى استعارة الألفاظ بعضها من بعض ، فالمشاركة بين اللفظين فى نقل المعنى من أحدهما إلى الآخر كالمعرفة بين الشخصين فى نقل الشىء المستعار من أحدهما إلى الآخر .

واعلم أنه قد ورد من الكلام ما يجوز حمله على الاستعارة وعلى التشبيه المضمر الأداة معاً ، باختلاف القرينة ، وذاك أن يرد الكلام محمولا على ضمير من تقدم ذكره فينتقل عن ذلك إلى غيره ويرتجل ارتجالا .

فمما جاء منه قول البحترى(١) :

إِذَا سَفَرَتْ أَضَاءَتْ شَمْسَ دَجْنٍ   وَمَالَتْ فى التَّعَطُّفِ غُصْنَ بَانِ

فلما قال « أضاءت شمسَ دَجْن » بنصب الشمس كان ذلك محمولا على الضمير فى قوله « أضاءت » كأنه قال أضاءت هى ، وهذا تشبيه ؛ لأن المشبه مذكور ، وهو الضمير فى « أضاءت » الذى نابت عنه التاء ، ويجوز حمله على الاستعارة بأن يقال « أضاءت شمسُ دجن » برفع الشمس ، ولا يعود الضمير حينئذ إلى من تقدم ذكره ، وإنما يكون الكلام مرتجلا ، ويكون البيت :

إِذَا سَفَرَتْ أَضَاءَتْ شَمْسُ دَجْنٍ   وَمَالَ مِنَ التَّعَطُّفِ غُصْنُ بَانِ

وهذا الموضع فيه دقة غموض ، وحرف التشبيه يحسن فى الأول دون الثانى .

وأما القسم الذى يكون العدول فيه عن الحقيقة إلى المجاز لغير مشاركة بين المنقول والمنقول إليه فذلك لا يكون إلا لطلب التوسع فى الكلام ، وهو سبب صالح ؛ إذ التوسع فى الكلام مطلوب .

وهو ضربان : أحدهما : يرد على وجه الإضافة ، واستعماله قبيح؛ لبعد ما بين المضاف والمضاف إليه ، وذاك لأنه يلتحق بالتشبيه المضمر الأداة ، وإذا ورد التشبيه ولا مناسبة بين المشبه والمشبه به كان ذلك قبيحاً ، ولا يستعمل هذا الضربَ من التوسع إلا جاهل بأسرار الفصاحة والبلاغة ، أو ساهٍ غافل يذهب به خاطره إلى استعمال مالا يجوز ولا يحسن ، كقول أبى نواس(٢) :

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أحمد بن المدبر وأخاه إبراهيم ، وأولها قوله :

عَنَانِى مِنْ صُدُودِكَ مَاعَنَانِى   وَعَاوَدَنِى هَوَاكَ كَمَا بَدَانِى

(٢) من قصيدة له يمدح فيها العباس بن عبيد الله بن أبى جعفر المنصور ، وأولها قوله :

غَرَّدَ الدِّيكُ الصَّدُوحُ   فاسْقِنِى طَابَ الصَّبُوحُ

انظر الديوان (ص ٦٨) .

بُحَّ صَوْتُ المَالِ مِمَّا ... مِنْكَ يَشْكُو وَيَصِيحُ

فقوله « بح صوت المال » من الكلام النازل بالمرة ، ومراده من ذلك أن المال يتظلم من إهانتك إياه بالتمزيق ، فالمعنى حسن ، والتعبير عنه قبيح ، وما أحسن ما قال مسلم بن الوليد فى هذا المعنى(١) :

تَظَلَّمَ المَالُ والأَعْدَاء مِنْ يَدِهِ ... لا زَالَ لِلْمَالِ وَالأعْدَاء ظلامَا

وكذلك ورد قول أبي نواس أيضاً(٢) :

مَا لِرِجْلِ المَالِ أَمْسَتْ ... تَشْتَكِى مِنْكَ الكَلاَلاَ

فإضافة الرِّجْل إلى المال أقبح من إضافة الصوت .

ومن هذا الضرب قول أبي تمام(٣) :

وَكَمْ أَحْرَزَتْ مِنْكُمْ عَلَى قُبْحِ قَدِّهَا ... صُرُوفُ النوَى مِنْ مُرْهَفٍ حَسَنِ القَدِّ

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها يزيد بن مزيد الشيبانى ، وأولها قوله :

طَيْفَ الخَيالِ حَمِدْنَا مِنْكَ إِلْمَامَا ... دَاوَيْتَ سُقْماً وَقَدْ هَيَّجْتَ أَسْقَامَا

(٢) من قصيدة له يمدح فيها إبراهيم بن عبيد الله الحجبى ، وأولها قوله :

هَلْ عَرَفْتَ الرَّبْعَ أَجْلَى ... أَهْلُهُ عَنْهُ فَزَالاَ

انظر الديوان (ص ١١٨) .

(٣) من قصيدة له يمدح فيها موسى بن إبراهيم الرافقى و يعتذر إليه ، وأولها قوله :

شَهِدْتُ لَقَدْ أَقْوَتْ مَغَانِيكُمُ بَعْدِى ... وَمَحَّتْ كما مَحَّتْ وَشَائِعُ مِنْ بُرْدِ

وله بيت آخر شبيه بهذا من قصيدة له يمدح فيها أبا العباس نصر بن منصور ابن بسام ، وأولها قوله :

أَأَطْلاَلَ هِنْدٍ سَاءَ مَا اعْتَضْتِ مِنْ هِنْدِ ... أَقَايَضْتِ حُورَ العِينِ بِالْعُورِ وَالرُّبْدِ

والبيت المشار إليه هو قوله :

وَمَقْدُودَةٍ رُودٍ تَكَادُ تَقُدُّهَا ... إِصَابَتُها بِالْعَيْنِ مِنْ حَسَنِ القَدِّ

فإضافة القدّ إلى النوى من التشبيه البعيد البعيد ، وإنما أوقعه فيه المماثلة بين القد والقد ، وهذا دأب الرجل فى تتبع المماثلة تارة والتجنيس أخرى ، حتى إنه ليخرج إلى بناء يعاب به أقبح عيب وأفحشه .

وكذلك ورد قوله(١) :

بَلَوْنَاكَ أَمَّا كَعْبُ عِرْضِكَ فِي الْعُلاَ فَعَالٍ وَأَمَّا خَدُّ مَالِكَ أَسْفَلُ(٢)

فقوله كعب عرضك وخد مالك مما يستقبح ويستنكر ، ومراده من ذلك أن عرضك مصون ومالك مبتذل ، إلا أنه عبر عنه أقبح تعبير ، وأبو تمام يقع فى مثل ذلك كثيراً .

وأما الضرب الآخر من التوسع فإنه يرد على غير وجه الإضافة ، وهو حسن لا عيب فيه ، وقد ورد فى القرآن الكريم ؛ كقوله تعالى : (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) فنسبة القول إلى السماء والأرض من باب التوسع ؛ لأنهما جماد ، والنطق إنما هو للإنسان لا للجماد ، ولا مشاركة ههنا بين المنقول والمنقول إليه .

وكذلك قوله تعالى : (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ).

وعليه ورد قول النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه نظر إلى أُحُدٍ يومًا فقال : «هٰذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ» فإضافة المحبة إلى الجبل من باب التوسع ؛ إذ لا مشاركة بينه وبين الجبل الذى هو جماد .

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا المستهل محمد بن شقيق الطائى ، وأولها قوله :

تَحَمَّلَ عَنْهُ الصَّبْرُ يَوْمَ تَحَمَّلُوا وَعَادَتْ صَبَاهُ فِي الصِّبَا وَهْيَ شَمْأَلُ

(٢) رواية الديوان فى عجز البيت :

* فَعَالٍ ، وَلٰكِنْ جَدُّ مَالِكَ أَسْفَلُ *

ورواية « لكن » خير من رواية « وأما » ؛ لأن أما يلزم بعد ما بعدها الفاء كما قال « أما كعب عرضك فى العلا فعال » .

وعلى هذا ورد مخاطبة الطلول، ومساءلة الأحجار، كقول أبي تمام(١) :

أَمَيْدَانَ لَهْوِى مَنْ أَتَاحَ لَكَ الْبِلَى   فَأَصْبَحْتَ مَيْدَانَ الصَّبَا وَالْجَنَائِبِ

وكقول أبي الطيب المتنبي(٢) :

إِثْلِثْ فَإِنَّا أَيُّهَا الطَّلَلُ   نَبْكِي وَتُرْزِمُ تَحْتَنَا الْإِبِلُ(٣)

فأبو تمام سائل ربوعا عافية وأحجاراً دارسة، ولا وجه لها ههنا إلا مساءلة الأهل؛ كالذى فى قوله تعالى : (وَاسْئَلِ الْقَرْيَةَ) أى : أهل القرية، وكل هذا توسع فى العبارة؛ إذ لامشاركة بين رسوم الديار وبين فهم السؤال والجواب، وكذلك قال أبو الطيب المتنبي فى أمره الطلل بأن يكون ثالثاً لهما : أى الركب والإبل، وهذا واضح لانزاع فيه .

فإذ قد تبين وتحقق ما أشرت إليه من هذا الموضع فالمجاز لايخرج عن هذه الأقسام الثلاثة : إما توسع، أو تشبيه، أو استعارة، وإذا حققنا النظر فى الاستعارة والتشبيه وجدناهما أمراً قياسياً فى حمل فَرْعٍ على أصل لمناسبة بينهما، وإن كانا يفترقان بحدهما وحقيقتهما .

فأما حَدُّ الاستعارة فقيل : إنه نقل المعنى من لفظ إلى لفظ بسبب مشاركة بينهما، وهذا الحد فاسد؛ لأن التشبيه يشارك الاستعارة فيه، ألا ترى أنا إذا

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا دلف القاسم بن عيسى العجلى، وأولها قوله :

عَلَى مِثْلِهَا مِنْ أَرْبُعٍ وَمَلَاعِبِ   تُذَالُ مَصُونَاتُ الدُّمُوعِ السَّوَاكِبِ

(٢) هذا مطلع قصيدة يمدح فيها عضد الدولة، وبعده قوله :

أَوْلَا فَلَا عَتْبٌ عَلَى طَلَلٍ   إِنَّ الطُّلُولَ لِمِثْلِهَا فُعُلُ

(٣) يريد كن أيها الطلل ثالثا فى البكاء على فقد الأحبة؛ فنحن نبكى والإبل من تحتنا تساعدنا بحنينها، وهو قريب من قول البحترى :

أَطْلُبَا ثَالِثاً سِوَاىَ فَإِنِّى   رَابِعُ الْعِيسِ وَالدُّجَى وَالْبِيدِ

قلنا : « زيد أسد » أى كأنه أسد ، وهذا نقل المعنى من لفظ إلى لفظ بسبب مشاركة بينهما ؛ لأنا نقلنا حقيقة الأسد إلى زيد فصار مجازاً ، وإنما نقلناه لمشاركة بين زيد وبين الأسد فى وصف الشجاعة .

والذى عندى من ذلك أن يقال : حَدُّ الاستعارة نَقْلُ المعنى من لفظ إلى لفظ لمشاركة بينهما مع طىِّ ذكر المنقول إليه ؛ لأنه إذا احترز فيه هذا الاحتراز اختصّ بالاستعارة ، وكان حدًّا لها دون التشبيه ، وطريقه أنك تريد تشبيه الشىء بالشىء مظهراً ومضمراً ، وتجىء إلى المشبه فتعيره اسم المشبه به ، وتجريه عليه ، مثال ذلك أن تقول : رأيت أسداً ، وهذا كالبيت الشعر المقدم ذكره ، وهو :

فَرْعَاء إنْ نَهَضَتْ لِحَاجَتِها عَجِلَ الْقَضِيبُ وَأَبْطَأَ الدِّعْصُ

فإن هذا الشاعر أراد تشبيه القدّ بالقضيب ، والرِّدْف بالدِّعص الذى هو كثيب الرمل ؛ فترك ذكر التشبيه مظهراً ومضمراً ، وجاء إلى المشبه – وهو القدُّ [والرِّدْف] – فأعاره المشبه به – وهو القضيب والدعص – وأجراه عليه .

إلا أن هذا الموضع لا بدَّ له من قرينة تفهم من فحوى اللفظ : لأنه إذا قال القائل : رأيت أسداً ، وهو يريد رجلاً شجاعًا ؛ فإن هذا القول لا يفهم منه ماأراد ، وإنما يفهم منه أنه أراد الحيوان المعروف بالأسد ، لكن إذا اقْتَرَنَ بقوله هذا قرينة تدل على أنه أراد رجلاً شجاعًا اخْتَصَّ الكلام بما أراد ، ألا ترى إلى إلى قول الشاعر : « عَجِلَ الْقَضِيبُ وأبطأ الدِّعْصُ » فإنه دل عليه من نفس البيت ؛ لأن قوله « فرعاء إن نهضت » دليل على أن المراد هو القدّ والرِّدف[1] ؛

(١) وشىء آخر فى هذا البيت يدل على أن المراد القد والردف ؛ لا القضيب الحقيقى والدعص الحقيقى ، وهو قوله « عجل » و « أبطأ » ؛ فإن الذى يعجل ويبطىء هما المشبهان لا القضيب والدعص المشبه بهما .

لأن القضيب والدّعص لا يكونان لامرأة فرعاء تنهض لحاجتها ، وكذلك كل مايجيء على هذا الأسلوب ؛ لأن المستعار له وهو المنقول إليه مَطْوِيٌّ الذكر .

وكنت تصفحت كتاب « الخصائص » لأبي الفتح عثمان بن جني ، فوجدته قد ذكر في المجاز شيئاً يتطرق إليه النظر ، وذلك أنه قال: لا يُعْدَل عن الحقيقة إلى المجاز إلا لمعان ثلاثة ، وهي الاتساع ، والتشبيه ، والتوكيد ؛ فإن عدمت الثلاثة كانت الحقيقة البتة .

فمن ذلك قوله تعالى : (فَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا) فهذا مجاز ، وفيه الثلاثة المذكورة : أما الاتّساع فهو أنه زاد في أسماء الجهات والمحالّ اسما ، وهو الرحمة ، وأما التشبيه فإنه شَبَّه الرحمة وإن لم يَصِحّ دخولها بما يصحّ دخوله ، وأما التوكيد فهو أنه أخبر عما لا يُدْرَك بالحاسة بما يدرك بالحاسة ؛ تعالياً بالمخبر عنه ، وتفخيماً له إذا صير بمنزلة ما يشاهد ويعاين

هذا مجموع قول أبي الفتح رحمه الله من غير زيادة ولا نقص .

والنظر يتطرق إليه من ثلاثة أوجه :

الأول : أنه جعل وجود هذه المعاني الثلاثة سبباً لوجود المجاز ، بل وجود واحد منها سبباً لوجوده ؛ ألا ترى أنه إذا وجد التشبيه وحده كان ذلك مجازاً ، وإذا وجد الاتساع وحده كان ذلك مجازاً ، ثم إن كان وجود هذه المعاني الثلاثة سبباً لوجود المجاز كان عدم واحد منها سبباً لعدمه ، ألا ترى أنا إذا قلنا : لا يوجد الإنسان إلا بأن يكون حيوانا ناطقاً ؛ فالحيوانية والنطق سبب لوجود الإنسان ، وإذا عدم واحد منهما بطل أن يكون إنسانا ، وكذلك كل صفات تكون متقدمة لوجود الشيء ؛ فإن وجودها بوجوده ، وعدم واحد منها يوجب عدمه ؛

وأما الوجه الثاني : فإنه ذكر التوكيد والتشبيه ، وكلاهما شيء واحد على الوجه الذي ذكره ؛ لأنه لما شبهت الرحمة ، وهي معنى لا يدرك بالبصر ، بمكان

يُدْخَل ، وهو صورة تدرك بالبصر ، دخل تحته التوكيد الذى هو إخبار عما لايدرك بالحاسة بما قد يدرك بالحاسة ، على أن التوكيد ههنا ، على وجه ما أورده فى تمثيله ، لا أعلم ما الذى أراد به ، لأنه لا يؤتى به فى اللغة العربية إلا لمعنيين : أحدهما : أنه يرد أبداً فيما استقرى بألفاظ محصورة نحو نفسه وعينه وكله ، وما أضيف إليها مما استقرى ، وهو مذكور فى كتب النحاة ، وقد كفيت مؤنته ، الآخر : أنه يرد على وجه التكرير ، نحو : قام زيد قام زيد ، كرر اللفظ فى ذلك تحقيقاً للمعنى المقصود : أى توكيداً ، والذى ذكره أبو الفتح رحمه الله تعالى لا يدل على أن المراد به أحد هذين المعنيين المشار إليهما ، ولا شك أنه أراد به المبالغة والمغالاة فى إبراز المعنى الموهوم إلى الصورة المشاهدة ، فعبر عن ذلك بالتوكيد ، ولا مُشَاحَّة له فى تعبيره ، وإذا أراد به ذلك فهو والتشبيه سواء على ما ذكره ، ولا حاجة إلى ذكر التوكيد مع ذكر التشبيه .

وأما الوجه الثالث فإنه قال « أما الاتساع فهو أنه زاد فى أسماء الجهات والمحال كذا وكذا » وهذا القول مضطرب شديد الاضطراب ؛ لأنه ينبغى على قياســه أن يكون جَناح الذل فى قوله تعالى : (وَاُخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ) زيادة فى أسماء الطيور ، وذلك أنه زاد فى أسماء الطيور اسماً هو الذل ، وهكذا يجرى الحكم فى الأقوال الشعرية كقول أبى تمام(١) :

لَبِسْتُ سِوَاهُ أَقْوَامًا فَكَانُوا   كَمَا أَغْنَى التَّيَمُّمُ بِالصَّعِيدِ

فزاد فى اسماء اللباس اسما ، هو الآدمى ، وهذا مما يضحك منه ، نعوذ بالله من الخطل ! ! والاتساع فى المجال لايقال فيه كذا ، وإنما يقال : هو أن تجرى صفة

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف الطائى ، وأولها قوله :

أَظُنُّ دُمُوعَهَا سَنَنَ الْفَرِيدِ   وَهِى سِلْكَاهُ مِنْ نَحْرٍ وجِيدِ

انظر الديوان (ص ١٠٤)

من الصفات على موصوف ليس أهلا لأن تجرى عليه ؛ لبعد ما بينه وبينها ؛ كقول أبي الطيب المتنبي :

إِثْلِثْ فَإِنَّا أَيُّهَا الطَّلَلُ نَبْكِي وَتُرْزِمُ تَحْتَنَا الإِبِلُ[1]

فإنه أجرى الكلام على ذلك ، وإنما يستعمل طلباً للاتساع فى أساليب الكلام ، لا لمناسبة بين الصفة والموصوف ؛ إذ لو كان لمناسبة لما كان ذلك اتساعا ، وإنما كان ضربا من القياس فى حمل الشىء على مايناسبه ويشاكله ، وحينئذ يكون ذلك تشبيهاً أو استعارة ، على ماأشرت إليه من قبل .

وكنت اطلعت فى كتاب من مصنفات أبى حامد الغزالى رحمه الله ألفه فى أصول الفقه ، ووجدته قد ذكر الحقيقة والمجاز ، وقسم المجاز إلى أربعة عشر[2] قسما ، وتلك الأربعة عشر ترجع إلى الثلاثة التى أشرت إليها ، وهى : التوسع ،

---

(١) سبق قريبا ذكر هذا البيت (انظر ص ٣٦٤ من هذا الجزء) .

(٢) هذا الذى ذكره المؤلف من الاعتراض على أبى حامد ليس سديدا ؛ ونحن نذكر لك شيئا من التفصيل فى التقسيم ؛ فنقول : هب أنك تريد أن تقسم الموجودات ؛ فقلت فى التقسيم: الموجودات تنقسم إلى ثلاثة أقسام : حيوان ، ونبات ، وجماد ؛ فهذه أقسام ثلاثة تحصر جميع الموجودات ، وكل قسم منها يقابل الآخر ولا يجتمع معه فى شىء ؛ فإذا قلت : الموجودات تنقسم إلى أقسام كثيرة : منها الجماد ، ومنها النبات ، ومنها الإنسان ، ومنها الأسد ، ومنها الفرس ، ومنها الجمل ؛ فهذا تقسيم صحيح أيضا ، والفرق بينه و بين التقسيم الأول أنه فصل النوع الثالث فى التقسيم الأول بعض التفصيل ؛ فلو أنه ذكر جميع أنواع الحيوان فلم يترك منها شيئا كان فى الاستيعاب والصحة مثل الأول تماما ، فإن ترك منها شيئا ولم يقل فى العبارة مايدل على أنه لا يستقرىء كان التقسيم غير حاصر . وتقسيم أبى حامد رحمه الله من النوع الثانى ؛ فإنه عدد بعض أنواع القسم الذى سماه المؤلف ههنا التوسع ، وهو نوع من المجاز يسميه المتأخرون المجاز المرسل . والذى ذكره أبو حامد أولى مما ذكره المؤلف ؛ لاشتماله على تفصيل المجمل فى كلامه ؛ فتدبر ذلك وتفهمه جيدا .

والتشبيه ، والاستعارة ، ولا تخرج عنها ؛ والتقسيم لايصح فى شىء من الأشياء إلا إذا اختص كل قسم من الأقسام بصفة لايختص بها غيره ، و إلا كان التقسيم لغواً لا فائدة فيه .

وسأورد ماذكره وأبين فساده .

فالقسم الأول من الأقسام التى ذكرها هو : ما جعل للشىء بسبب المشاركة فى خاصة ، كقولهم للشجاع : أسد ، وللبليد : حمار ، وهذا القسم داخل فى الاستعارة ، إن ذكر المنقول وحده ، مثل أن يقول القائل : رأيت أسداً ، ومراده رجلا شجاعاً ، أو رأيت حماراً ، ومراده رجلا بليداً ، وداخل فى التشبيه المضمر الأداة ، إن ذكر المنقول والمنقول إليه معاً ، كقول القائل : زيد أسد : أى كالأسد ، أوحمار : أى كالحمار .

القسم الثانى : تسمية الشيء باسم ما يئول إليه ، كقوله تعالى : (إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْراً) و إنما كان يَعْصِرُ عنباً ، وهذا القسم داخل فى القسم الأول؛ لصفة المشابهة بين المنقول والمنقول إليه ، وهومن باب الاستعارة(١) ، لا ، بل أوغل فى المشابهة من ذاك ؛ لأن الخمر من العنب ، وليس الأسد من الرجل ، ولا الرجل من الأسد .

القسم الثالث : تسمية الشىء باسم فرعه ، كقول الشاعر :

وَمَا الْعَيْشُ إلاَّ نَوْمَةٌ وَتَشَرُّقٌ ... وَتَمْرٌ عَلَى رَأْسِ النَّخِيلِ وَماء

---

(١) لا، ليس هذامن الاستعارة و إن حلف المؤلف على ذلك، بل هوما سماه المؤلف التوسع ، وهو فى التحقيق كما ذكر أبو حامد من باب تسمية الشىء باسم مايئول إليه ؛ فان العصير الذى هو ماء العنب يصير خمرا ، وهو إنما يقصد لما يصير إليه، وسترى أثر العنت فى الجدل ظاهرا على كثير من نقد المؤلف لأبى حامد ، فنكتفى بهذه الإشارة عن القول عن كل كلمة منه بمفردها .

فسمى الرطب تمراً ، وهـذا القسم والقسم الذى قبله سواء ؛ لأن هناك سمى العنب خمراً ، وههنا سمى الرطب تمراً ؛ فالعنب أصل ، والخمر فرع ، وكذلك الرطب أصل والتمر فرع ، وكلا هذين القسمين داخل فى القسم الأول .

وهب أن الغزالى لم يحقق أمر المجاز وانقسامه إلى تلك الأقسام الثلاثة التى أشرت إليها ، ألم ينظر إلى هذين القسمين اللذين هما العنب والخمر والرطب والتمر ويعلم أنهما شىء واحد لافرق بينهما ؟ .

القسم الرابع : تسمية الشىء باسم أصله ، كقولهم للآدمى : مُضْغَة ، وهذا ضد القسم الذى قبله ؛ لأن ذاك جعل الأصل فيه فرعا ، وهذا جعل الفرع فيه أصلا ، وهو داخل فى القسم الأول أيضاً .

القسم الخامس : تسمية الشىء بدواعيه ، كتسميتهم الاعتقاد قَوْلاً ، نحو قولهم : هذا يقولُ بقول الشافعى رحمه الله : أى يعتقد اعتقاده ، وهذا القسم داخل فى القسم الأول ؛ لأن بين القول وبين الاعتقاد مناسبة كالمناسبة بين السبب والمسبب والباطن والظاهر .

القسم السادس : تسمية الشىء باسم مكانه ، كقولهم للمطر : سَماء ؛ لأنه ينزل منها ، وهذا القسم داخل فى الأول ؛ لصفة المناسبة بين المنقول والمنقول إليه ، وهو النزول من عالٍ ، وكل ماعلاك فأظَلَّكَ فهو سماء ، على أن الأغلب على ظنى أن هذا القسم من الأسماء المشتركة ، وتسمية المطر بالسماء حقيقة فيه ، وليس من المجاز فى شىء .

القسم السابع : تسمية الشىء باسم مجاوِرِه ، كقولهم للْمَزَادَةِ : رَاوية ، وإنما الراوية الجملُ الذى يحملها ، وهذا القسم من باب التوسع ، لامن باب التشبيه ، ولا من باب الاستعارة ؛ لأن على قياسه ينبغى أن يسمى الجمل زاملة لأنه يحملها .

القسم الثامن : تسمية الشىء باسم جزئه ، كقولك لمن تبغضه : أبعدَ الله وَجْهَه عنى ، وإنما تريد سائر جثته ، وهذا القسم داخل فى القسم الأول ، وهو شبيه بتسمية الشىء باسم فرعه .

القسم التاسع : تسمية الشىء باسم ضِدِّه ، كقولهم للأسود والأبيض : جَوْن ، وهذا القسم ليس من المجاز فى شىء البتة ، وإنما هو حقيقة فى هذين المسميين معا ؛ لأنه من الأسماء المشتركة ، كقولهم : شِمْتُ السيف ، إذا سللته ، وشمته ، إذا أغمدته ، فدل الشيم على الضدين معا بالوضع الحقيقى ؛ وفى اللغة من هذا شىء كثير ، فكيف يجعل هذا القسم من المجاز ؟

ولا شك أن الغزالى نظر إلى أن الضدين لايجتمعان فى محل واحد ، فقاس الاسم على الذات ، وظن أن الذاتين لايجتمعان فى اسم واحد ، كما أنهما لايجتمعان فى محل واحد .

فإن قيل : لانسلم أن اللفظ المشترك حقيقة بالوضع فى المعنيين معا ؛ لأن ذلك يخلُّ بفائدة الوضع الذى هو البيان ، وإنما هو حقيقة فى أحد معنييه مجاز فى الآخر .

فالجواب عن ذلك أن هذا الموضع تَقَدَّمَ الكلام عليه فى الفصل الثانى من مقدمة الكتاب ، وهو الفصل الذى يشتمل على آلات علم البيان وأدواته ، فليؤخذ من هناك ، فإنى قد أشبعت القول فيه إشباعا لا مزيد عليه .

القسم العاشر : تسمية الشىء بفعله ، كتسمية الخمر مُسْكرا ، وهذا القسم داخل فى القسم الأول ، وأىُّ مشاركة أقرب من هذه المشاركة ؟ فإن الإسكار صفة لازمة للخمر ، وليست الشجاعة صفة لازمة لزيد ؛ لأنه يمكن أن يكون زيد ولا شجاعة ، ولا يمكن أن يكون خمر ولا إسكار ، ألا ترى أنها لم تسم خمرا إلا لإسكارها ، فإنها تخمر العقل : أى تستره .

القسم الحادى عشر: تسمية الشيء بكله، كقولك فى جواب « مافعل زيد »: القيام، والقيام جنس يتناول جميع أنواعه، وهذا القسم لاينبغى أن يوصل بأقسام المجاز؛ لأن القيام لزيد حقيقة.

فإن قيل: إن القيام يشمل جميع أنواع القيام من الماضى والحاضر والمستقبل.

قلت: وهذا من أقرب أقسام المجاز مناسبة؛ لأنه إقامة المصدر مقام الفعل الماضى، والمصدر أصل الفعل، وعلى هذا فإن هذا داخل فى القسم الأول.

القسم الثانى عشر: الزيادة فى الكلام لغير فائدة، كقوله تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ) فما ههنا زائدة لا معنى لها: أى فبرحمة من الله لنت لهم، وهذا القول لا أراه صوابا، وفيه نظر من وجهين: أحدهما: أن هذا القسم ليس من المجاز؛ لأن المجاز هو دلالة اللفظ على غير ماوضع له فى أصل اللغة، وهذا غير موجود فى الآية، وإنما هى دالة على الوضع اللغوى المنطوق به فى أصل اللغة؛ والوجه الآخر: أنى لو سلمت أن ذلك من المجاز لأنكرت أن لفظة « ما » زائدة لامعنى لها، ولكنها وردت تفخيما لأمر النعمة التى لاَنَ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم، وهى محض الفصاحة، ولو عرى الكلام منها لما كانت له تلك الفخامة، وقد ورد مثلها فى كلام العرب، كالذى يحكى عن الزباء، وذلك أن الوَضَّاح الذى هو جَذِيمة الأبرش تزوّجها، والحكاية فى ذلك مشهورة، فلما دخل عليها كشفت له عن فرجها وقد ضفرت الشعر من فوقه ضفيرتين، وقالت: أذات عرس ترى[1]؛ أما إنه ليس ذلك من عوز المواس، ولامن قلة الأواس، ولكنه شيمةُ ما أناس، فمعنى الكلام ولكنه شيمة أناس، وإنما جاءت لفظة « ما » ههنا تفخيما لشأن صاحب تلك الشيمة وتعظيما لأمره، ولو أسقطت لما كان للكلام ههنا هذه الفخامة والجزالة، ولا يعرف ذلك إلا أهله من علماء الفصاحة والبلاغة، وأما الغزالى رحمه الله تعالى فإنه معذور عندى فى

(١) فى ب، ج « أذات عزوس ترى »

ألاَّ يعرفَ ذلك؛ لأنه ليس فنه ، ومن ذهب إلى أن فى القرآن لفظا زائدا لامعنى له فإما أن يكون جاهلا بهذا القول ، و إما أن يكون متسمحا فى دينه واعتقاده ، وقول النحاة إن « ما » فى هذه الآية زائدة فإنمــا يعنون به أنها لاتمنع ماقبلها عن العمل ، كما يسمونها فى موضع آخر كافَّةً : أى أنها تكفّ الحرف العامل عن عمله ؛ كقولك : إنما زيدٌ قائم ، فما قد كفت إنّ عن العمل فى زيد ، وفى الآية لم تمنع عن العمل ، ألا ترى أنها لم تمنع الباء عن العمل فى خفض الرحمة .

القسم الثالث عشر : تسمية الشيء بحكمه ، كقوله تعالى : (وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أنْ يَسْتَنْكِحَهَا) فسمى النكاح هبة ، وهذا القسم داخل فى القسم الأول ؛ لأن النكاح هو تمكين الزوج من الوطء على عوض على هيئة مخصوصة ، والهبة : تمكينه من الشيء الموهوب على غير عوض ، فشاركت الهبة النكاح فى نفس التمكين من الوطء ، و إن اختلفا فى الصورة .

القسم الرابع عشر : النقصان الذى لا يبطل به المعنى ، كحذف الموصوف و إقامة الصفة مقامه ، قال الله تعالى : (وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا) أى : شخصاً بريئًا ، وكحذف المضاف و إقامة المضاف إليه مقامه ؛ قال الله تعالى : (وَاسْئَلِ الْقَرْيَةَ) أى : أهل القرية ؛ وهذا القسم داخل فى القسم الأول : أما حذف الموصوف و إقامة الصفة مقامه فلأن الصفة لازمة للموصوف ، وأما حذف المضاف و إقامة المضاف إليه مقامه فلأنه دل بالمسكون على الساكن ، وتلك مقارنة قريبة .

فهذه أقسام المجاز التى ذكرها الغزالى رحمه الله تعالى ، وقد بينت فساد التقسيم فيها ، وأنها ترجع إلى ثلاثة أقسام ، هى: التوسع ،والتشبيه ، والاستعارة .

وحيث انتهى بى الكلام إلى ههنا ، وفرغت مما أردت تحقيقه ، و بينت

ما أردت بيانه ؛ فإنى أتبع ذلك بضرب الأمثلة للاستعارة التى يستفيد بها المتعلم مالا يستفيده بذكر الحد والحقيقة .

فمما جاء من ذلك فى القرآن الكريم قوله تعالى فى أول سورة إبراهيم صلوات الله عليه: (الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) فالظلمات والنور: استعارة للكفر والإيمان ، أو للضلال والهدى ، والمستعار له مطوىّ الذكر ، كأنه قال : لتخرج الناس من الكفر الذى هو كالظلمة إلى الإيمان الذى هو كالنور .

وكذلك ورد قوله تعالى فى هذه السورة أيضاً : (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ) والقراءة برفع لتزول منه الجبال ليست من باب الاستعارة ، ولكنها فى نصب تزول ، واللام لام كى ، والجبال ههنا : استعارة طوى فيها ذكر المستعار له ، وهو أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الآيات والمعجزات : أى أنهم مكروا مكرهم لكى تزول منه هذه الآيات والمعجزات التى هى فى ثباتها واستقرارها كالجبال .

وعلى هذا ورد قوله تعالى : (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ) فاستعار الأودية للفنون والأغراض من المعانى الشعرية التى يقصدونها ، وإنما خص الأودية بالاستعارة ولم يستعر الطرق والمسالك أو ماجرى مجراها لأنّ معانى الشعر تستخرج بالفكرة والروية ، والفكرة والروية فيهما خفاء وغموض ؛ فكان استعارة الأودية لها أشبه وأليق .

والاستعارة فى القرآن قليلة ، لكن التشبيه المضمر الأداة كثير ، وكذلك هى فى فصيح الكلام من الرسائل والخطب والأشعار ؛ لأن طىّ المستعار له لا يتيسر

فى كل كلام ، وأما التشبيه المضمر الأداة فكثير سهل ؛ لمكان إظهار المشبه والمشبه به معاً .

ومما ورد من الاستعارة فى الأخبار النبوية قول النبى صلى الله عليه وسلم: « لاَ تَسْتَضِيئوا بِنَارِ الْمُشْرِكِينَ » فاستعار النار للرأى والمشورة : أى لا تهتدوا برأى المشركين ولا تأخذوا بمشورتهم .

وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه دخل يوماً مُصَلاه فرأى أناساً كأنهم يكثرون ، فقال: « أَمَا إِنَّكُمْ لَوْ أَكْثَرْتُمْ مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ لَشَغَلَكُمْ عَمَّا أَرَى » وهاذم اللذات أراد به الموت ، وهو مطوى الذكر .

وبلغنى عن العرب أنهم يقولون عند رؤية الهلال : لاَمَرْحَباً بِاللجين مُقَرِّبُ أَجَل ومَحْل ، وهذا من باب الاستعارة فى طى ذكر المستعار له .

وكذلك بلغنى عن الحجاج بن يوسف أنه خطب خطبة عند قدومه العراق فى أول ولايته إياه ، والخطبة مشهوره ، من جملتها أنه قال : إنَّ أميرَ المؤمنين نَثَلَ كنانَتَهُ وعَجَمَها عُوداً عُوداً ، فرآنى أصْلَبَها نجاراً وَأَقْوَمَها عُودًا وأَنفذَها نَصْلاً ، فقوله « نثل كنانته وعجمها عوداً عوداً » يريد أنه عَرَض رجاله واختبرهم واحداً واحداً جد اختباره(١) فرآنى أشدهم وأمضاهم ، وهذا من الاستعارة الحسنة الفائقة .

وقد جاءنى من الاستعارة فى رسائلى ما أذكر شيئاً منه ، ولو مثالا واحدا ، وذلك أنه سألنى بعض الأصدقاء أن أصف له غلامين تركيين كان يهواهما ، وكان أحدهما يلبس قباء أحمر ، والآخر قباء أسود ، فقلت : إذا تشَعَّبَتْ أسبابُ الهوى كانت لسره أظهر ، وأضحت أمْرَاضُهُ خطرا كلها ولا يقال فى أحدها هذا أخطر ، وقد هويت بدرين على غصنين ، ولا طَاقَةَ للقلب بهوى واحد فكيف إذاحمل هوى اثنين ، ومماشجانى أنهما يتلونان فى أصباغ الثياب ، كما يتلونان فى

(١) فى ا ، ب ، ج « حد اختباره » بالحاء المهملة .

فنون التجرم والعتاب ، وقد استجدًّا الآن زيا لامزيد على حسنهما فى حسنه ، فهذا يخرج فى ثوب من حمرة خده وهذا فى ثوب من سواد جفنه ، وما أدرى من دَلّهما على هذا العجيب ، غير أنه ليس على فتنة المحب أهدى من حبيب .

وهذا الفصل بجملته مما تواصفه الناس وأغروا بحفظه .

وأما ماورد من ذلك شعراً فكقول مسكين الدارمى من شعراء الحماسه[1] :

لِحَافِى لِحَافُ الضَّيْفِ وَالْبَيْتُ بَيْتُهُ ... وَلَمْ يُلْهِنِى عَنْهُ غَزَالٌ مُقَنَّعُ

أُحَدِّثُهُ ؛ إِنَّ الْحَدِيثَ مِنَ الْقِرَى ... وَتَعْلَمُ نَفْسِى أَنَّهُ سَوْفَ يَهْجَعُ

فالغزال المقنع هنا استعارة للمرأة الحسناء .

وكذا ورد قول رجل من بنى يسار فى كتاب الحماسة أيضاً[2] :

أَقُولُ لِنَفْسِى حِينَ خَوَّدَ رَأْلُهَا ... رُوَيْدَكِ لَمَّا تُشْفِقِى حِينَ مُشْفَقِ[3]

رُوَيْدَكِ حَتَّى تَنْظُرِى عَمَّ تَنْجَلِى ... عَمَايَةُ هٰذَا الْعَارِضِ الْمُتَأَلِّقِ[4]

فالعارض المتألق : استعارة للحرب ، أوالذىأطل بمكر وهه كالبارق المتألق .

ويحكى أن امرأة وقفت لعبد الملك بن مروان وهو سائر إلى قتال مُصْعَب

---

(١) البيتان نسبهما أبو تمام فى الحماسة لعتبة بن بجير ، لكن قال التبريزى « ويقال إنهما لمسكين الدارمى » انظر شرح التبريزى (١ — ٢٤٣) .

(٢) البيتان نسبهما أبو تمام لرجل من بنى أسد ، يقولهما فى يوم اليمامة ، وقد تقدم ذكرهما فى هذا الجزء (ص ٢٨٢) .

(٣) وقع هذا البيت محرفا فى ا ، ب ، ج ههنا ، فورد فيها هكذا :

أَقُولُ لِنَفْسِى حِينَ حقّ زوالها ... رُوَيْدَكِ لَمَّا تشتقى حين مشفق

مع أنه ورد فى الموضع الذى أشرنا إليه من هذا الجزء صحيحا فيها .

(٤) ورد فى ا ، ب ، ج هنا « غمامة هذا العارض المتألق » وورد فى الموضع السابق فيها « غيابة هذا العارض » وما أثبتناه ههنا عن الحماسة .

ابن الزبير ، فقالت : يا أمير المؤمنين ؛ فقال : رويدك حتى تنظرى عَمّ تنجلى ، وأنشد البيت .

ومن هذا الباب قول عبد السلام بن رَغْبَان (١) المعروف بديك الجن :

لَمَّا نَظَرْتَ إِلَيَّ عَنْ حَدَقِ المَهَا   وَبَسَمْتِ عَنْ مُتَفَتِّحِ النُّوَّارِ
وَعَقَدْتِ بَيْنَ قَضِيبِ بَانٍ أَهْيَفٍ   وَكَثِيبِ رَمْلٍ عُقْدَةَ الزُّنَّارِ
عَفَّرْتُ خَدِّى فى الثَّرَى لَكِ طَائِعاً   وَعَزَمْتُ فِيكِ عَلَى دُخُولِ النَّارِ

وهذه الأبيات لاتجد لها فى الحسن شريكاً ، ولأن يسمى قائلها شحرورا أولى من أن يسمى ديكاً .

وكذلك ورد قوله :

لاَ وَمَكَانِ الصَّلِيبِ فِى النَّحْرِ مِنْـكَ وَمَجْرَى الزُّنَّارِ فِى الْخَصْرِ
وَالْخَالِ فِى الْخَدِّ إِذْ أُشَبِّهُهُ   وَرْدَةَ مِسْكٍ عَلَى ثَرَى تِبْرِ
وَحَاجِبٍ مُذْ خَطَّهُ قَلَمُ الْـ   حُسْنِ بِحِبْرِ الْبَهَاءِ لاَ الْحِبْرِ
وَأُقْحُوَانٍ بِفِيكَ مُنْتَظِمٍ   عَلَى شَبِيهٍ مِنْ رَائِقِ الْخَمْرِ

فالبيت الرابع هو المخصوص بالاستعارة ، والمستعار له هو الثغر والريق .

ومما ورد لأبى تمام فى هذا المعنى قوله (٢) :

لَمَّا غَدَا مُظْلِمَ الْأَحْشَاءِ مِنْ أَشَرٍ   أَسْكَنْتَ جَانِحَتَيْهِ كَوْكَباً يَقِدُ

فالكوكب : استعارة للرمح .

---

(١) وقع فى ا ، ب ، ج «بن رعبان» بالعين المهملة فى اسم أبيه (انظر ص ١١٤ هـ ١ ، وص ٣٠٠ هـ ٢ من هذا الجزء) .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف الطائى ، وأولها قوله :

يَابُعْدَ غَايَةِ دَمْعِ الْعَيْنِ إِنْ بَعُدُوا   هِىَ الصَّبَابَةُ طُولَ الدَّهْرِ وَالسُّهُدُ

وكذلك ورد قوله فى الاعتذار(١) :

أسرى طريداً لِلْحَيَاءِ مِنَ الَّتِي زَعَمُوا وَلَيْسَ لِرَهْبَةٍ بِطَرِيدِ
وَغَداً تَبَيَّنُ مَابَرَاءَةَ سَاحَتِي لَوْ قَدْ نَفَضْتَ تَهَائِمِي وَنُجُودِي

والتهائم والنجود : هما استعارة مما استعاره من باطن أمره وظاهره .

وكذلك ورد قوله(٢) :

كَمْ أَحْرَزَتْ قُضُبُ الْهِنْدِيِّ مُصْلَتَةً تَهْتَزُّ مِنْ قُضُبٍ تَهْتَزُّ فى كُثُبِ

فالقُضُب والكُثُب : استعارة للقدود والأرداف .

وكذلك ورد فى هذه القصيدة أيضاً عند ذكر ملك الروم وانهزامه لما فتحت مدينة عَمُّورية ، فقال :

إنْ يَعْدُ مِنْ حَرِّهَا عَدْوَ الظَّلِيمِ فَقَدْ أَوْسَعْتَ جَاحِمَهَا مِنْ كَثْرَةِ الحَطَبِ

فالحطب : استعارة للقتلى .

وقبل هذا البيت مايدل عليه ؛ لأنه قال :

أَحْذَى قَرَابِينَهُ صِرْفَ الرَّدَى وَمَضَى يَحْتَثُّ أَنْجَى مَطَايَاهُ مِنَ الهَرَبِ
مُوَكَّلاً بِيَفَاعِ الأَرْضِ يُشْرِفُهَا مِنْ خِفَّةِ الْخَوْفِ لاَمِنْ خِفَّةِ الطَّرَبِ
إن يعد من حرها عدو الظليم ... البيت

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أحمد بن أبى دواد ، ويستشفع له بخالد بن يزيد ، وأولها قوله :

أَرَأَيْتَ أَىَّ سَوَالِفٍ وَخُدُودِ عَنَّتْ لنَا بَيْنَ اللِّوَى فزرُودِ

(٢) من قصيدته المشهورة التى يمدح فيها المعتصم بعد فتح عمورية ، وأولها قوله :

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ

وأحسن من هذا كله قوله(١) :

تُطِلُّ الطلُولُ الدَّمْعَ فى كُلِّ مَنْزِلٍ وَتَمْثُلُ بِالصَّبْرِ الدِّيَارُ المَوَاثِلُ
دَوَارِسُ لَمْ يَجْفُ الرَّبِيعُ رُبُوعَهَا وَلاَ مَرَّ فى أَغْفالِهَا وَهْوَ غَافِلُ
يُعَفِّينَ مِنْ زَادِ الْعُفَاةِ إِذَا انْتَحَى عَلَى الْحَىِّ صِرْفُ الْأَزْمَةِ الْمُتَحَامِلُ(٢)

فقوله «زاد العفاة» : استعارة طوى فيها ذكر المستعار له ، وهو أهل الديار ، كأنه قال : يعفين من قوم هم زاد العفاة .

وله فى الغزل من الاستعارة مابلغ به غاية اللطافة والرقة ، وذلك فى قصيدته التى مطلعها :

* إِنَّ عَهْدًا لَوْ تَعْلَمَانِ ذَمِيمَا(٣) *

فقال :

قَدْ مَرَرْنَا بِالدَّارِ وَهْىَ خَلاَءٌ فَبَكَيْنَا طُلُولَهَا وَالرُّسُومَا
وَسَأَلْنَا رُبُوعَها فَانْصَرَفْنَا بِسَقَامٍ وَمَا سَأَلْنَا حَكِيمَا(٤)
كُنْتُ أَرْعَى النُّجُومَ حَتَّى إِذَا مَا فَارَقُونِى أَمْسَيْتُ أَرْعَى النُّجُومَا(٥)

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها محمد بن عبد الملك الزيات ، وأولها قوله :

مَتَى أَنْتَ عَنْ ذُهْلِيَّةِ الْحَىِّ ذَاهِلُ وَقَلْبُكَ مِنْهَا مُدَّةَ الدَّهْرِ آهِلُ

(٢) فى ا ، ب ، ج « ضرب الأزمة » وهو تحريف ، وتصويبه عن الديوان .

(٣) هذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد ، وعجزه قوله :

* أَنْ تَنَامَا عَنْ لَيْلَتِى أَوْ تُنِيمَا *

(٤) فى الديوان :

* بِشِفَاءٍ وَمَا سَأَلْنَا حَكِيمَا *

(٥) الذى فى الديوان :

كُنْتُ أَرْعَى الْبُدُورَ حَتَّى إِذَا مَا فَارَقُونِى أَمْسَيْتُ أَرْعَى النُّجُومَا

ورواية الديوان خير مما هنا .

والبيت الثالث هو المخصوص بالاستعارة .

وعلى هذا المنهاج ورد قول البحترى :

وَأَغَرَّ فى الزَّمَنِ الْبَهِيمِ مُحَجَّلٍ قَدْ زُحْتُ مِنْهُ عَلَى أَغَرَّ مُحَجَّلِ

والأغر المحجل الأول : هو الممدوح ، والأغر المحجل الثانى : هو الفرس الذى أعطاه إياه .

وكذلك ورد قوله(١) :

وَصَاعِقَةٍ فى كَفِّهِ تَنْكَفِي بِهَا عَلَى أَرْؤُسِ الْأَعْدَاءِ خَمْسُ سَحَائِبِ

وهذا من النمط العالى الذى شغلت براعة معناه وحسن سبكه عن النظر إلى استعارته ؛ والمراد بالسحائب الخمس الأصابع .

وكذلك ورد فى أبيات الحماسة(٢) :

دَكَّ طَوْدَ الْكُفْرِ دَكًّا صَاعِقٌ مِنْ وَقْعِ سَيْفِكْ
أَرْسَلَتْهُ خَمْسُ سُحْبٍ نَشَأَتْ مِنْ بَحْرِ كَفِّكْ

وكذلك ورد قوله فى أبيات يصف فيها السيف :

حَمَلَتْ حَمَائِلُهُ الْقَدِيمَةُ بَقْلَةً مِنْ عَهْدِ عَادٍ غَضَّةً لَمْ تَذْبُلِ

(١) من قصيدة له يمدح فيها محمد بن يوسف ، وأولها قوله :

هَبِيهِ لِمُنْهَلِّ الدُّمُوعِ السَّوَاكِبِ وَهَبَّاتِ شَوْقٍ فِى حَشَاهُ لَوَاعِبِ

(٢) هذان البيتان ليسا من شعر الحماسة الذى اختاره أبو تمام حبيب بن أوس الطائى ، وقد يفهم من كلام المؤلف أنها منه ؛ فقد اشتهر على ألسنة العلماء والأدباء أنهم يقولون « قال الحماسى » أو « وفى شعر الحماسة » فينصرف ذلك إلى أنه من ديوان الحماسة .

وهذا من الحسن على ما يشهد لنفسه ، كأنه قال : حملت حمائله سيفاً أخضر الحديد كالبقلة .

وعلى هذا الأسلوب ورد قول أبي الطيب المتنبي(١) :

فِي الْخَدِّ إِنْ عَزَمَ الْخَلِيطُ رَحِيلاَ مَطَرٌ تَزِيدُ بِهِ الْخُدُودُ مُحُولاَ(٢)

وكذلك ورد قوله :

* يمد يديه في المفاضة ضيغم *

وأحسن من هذا قوله في قصيدته التي مطلعها :

* عُقْبَى الْيَمِينِ عَلَى عُقْبَى الْوَغَى نَدَمُ(٣) *

وَأَصْبَحَتْ بِقُرَى هِنْزِيطَ جَائِلَةً تَرْعَى الظُّبَى فِي خَصِيبٍ نَبْتُهُ اللِّمَمُ(٤)

---

(١) هذا مطلع قصيدة له يمدح فيها بدر بن عمار .

(٢) الخليط في الأصل : الذي يعاشرك ، وأراد ههنا الحبيب ، ومحول الخدود : ذهاب نضرتها وشحوبها . وقد نظر أبو الطيب في هذا إلى قول الشاعر :

لَوْ نَبَتَ الْعُشْبُ مِنْ دُمُوعٍ لَكَانَ فِي خَدِّيَ الرَّبِيعُ

(٣) هذا صدر المطلع وعجزه قوله :

* مَاذَا يَزِيدُكَ فِي إِقْدَامِكَ الْقَسَمُ *

وهي قصيدة يمدح فيها سيف الدولة ، ويعرض بابن شمشقيق بطريق الروم ؛ وكان قد حلف لملك الروم أن يلقى سيف الدولة في بطارقته ، ففعل ، فخيب الله ظنه ، وأتعس جده .

(٤) هنزيط : بلد من بلاد الروم ، والظبى : جمع ظبة ، وهي حد السيف ؛ والخصيب : المكان الكثير النبات ، واللمم : جمع لمة ، وهي ما ألم وأحاط بالمنكب من شعر الرأس ، يريد أن خيل سيف الدولة أصبحت في هذا المكان تجول للقتل والغارة والسيوف ترعى في مكان خصيب من رءوسهم إلا أن نبته الشعر .

فَمَا تَرَكْنَ بِهَا خُلْدًا لَهُ بَصَرٌ تَحْتَ التُّرَابِ وَلَا بَازًا لَهُ قَدَمُ(١)
وَلَا هِزَبْرًا لَهُ مِنْ دِرْعِهِ لِبَدٌ وَلَا مَهَاةً لَهَا مِنْ شِبْهِهَا حَشَمُ(٢)

وهذا من المليح النادر ؛ فالخلد : استعارة لمن اختفى تحت التراب خائفاً ، والباز : استعارة لمن طار هاربا ، والهزبر والمهاة : استعارتان للرجال المقاتلة والنساء من السبايا .

ومن هذا الباب قوله(٣) :

كُلُّ جَرِيحٍ تُرْجَى سَلَامَتُهُ إِلَّا جَرِيحًا دَهَتْهُ عَيْنَاهَا(٤)
تَبُلُّ خَدَّيَّ كُلَّمَا ابْتَسَمَتْ مِنْ مَطَرٍ بَرْقُهُ ثَنَايَاهَا(٥)

والبيت الثانى من الأبيات الحسان التى تتواصف ، وقد حسن الاستعارة التى فيه أنه جاء ذكر المطر مع البرق .

(١) الخلد : ضرب من الفأر ليست له عيون ، يريد أن الروم كانوا قسمين: أحدهما دخلوا الأسراب والمطامير ، شأنهم فى ذلك شأن الفأر إذا فزعت من شىء انطلقت هاربة إلى جحرها ، والثانى الذين صعدوا إلى الجبال يعتصمون بها ، شأنهم فى ذلك شأن البازى الذى يطير عن الأرض عاليا .

(٢) الهزبر فى الأصل : الأسد ، واللبد : جمع لبدة ، وهى الشعر الذى على كتفى الأسد ، والمهاة فى الأصل : بقرة الوحش ، والحشم : الخدم ، وهم حاشية العظيم من الناس ؛ يريد أن سيوف سيف الدولة لم تترك فارسا من فرسان أعدائه الا جندلته ، ولا امرأة جميلة من ذوات الحشم واليسار الا أوقعوها فى أسرهم .

(٣) من قصيدة له يمدح فيها عضد الدولة أبا شجاع فنا خسرو ، وأولها قوله :

أَوْهِ بَدِيلٌ مِنْ قَوْلَتِي وَاهَا لِمَنْ نَأَتْ وَالْبَدِيلُ ذِكْرَاهَا

(٤) يريد أن من أصابته هذه الحسناء الفاتنة بعينها لم ترج له السلامة من دائه .

(٥) عبارة ابن جنى كما نقلها الواحدى عنه فى شرح هذا البيت «دل بهذا البيت على أنها كانت متكئة عليه وعلى غاية القرب منه » اه . وقال ابن فورجة : «أظنها وقعت عليه تبكى فوقع دمعها عليه » اه .

و بلغنى عن أبى الفتح بن جنى رحمه الله أنه شرح ذلك فى كتابه الموسوم بالمفسر الذى ألفه فى شرح شعر أبى الطيب ؛ فقال : إنها كانت تبزق فى وجهه؛ فظن أن أبا الطيب أراد أنها كانت تبسم فيخرج الريق من فمها و يقع على وجهه فشبهه بالمطر ، وما كنت أظنّ أن أحداً من الناس يذهب وهمه وخاطره حيث ذهب وهم هذا الرجل وخاطره ، و إذا كان هذا قول إمامٍ مِنْ أئمة العربية تُشَدُّ إليه الرحال فما يقال فى غيره ؟ لكن فن الفصاحة والبلاغة غير فن النحو والإعراب .

وكذلك ورد قول الشريف الرضى(١) :

إِذَا أَنْتَ أَفْنَيْتَ الْعَرَانِينَ وَالذُّرَى ... رَمَتْكَ اللَّيَالِى مِنْ يَدِ الْخَامِلِ الْغَمْرِ
وَهَبْكَ اتَّقَيْتَ السَّهْمَ مِنْ حَيْثُ يُتَّقَى ... فَمَنْ لِيَدٍ تَرْمِيكَ مِنْ حَيْثُ لاَتَدْرِى

فالعَرَانين والذرى : هما عظماء الناس وأشرافهم ، كأنه قال : إذا أفنيت عظماء الناس رُميتَ من يد الخامل .

و إذ قد بينت أن الاستعارة لا تكون إلا بحيث يُطْوَى ذكر المستعار له فإنها لاتجىء إلا ملائمة مناسبة ، ولا يوجد فيها مباينة ولا تباعد ؛ لأنها لاتذكر مَطْوِيَّةً إلا لبيان المناسبة بين المستعار منه والمستعار له ، ولو طويت ولم يكن هناك مناسبة بين المستعار منه والمستعار له لعسر فهمها ، ولم يبن المراد منها .

ورأيت أبا محمد عبد الله بن سنان الخفاجى رحمه الله تعالى قد خلط الاستعارة

---

(١) البيتان من كلمة له عدتها سبعة أبيات (الديوان:١ – ٤٠٧) وقبلهما قوله :

تَجَافَ عَنِ الْأَعْدَاءِ بُقْيَا فَرُبَّمَا ... كُفِيتَ وَلَمْ تُعْقَرْ بِنَابٍ وَلاَ ظُفْرِ
وَلاَ تَبْرِ مِنْهُمْ كُلَّ عُودٍ تَخَافُهُ ... فَإِنَّ الْأَعَادِى يَنْبُتُونَ مَعَ الدَّهْرِ
إِذَا شِئْتَ أَنْ تَبْقَى خَلِيًّا مِنَ الْعِدَى ... فَعِشْ عَيْشَ خَالٍ مِنْ عَلاَءٍ وَمِنْ وَفْرِ

بالتشبيه المضمر الأداة ، ولم يفرق بينهما ، وتأسَّى فى ذلك بغيره من علماء البيان، كأبى هلال العسكرى والغانمى وأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى ، على أن أبا القاسم بن بشر الأمدى كان أثبتَ القومِ قدمًا فى فن الفصاحة والبلاغة ، وكتابه المسمى بـ«الموازنة بين شعر الطائيين » يشهد له بذلك ، وما أعلم كيف خفى عليه الفرق بين الاستعارة والتشبيه المضمر الأداة .

ومما أورده ابن سنان فى كتابه الموسوم بـ«سر الفصاحة[1] » قول امرئ القيس فى صفة الليل :

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَلِ[2]

وهذا البيت من التشبيه المضمر الأداة ؛ لأن المستعار له مذكور ، وهو الليل، وعلى الخطأ فى خَلْطه بالاستعارة فإن ابن سنان أخطأ فى الرد على الآمدى ، ولم يوفق للصواب ، وأنا أتكلم على ماذكره ولا أضايقه فى الاستعارة والتشبيه ، بل أنزل معه على مارآه من أنه استعارة ، ثم أبين فساد ماذهب إليه .

وذاك أن الآمدى قال فى كتاب الموازنة[3] : « إن امرأ القيس وصف أحوال

---

(١) انظر سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى (ص ١١٤) .

(٢) البيت فى وصف الليل من معلقة امرئ القيس ، وقبله قوله :

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَلِي

وقد وقع فى ا ، ب ، ج « وماء بكلكل » بالميم ، وهو تحريف غريب مع شهرة البيت ، ومع قول المؤلف فيما نقله عن الآمدى « واستعار له اسم الكلكل وجعله نائيا لتثاقله » .

(٣) قد تصرف المؤلف فى عبارة الآمدى ، ونحن ننقلها لك عن كتاب الموازنة بحروفها؛ لتكون فيصلا بين الرجال الثلاثة فيما اختلفوا فيه ؛ قال(ص ١٠٨ الجوائب عام ١٢٨٧) : « وقد عاب امرأ القيس بهذا المعنى من لم يعرف موضوعات المعانى ولاالمجازات ، وهو فى غاية الحسن والجودة والصحة، وهو إنما قصد وصف أجزاء الليل

الليل الطويل ، فذكر امتداد وسطه ، وتثاقل صدره ، وتَرَادُفَ أعجازه ، فلما جعل له وسطا ممتدا وصدرا ثقيلا وأعجازا رادفة لوسطه استعار له اسْمَ الصُّلْبِ ، وجعله متمطيا من أجل امتداده ، واسْمَ الْكَلْكَل وجعله نائيا لتثاقله ، واسْمَ العجز من أجل نهوضه » .

فقال ابن سنان الخفاجى معترضا عليه[1] : « إن هذا الذى ذكره الآمدى ليس بمرضى غاية الرضا ؛ وإن بيت امرىء القيس ليس من الاستعارة الجيدة ، ولا الرديئة ، بل هو وسط ؛ فإن الآمدى قد أفصح بأن أمرأ القيس لما جعل لليل[2] وَسَطا ممتدا استعار له اسم الصُّلْب وجعله متمطِّيا من أجل امتداده ، وحيث

الطويل ، فذكر امتداد وسطه ، وتثاقل صدره للذهاب والانبعاث ، وترادف أعجازه وأواخره شيئا فشيئا ؛ وهذا عندى منتظم لجميع نعوت الليل الطويل على هيئته ، وذلك أشدّ ما يكون على من يراعيه ويترقب تصرمه ؛ فلما جعل له وسطا يمتد ، وأعجازا رادفة للوسط ، وصدرا متثاقلا فى نهوضه ؛ حسن أن يستعير للوسط اسم الصلب ، وجعله متمطيا من أجل امتداده ؛ لأن تمطى وتمدّد بمنزلة واحدة ؛ وصلح أن يستعير للصدر اسم الكلكل من أجل نهوضه ؛ وهذه أقرب الاستعارات من الحقيقة ، وأشدّ ملاءمة هنا لما استعيرت له ، وكذلك قول زهير :

* وَعُرِّىَ أَفْرَاسُ الصِّبَا وَرَوَاحِلُهْ *

لما كان من شأن ذى الصبا أن يوصف أبدا بأن يقال : ركب جواده ، وجرى فى ميدانه ، وجمح فى عنانه ، ونحو هذا ؛ حسن أن يستعار للصبا اسم الأفراس ، وأن يجعل النزوع عنه أن تعرى أفراسه ورواحله ، وكانت هذه الاستعارة أيضا من أليق شىء بما استعيرت له » اهـ .

(١) انظر سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى (ص ١١٤) .

(٢) فى ا ، ب ، ج « لما جعل الليل وسطا » وهو تحريف بزيادة الألف ، وصوابه عن سر الفصاحة فى الموضع المشار إليه .

جعل له آخراً وأوّلا استعار له عجزاً وكلكلا ، وهذا كله إنما يحسن بعضه مع بعض ؛ فذكر الصلب إنما يحسن من أجل العجز والوسط ، والتمطِّى من أجل الصلب ، والكلكل لمجموع ذلك ، وهذه استعارة مبنية على استعارة أخرى » .

هذا حكاية كلامه فى الاعتراض على الآمدى .

وفيه نظر من وجهين :

الأول : أنه قال « هذا بيت من الاستعارة الوسطى التى ليست بجيدة ولا رديئة » ثم جعلها استعارة مبنية على استعارة أخرى ، وعنده أن الاستعارة المبنية على الاستعارة من أبعد الاستعارات ، وذاك أنه قسّم الاستعارة إلى قسمين : قريب مختار ، وبعيد مُطَّرَحٌ ، فالقريب المختار : ما كان بينه وبين ما استعير له تناسب قوى وشبه واضح ، والبعيد المطَّرح : إما أن يكون لبعده مما استعير له فى الأصل ، أو لأنه استعارة مبنية على استعارة أخرى ؛ فيضعف لذلك ؛ هذا ماذكره ابن سنان الخفاجى فى تقسيم الاستعارة ، وإذا كانت الاستعارة المبنية على استعارة أخرى عنده بعيدةً مطَّرحَةً فكيف جعلها وسطا ؟ هذا تناقض فى القول .

الوجه الثانى : أنه لم يأخذ على الآمدى فى موضع الأخذ ؛ لأنه لم يختر إلا ما حسن اختياره ، وذاك أن حَدَّ الاستعارة على مارآه الآمدى وابن سنان هو نقل المعنى من لفظ إلى لفظ بسبب مشاركة بينهما ، وإن كان المذهب الصحيح فى حد الاستعارة غير ذلك ، على ماتقدم الكلام عليه ، ولكنى فى هذا الموضع أنزل معهما على ما رأياه حتى يتوجَّه الكلام على الحكم بينهما فى بيت امرىء القيس ، وإذ حَددنا الاستعارة بهذا الحدّ فبه يفرق على رأى ابن سنان بين الاستعارة المرضية والاستعارة المطرحة ؛ فإذا وجدنا استعارة فى كلام ما عرضناها على هذا الحد ؛ فما وجدنا فيه مناسبة بين المنقول عنه والمنقول إليه حكمنا له

بالجودة ، وما لم نجد فيه تلك المناسبة حكمنا عليه بالرداءة ، و بيت امرىء القيس من الاستعارات المرضية ؛ لأنه لو لم يكن لليل صدر أعنى أوّلاً ولم يكن له وسط وآخر لمـا حسنت هذه الاستعارة ، ولمَّا كان الأمر كذلك استعار لوسطه صُلْبا وجعله متمطّيا واستعار لصدره المتثاقل ــ أعنى أوّله ــ كَلْكَلاً وجعله نائيا ، واستعار لآخره عَجُزًا وجعله رَادِفاً لوسطه ؛ وكل ذلك من الاستعارة المناسبة .

وأما قول ابن سنان الخفاجى « إن الاستعاره المبنية على استعارة أُخرى بعيدة مطرحةٌ » فإن فى هذا القول نظراً ، وذاك أنه قد ثبت لنا أصلٌ نقيسُ عليه فى الفرق بين الاستعارة المرضية والمطّرحة ، كما أريناك ، ولا يمنع ذلك من أن تجىء استعارة مبنية على استعارة أخرى وتوجد فيها المناسبة المطلوبة فى الاستعارة المرضية فإنه قد ورد فى القرآن الكريم ماهو من هذا الجنس ، وهو قوله تعالى : (وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالخَوْفِ) ؛ فهذه ثلاث استعارات ينبنى بعضها على بعض ؛ فالأولى استعارة القرية للأهل ، والثانية استعارة الذَّوْق للباس ، والثالثة اســـتعارة اللباس للجوع والخوف ، وهذه الاستعارات الثلاث من التناسب على مالا خفاء به ، فكيف يذُمُّ ابن سنان الخفاجى الاستعارةَ المبنية على استعارة أخرى ؟ وما أقول إن ذلك شذ عنه ، إلا لأنه لم ينظر إلى الأصل المقيس عليه ، وهو التناسب بين المنقول عنه والمنقول إليه ، بل نظر إلى التقسيم الذى هو قسّمه فى القرب أو البعد ، ورأى أن الاستعارة المبنية على استعارة أخرى تكون بعيدة ، فحكم عليها بالاطراح ، وإذا كان الأصل إنمـا هو التناسب فلا فرق بين أن يوجد فى استعارة واحدة أو فى استعارة مبنية على استعارة ، ولهذا أشباه ونظائر فى غير الاستعارة ، ألا ترى أن المنطقىّ يقول فى المقدمة والنتيجة : كل إنسان حيوان ، وكل حيوان نام ، فكل

إنسان نام ، وكذلك يقول المهندس فى الأشكال الهندسية : إذا كان خط اب مثل خط بج ، وخط بج مثل خط جد ؛ فخط اب مثل خط جد ، وهكذا أقول أنا فى الاستعارة : إذا كانت الاستعارة الأولى مناسبة ثم بنى عليها استعارة ثانية وكانت أيضاً مناسبة فالجميع متناسب ، وهذا أمر برهانى لا يتصور إنكاره .

وهذا الكلام الذى أوردته ههنا هواعتراض على ماذكره ابن سنان الخفاجى فى الاستعارة ، فلا تظن أنى موافقه فى الأصل ، و إنما وافقته قصداً لتبيين وجه الخطأ فى كلامه ، وكيف يسوغ لى موافقته ، وقد ثبت عندى بالدليل أن الاستعارة لاتكون إلا بحيث يُطوَى ذكر المستعار له ؟ .

وفيما قدمته من الكلام كفاية .

النوع الثانى

فى التشبيه

وجدت علماء البيان قد فرقوا بين التشبيه والتمثيل ، وجعلوا لهذا باباً مفرداً ، ولهذا باباً مفرداً ، وهما شيء واحد لا فرق بينهما فى أصل الوضع ، يقال : شبهت هذا الشيء بهذا الشيء ، كما يقال : مثلته به ، وما أعلم كيف خفى ذلك على أولئك العلماء مع ظهوره ووضوحه . وكنت قدمت القول فى باب الاستعارة على الفرق بين التشبيه و بينها ، ولا حاجة إلى إعادته ههنا مرة ثانية .

والتشبيه ينقسم قسمين : مظهر ، ومضمر ، وفى المضمر إشكال فى تقدير أداة التشبيه فيه فى بعض المواضع .

وهو ينقسم أقساما خمسة ؛ فالأول : يقع موقع المبتدأ والخبر مفردين ، والثانى : يقع موقع المبتدأ المفرد وخبره جملة مركبة من مضاف ومضاف إليه ، والثالث :

يقع موقع المبتدأ والخبر جملتين ، والرابع : يرد على وجه الفعل والفاعل ، والخامس يرد على وجه المثل المضروب .

وهذان القسمان الأخيران هما أشكل الأقسام الخمسة فى تقدير أداة التشبيه .

أما الأول فكقولنا : زيد أسد ؛ فهذا مبتدأ وخبره ، وإذا قدرت أداة التشبيه فيه كان ذلك ببديهة النظر على الفور ، فقيل : زيد كالأسد .

وأما القسم الثانى والثالث فإنهما متوسطان فى تقدير أداة التشبيه فيهما ؛ فالثانى كقول النبى صلى الله عليه وسلم : « الْكَمْأَةُ جُدَرِىُّ الْأَرْضِ » وهذا يتنوع نوعين ، فإذا كان المضاف إليه معرفة كهذا الخبر النبوىّ لا يحتاج فى تقدير أداة التشبيه إلى تقديم المضاف إليه ، بل إن شئنا قدمناه ، وإن شئنا أخرناه ، فقلنا : الكمأة للأرض كالجدرى ، أو الكمأة كالجدرى للأرض ، وإذا كان المضاف إليه نكرة فلا بد من تقديمه عند تقدير أداة التشبيه .

فمن ذلك قول البحترى(١) :

غَمَامُ سَمَاحٍ لَا يَغِبُّ لَهُ حَيًا ... وَمِسْعَرُ حَرْبٍ لَا يَضِيعُ لَهُ وِتْرُ(٢)

فإذا قدرنا أداة التشبيه هٰهنا قلنا : سماح كالغمام : ولا يقدر إلا هٰكذا ، والمبتدأ فى هذا البيت محذوف ، وهو الإشارة إلى الممدوح ، كأنه قال : هو غمام سماح .

ومن هذا النوع مايشكل تقدير أداة التشبيه فيه على غير العارف بهذا الفن ؛

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أمير المؤمنين المتوكل على الله ، وأولها قوله :

مَتَى لَاحَ بَرْقٌ أَوْ بَدَا طَلَلٌ قَفْرٌ ... جَرَى مُسْتَهِلٌّ لَا بَكِىٌّ وَلَا نَزْرُ

انظر الديوان (١ — ٢١٧ مصر) .

(٢) فى ا ، ب ، ج «غمام سحاب لايغب» وهوتحريف ، وما أثبتناه عن الديوان والمعنى أن جدواه لاتتأخر على العافين ، بل هى دائمة عليهم .

كقول أبي تمام(١) :

أَيُّ مَرْعَى عَيْنٍ وَوَادِي نَسِيبِ لَحَبَتْهُ الْأَيَّامُ فِي مَلْحُوبِ

ومراد أبي تمام أن يصف هذا المكان بأنه كان حسناً ثم زال عنه حسنه ، فقال : إن العين كانت تلتذ بالنظر إليه كالتذاذ السائمة بالمرعى ؛ فإنه كان يشبب به فى الأشعار لحسنه وطيبه ، وإذا قدرنا أداة التشبيه هٰهنا قلنا : كأنه كان للعين مرعًى وللنسيب منزلاً ومألفاً .

وإذا جاء شيء من الأبيات الشعرية على هذا الأسلوب أو مايجرى مجراه فإنه يحتاج إلى عارف بوضع أداة التشبيه فيه .

وأما الثالث فكقول النبي صلى الله عليه وسلم : « وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ » كأنه قال : كلام الألسنة كحصائد المَنَاجِل .

وهذا القسم لايكون المشبه به مذكوراً فيه ، بل تذكر صفته ، ألا ترى أن المِنْجَل لم يذكر هٰهنا ، وإنما ذكرت صفته ، وهى الحصد ؛ وكل مايجيء من هذا القسم فإنه لايرد إلا كذلك .

وأما القسم الرابع والخامس اللذان هما أشكل الأقسام المذكورة فى تقدير أداة التشبيه فيهما فإنهما لايتفطن لهما أنهما تشبيه .

فمما جاء من القسم الرابع قوله تعالى : (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ

---

(١) هذا مطلع قصيدة له يمدح فيها سليمان بن وهب ، وبعده قوله :

مَلَكَتْهُ الصَّبَا الْوَلوعُ فَأَقْتَتْهُ قُعُودَ الْبِلَى وَسُؤْرَ الْخُطُوبِ

نَدَّ عَنْكَ الْعَزَاءُ فِيهِ فَقَادَ أَلدَّمْعَ مِنْ مُقْلَتَيْكَ قَوْدَ الْجَنِيبِ

انظر الديوان (ص ٣٦ بيروت) .

قَبْلِهِمْ) وتقدير أداة التشبيه فى هذا الموضع أن يقال : هم فى إيمانهم كالمتبوئ داراً : أى أنهم قد اتخذوا الإيمان مسكناً يسكنونه ، يصف بذلك تمكنهم منه .

وعلى هذا ورد قول أبى تمام(١) :

نَطَقَتْ مُقْلَةُ الْفَتَى الْمَلْهُوفِ فَتَشَكَّتْ بِفَيْضِ دَمْعٍ ذَرُوفِ

وإذا أردنا أن نقدر أداة التشبيه هٰهنا قلنا : دمع العين كنطق اللسان ، أو قلنا : العين الباكية كأنما تنطق بما فى الضمير .

وأما ماجاء من القسم الخامس فكقول الفرزدق يهجو جريراً(٢) :

مَاضَرَّ تَغْلِبَ وَائِلٍ أَهَجَوْتَهَا أَمْ بُلْتَ حَيْثُ تَنَاطَحَ الْبَحْرَانِ

فشبه هجاء جرير تغلب وائل ببوله فى مجمع البحرين ، فكما أن البول فى مجمع البحرين لايؤثر شيئاً فكذلك هجاؤك هؤلاء القوم لايؤثر شيئاً ، وهذا البيت من الأبيات الذى أقرّ له الناس بالحسن(٣) .

---

(١) هذا مطلع كلمة له يعاتب فيها أبا سعيد ، و بعده قوله :

تَرْجَمَ الدَّمْعُ فى صَحَائِفِ خَدَّيْـــهِ سُطُوراً مُؤَلَّفَاتِ الْحُرُوفِ

فَلَئِنْ شَطَّتِ الدِّيَارُ وَغَالَ الدَّ هْـــرُ فى آلِفٍ وَفِى مَأْلُوفِ

وَتَبَدَّلْتُ بِالْبَشَاشَـــةِ حُزْناً بَعْدَ لَهْوٍ فى مَرْبَعٍ وَمَصِـــيفِ

فَعَزَائِى بِأَنَّ عِرْضِى مَصُـــونٌ سَائِغُ الْوِرْدِ ، وَالسَّمَاحَ حَلِيفِى

انظر الديوان (ص ٤٠٤ بيروت) .

(٢) هذا هو البيت الثانى من قصيدة له طويلة يهجو فيها جريرا و يمدح بنى تغلب و يذكر تفضيل الأخطل إياه ، والبيت الأول قوله :

يَا بْنَ الْمَرَاغَةِ وَالْهِجَاء إِذَا الْتَقَتْ أَعْنَاقُهُ وَتَمَـاحَكَ الْخَصْمَانِ

و بعده البيت الذى أنشده المؤلف ، و بعده قوله :

يَا بْنَ الْمَرَاغَةِ إِنَّ تَغْلِبَ وَائِلٍ رَفَعُوا عِنَانِى فَوْقَ كُلِّ عِنَانِ

(٣) كذا فى ١ ، ب، ج ؛ والصواب أن يقال « وهذا البيت من الأبيات التى أقر الناس لها بالحسن » .

وكذلك ورد قوله أيضاً(١) :

قَوَارِصُ تَأْتِينِي وَتَحْتَقِرُونَهَا وَقَدْ يَمْلَأُ الْقَطْرُ الْإِنَاءَ فَيُفْعَمُ

فإنه شبه القوارص التى تأتيه محتقَرة بالقطر الذى يملأ الإناء على صغر مقداره ، يشير بذلك إلى أن الكثرة تجعل الصغير من الأمر كبيراً .

وهذا الموضع يشكل على كثير من علماء البيان ويخلطونه بالأستعارة ، كقول البحترى فى التعزية بولد(٢) :

تَعَزَّ فَإِنَّ السَّيْفَ يَمْضِي وَإِنْ وَهَتْ حَمَائِلُهُ عَنْـــــهُ وَخَلَّاهُ قَائِمُهْ

وهذا ليس من التشبيه ، وإنما هو استعارة ؛ لأن المستعار له مَطْوى الذكر ، وهو المُعَزَّى ، كأنه قال : تعز فإنَّكَ كالسيف الذى يمضى وإن وَهت حمائله وخلاّه قائمه .

فإن قيل : إنك قدمت القول فى باب الاستعارة بأن التشبيه المضمر الأداة يحسن تقدير أداة التشبيه فيه ، والاستعارة لا يحسن تقدير أداة التشبيه فيها ، وجعلت ذلك هو الفرق بين التشبيه المضمر الأداة و بين الاستعارة ، وقررت ذلك تقريراً طويلا عريضاً ، ثم نراك قد نَقَضْته ههنا بقولك : إن من التشبيه المضمر

(١) لم أجد هذا البيت فى شعر الفرزدق الذى بين يدى ، وهو فى اللسان (ق ر ص) منسوبا للفرزدق .

(٢) هو من قصيدة يرثى فيها ابن أبى الحسن بن عبد الملك بن صالح الهاشمى ، وأولها قوله :

لِأَيَّةِ حالٍ أَعْلَنَ الْوَجْدَ كاتِمُهْ وَأَقْصَرَ عَنْ دَاعِى الصَّبَابَةِ لَائِمُهْ

وقبل البيت الذى أنشده المؤلف قوله :

أَبَاحَسَنٍ ، وَالصَّبْرُ مَنْكِبُ مَنْ غَدَا عَلَى سَنَنٍ وَالْحَادِثَاتُ تُزَاحِمُـــهْ

وَلَوْلَا التُّقَى لَمْ يَرْدُدِ الدَّمْعَ رَبُّهُ وَلَوْلَا الْحِمَى لَمْ يَكْظِمِ الْغَيْظَ كَاظِمُهْ

الأداة ما يشكل تقدير أداة التشبيه فيه ، وإنه يحتاج فى تقديرها إلى نظر ، كهذين البيتين المذكورين للفرزدق وما يجرى مجراها .

فالجواب عن ذلك أنى أقول : هذا الذى ذكرته لاينقض علىّ شيئاً مما قدّمت القول فيه فى باب الاستعارة ؛ لأنى قلت : إن التشبيه المضمر الأداة يحسن تقدير الأداة فيه : أى لا يتغير بتقديرها فيه عن صفته التى اتّصَف بها من فصاحة وبلاغة ؛ وليس كذلك الاستعارة ؛ فإنها إذا قدرت أداة التشبيه فيها تغيرت عن صفتها التى اتصفت بها من فصاحة وبلاغة ، وأما الذى ورد ههنا من بيتى الفرزدق وما يجرى مجراها من التشبيه المضمر الأداة فإن أداة التشبيه لا تتقدر فيه ، وهو على حالته من النظم ، حتى تتبين هل تغيرت صفته التى اتصف بها من فصاحة وبلاغة أم لا ، وإنما تتقدر أداة التشبيه فيه على وجه آخر ، وهذا لا ينقض ما أشرت إليه فى باب الاستعارة .

وإذا ثبتت هذه الأقسام الأربعة فأقول : إن التشبيه المضمر أبلغ من التشبيه المظهر وأوجز : أما كونه أبلغ فلجعل المشبه مُشَبها به من غير واسطة أداة ؛ فيكون هو إياه ؛ فإنك إذا قلت : زيد أسد ، كنت قد جعلته أسداً من غير إظهار أداة التشبيه ، وأما كونه أوجز فلحذف أداة التشبيه منه ، وعلى هذا فإن القسمين من المظهر والمضمر كليهما فى فضيلة البيان سواء ؛ فإن الغرض المقصود من قولنا « زيد أسد » أن يتبين حال زيد فى اتصافه بشهامة النفس وقوة البطش وجراءة الإقدام وغير ذلك مما يجرى مجراه ، إلا أنا لم نجد شيئاً ندلّ به عليه سوى أن جعلناه شبيهاً بالأسد ؛ حيث كانت هذه الصفات مختصة به ، فصار ماقصدناه من هذا القول أكشف وأبين من أن لو قلنا : زيد شهم شجاع قوى البطش جرىء الجنان ، وأشباه ذلك ، لما قد عرف وعهد من اجتماع هذه الصفات فى المشبه به ، أعنى الأسد ، وأما زيد الذى هو المشبه فليس معروفا بها وإن كانت موجودة فيه .

وكلا هذين القسمين أيضاً يختص بفضيلة الإيجاز ، وإن كان المضمر أوجز من المظهر ؛ لأن قولنا : زيد أسد ، أو كالأسد ، يسدُّ مسدَّ قولنا : زيد من حاله كيت وكيت ، وهو من الشجاعة والشدة على كذا وكذا ، مما يطول ذكره

فالتشبيه إذاً يجمع صفات ثلاثة ، هى : المبالغة ، والبيان ، والإيجاز ، كما أريتك ، إلا أنه من بين أنواع علم البيان مستوعر المذهب ، وهو مَقْتَل من مقاتل البلاغة ، وسبب ذلك أن حمل الشىء على الشىء بالمماثلة إما صورة وإما معنى يعز صوابه وتعسر الإجادة فيه ، وقلّما أكثر منه أحَدٌ إلا عثر ، كما فعل ابن المعتز من أدباء العراق ، وابن وكيع من أدباء مصر ؛ فإنهما أكثرا من ذلك لاسيا فى وصف الرياض والأشجار والأزهار والثمار ، لا جرم أنهما أتيا بالغث البارد الذى لايثبت على محكّ الصواب ؛ فعليك أن تتوقى ما أشرت إليه .

وأما فائدة التشبيه من الكلام فهى أنك إذا مثلت الشىء بالشىء فإنما تقصد به إثبات الخيال فى النفس بصورة المشبه به أو بمعناه ، وذلك أوكد فى طرفى الترغيب فيه ، أو التنفير عنه ، ألا ترى أنك إذا شبهت صورة بصورة هى أحسن منها كان ذلك مثبتا فى النفس خيالاً حسنا يدعو إلى الترغيب فيها ، وكذلك إذا شبهتها بصورة شىء أقبح منها كان ذلك مثبتا فى النفس خيالاً قبيحا يدعو إلى التنفير عنها ، وهذا لا نزاع فيه .

ولنضرب له مثالا يوضحه فنقول : قد ورد عن ابن الرومى فى مدح العسل وذمه بيت من الشعر ، وهو :

تَقُولُ هٰذَا مُجَاجُ النَّحْلِ تَمْدَحُهُ   وَإِنْ تَعِبْ قُلْتَ ذَا قَىْءُ الزَّنَابِيرِ

ألا ترى كيف مدح وذم الشىء الواحد بتصريف التشبيه المجازى المضمر الأداة الذى خَيَّلَ به إلى السامع خيالا يحسن الشىء عنده تارة ويقبحه أخرى ،

ولولا التوصُّل بطريق التشبيه على هذا الوجه لمـا أمكنه ذلك ، وهذا المثال كاف فيما أردناه .

واعلم أن محاسن التشبيه أن يجيء مَصْدَرِيًّا ؛ كقولنا : أقدم إقْدَامَ الأسد ، وفَاضَ فَيْضَ البحر ، وهو أحسن ما استعمل فى باب التشبيه ، كقول أبى نُوَاس فى وصف الخمر (١) :

وَإِذَا مَا مزَجُوهَا وَثَبَتْ وَثْبَ الْجَرَادِ
وَإِذَا مَا شَرِبُوهَا أَخَذَتْ أَخْذَ الرُّقَادِ

وقيل : إن من شرط بلاغة التشبيه أن يشبه الشىء بمـا هو أكبر مِنْهِ وأعظم ، ومن ههنا غلط بعض الـكتاب من أهل مصر فى ذكر حصن من حصون الجبال مشبها له ؛ فقال : هَامَةٌ عليها من الغمامة عِمَامة ، وأنملة خَضَّبَهَا الأصيلُ فـكان الهلال منها قُلاَمَة ؛ وهذا الـكاتب حفظ شيئاً وغابت عنه أشياء ؛ فإنه أخطأ فى قوله « أنملة » وأى مقدار للأنملة بالنسبة إلى تشبيه حِصْنٍ على رأس جبل ؛ وأصاب فى المناسبة بين ذكر الأنملة والقُلاَمة وتشبيهها بالهلال .

فإن قيل : إن هذا الـكاتب تأسَّى فيما ذكره بكلام الله تعالى حيث قال : (اللهُ نُورُ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ) فمثل نوره بطَاقَةٍ فيها ذبالة ، وقال الله تعالى : (وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) فمثل الهلال بأصل عِذْقِ النخلة .

---

(١) من كلمة له أولها قوله :

إِسْقِنِيهَا بِسَوَادٍ قَبْلَ تَغْرِيدِ الْمُنادِى
مِنْ عُقَارٍ بَلَغَتْ فِى الـدَّنِّ أَقْصَى مُسْتَزَادِ
رَضَعَتْ وَالدَّهْرُ ثَدْيًا وَتَلَتْهُ فى أُولاَدِ

انظر الديوان (ص ٢٦٤ مصر ١٨٩٨) .

فالجواب عن ذلك أنى أقول : أما تمثيل نور الله تعالى بمشكاة فيها مصباح فإن هذا مثال ضربه للنبي صلى الله عليه وسلم ، ويدلّ عليه أنه قال : (تُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ) وإذا نظرت إلى هذا الموضع وجدته تشبيها لطيفا عجيبا ، وذاك أن قلب النبي صلى الله عليه وسلم وما ألقى فيه من النور وما هو عليه من الصفة الشَّفَّافة كالزجاجة التى كأنها كوكب لصفائها وإضاءتها ؛ وأما الشجرة المباركة التى لاشرقية ولا غربيَّة فإنها عبارة عن ذات النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه من أرض الحجاز التى لاتميل إلى الشرق ولا إلى الغرب ، وأما زَيْت هذه الزجاجة فإنه مضىء من غير أن تمسَّه نار ، والمراد بذلك أن فِطْرَتَه فِطْرَةٌ صافية من الأكدار ، مُنيرة من قبل مصافحة الأنوار ؛ فهذا هو المراد بالتشبيه الذى ورد فى هذه الآية .

وأما الآية الأخرى فإنه شَبَّه الهلال فيها بالعُرْجُون القديم ، وذلك فى هيئة نحوله واستدارته ، لافى مقداره ؛ فإن مقدار الهلال عظيم ، ولا نسبة للعرجون إليه ، لكنه فى مَرْأى النظر كالعُرْجُون هيئةً ، لا مقداراً .

وأما هذا الكاتب فإن تشبيهه ليس على هذا النسق ؛ لأنه شبه صورة الحصن بأنمله فى المقدار ، لافى الهيئة والشكل ، وهذا غير حسن ولا مناسب ، وإنما ألقاه فيه أنه قصد الهلال والقُلاَمة مع ذكر الأنملة ، فأخطأ من جهة ، وأصاب من جهة ، لكن خطؤه غطَّى على صوابه .

والقول السديد فى بلاغة التشبيه هو ما أذكره ، وهو : أن إطلاق من أطلق قوله فى أن من شرط بلاغة التشبيه أن يشبه الأصغر بالأكبر غَيْرُ سديد ؛ فإن هذا قول غير حاصرٍ للغرض المقصود ؛ لأن التشبيه يأتى تارة فى معرض المدح ، وتارة فى معرض الذم ، وتارة فى غير معرض مدح ولا ذم ، وإنما يأتى قصداً للابانة والإيضاح ، ولا يكون تشبيه أصغر بأكبر ، كما ذهب إليه من

ذهب ، بل القول الجامع فى ذلك أن يقال : إن التشبيه لا يعمد إليه إلا لضرب من المبالغة : فإما أن يكون مدحاً ، أو ذما ، أو بياناً وإيضاحاً ، ولا يخرج عن هذه المعانى الثلاثة ، وإذا كان الأمر كذلك فلا بُدَّ فيه من تقدير لفظة أَفْعَلَ ، فإن لم تقدر فيه لفظة أفعل فليس بتشبيه بليغ ، ألاترى أنا نقول فى التشبيه المضمر الأداة : زيد أسد ، فقد شبهنا زيداً بأسد الذى هو أشجع منه ، فإن لم يكن المشبه به فى هذا المقام أشجع من زيد الذى هو المشبه ، وإلا كان التشبيه ناقصاً ؛ إذ لا مبالغة فيه .

وأما التشبيه المظهر الأداة فكقوله تعالى: (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَئَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ) وهذا تشبيه كبير بما هو أكبر منه ؛ لأن خالق السفن البحرية كبير وخالق الجبال أكبر منه ، وكذلك إذا شبه شىء حسن بشىء حسن ، فإنه إذا لم يشبه بما هو أحسن منه فليس بوارد على طريق البلاغة ، وإن شبه قبيح بقبيح ، وهكذا[1] ينبغى أن يكون المشبه به أقبح ، وإن قصد البيان والإيضاح فينبغى أن يكون المشبه به أبين وأوضح ، فتقدير لفظة أَفْعَلَ لابد منه فيما يقصد به بلاغة التشبيه ، وإلا كان التشبيه ناقصاً ، فاعلم ذلك وقس عليه .

واعلم أنه لا يخلو تشبيه الشيئين أحدهما بالآخر من أربعة أقسام : إما تشبيه معنى بمعنى ، كالذى تقدم ذكره من قولنا : زيد كالأسد ، وإما تشبيه صورة بصورة ، كقوله تعالى : (وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ) ، وإما تشبيه معنى بصورة ، كقوله تعالى : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ) وهذا القسم أبلغ الأقسام الأربعة ؛ لتمثيله المعانى الموهومة بالصور المشاهدة ، وإما تشبيه صورة بمعنى ، كقول أبى تمام[2] :

(١) هذه الكلمة ثابتة فى جميع الأصول ؛ ولا داعى لها .

(٢) لم أجد هذا البيت فى شعر أبى تمام .

وَفَتَكْتَ بِالمَالِ الْجَزِيلِ وَبِالْعِدَا ... فَتْكَ الصَّبَابَةِ بِالْمُحِبِّ الْمُغْرَمِ

فشبه فَتْكَهُ بالمال وبالعِدَا وذلك صورة مرئية بفَتْك الصبابة وهو فتك معنوى ، وهذا القسم ألطف الأقسام الأربعة ؛ لأنه نقل صورة إلى غير صورة .

وكل واحد من هذه الأقسام الأربعة المشار إليها لا يخلو التشبيه فيه من أربعة أقسام أيضاً : إما تشبيه مفرد بمفرد ، وإما تشبيه مركب بمركب ، وإما تشبيه مفرد بمركب ، وإما تشبيه مركب بمفرد .

والمراد بقولنا مفرد ومركب : أن المفرد يكون تشبيه شيء واحد بشيء واحد ، والمركب تشبيه شيئين اثنين بشيئين اثنين ، وكذلك المفرد بالمركب ، والمركب بالمفرد ؛ فإن أحدهما يكون تشبيه شيء واحد بشيئين ، والآخر يكون تشبيه شيئين بشيء واحد ، ولست أعنى بقولى « تشبيه شيئين بشيئين » أنه لا يكون إلا كذلك ، بل أردت تشبيه شيئين بشيئين فما فوقهما ، كقول بعضهم فى الخمر :

وَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّ حَامِلَ كَأْسِهَا ... إِذْ قَامَ يَجْلُوهَا عَلَى النُّدَمَاء
شَمْسُ الضُّحَى رَقَصَتْ فَنَقَّطَ وَجْهَهَا ... بَدْرُ الدُّجَى بِكَوَاكِبِ الْجَوْزَاء

فشبه ثلاثة أشياء بثلاثة أشْيَاء ؛ فإنه شبه الساقى بالبدر ، وشبه الخمر بالشمس ، وشبه الْحَبَبَ الذى فوقها بالكواكب .

وإذ بَيَّنْتُ أن التشبيه ينقسم إلى تلك الأقسام الأربعة فإنى أقول : إن التشبيه المضمر الأداة قد قدمت القول فى أنه ينقسم إلى خمسة أقسام ؛ فالقسم الأول لا يرد إلا فى تشبيه مفرد بمفرد ، والقسم الثانى لا يرد إلا فى تشبيه مفرد بمركب ، والقسم الثالث لا يرد إلا فى تشبيه مركب بمركب ، والقسم الرابع والخامس لا يردان إلا فى تشبيه مركب بمركب ؛ ألا ترى أنا إذا قلنا فى القسم الأول : زيد أسد ، كان ذلك تشبيه مفرد بمفرد ، وإذا قلنا فى القسم الثانى ما مثلناه به من الخبر النبوى وهو « الكمأة جدرىُّ الأرض » كان ذلك تشبيه

مفرد بمركب ، وكذلك بيت البحترى وبيت أبى تمام المشار إليهما فيما تقدم ، وإذا قلنا فى القسم الثالث ما أشرنا إليه من الخبر النبوى أيضاً الذى هو «وهَلْ يكبُّ الناسَ على مناخرهم فى نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم » كان ذلك تشبيه مركب بمركب ، وإذا قلنا فى القسم الرابع والخامس مامَثَّلنا به من بيتى الفرزدق والبحترى كان ذلك تشبيه مركب بمركب ، وإذا كان الأمر كذلك وجاءك شىء من التشبيه المضمر الأداة وهو من القسم الأول فاعلم أنه تشبيه مفرد بمفرد ، وإذا جاءك شىء من القسم الثانى فاعلم أنه تشبيه مفرد بمركب ، وإذا جاءك شىء من القسم الثالث فاعلم أنه تشبيه مركب بمركب ، وكذلك إذا جاءك شىء من القسم الرابع والقسم الخامس ؛ فإنهما من باب تشبيه المركب بالمركب .

ولنرجع إلى ذكر ما أشرنا إليه أولا فى تقسيم التشبيه إلى الأربعة الأقسام الأخرى التى هى : تشبيه مفرد بمفرد ، وتشبيه مركب بمركب ، وتشبيه مفرد بمركب ، وتشبيه مركب بمفرد .

فالقسم الأول منها كقوله تعالى فى المضمر الأداة: (وَجَعَلْنا اللَّيْلَ لِباَساً) فشبه الليل باللباس . وذاك أنه يَسْتُر الناس بعضهم عن بعض لمن أراد هربًا من عدو أو ثباتا لعدو أو إخفاء مالا يُحِبُّ الاطلاع عليه من أمره ، وهذا من التشبيهات التى لم يأت بها إلا القرآن الكريم ، فإن تشبيه الليل باللباس مما اختصّ به دون غيره من الكلام المنظوم والمنثور .

وكذلك قوله تعالى : (هُنَّ لِباَسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِباَسٌ لَهُنَّ) فشبه المرأة باللباس للرجل وشبه الرجل باللباس للمرأة .

ومن محاسن التشبيهات قوله تعالى : (نِساَؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ) وهذا يكاد ينقله تناسبه عن درجة المجاز إلى الحقيقة ، والحرث : هو الأرض التى تحرث للزرع ، وكذلك الرحم يُزْدَرَع فيه الولد ازدراعاً كما يزدرع البذر فى الأرض .

ومن هذا الأسلوب قوله تعالى : (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ) فشبه تبرؤ الليل من النهار بانسلاخ الجلد عن الجسم المسلوخ ، وذلك أنه لما كانت هوادى الصبح عند طلوعه ملتحمةً بأعجاز الليل أجْرى عليهما اسم السَّلْخ ، وكان ذلك أولى من أن لو قيل «يُخْرِج» لأن السلخ أدلّ عَلَى الالتحام من الإخراج ، وهذا تشبيه فى غاية المناسبة .

وكذلك ورد قوله تعالى : (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً) فشبه انتشار الشيب باشتعال النار ، ولما كان الشيب يأخذ فى الرأس ويَسْعَى فيه شيئاً فشيئاً حتى يُحيله إلى غير لونه الأول بمنزلة النار التى تشتعل فى الجسم وتَسْرِى فيه حتى تُحيله إلى إلى غير حاله الأولى ، وأحسن من هذا أن يقال : إنه شبه انتشار الشيب باشتعال النار : فى سرعة التهابه ، وتعذر تلافيه ، وفى عظم الألم فى القلب به ، وأنه لم يبق بعده إلا الخمود ، فهذه أوصاف أربعة جامعة بين المشبه والمشبه به ، وذلك فى الغاية القصوى من التناسب والتلاؤم .

وقد ورد فى الأمثال « اللَّيْلُ جُنَّةُ الهَارِب » وهذا تشبيه حسن .

وكل ذلك من التشبيه المضمر الأداة .

ومما ورد منه شعراً قول أبى الطيب المتنبى(١) :

وَإِذَا اهْتَزَّ لِلنَّدَى كانَ بَحْراً وَإِذَا اهْتَزَّ لِلْوَغَى كَانَ نَصْلاَ
وَإِذَا الْأَرْضُ أَظْلَمَتْ كانَ شَمْسًا وَإِذَا الْأَرْضُ أَمْحَلَتْ كَانَ وَبْلاَ

فحرف التشبيه ههنا مضمر ، وتقديره كان كأنه بحر ، وكان كأنه نَصْلٌ ، وكذلك يقال فى البيت الثانى : كان كأنه شمس ، وكان كأنه وبل ، وهذا تشبيه صورة بصورة ، وهو حسن فى معناه .

---

(١) من قصيدة له يعزى فيها سيف الدولة بأخته الصغرى ، وأولها قوله :

إنْ يَكُنْ صَبْرُ ذِى الرَّزِيَّةِ فَضْلاً فَكُنِ الْأَفْضَلَ الْأَعَزَّ الْأَجَلاَّ

وكذلك ورد قول أبي نواس ، وهو في تشبيه الحَبَب[1] :

فَإِذَا مَا اعْتَرَضَتْهُ الْعَيْنُ مِنْ حَيْثُ اسْتَدَارَا
خِلْتَهُ فِي جَنَبَاتِ الْكَأْسِ وَاوَاتٍ صِغَارَا

وهذا تشبيه صورة بصورة أيضاً .

وقد أبرز هذا المعنى في لباس آخر ؛ فقال[2] :

وَإِذَا عَلَاهَا الْمَاءُ أَلْبَسَهَا حَبَباً شَبِيهَ جَلَاجِلِ الْحَجْلِ
حَتَّى إِذَا سَكَنَتْ جَوَانِحُهَا كَتَبَتْ بِمِثْلِ أَكَارِعِ النَّمْلِ

ومن هذا قول البحتري[3] :

تَبَسُّمٌ وَقُطُوبٌ فِي نَدًى وَوَغًى كَالرَّعْدِ وَالْبَرْقِ تَحْتَ الْعَارِضِ الْبَرِدِ

---

(١) من كلمة له أولها قوله :

دَعْ لِبَاكِيهَا الدِّيَارَا وَانْفِ بِالْخَمْرِ الْخُمَارَا
وَاشْرَبَنْهَا مِنْ كُمَيْتٍ تَدَعُ اللَّيْلَ نَهَارَا

وانظر الديوان (ص ٢٧٤ مصر) .

(٢) من كلمة له أولها قوله :

كَانَ الشَّبَابُ مَطِيَّةَ الْجَهْلِ وَمُحَسِّنَ الضَّحِكَاتِ وَالْهَزْلِ
كَانَ الْجَمَالَ إِذَا ارْتَدَيْتُ بِهِ وَمَشَيْتُ أَخْطِرُ صَيِّتَ النَّعْلِ

انظر الديوان (ص ٣١١) .

(٣) من قصيدة له يمدح فيها أبا نهشل بن حميد ، وأولها قوله :

إِنِّي تَرَكْتُ الصِّبَا عَمْداً وَلَمْ أَكَدِ مِنْ غَيْرِ شَيْبٍ وَلَا عَذْلٍ وَلَا فَنَدِ

انظر الديوان (ج ١ ص ١٥١ مصر)

وهذا من أحسن التشبيه وأقربه ، إلا أن فيه إخلالا من جهة الصنعة ، وهى ترتيب التفسير ؛ فإن الأولى أن كان قدَّمَ تفسير التبسم على تفسير القطوب : بأن كان قال : كالبرق والرعد ، فانظر أيهما المنتمى إلى الفن كيف ذهب على البحترى مثل هذا الموضع على قربه ، مع تقدمه فى صناعة الشعر ، وليس فى ذلك كبير أمر ، سوى أن كان قدم ما أخر لاغير ، وإنما يعذر الشاعر فى مثل هذا المقام إذا حكم عليه الوزن والقافية واضطر إلى ترك مايجب عليه ، وأما إذا كانت الحال كالتى ذكرها البحترى فحينئذ لاعذر له ، وسيأتى لذلك باب مفرد فى موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى ، وهو باب ترتيب التفسير .

وكذلك ورد قول البحترى(١) :

فِى مَعْرَكٍ ضَنْكٍ تَخَالُ بِهِ الْقَنَا ... بَيْنَ الضُّلُوعِ إذا انْحَنَيْنَ ضُلُوعَا

ومن تشبيه المفرد بالمفرد قول أبى الطيب المتنبى(٢) :

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها محمد بن يوسف ، وأولها قوله :

فِيمَ ٱبْتِدَارُكُمُ ٱلْمَلاَمَ وَلُوعَا ... أَبَكَيْتُ إلاَّ دِمْنَةً وَرُبُوعَا

انظر الديوان (ج ٢ ص ٨٤ مصر) :

(٢) من قصيدة له يمدح فيها سيف الدولة ويذكر استنقاذه أبا وائل تغلب بن داود من الأسر ، وأولها قوله :

إلاَمَ طَمَاعِيَةُ الْعَاذِلِ ... وَلاَ رَأْىَ فِى الْحُبِّ لِلْعَاقِلِ

وقبل البيتين اللذين أنشدهما المؤلف قوله :

كأنَّ خَلاَصَ أبى وَائِلٍ ... مُعَاوَدَةُ الْقَمَرِ الآفِلِ

دَعَا فَسَمِعْتَ وَكَمْ ساكِتٍ ... عَلَى الْبُعْدِ عِنْدَكَ كَالْقَائِلِ

فَلَبَّيْتَهُ بِكَ فِى جَحْفَلٍ ... لَهُ ضَامِنٍ وَبِهِ كَافِلِ

خَرَجْنَ مِنَ النَّقْعِ فِي عَارِضٍ ... وَمِنْ عَرَقِ الرَّكْضِ فِي وَابِلِ (١)
فَلَمَّا نَشِفْنَ لَقِينَ السِّيَاط ... بِمِثْلِ صَفَا الْبَلَدِ الْمَاحِلِ (٢)

وقد حوى هذان البيتان قرب التشبيه مع براعة النظم وجزالة اللفظ .

وأما القسم الثاني ــ وهو تشبيه المركب بالمركب ــ فمما جاء منه مُضْمَرَ الأداة ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث يَرْوِيه مُعَاذُ بن جَبَل رضي الله عنه ، وهو حديث طويل يشتمل على فضائل أعمال متعددة ، ولا حاجة إلى إيراده ههنا على نَصِّهِ ، بل نذكر الغَرَض منه ، وهو أنه قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَمْسِكْ عَلَيْكَ هٰذَا » وأشار إلى لسانه ، فقال مُعَاذ : أو نحن مؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال « ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَامُعَاذ ! وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ إلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ » فقوله « حصائد ألسنتهم » من تشبيه المركب بالمركب ؛ فإنه شَبَّه الألسنة وما تمضي فيه من الأحاديث التي يؤاخذ بها بالمَنَاجل التي تَحْصِد النبات من الأرض ، وهذا تشبيه بليغ عجيب لم يسمع إلا من النبي صلى الله عليه وسلم .

ومما ورد منه شعرا قول أبي تمام (٣) :

---

(١) النقع : الغبار ، والعارض: السحاب ، والوابل: المطر الكثير . يريد أن خيل سيف الدولة خرجت من الغبار فيما يشبه السحاب ومن العرق الذي أوجبه الركض فيما يشبه المطر الشديد .

(٢) الصفا : اسم جنس جمعي ، واحده صفاة ، وهي الصخرة الملساء ، والسياط : جمع سوط ، والماحل : الذي لم يمطر ، يريد أن الخيل لما نشفت من العرق لقيت السياط من جلودها بمثل الحجر الأملس الذي يكون في البلد الممحل ، وذلك أبلغ ليبس الحجر .

(٣) من قصيدة له يمدح فيها أحمد بن أبي دواد ، وأولها قوله :

بُدِّلَتْ عَبْرَةً مِنَ الْإِيمَاضِ ... يَوْمَ شَدُّوا الرِّحَالَ بِالْأَغْرَاضِ

مَعْشَرٍ أصْبَحُوا حُصُونَ الْمَعَالِي وَدُرُوعَ الْأَحْسَابِ وَالْأَعْرَاضِ

فقوله « حصون المعالى » من التشبيه المركب ، وذاك أنه شبههم فى مَنْعِهم المعالى أن ينالها أحدٌ سواهم بالحصون فى منعها مَنْ بها وحمايته ، وكذلك قوله « دروع الأحساب » .

وأما المُظْهَرُ الأداة فمما جاء منه قوله تعالى : (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ) فَشُبِّهت حالُ الدنيا فى سرعة زوالها وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض فى جَفَافه وذَهَابه حُطاما بعد ما التفَّ وتكاثَفَ وزَيَّنَ الأرض ، وذاك تشبيه صورة بصورة ، وهو من أبدع ما يجىء فى بابه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى فى وصف حال المنافقين : (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ) تقديره أن مثل هؤلاء المنافقين كمثل رجل أوْقَدَ ناراً فى ليلة مظلمة بمفازة فاستضاء بها ما حوْله ، فاتّقَى ما يخاف وأمِنَ ، فبينا هو كذلك إذ طَفِئتْ ناره ، فبقى مظلماً خائفاً ، وكذلك المنافق إذا أظهر كلمة الإيمان استنار بها واعتزَّ بعزها وأمِنَ على نفسه وماله وولده ، فإذا مات عاد إلى الخوف و بقى فى العذاب والنقمة .

ومما ورد منه فى الأخبار النبوية قول النبى صلى الله عليه وسلم : « مَثَلُ

أَعْرَضَتْ بُرْهَةً فَلَمَّا أَحَسَّتْ بالنَّوَى أَعْرَضَتْ عَنِ الْإِعْرَاضِ
غَصَبَتْهَا نَحِيبَهَا عَزَمَاتٌ غَصَبَتْنِي تَصَبُّرِي وَاغْتِمَاضِي

الْمؤْمِنِ الَّذِى يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرُجَّةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِى لَايَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحَ لَهَا ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِى يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَلَا طَعْمَ لَهَا ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِى لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ لَا رِيحَ لَها وَطَعْمُهَا مرٌّ» وهذا من باب تشبيه المركب بالمركب ، ألا ترى أن النبى صلى الله عليه وسلم شبه المؤمن القارئ وهو مُتَّصِف بصفتين ــ هما الإيمان والقراءة ــ بالأُتْرُجَّة ، وهى ذات وصفين ، هما الطعم والريح ، وكذلك يجرى الحكم فى المؤمن غير القارىء ، وفى المنافق القارىء ، والمنافق غير القارىء .

وقد جاءنى شىء من ذلك أوردته فى فصل من كتاب أصف فيه البر والمسير ، فقلت : ولم أزل أصل الذَّميل بالذميل ، وألفُّ الضُّحَى بالأصيل ، والأرضُ كالبحر فى سَعَة صدره ، والمَطَايا كالجوارى راكدة على ظهره ، فكان الركب منها كسكانهم من الأكوار ، ومسيرهم فيها على كرة لا تستقر بها حركة الأدوار .

وأما ما ورد من ذلك شعراً فكقول البحترى(١) :

خُلُقٌ مِنْهُمُ تَرَدَّدَ فِيهِمْ   وَلِيَتْهُ عِصَابَةٌ عَنْ عِصَابَهْ(٢)

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها ابن ثوابة ، وأولها قوله :

أَنْ دَعَاهُ دَاعِى الْهَوَى فَأَجابَهْ   وَرَمَى قَلْبَهُ الصِّبَا فَأَصَابَهْ

عِبْتَ مَاجَاءَهُ وَرُبَّ جَهُول   جَاءَ مَا لَا يُعَابُ يَوْماً فَعابَهْ

(٢) قبل هذين البيتين قوله :

هِمَمٌ فى السَّمَاءِ تَذْهَبُ علوًا   وَرِبَاعٌ مَغْشِيَّةٌ مُنْتابَهْ

وَرِجَالٌ إِنْ ضَيَّعَ النَّاسُ أَمْراً   حَفِظُوا الَمجْدَ أَنْ يُضِيعُوا طِلَابَهْ

كَالْحُسَامِ الْجُرَازِ يَبْقَى عَلَى الدَّهْـــرِ وَيُفْنِى فى كلّ حِينٍ قِرَابَهْ

وكذلك ورد قول ابن الرومى (١) :

أَدْرِكْ ثِقَاتَكَ إِنَّهُمْ وَقَعُوا فى نَرْجِسٍ مَعَهُ ابنَةُ الْعِنَبِ

فَهُمُ بِحَالٍ لَوْ بَصُرْتَ بِهَا سَبَّحْتَ مِنْ عُجْبٍ وَمِنْ عَجَبِ

رَيْحَانُهُمْ ذَهَبٌ عَلَى دُرَرٍ وَشَرَابُهُمْ دُرَرٌ عَلَى ذَهَبِ

وهذا تشبيه صنيع ، إلا أن تشبيه البحترى أصنع ، وذلك أن هذا التشبيه صدر عن صورة مشاهدة ، وذاك إنما استنبطه استنباطاً من خاطره ، وإذا شئت أن تفرق بين صناعة التشبيه فانظر إلى ما أشرت إليه ههنا : فإن كان أحد التشبيهين عن صورة مشاهدة والآخر عن صورة غير مشاهدة فاعلم أن الذى هو عن صورة غير مشاهدة أصنع ، ولعمرى إن التشبيهين كليهما لا بُدّ فيهما من صورة تحكى ، لكن أحدهما شوهدت الصورة فيه فحكيت ، والآخر استنبطت له صورة لم تشاهد فى تلك الحال ، وإنما الفكر استنبطها ، ألا ترى أن ابن الرومى نظر إلى النرجس وإلى الخمر فشبّه ، وأما البحترى فإنه مدح قوما بأن خُلُق السماح باقٍ فيهم ينتقل عن الأول إلى الآخر ، ثم استنبط لذلك تشبيها ،

مَاسَعَوْا يَخْلُفُونَ غَيْرَ أَبِيهِمْ كُلُّ سَاعٍ مِنَّا يُرِيدُ نِصَابَهْ

جَمَعَتْهُمْ أُكْرُومَةٌ لَمْ يَجُوزُوا مُنْتَهَاهَا جَمْعَ الْقِدَاحِ الرِّبَابَهْ

(١) البيت من كلمة له يقولها لعلى بن عبد الله ، وقبله قوله :

يَابْنَ الْمُسَيَّبِ عِشْتَ فى نِعَمٍ وَسَلِمْتَ مِنْ هُلْكٍ وَمِنْ عَطَبِ

يَاشَاعِرَ الْعَجَمِ الْكِرَامِ كَمَا أَنَّ ابْنَ حُجْرٍ شاعِرُ الْعَرَبِ

يَا قَائِدَ الظُّرَفَاءِ لا كَذِبًا يَاقُدْوَةَ الْأُدَبَاءِ فى الْأَدَبِ

انظر الديوان (١ – ١١٨) .

فأدّاه فكره إلى السيف وقُرُبه التى تفنى فى كل حين وهو باق لا يفنى بفنائها ، ومن أجل ذلك كان البحترى أصنع فى تشبيهه .

وسأورد ههنا من كلامى نبْذَة يسيرة ؛ فمن ذلك ما كتبتهُ من جملة كتاب إلى ديوان الخلافة أذكر فيه نزول العدو الكافر على ثغر عَكاًّ فى سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، فقلت : وأحاط بها العدوُّ إحاطة الشِّفَاه بالثغور، ونزل عليها نزول الظلماء على النور . وهذا من التشبيهات المناسبة ، ثم لما جئت إلى ذكر قتال المسلمين إياه و إزالته عن جانب الثغر قلت : وقد اصطدم من الإسلام والكفر ابْناَ شمام ، والتقى من عَجاجتهما ظلام ، وعند ذلك أخذ العدوُّ فى التحيز إلى جانب ، وكان كحاجب على عين فصار كعين فى حاجب ، و إذا تزعزع البناء فقد هوى ، و إذا قبض من طرف البساط فقد انطوى . وهذا التشبيه فى مناسبته كالأول ، بل أحسن .

ومن ذلك ماذكرته فى فصل من كتاب إلى بعض الإخوان ، فقلت : وما شَبَّهْتُ كتابه فى وروده وانقباضه ، إلا بنظر الحبيب فى إقباله و إعراضه ، وكلا الأمرين كالسَّهم فى ألم وقعه وألم نزعه ، والمَشُوقُ مَنِ استوت صبابته فى حَالتى وَصْلِهِ وقَطْعه ، وما أزال على وَجَل من إرسال كتبه و إجمامها واشتباه لمها بِالمامها .

ومما جاء من هذا القسم فى الشعر قولُ بَكْر بن النطاح :

تَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إلَى الْمَعَالِى ... كَمَا نَظَرَتْ إلَى الشَّيْبِ الْمِلَاحُ
يُحِدُّونَ الْعُيُونَ إلَىَّ شَـزْراً ... كَأَنِّى فِى عُيُونِهِمُ السَّمَاحُ

وهذا بديع فى حسنه بليغ فى تشبيهه .

وعلى هذ النهج ورد قول أبى تمـام(١) :

(١) من قصيدة له يمدح فيها المعتصم ويذكر أخذ بابك ، وأولها قوله :

آلَتْ أُمُورُ الشِّرْكِ شَرَّ مَآلِ ... وَأَقَرَّ بَعْدَ تَخَمُّطٍ وَزِيَالِ

انظر الديوان (ص ٢٥٩ بيروت) .

خَلَطَ الشَّجَاعَةَ بِالْحَيَاءِ فَأَصْبَحَا كَالْحُسْنِ شِيبَ لِمُغْرَمٍ بِدَلَالِ

وهذا من غريب ما يأتى فى هذا الباب ، وقد تغالت شيعة أبى تمام فى وصف هذا البيت ، وهو لعمرى كذلك .

ومن هذا القسم أيضاً قوله(١) :

كَمْ نِعْمَةٍ لِلّٰهِ كَانَتْ عِنْدَهُ فَكَأَنَّهَا فِى غُرْبَةٍ وَإِسَارِ
كُسِيَتْ سَبَائِبَ لُؤْمِهِ فَتَضَاءَلَتْ كَتَضَاؤُلِ الْحَسْنَاءِ فِى الْأَطْمَارِ(٢)

وكذلك قوله(٣) :

صَدَفْتُ عَنْهُ وَلَمْ تَصْدِفْ مَوَاهِبُهُ عَنِّى ، وَعَاوَدَهُ ظَنِّى فَلَمْ يَخِبِ
كَالْغَيْثِ إِنْ جِئْتَهُ وَافَاكَ رَيِّقُهُ وَإِنْ تَرَحَّلْتَ عَنْهُ لَجَّ فِى الطَّلَبِ

وعلى هذا الأسلوب ورد قول على بن جبلة :

إِذَا مَا تَرَدَّى لَأْمَـــــةَ الْحَرْبِ أُرْعِدَتْ
حَشَا الْأَرْضِ وَاسْتَدْمَى الرِّمَاحُ الشَّوَارِعُ

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها المعتصم ، ويذكر إحراق الأفشين ، وأولها قوله :

الْحَقُّ أَبْلَجُ وَالسُّيُوفُ عَوَارِ فَحَذَارِ مِنْ أُسْدِ الْعَرِينِ حَذَارِ

وقبل البيتين اللذين أنشدهما المؤلف قوله :

يَارُبَّ فِتْنَةِ أُمَّةٍ قَدْ بَزَّهَا جَبَّارُهَا فى طَاعَةِ الْجَبَّارِ
جَالَتْ بِخَيْذَرَ جَوْلَةَ الْمِقْدَارِ فَأَحَلَّهُ الطُّغْيَانُ دَارَ بَوَارِ

(٢) السبائب : جمع سبيبة ، وهى شقة رقيقة . وتضاءلت : أخفت شخصها وتصاغرت ، والأطمار : الثياب البالية ، واحدها طمر؛ بكسر فسكون .

(٣) من كلمة له يمدح فيها الحسن بن سهل ، وأولها قوله :

أَبْدَتْ أَسًى أَنْ رَأَتْنِى مُخْلِسَ الْقُصُبِ وَآلَ مَا كَانَ مِنْ عُجْبٍ إِلَى عَجَبِ

وَأَسْفَرَ تَحْتَ النَّقْعِ حَتَّى كَأَنَّهُ صَبَاحٌ مَشَى فى ظُلْمَةِ اللَّيْلِ طَالِعُ

وقد أحسن على بن جبلة فى تشبيهه هذا كلَّ الإحسان .

وكمثله فى الحسن قوله أيضاً فى تشبيهه الْحَبَبَ فوق الخمر :

تَرَى فَوْقَهَا نَمَشاً لِلْمِزَاجِ تباذير لايَتَّصِلْنَ اتِّصَالاَ

كَوَجْهِ الْعَرُوسِ إِذَا خَطَّطَتْ عَلَى كُلِّ ناحِيَةٍ مِنْهُ خَالاَ

ومن هذا القسم قول مسلم بن الوليد[1] :

تَلْقَى الْمَنِيَّةَ فِى أَمْثَالِ عُدَّتِهَا كَالسَّيْلِ يَقْذِفُ جُلْمُوداً بِجُلْمُودِ

وعلى هذا الأسلوب ورد قول العباس بن الأَحْنَفِ[2] :

لاَجَزَى اللهُ دَمْعَ عَيْنِيَ خَيْراً وَجَزَى اللهُ كُلَّ خَيْرٍ لِسَانِي

نمَّ دَمْعِى فَلَيْسَ يَكْتُمُ شَيْئاً وَوَجَدْتُ اللِّسَانَ ذَا كِتْمَانِ

كُنْتُ مِثْلَ الْكِتَابِ أَخْفَاهُ طَيٌّ فَاسْتَدَلُّوا عَلَيْهِ بِالْعُنْوانِ

وهذا من اللطيف البديع .

ويروى أن أبا نُوَاس لما دخل مصر مادحا للخصيب جلس يوماً فى رَهْط من الأدباء ، وتذكروا مَنَازِهَ بغداد ، فأنشد مرتجلا[3] :

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها داود بن حاتم بن خالد بن المهلب ، وأولها قوله :

لاَ تَدْعُ بِي الشَّوْقَ إِنِّى غَيْرُ مَعْمُودِ نَهَى النُّهَى عَنْ هَوَى الْهِيفِ الرَّعَادِيدِ

لَوْ شِئْتُ لا شِئْتُ رَاجَعْتُ الصِّبَا وَمَشَتْ

فِىَّ الْعُيُونُ وَفَاتَتْنِى بِمَجْلُودِ

(٢) هذه الأبيات مشهورة النسبة إلى العباس بن الأحنف ، ومن العجيب أنها ليست فى ديوانه المطبوع فى الجوائب عام ١٢٩٨ من الهجرة .

(٣) هذا مطلع قصيدة له فى مديح الخصيب كما قال المؤلف ، وبعده قوله :

لَيسَ لِى مُسْعِدٌ بِمِصْرَ عَلَى الشَّوْ قِ إِلَى أَوْجُهٍ هُنَاكَ حِسَانِ

ذَكَرَ الْكَرْخَ نَازِحُ الْأَوْطَانِ فَصَبَا صَبْوَةً وَلَاتَ أَوَانِ(١)

ثم أتم ذلك قصيداً مدح به الخصيب ، فلما عاد إلى بغداد دخل عليه العباس ابن الأحنف ، وقال : أنشدني شيئاً من شعرك بمصر ، فأنشده :

* ذَكَرَ الْكَرْخَ نَازِحُ الْأَوْطَانِ(١) *

فلما استتمَّ الأبيات قال له : لقد ظلمك من ناواك ، وتخلف عنك من جاراك ، وحرامٌ على أحدٍ يتفوّه بقول الشعر بعدك ، فقال له أبو نواس : وأنت أيضاً ياأبا الفضل تقول هذا ؟ ألست القائل :

* لاجَزَى اللهُ دَمْعَ عَيْنِيَ خَيْراً *

وأنشد الأبيات ، ثم قال : ومن الذى يحسن أن يقول مثل هذا ؟.

ومن تشبيه المركب بالمركب قول البحترى(٢) :

جِدَةٌ يَذُودُ الْبُخْلَ عَنْ أَطْرَافِهَا كَالْبَحْرِ يَمْنَعُ مِلْحَهُ عَنْ مَائِهِ

وهذا من محاسن التشبيهات .

وكذلك ورد قوله(٣) :

إِذْ لِبَابِ الْأَمِيرِ صَدْرُ نَهَارِى وَرَوَاحِى إِلَى بُيُوتِ الْقِيَانِ

وانظر الديوان (ص ٩٧ مصر) .

(١) فى ا ، ب ، ج « ذكر الكرج » وهو تحريف .

(٢) من كلمة له يمدح فيها يوسف بن محمد ، وأولها قوله :

يَاغَادِياً وَالثَّغْرُ خَلْفَ مَسَائِهِ يَصِلُ السُّرَى بِأَصِيلِهِ وَضُحَائِهِ

وانظر الديوان (ج ١ ص ٩ مصر) .

(٣) من قصيدة له يمدح فيها مالك بن طوق ، وأولها قوله :

رَحَلُوا فَأَيَّةُ عَبْرَةٍ لَمْ تُسْكَبِ أَسَفاً ؟ وَأَيُّ عَزِيمَةٍ لَمْ تُغْلَبِ ؟

وانظر الديوان (ج ١ ص ١٩ مصر) .

وَتَرَاهُ فِى ظُلَمِ الْوَغَى فتخالُهُ قَمَراً يَكُرُّ عَلَى الرِّجَالِ بِكَوْكَبِ(١)

وفى هذا البيت تشبيه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء ؛ فإنه شبه العَجَاج بالظلمة ، والممدوح بالقمر ، والسنان بالكوكب ، وهذا من الحسن النادر .

وكذلك ورد قوله(٢) :

يَمْشُونَ فِى زَغْفٍ كَأَنَّ مُتُونَهَا فِى كُلِّ مَعْرَكَةٍ مُتُونُ نِهَاءِ(٣)

بِيضٌ تَسِيلُ عَلَى الْكُمَاةِ نُصُولُهَا سَيْلَ السَّرَابِ بِقَفْرَةٍ بَيْدَاءِ(٤)

فَإِذَا الْأَسِنَّةُ خَالَطَتْهَا خِلْتَهَا فِيهَا خَيَالَ كَوَاكِبٍ فِى مَاءِ

فالبيتان الأخيران هما اللذان تضمنا تشبيه المركب بالمركب ، وإنما جئنا بالبيت الأول سياقة إلى معناهما ، وهو من التشبيه الذى أحسن فيه البحترى وأغرب .

ومن هذا الباب ماورد لبعض الشعراء فى وصف الخمر ، فقال :

كَانَتْ سِرَاجَ أُنَاسٍ يَهْتَدُونَ بِهَا فِى سَالِفِ الدَّهْرِ قَبْلَ النَّارِ وَالنُّورِ

تَهْتَزُّ فِى الْكَأْسِ مِنْ ضَعْفٍ وَمِنْ هَرَمٍ

كَأَنَّهَا قَبَسٌ فِى كَفِّ مَقْرُورِ

وقد يندر للناظم أو الناثر شىء من كلامه يبلغ الغاية التى لاأمد فوقها ، وهذان البيتان من هذا القبيل .

---

(١) فى الديوان « قمرا يشد على الرجال » .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف ، وأولها قوله :

زَعَمَ الْغُرَابُ مُنَبِّئُ الْأَنْبَاءِ أَنَّ الْأَحِبَّةَ آذَنُوا بِتَنَاءِ

وانظر الديوان (ج ١ ص ٣ مصر) .

(٣) الزغف : اسم جنس جمعى ، واحده زغفة ، وهى الدرع ، والنهاء : جمع نهى — بكسر النون وفتحها مع سكون الهاء — وهو الغدير .

(٤) فى الديوان « بيض تسيل على الكماة فضولها » .

ومن أغرب ما سمعته فى هـــذا الباب قول الحُسَيْن بن مُطَير يرثى مَعْنَ ابن زائدة[١] :

فَتًى عِيشَ فِى مَعْرُوفِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ كَمَا كَانَ بَعْدَ السَّيْلِ مَجْرَاهُ مَرْتَعَا

القسم الثالث : فى تشبيه المفرد بالمركب .

فمما ورد منه قوله تعالى : (اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ) .

وكذلك قوله تعالى : (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ) .

ومن ذلك ما ذكرته فى فصل من كتاب يتضمن استنجاداً ؛ فقلت : وهو إذا اسْتُصْرِخ أصْرَخ بعَزْم كالشهاب فى رَجْمه ، وهو كالقوس المتلئ بنزع سَهْمه ، و يرى أن صريخه لم يخب ، وأنه إذا لم يجبه بالسيف فكأنه لم يجب ؛ فهو مغرى جواده وحسامه ، ومسمع العدو صَرِيرَ رُمْحه قبل قَعْقَعَة لجامه .

وكذلك أيضاً ما كتبته فى كتاب إلى بعض الإخوان أذم الفراق ، فقلت : والفِراق شىء لا كالأشياء ، وصاحبه ميت لا كالأموات وحىٌّ لا كالأحياء ، وما أراه إلا كنَارِ الله الموقَدَة ، التى تطّلع على الأفئدة ، وما يجعل صاحبها فى ضَحْضَاحٍ منها إلا تواتر الكتب التى تقيه بعض الوقاء ، وتقوم له و إن لم يُسْقَ مقام الإسقاء .

---

(١) من كلمة له رواها أبو تمام فى باب الرثاء من الحماسة ، وأولها قوله :

أَلِمَّا عَلَى مَعْنٍ وَقُولَا لِقَبْرِهِ سَقَتْكَ الْغَوَادِى مَرْبَعاً ثُمَّ مَرْبَعا

انظر شرح التبريزى (٢ ـ ٣٩٠) .

وأما ماورد منه فى الشعر فكقول أبى نواس(١) :

إذا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَبِيبٌ تَكَشَّفَتْ ... لَهُ عَنْ عَدُوٍّ فِي ثِيَابِ صَدِيقِ

وكذلك قول أبى تمام يصف قصيداً له(٢) :

خُذْهَا مُثَقَّفَةَ الْقَوافِى رَبُّهَا ... لِسَوَابِغِ النَّعْمَاءِ غَيْرُ كَنُودِ(٣)

كَالدُّرِّ وَالْمَرْجَانِ أُلِّفَ نَظْمُهُ ... بالشَّذْرِ فِى عُنُقِ الْفَتَاةِ الرُّودِ(٤)

---

(١) البيت من خمسة أبيات له فى الزهد ، وهو آخرها بيتا ، وقبله قوله :

أَيَارُبَّ وَجْهٍ فى التُّرَابِ عَتِيقِ ... وَيَارُبَّ حُسْنٍ فى التُّرَابِ رَقِيق

وَيَارُبَّ حَزْمٍ فى التُّرَابِ وَنَجْدَةٍ ... وَيَارُبَّ رَأْيٍ فى التُّرَابِ وَثِيقِ

أرَى كُلَّ حَيٍّ هَالِكاً وَابْنَ هَالِكٍ ... وَذَا حَسَبٍ فى الْهَالِكِينَ عَرِيق

فَقُلْ لِقَرِيبِ الدَّارِ إِنَّكَ ظَاعِنٌ ... إِلَى مَنْزِلٍ نَائِى المَحَلِّ سَحِيق

وانظر الديوان (ص ١٩٢ مصر) .

(٢) البيتان من قصيدة له يمدح فيها أحمد بن أبى دواد ، وأولها قوله :

أَرَأَيْتَ أَيَّ سَوَالِفٍ وَخُدُودِ ... عَنَّتْ لَنَا بَيْنَ اللِّوَى فَزَرُودِ

وقد وقع فى ا ، ب ، ج « يصف قيدا » وهو تحريف بحذف الصاد المهملة .

(٣) وقع فى ج « لسوابغ النعمان » وهو تحريف ، و بين هـذا البيت والذى بعده بيتان آخران ، وهما قوله :

حَذَّاءَ تَمْلأُ كُلَّ أُذْنٍ حِكْمَةً ... وَبَلاَغَةً وَتُدِرُّ كُلَّ وَرِيدِ

كالطَّعْنَةِ النَّجْلاَءِ مِنْ يَدِ ثَائِرٍ ... بِأَخِيهِ أَوْ كَالضَّرْبَةِ الأُخْدُودِ

(٤) وقع فى ا ، ب ، ج «بالشد فى عنق» وهو تحريف ، وتصويبه عن الديوان ، وفى الديوان « الكعاب الرود » . والشذر : قطع من الذهب تلقط من معدنه ولا تستخرج باذابة الحجارة ، والرود : الجارية الناعمة .

وكذلك ورد قول البحترى ، وهو من جملة قصيدته المشهورة التى وصف فيها الفرس والسيف ، وأولها :

* أَهْلاً بِذَلِكُمُ الْخَيَالِ الْمُقْبِلِ[(١)] *

فقال فيها من أبيات تضمَّنَتْ وصف السيف بيتاً أجاد فى تشبيهه :

وَكَأَنَّمَا سُودُ النِّمَالِ وَحُمْرُهَا دَبَّتْ بِأَيدٍ فِى قُوَاهُ وأَرْجُلِ

فشبه فِرِنْدَ السيف بدَبيب النمل سودِها وحمرِها ، وذلك من التشبيه الحسن .

وأما ماورد منه مضمر الأداة فكقول النبى صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن الْعَزْلِ فقال : « هُوَ الْوَأْدُ الْخَفِيُّ » وهذا تشبيه بليغ ، والوأد : هو ما كانت العرب تفعله فى دفن البنات أحْيَاء ، فجعل الْعَزْلَ فى الجماع كالوأد إلا أنه خفىٌّ ، وذاك أنهم كانوا يفعلون بالبنات ذلك هَرَبًا منهن ، وهكذا من يَعْزِلُ فى الجماع فإنما يفعل ذلك هرباً من الولد .

وكذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : « هُوَ الوَأْدَة الصُّغْرَى » وهذا من الحسن إلى غاية تغضّ لها العيون طرفَها ، ولا ينتهى الوصف إليها فيكون ترك وصفها كوصفها .

ومما جاءنى من ذلك فصل من جملة كتاب ضمنته وصف القلم ، فقلت : جدع أنفه فصار فى الكيد قصيراً ، وأرهف صدره فصار فى المَضَاء عَضْباً شهيراً ، وقمص لباس السواد وهو شعار الخطباء فنطق بفصل الخطاب ، ونكس رأسه وهى صورة الإذلال فاختال فى مشيه من الإعجاب ، وأوحى إليه بنَجْوَى الخواطر وهو الأصم فأفْضَى بما سمعه إلى الكتاب .

وهذه الأوصاف غريبة جداً ، ومن أغربها ذكر قَصِير عند جَدْع الأنف .

وأما القسم الرابع ، وهو تشبيه المركب بالمفرد ؛ فإنه قليل الاستعمال بالنسبة

(١) لم أجد هذه القصيدة ، ولا هذا البيت ، فى شعر البحترى .

إلى الأقسام الثلاثة ، وليس ذلك إلا لعدم النظير بين المشبه والمشبه به ، وعلى كثرة ماحفظته من الأشعار لم أجد ما أمثل به هذا القسم إلا مثالا واحداً ، وهو قول أبي تمام في وصف الربيع (١) :

يَا صَاحِبَيَّ تَقَصَّيَا نَظَرَيْكُمَا تَرَيَا وُجُوهَ الْأَرْضِ كَيْفَ تَصَوَّرُ
تَرَيَا نَهَاراً مُشْمِسًا قَدْ شَابَهُ زَهْرُ الرُّبَا فَكَأَنَّمَا هُوَ مُقْمِرُ

فشبه النهار المشمس مع الزهر الأبيض بضوء القمر ، وهو تشبيه حسن واقع في موقعه ، مع مافيه من لطف الصنعة .

ولربما اعترض في هذا الموضع معترض ، وقال : إنك أوردت هذا القسم من التشبيه ، وذكرت أنه قليل ، وليس كذلك ؛ فإن تشبيه شيئين بشيء واحد كثير ، كقول أبي الطيب المتنبي (٢) :

تُشْرِقُ أَعْرَاضُهُمْ وَأَوْجُهُهُمْ كَأَنَّهَا فِي نُفُوسِهِمْ شِيَمُ (٣)

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها المعتصم ، وأولها قوله :

رَقَّتْ حَوَاشِي الدَّهْرِ فَهْيَ تَمَرْمَرُ وَغَدَا الثَّرَى فِي حَلْيِهِ يَتَكَسَّرُ

انظر الديوان (ص ١٢٦ بيروت) .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها على بن إبراهيم التنوخي ، وأولها قوله :

أَحَقُّ عَافٍ بِدَمْعِكَ الْهِمَمُ أَحْدَثُ شَيْءٍ عَهْدًا بِهَا الْقِدَمُ

العافي : الدارس الذاهب ، والهمم : جمع همة ، والقدم : خلاف الحدوث ؛ قال أبو الفتح : سألته عن معنى هذا البيت ، فقال : أحق ماصرفت إليه بكاءك همم الناس لأنها قد عفت ودرست فصار أحدثها عهدا قديما ، وقال الخطيب : أحق عاف بأن يبكى عليه همم الكرام ؛ لأنها عفت كما تعفو الربوع ؛ فهي أحق بدمعك من كل الدارسات ، وجعل القدم أحدث الأشياء عهدا بالهمم : أي دروسها قديم ؛ فلا همم في الأرض .

(٣) قبل هذا البيت قوله :

فشبه إشراق الأعراض والوجوه بإشراق الشيم .

الجواب عن ذلك أني أقول : هذا البيت المعترض به على ماذكرته ليس كالذى ذكرته ؛ فإني أردت أن يشبه شيآن هما كشيء واحد في الاشتراك بشيء واحد ، ألا ترى أن نور الشمس مع بياض الزهر وهما شيآن مشتركان قد شُبِّها بضوء القمر ؛ وأما هذا البيت الذى لأبى الطيب المتنبى فإنه تشبيه شيئين كل واحد منهما مفرد برأسه بشيء واحد ؛ لأنه شبه إشراق الأعراض وإشراق الوجوه بإشراق الشِّيَم ، وهذا غير ما أردته أنا .

لكن ينبغى أن تعلم أن تشبيه المركب بالمفرد ينقسم قسمين : أحدهما : تشبيه شيئين مشتركين بشيء واحد ، كالذى أوردته لأبى تمام ؛ وهو قليل الاستعمال ، والآخر تشبيه شيئين منفردين بشيء واحد ، كالذى ذكرته أنت لأبى الطيب المتنبى ، وهو كثير الاستعمال .

وإذْ ذكرنا أقسام التشبيه ، وبَيَّنَّا المحمودَ منها الذى ينبغى اقتفاء أثره واتباع مذهبه ، فَلْنُتْبِعْهُ بضده مما ينبغى اجتنابه والإضراب عنه ، على أنه قد قدمنا

قَوْمٌ بُلُوغُ الْغُلَامِ عِنْدَهُمُ طَعْنُ نُحُورِ الْكُمَاةِ لَا الْحُلُمُ
كَأَنَّمَا يُولَدُ النَّدَى مَعَهُمْ لَا صِغَرٌ عَاذِرٌ وَلَا هَرَمُ
إِذَا تَوَلَّوْا عَدَاوَةً كَشَفُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا صَنِيعَةً كَتَمُوا
تَظُنُّ مِنْ فَقْدِكَ اعْتِدَادَهُمُ أَنَّهُمُ أَنْعَمُوا وَمَا عَلِمُوا
إِنْ بَرَقُوا فَالْحُتُوفُ حَاضِرَةٌ أَوْ نَطَقُوا فَالصَّوَابُ وَالْحِكَمُ
أَوْ حَلَفُوا بِالْغَمُوسِ وَاجْتَهَدُوا فَقَوْلُهُمْ خَابَ سَائِلِي الْقَسَمُ
أَوْ رَكِبُوا الْخَيْلَ غَيْرَ مُسْرَجَةٍ فَإِنَّ أَفْخَاذَهُمْ لَهَا حُزُمُ
أَوْ شَهِدُوا الْحَرْبَ لَاقِحًا أَخَذُوا مِنْ مُهَجِ الدَّارِعِينَ مَا احْتَكَمُوا

القول بأن حَدَّ التشبيه هو : أن يُثْبَتَ للمشبه حُكْمٌ من أحكام المشبه به ، فإذا لم يكن بهذه الصفة ، أو كان بين المشبه والمشبه به بُعْدٌ ؛ فذلك الذى يُطْرَح ولا يستعمل ، والذى يرد منه مضمر الأداة لايكون إلا فى القسم الواحد من أقسام المجازى ، وهو التوسع ، وقد قدمت القول فى ذلك فى أول باب الاستعارة ، وضربت له أمثلة منها قول أبى نواس(١) :

مالِرِجْلِ الْمَالِ أمْسَتْ   تَشْتَكِى مِنْكَ الْكَلاَلاَ

فجعل للمال رجلا ، وذلك تشبيه بعيد ، ولا حاجة إلى إعادة ذلك الكلام ههنا بجملته ، لكن قد أشرت إليه إشارة خفيفة .

ومن أقبح ماسمعته من ذلك قول أبى تمام(٢) :

وَتَقَاسَمَ الناسُ السَّخَاءَ مُجَزَّأً   وَذَهَبْتَ أَنْتَ بِرَأْسِهِ وَسَنَامِهِ(٣)

وَتَرَكْتَ لِلنَّاسِ الْإِهَابَ وَمَا بَقِى   مِنْ فَرْثِهِ وَعُرُوقِهِ وَعِظَامِهِ(٤)

والقبح الفاحش فى البيت الثانى ، وكل هذا التعسُّف فى التشبيه البعيد دَنْدَنة حول مَعْنًى ليس بطائل ؛ فإن غرضه أن يقول : ذهب بالأعلى وترك للناس الأدنى ، أو ذهبت بالجيد وتركت للناس الردىء .

---

(١) انظر هذا البيت و بيان مافيه فى (ص ٣٦٢ من هذا الجزء) .

(٢) من كلة له يمدح فيها أبا سعيد ، وأولها قوله :

قُلْ لِلْأَمِيرِ أَبِى سَعِيدٍ ذِى النَّدَى   وَالْمَجْدِ زَادَ اللهُ فِى إِكْرَامِهِ

وقبل هذين البيتين وهو داخل فيما دخلا فيه قوله :

قُسِمَ الْحَيَاءُ عَلَى الْأَنَامِ جَمِيعِهِمْ   فَنَهَضْتَ أَنْتَ فَقُدْتَهُ بِزِمَامِهِ

(٣) فى الديوان « وتقسم الناس » .

(٤) الإهاب ــ بكسر الهمزة ــ الجلد ؛ والفرث : ما فى الكرش من السرجين .

وقد عيب عليه قوله(١) :

لاَ تَسْقِنِي ماءَ المَلاَمِ فإنَّنى صَبٌّ قَدِ اسْتَعْذَبْتُ ماءَ بكائى

وقيل : إنه جعل الملام ماء ، وذلك تشبيه بعيد ، وما بهذا التشبيه عندى من بأس ، بل هو من التشبيهات المتوسطة التى لاتحمد ولا تذم ، وهو قريب من وجه بعيد من وجه : أما سبب قربه فهو أن الملام هو القول الذى يُعَنَّفُ به المَلُوم لأمرٍ جَنَاه ، وذاك مختصٌّ بالسمع ، فنقله أبو تمام إلى السقيا التى هى مختصة بالحلق ، كأنه قال : لاتُذِقْنى الملامَ ، ولو تهيأ له ذلك مع وزن الشعر لكان تشبيها حسنا ، لكنه جاء بذكر الماء فحط من درجته شيئاً ، ولما كان السمع يَتَجَرَّع الملامَ أولا أولا كتجرع الحلق الماء صار كأنه شبيه به ، وهو تشبيه معنى بصورة ؛ وأما سبب بُعْدِ هذا التشبيه فهو أن الماء مستلَذّ ، والملام مستكره ، فحصل بينهما مخالفة من هذا الوجه ، فهذا التشبيه إن بعد من وجه فقد قرب من وجه ، فيغفر هذا لهذا ، ولذلك جعلته من التشبيهات المتوسطة التى لاتحمد ولا تذم .

وقد روى - وهو رواية ضعيفة - أن بعض أهل المَجَانة أرسل إلى أبى تمام قَارورةً ، وقال : ابْعَثْ فى هذه شيئاً من ماء الملام ، فأرسل إليه أبو تمام ، وقال : إذا بعثت إلى ريشةً من جَنَاح الذل بعثت إليك شيئا من ماء الملام ، وما كان أبو تمام ليذهب عليه الفرق بين هذين التشبيهين ؛ فإنه ليس جعلُ الجناح للذل كجعل الماء للملام ، فإن الجناح للذل مناسب ، وذاك أن الطائر إذا وَهَن أو تعِبَ بَسَطَ جناحه وخَفَضه وألقى نفسه على الأرض ، وللانسان أيضا جناح ، فإن يَدَيْه جَنَاحَاه ، و إذا خضع واستكان طأطأ من رأسه ، وخفض من

(١) هو ثانى بيت من قصيدة له يمدح فيها يحيى بن ثابت ، وقبله ، وهو المطلع :

قَدْكَ اتَّئِبْ أَرْبَيْتَ فى الغُلَوَاءِ كَمْ تَعْذِلُونَ وَأَنْتُمُ سُجَرَائِى

يديه ؛ فحسن عند ذلك جعلُ الجناح للذل ، وصار تشبيها مناسبا ، وأما الماء للملام فليس كذلك فى مناسبة التشبيه .

وأما التشبيه المضمر الأداة من هذا الباب فقد أوردت له أمثلة يستدل بها على أشباهه وأمثاله ؛ فإن لذكر المثال فائدة لاتكون لذكر الحد وحده .

فمن ذلك قول بعضهم :

مَلاَ حَاجِبَيْكَ الشَّيْبُ حَتَّى كَأَنَّهُ ظِبَاءٌ جَرَتْ مِنْهَا سَنِيحٌ وَبَارِحُ

وكذلك قول الآخر يصف السهام[1] :

كَسَاهَا رَطِيبُ الرِّيشِ فَاعْتَدَلَتْ لَهُ قِدَاحٌ كَأَعْنَاقِ الظِّبَاءِ الْفَوَارِقِ

فإنه شبه السهام بأعناق الظباء ، وذلك من أبعد التشبيهات .

وعلى نحو منه قول الفرزدق :

يَمْشُونَ فِى حَلَقِ الْحَدِيدِ كَمَا مَشَتْ جُرْبُ الْجِمَالِ بِهَا الْكُحَيْلُ الْمُشْعَلُ

فشبه الرجال فى دروع الزرد بالجمال الجُرْب ، وهذا من التشبيه البعيد ؛ لأنه إن أراد السواد فلا مقاربة بينهما فى اللون ؛ لأن لَوْنَ الحديد أبيضُ ، ومن أجل ذلك سميت السيوف بالبيض ؛ ومع كون هذا التشبيه بعيداً فإنه تشبيه سخيف .

ومن التشبيهات الباردة قول أبى الطيب المتنبى[2] :

وَجَرَى عَلَى الْوَرَقِ النَّجِيعُ الْقَانِى فَكَأَنَّهُ النَّارَنْجُ فِى الْأَغْصَانِ[3]

---

(١) البيت لساعدة بن جؤية ، ويروى « قداح كأعناق الظباء رقاق » انظر الصناعتين (١٩٧) .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها سيف الدولة ، وأولها قوله :

الرَّأْىُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ هُوَ أَوَّلٌ وَهِىَ الْمَحَلُّ الثَّانِى

(٣) قبل هذا البيت قوله :

هَيْهَاتَ عَاقَ عَنِ الْعِوَادِ قَوَاضِبٌ كَثُرَ الْقَتِيلُ بِهَا وَقَلَّ الْعَانِى

وَمُهَذَّبٌ أَمَرَ الْمَنَايَا فِيهِمُ فَأَطَعْنَهُ فِى طَاعَةِ الرَّحْمَانِ

قَدْ سَوَّدَتْ شَجَرَ الْجِبَالِ شُعُورُهُمْ فَكَأَنَّ فِيهِ مُسِفَّةَ الْغِرْبَانِ

وهذا تشبيه ينكره أهل التجسيم ، وإذا قسمت التشبيهات بين البعد والبرد[١] حاز طرفى ذلك التقسيم .

وأبشع من هذا قول أبى نواس فى الخمر[٢] :

كَأَنَّ بَرَانِسًا رَوَاكِدَ حَوْلَهَا ... وَزُرْق سَنَانِيرٍ تُدِيرُ عُيُونَهَا[٣]

والعجب أنه يقول مثل هذا الغث الذى لاملاءمة بينه وبين ما شبه به ويقرنه بالبديع الذى[٤] أحسن فيه وأبدع ، وهو :

كَأَنَّا حُلُولٌ بَيْنَ أَكْنَافِ رَوْضَةٍ ... إِذَا مَا سَلَبْنَاهَا مَعَ اللَّيْلِ طِينَهَا

فانظر كيف قَرَنَ بين وَرْدِهِ وسَعْدَانه ، لا ، بل بين بَعَره ومَرْجانه ، وقد أكثر فى تشبيه الخمر فأحسن فى موضع وأساء فى موضع ، ومن إساءته قوله أيضاً فى أبيات لامية[٥] :

وإِذَا مَا المَاءُ وَاقَعَهَا ... أَظْهَرَتْ شَكْلاً مِنَ الْغَزَلِ

لُؤْلُؤَاتٌ يَنْحَدِرْنَ بِهَا ... كَانْحِدَارِ الذَّرِّ مِنْ جَبَلِ[٦]

فشبه الحَبَبَ فى انحداره بنَمْل صغار ينحدر من جبل ، وهذا من البعد على غاية لايحتاج إلى بيان وإيضاح .

---

(١) فى ا ، ب ، ج «وإذا قسمت التشبيهات بعد السعد والبرد» .

(٢) بحثت ديوان أبى نواس كله فلم أجد هذين البيتين .

(٣) كذا فى ا ، وفى ب ، ج «كأن بواسار» .

(٤) فى ا ، ب ، ج «ويقرنه بالبديع البارد الذى أحسن فيه وأبدع» .

(٥) البيتان من كلمة له أولها قوله :

يَامُبِيحَ الدَّمْعِ فى الطَّلَلِ ... رَاكِباً مِنْهُ إِلَى أَمَلِ

انظر الديوان (ص ٣١٦ مصر) .

(٦) رواية الديوان ليست كما رواها المؤلف واعترض عليه ، بل هى هكذا :

لُؤْلُؤَاتٌ يَنْحَدِرْنَ بِهَا ... كَانْحِدَارِ الدَّمْعِ فى عجل

واعلم أن من التشبيه ضربا يسمى الطرد والعكس ، وهو أن يجعل المشبه به مشبهاً والمشبه مشبهاً به ، وبعضهم يسميه غلبة الفروع على الأصول ، ولا تجد شيئاً من ذلك إلا والغرض به المبالغة

فمما جاء من ذلك قول ذى الرمة[1] :

وَرَمْلٍ كَأَرْدَافِ الْعَذَارَى قَطَعْتُهُ إِذَا أَلْبَسَتْهُ الْظُلُمَاتُ الْحَنَادِسُ

ألا ترى إلى ذى الرمة كيف جعل الأصل فرعا والفرع أصلا ؟ وذلك أن العادة والعُرْفَ فى هذا أن تشبه أعجاز النساء بكُثْبَان الأنْقَاء ، وهو مُطَّرد فى بابه ، فعكس ذو الرمة القصة فى ذلك ، فشبه كُثبان الأنقاء بأعجاز النساء ، وإنما فعل ذلك مبالغةً : أى قد ثبت هذا الموضع وهذا المعنى لأعجاز النساء وصار كأنه الأصل حتى شبهت به كُثْبَان الأنقاء .

وعلى نحو من هذا جاء قول البحترى[2] :

فِي طَلْعَةِ الْبَدْرِ شَيْءٌ مِنْ مَحَاسِنِهَا وَلِلْقَضِيبِ نَصِيبٌ مِنْ تَثَنِّيهَا

وكذلك ورد قول عبد الله بن المعتز فى قصيدته المشهورة التى أولها :

* سَقَى الْمَطِيرَةَ ذَاتَ الظِّلِّ وَالشَّجَرِ[3] *

---

(١) من قصيدة له أولها قوله :

أَلَمْ تُسْأَلِ الْيَوْمَ الرُّسُومُ الدَّوَارِسُ بِحُزْوَى ؟ وَهَلْ تَدْرِى القفارُ البسابِسُ ؟

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أمير المؤمنين المتوكل ، وأولها قوله :

أَنَافِعِى عِنْدَ لَيْلَى فَرْطُ حُبِّيهَا وَلَوْعَةٌ لِيَ أُبْدِيهَا وَأُخْفِيهَا

أَمْ لَا تُقَارِبُ لَيْلَى مَنْ يُقَارِبُهَا وَلَا تُدَانِي بِوَصْلٍ مَنْ يُدَانِيهَا

بَيْضَاءُ أَوْقَدَ خَدَّيْهَا الصِّبَا وَسَقَى أَجْفَانَهَا مِنْ مُدَامِ الرَّاحِ سَاقِيهَا

(٣) هذا صدر المطلع وعجزه قوله :

فقال فى تشبيه الهلال :

وَلَاحَ ضَوْءُ قُمَيْرٍ كَادَ يَفْضَحُنَا   مِثْلُ الْقُلَامَةِ قَدْ قُدَّتْ مِنَ الظُّفُرِ

ولما شاع ذلك فى كلام العرب واتسع صار كأنه هو الأصل ، وهو موضع من علم البيان حسن الموقع ، لطيف المأخذ .

وهذا قد ذكره أبو الفتح بن جنى فى كتاب الخصائص ، وأورده هكذا مهملا .

ولما نظرت أنا فى ذلك ، وأنعمت نظرى فيه ؛ تبين لى ما أذكره ، وهو: أنه قد تقرر فى أصل الفائدة المستنتجة من التشبيه أن يشبه الشىء بما يطلق عليه لفظة أفْعَلَ : أى يشبه بما هو أبين وأوضح ، أو بما هو أحسن منه أو أقبح ، وكذلك يشبه الأقل بالأكثر ، والأدنى بالأعلى .

وهذا الموضع لا ينقض هذه القاعدة ؛ لأن الذى قدمنا ذكره مطرد فى بابه ، وعليه مدار الاستعمال ، وهذا غير مطرد ، وإنَّما يحسن فى عكس المعنى المتعارف ، وذاك أن تجعل المشبه به مشبها ، والمشبه مشبها به ، ولا يحسن فى غير ذلك مما ليس بمتعارف ، ألا ترى أن من العادة والْعُرْف أن تشبه الأعجاز بالكُثْبَان ، فلما عكس ذو الرمة هذه القضية فى شعره جاء حسناً لائقاً ؟ وكذلك فعل البحترى ؛ فإن من العادة والعرف أن يشبه الوجه الحسن بالبدر والقدُّ الحسن بالقضيب ، فلما عكس البحترى القضية فى ذلك جاء أيضاً حسنا لائقاً ، ولو شبه ذو الرمة الكثبان بما هو أصغر منها غير الأعجاز لما حسن ذلك ؛ وهكذا لوشبه البحترى طلعة البدر بغير طلعة الحسناء والقضيب بغير قدِّها لما حسن ذلك أيضاً ، وهكذا القول فى تشبيه عبد الله بن المعتز صورة الهلال بالقُلَامة ؛ لأن من العادة أن تشبه القلامة بالهلال ، فلما صار ذلك مشهوراً متعارفا حسن عكس القضية فيه .

النوع الثالث

فى التجريد

وهذا اسم كنت سمعته؛ فقال القائل : التجريد فى الكلام حسن ، ثم سكت ، فسألته عن حقيقته ، فقال : كذا سمعت ، ولم يزد شيئاً ؛ فأنعمت حينئذ نظرى فى هذا النوع من الكلام ، فألقى فى روعى أنه ينبغى أن يكون كذا وكذا ، وكان الذى وقع لى صوابا ، ثم مضى على ذلك برهة من الزمان ، ووصل إلى ماذكره أبو على الفارسى رحمه الله تعالى ، وقد أوردته ههنا ، وذكرت ماأتيت به من ذات خاطرى من زيادة لم يذكرها ، وستقف أيها المتأمل على كلامه وكلامى .

فأما حد التجريد فإنه إخْلَاصُ الخطاب لغيرك ، وأنت تريد به نفسك ، لا المخاطب نفسه ؛ لأن أصله فى وضع اللغة من جَرَّدْتُ السيف ؛ إذا نَزَعْتَه من غِمْدِه ، وجَرَّدْت فلانا ؛ إذا نزعت ثيابه ، ومن ههنا قال صلى الله عليه وسلم: « لاَ مَدَّ وَلاَ تَجْرِيدَ » وذلك فى النهى عند إقامة الحد أن يُمَدَّ صاحبه على الأرض وأن تجرّد عنه ثيابه ، وقد نقل هذا المعنى إلى نوع من أنواع علم البيان .

وقد تأملته فوجدت له فائدتين إحداهما أبلغ من الأخرى :

فالأولى : طلب التوسع فى الكلام ، فإنه إذا كان ظاهره خطاباً لغيرك وباطنهُ خطاباً لنفسك فان ذلك من باب التوسع ؛ وأظن أنهُ شىء اختصت بهِ اللغة العربية دون غيرها من اللغات .

والفائدة الثانية ـ وهى الأبلغ ـ وذاك أنه يتمكن المخاطب من إجراء الأوصاف المقصودة من مدح أو غيره عَلَى نفسه ؛ إذ يكون مخاطباً بها غيره ؛ ليكون أعذر وأبرأ من العهدة فيما يقوله غير محجور عليهِ .

وعلى هذا فان التجريد ينقسم قسمين : أحدهما تجريد محض ، والآخر تجريد غير محض .

فالأول ــ وهو المحض ــ أن تأتى بكلام هو خطاب لغيرك وأنت تريد به نفسك ، وذلك كقول بعض المتأخرين وهو الشاعر المعروف بالْحَيْصَ بَيْصَ فى مطلع قصيدة له[1] :

إلَامَ يَرَاكَ المَجْدُ فى زِىِّ شاعِرٍ ... وَقَدْ نَحلت شَوْقاً فُرُوعُ المَنَابِرِ

كَتَمْتَ بِعَيْبِ الشِّعْرِ حِلْماً وَحِكْمَةً ... بِبَعْضِهِمَا يَنْقادُ صَعْبُ المَفاخِرِ

أَمَا وَأَبيكَ الْخَيْرِ إِنَّكَ فارِسُ الْـــمَقَالِ وَمُحْيِى الدَّارِسَاتِ الْغَوَابِرِ

وَإِنَّكَ أَعْيَيْتَ المَسَامِعَ وَالنُّهَى ... بِقَوْلِكَ عَمَّا فى بُطُونِ الدَّفَاتِرِ

فهذا من محاسن التجريد ، ألا ترى أنه أجرى الخطاب على غيره وهو يريد نفسه ، كى يتمكن من ذكر ما ذكره من الصفات الفائقة ، وعَدِّ ما عَدَّه من الفضائل التائهة ، وكل مايجىء من هذا القبيل فهو التجريد المحض .

وأما ماقصد به التوسع خاصة فكقول الصِّمَّة بن عبد الله من شُعَراء الحماسة[2] :

حَنَنْتَ إلَى رَيَّا وَنَفْسُكَ بَاعَدَتْ ... مَزَارَكَ مِنْ رَيَّا وَشَعْبَا كُمَا مَعَا

فَمَا حَسَنٌ أنْ تَأتِىَ الأَمْرَ طائِعاً ... وَتَجْزَعَ أَنْ دَاعِى الصَّبَابَةِ أَسْمَعَا

وقد ورد بعد هذين البيتين مايدل على أن المراد بالتجريد فيهما التوسع ، لأنه قال[3] :

---

(١) هو أبو الفوارس سعد بن محمد بن سعد ، التميمى ، ويلقب شهاب الدين له ترجمة فى وفيات الأعيان ، لابن خلكان (١ ــ ٣٦٠ الوطن) .

(٢) هذه الأبيات أول ما اختاره أبو تمام فى باب النسيب من ديوان الحماسة ؛ انظر شرح التبريزى (٣ ــ ١٩٦) .

(٣) هذان البيتان ليسا متصلين فى رواية الحماسة ، وهاك القطعة كلها برواية الحماسة :

حَنَنْتَ إلى رَيَّا وَنَفْسُكَ بَاعَدَتْ ... مزارَكَ مِنْ رَيَّا وَشَعْبَا كُمَا مَعَا

وَأَذْكُرُ أَيَّامَ الْحِمَى ثُمَّ أَنْثَنِي ... عَلَى كَبِدِى مِنْ خَشْيَةٍ أَنْ تَصَدَّعَا
بِنَفْسِيَ تِلْكَ الْأَرْضُ مَا أَطْيَبَ الرُّبَا ... وَمَا أَحْسَنَ الْمُصْطَافَ وَالْمُتَرَبَّعَا

فانتقل من الخطاب التجريدىّ إلى خطاب النفس ، ولو استمر على الحالة الأولى لما قضى عليه بالتوسع . و إنما كان يقضى عليه بالتجريد البليغ الذى هو الطرف الآخر ، و يتأول له بأن غرضه من خطاب غيره أن ينفى عن نفسه سمة الهوى ومَعَرَّةَ العشق؛ لما فى ذلك من الشهرة والفضاضة ، لكن قد زال هذا التأويل بانتقاله عن التجريد أولا إلى خطاب النفس .

وعلى هذا الأسلوب ورد قول أبى الطيب المتنبى :

لاَ خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهاَ وَلاَ مالُ ... فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إِنْ لَمْ تُسْعِدِ الْحَالُ
وَاجْزِ الْأَمِيرَ الَّذِى نُعْمَاهُ فاجِئَةٌ ... بِغَيْرِ قَوْلٍ وَنُعْمَى الْقَوْمِ أَقْوَالُ

وهذان البيتان من مطلع قصيدة يمدح بها فاتكا الإخشيدى بمصر ، وكان وَصَله بِصِلة سنية من نفقة وكسوة قبل أن يمدحه ، ثم مدحه بعد ذلك بهذه القصيدة ، وهى من غُرَر شعره ، وقد بنى مطلعها على المعنى المشار إليه من ابتداء فاتك إياه بالصلة قبل المديح ، وليس فى التجريد المذكور فى هذين البيتين مايدل

فَما حَسَنٌ أَنْ تَأْتِيَ الْأَمْرَ طَائِعاً ... وَتَجْزَعَ أَنْ دَاعِي الصَّبَابَةِ أَسْمَعَا
قِفَا وَدِّعَا نَجْدًا وَمَنْ حَلَّ بِالْحِمَى ... وَقَلَّ لِنَجْدٍ عِنْدَنَا أَنْ يُوَدَّعَا
بِنَفْسِيَ تِلْكَ الْأَرْضُ مَا أَطْيَبَ الرُّبَا ... وَمَا أَحْسَنَ الْمُصْطَافَ وَالْمُتَرَبَّعَا
وَلَيْسَتْ عَشِيَّاتُ الْحِمَى بِرَوَاجِعٍ ... عَلَيْكَ وَلٰكِنْ خَلِّ عَيْنَيْكَ تَدْمَعَا
وَلَمَّا رَأَيْتُ الْبِشْرَ أَعْرَضَ دُونَنَا ... وَحَالَتْ بَنَاتُ الشَّوْقِ يَحْنِنَّ نُزَّعَا
بَكَتْ عَيْنِيَ الْيُسْرَى فَلَمَّا زَجَرْتُهَا ... عَنِ الْجَهْلِ بَعْدَ الْحِلْمِ أَسْبَلَتَا مَعَا
تَلَفَّتُّ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتُنِي ... وَجِعْتُ مِنَ الْإِصْغَاءِ لِيتاً وَأَخْدَعَا
وَأَذْكُرُ أَيَّامَ الْحِمَى ثُمَّ أَنْثَنِي ... عَلَى كَبِدِى مِنْ خَشْيَةٍ أَنْ تَصَدَّعَا

على وصف النفس ولا على تزكيتها بالمديح ، كما ورد فى الأبيات الرائية المتقدم ذكرها ، وإنما هو توسع لاغير .

وأما القسم الثانى ـ وهو غير المحض ـ فإنه خطاب لنفسك لا لغيرك ، ولئن كان بين النفس والبدن فرق إلا أنهما كأنهما شىء واحد ؛ لعلاقة أحدهما بالآخر

وبين هذا القسم والذى قبله فرق ظاهر ، وذاك أولى بأن يسمى تجريداً ؛ لأن التجريد لائق به ، وهذا هو نصف تجريد ؛ لأنك لم تجرد به عن نفسك شيئاً ، وإنما خاطبت نفسك بنفسك ، كأنك فصلتها عنك وهى منك .

فمما جاء منه قول عمرو بن الإطنابة [١] :

أَقُولُ لَهَا وَقَدْ جَشَأَتْ وَجاشَتْ ... رُوَيْدَكِ تُحْمَدِى أَوْ تَسْتَرِيحِى

وكذلك قول الآخر [٢] :

---

(١) هذا البيت من كلمة له اختارها البحترى فى كتاب الحماسة وافتتح بها هذا الكتاب ، وها كها بروايته :

أَبَتْ لِى عِفَّتِى وَأَبَى بَلَائِى ... وَأَخْذِى الحَمْدَ بِالثَّمَنِ الرَّبِيحِ

وَإِعْطَائِى عَلَى المَعْسُورِ مَالِى ... وَضَرْبِى هَامَةَ البَطَلِ المُشِيحِ

وَقَوْلِى كُلَّمَا جَشَأَتْ وَجَاشَتْ ... مَكَانَكِ تُحْمَدِى أَوْ تَسْتَرِيحِى

لِأَدْفَعَ عَنْ مَكَارِمَ صَالِحَاتٍ ... وَأَحْمِىَ بَعْدُ عَنْ عِرْضٍ صَحِيحِ

(٢) هذا بيت من شعر الحماسة يقوله أعرابى قتل أخوه ابنا له ؛ فقدم إليه أخوه ليقتاد منه ، فألقى السيف من يده وأنشأ يقول :

أَقُولُ لِلنَّفْسِ تَأْسَاءً وَتَعْزِيَةً ... إِحْدَى يَدَىَّ أَصَابَتْنِى وَلَمْ تُرِدِ

كِلَاهُمَا خَلَفٌ مِنْ فَقْدِ صَاحِبِهِ ... هٰذَا أَخِى حِينَ أَدْعُوهُ وَذَا وَلَدِى

انظر شرح التبريزى على ديوان الحماسة (١ ـ ٢٠٥) .

أَقُولُ لِلنَّفْسِ تَأْسَاءً وَتَعْزِيَةً إِحْدَى يَدَيَّ أَصَابَتْنِي وَلَمْ تُرِدِ

وليس فى هذا مايصلح أن يكون خطابا لغيرك كالأول ، و إنما المخاطب هوالمخاطب بعينه ، وليس ثَمَّ شىء خارج عنه .

وأما الذى ذكره أبو على الفارسى رحمه الله فإنه قال : إن العرب تعتقد أن فى الإنسان مَعْنى كامناً فيه كأنه حقيقته ومحصوله ، فتخرج ذلك المعنى إلى ألفاظها مجرداً من الإنسان كأنه غيره ، وهو هو بعينه ، نحو قولهم : لَئِنْ لقيت فلاناً لَتَلْقَيَنَّ به الأسد ، ولئن سألته لتسألنّ منه الْبَحْر ، وهو عينه الأسد والبحر ، لا أن هناك شيئاً منفصلا عنه أو متميزاً منه

ثم قال : وعلى هذا النمط كون الإنسان يخاطب نفسه حتى كأنه يقاول غيره كما قال الأعشى :

* وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعاً أَيُّهَا الرَّجُلُ[(١)] *

وهو الرجل نفسه لاغيره .

هذا خلاصة ماذكره أبو على رحمه الله .

والذى عندى فيه أنه أصاب فى الثانى ، ولم يصب فى الأول ؛ لأن الثانى هو التجريد ، ألا ترى أن الأعشى جَرد الخطاب عن نفسه وهو يريدها ، وأما الأول ــ وهو قوله : « لئن لقيت فلاناً لتلقين به الأسد ، ولئن سألته لتسألن منه البحر » ــ فإن هذا تشبيه مضمرالأداة ؛ إذ يحسن تقديرأداة التشبيه فيه ؛ و بيان ذلك أنك تقول : لئن لقيت فلاناً لتلقينّ منه كالأسد ، ولئن سألته لتسألن منه كالبحر ، وليس هذا بتجريد ؛ لأن حقيقة التجريد غير موجودة فيه ، و إنما هو

---

(١) هذا عجز بيت هو مطلع قصيدة طويلة للأعشى ميمون يعدها بعض الناس فى المعلقات ، وصدره قوله :

* وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إن الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ *

تشبيه مضمر الأداة ، ألا ترى أن المذكور هو كالأسد ، وهو كالبحر ، وليس ثمّ شيء مجرد عنه ، كما تقدم فى الأبيات الشعرية .

ويبطل على أبى علىّ قوله أيضا من وجه آخر ، وذاك أنه قال «إن العرب تعتقد أن فى الإنسان معنى كامنا فيه كأنه حقيقته ومحصوله ؛ فتخرج ذلك المعنى إلى ألفاظها مجردا من الإنسان كأنه غيره ، وهو هو » كالمثال الذى مثله فى تشبيهه بالأسد وتشبيهه بالبحر ، وهذا ينتقض بقولنا : لئن رأيت الأسد لَـتَرَيَنّ منه هضبة ، ولئن لقيته لتلقينّ منه الموت ؛ فإن الصورة التى أوردها فى الإنسان وزعم أن العرب تعتقد أن ذلك معنى كامن فيه قد أوردنا مثلها فى الأسد ؛ فتخصيصه ذلك بالإنسان باطل ، وكلا الصورتين ليس بتجريد ، وإنما هو تشبيه مضمر الأداة ، وقد سبق القول بأن التجريد هو أن تطلق الخطاب على غيرك ولا يكون هو المراد ، وإنما المراد نفسك ، وهذا لا يوجد فى هذا المثال المضمر الأداة ، بل المخاطب هو هو لا غيره ؛ فلا يطلق عليه إذاً اسم التجريد ؛ لأنه خارج عن حقيقته ، ومُناف لموضوعه ، فإذا قال القائل : لئن لقيته لتلْقَـيَنّ به كالأسد ، ولئن سألته لتسألن منه كالبحر ؛ لم يجرد عن المقول عنه شيئاً ، وإنما شبهه تارة بالأسد فى شجاعته وتارة بالبحر فى سخائه .

وما أعلم كيف ذهب هذا على مثل أبى على رحمه الله حتى خلطه بالتجريد وأجراه مجراه .

وأما قوله « إن العرب تعتقد أن فى الإنسان معنى كامناً فيه كأنه حقيقته ومحصوله » فأقول : وغير العرب أيضاً تعتقد ذلك : فإن عنى بالمعنى الكامن معنى الإنسانية الذى هو الاستعداد للعلوم والصنائع ، فما هذا من الشىء الغريب الخفى الذى علمته العرب خاصة وانفرد باستخراجه أبو على رحمه الله ، وإن عنى بالمعنى الكامن مافيه من الأخلاق كالشجاعة والسخاء فى المثال الذى ذكره

حتى يشبه بالأسد تارة و بالبحر أخرى فليس الإنسان مختصًّا بهذا المعنى الكامن دون غيره من الحيوانات ، بل الأسد فيه من معنى الشجاعة ماليس فى الإنسان ؛ ولهذا إذا بولغ فى وصف الإنسان بالشجاعة شبه بالأسد ، وكذلك فى بعض الحيوانات من السخاء ماليس فى الإنسان ، ومن الأمثال : أكرم من ديك ؛ لأنه إذا ظفر بحبة من الحنطة أخذها فى منقاره وطاف بها على الدجاج حتى يضعها فى منقار واحدة منهن ؛ فالأخلاق إذًا مشتركةٌ بين الإنسان و بين غيره من الحيوانات ، غير أن الإنسان يجتمع فيه ماتفرق فى كثير منها .

وما أعلم ما أراد أبو على رحمه الله بقوله : « إن فى الإنسان معنى كامناً فيه كأنه حقيقته ومحصوله » إلا أن يكون أحد هذين القسمين اللذين أشرت إليهما

على أن القسم الواحد الذى هو خلق الشجاعة والسخاء وغيره من الأخلاق ليس عبارة عن حقيقة الإنسان ؛ إذ لا يقال فى حده : حيوان شجاع ، ولا سخى ، بل يقال : حيوان ناطق ، فالنطق الذى هو الاستعداد للعلوم والصنائع هو حقيقة الإنسان ؛ فبطل إذاً قول أبى على رحمه الله فى تمثيله حقيقة الإنسان بالشجاعة والسخاء .

فالخطأ توجّه فى كلامه من وجهين : أحدهما : أنه جعل حقيقة الإنسان عبارةً عن خلقه ، والآخر : أنه أدخل فى التجريد ماليس منه .

وهذا القدر كاف فى هذا الموضع ؛ فليتأمل .

قد تم ـ بحمد الله تعالى وحسن توفيقه ـ

الجزء الأول من كتاب :

المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر

ويليه ـ إن شاء الله تعالى ـ الجزء الثاني :

مفتتحاً بـ«ـالنوع الرابع في الالتفات»



